

منشورات جامعة تشرين

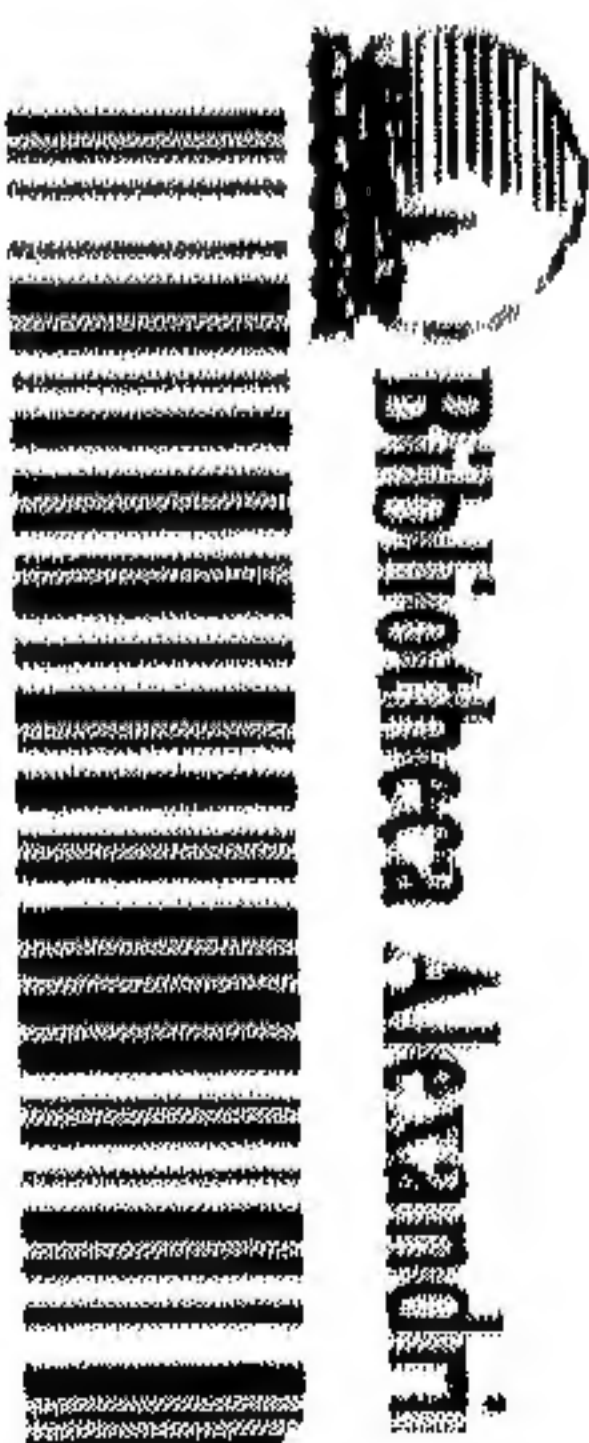
مخوفهم جديد مُنصف للأدب الدول المتابعة وتاريخه

الجزء الأول

نسيم الحمصي

طبع في
لطب والمطبوعات بجامعة حلب
المن خاص من جامعة تشرين

0136979



مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة تشرين باللاذقية

مخوفهم جديد مُصِرف
للأدب بالدول المتتابعه وتاريخه

الجزء الأول

نسيم الحمصي

مديرية الكتب والطبوعات الجامعية

١٩٨١ - ١٩٨٢

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

هذا الكتاب موجز عن آخر أوسع منه جدا ، لم استوفه بعد ، واحاول ان اجعل منه معلمة في ادب العهود المتتابعة منذ بداية الحروب الصليبية حتى نهاية العهد العثماني ، في البلاد العربية ، ما عدا مصر فاني اجعل نهاية كلامي عليها في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حين بدأت نهضتها الحديثة . وارجو ان يكتب الله لي التوفيق .

وموجزي هذا لمحات قصدت بها التعريف بادب هذه العهود معتمدا الامثلة والشواهد ، ولم ارد استيفاء جوانبه المتنوعة في الحياة العامة ، سياسية واجتماعية وعلمية ، وفي الفنون والموضوعات ، واقتصرت في حديثي عن كتبه الجامعة على صبح الاعشى للقلقشندي .

واكتفيت في الفنون الادبية المعروضة ، على قلتها ، بتقديم الملاحظات والشواهد عليها مرتبة تاريخيا ، ما امكنني ذلك ، دون تفصيل الا في موضوع واحد منها هو موضوع النضال في العهود الاربعة الاولى التي تنتهي باستيلاء العثمانيين على الشام ومصر لعظم شأنه عندي ، ففصلت فيه بعض التفصيل . وقد اضطرتني طبيعة البحث والطريقة التي اتبعتها في ربط الاحداث بالشواهد الى ان اورد نصوصه في بادىء الامر شواهد ووثائق على اللوحات المهمة في تاريخ هذه العهود ، ثم تقدمت بكلمة فيه استهللت بها الكلام على موضوعات الشعر التي تناولتها .

ومن الموضوعات المتروكة ، في سبيل الايجاز ، الادب الصوفي والفخر والوصف والهجاء والشعر السياسي وبعض الفنون المستجدة كالقوما والكسان وكان والحجازي . . . ، الا ما آتي به منها لاما .

ولم اتكلم من الشعراء الا على صفي الدين الحلي ومن الكتاب الا على القلقشندي .
وقد جعلت الاول مثالا بارزا على شعراء العهد المملوكي التركي وتحدثت عن الثاني في
حديثي عن معلمته « صبح الاعشى » التي اتخذتها مثالا على المعلمات وقيمتها في حفظ
التراث الثقافي العربي .

واحب ان انوه اخيرا بان بعض الاحكام والملاحظات الادبية في هذا
الوجز لا تزال ظنية تحتاج الى زيادة درس وتثبت وتحقيق ومتابعة ، وقد اشرت الى
هذا الوصف فيها حين اوردتها .

وقد توخيت الصدق ، والتجرد من الهوى ، والتوفيق ، فان فاتني القصد فان
حسن النية شفيعي ، وساكون شاكرا لمن يدلني على خطئي ونقصي . والله من وراء
القصد .

المؤلف

المقدمة

ينصرف الذهن حين يقال أدب الدول المتتابعة الى أدب العهد الذي بدأ بتدمير المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وانتهى باستيلاء السلطان سليم العثماني على الشام ومصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ م ولكننا أردنا به معنى اوسع من ذلك كثيرا : اردنا به الادب الذي أنتجه اصحابه منذ بدء الحروب الصليبية سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م التي حاول فيها الاستعمار الفرنجي ان يسيطر على بلادنا متقنعا باسم الدين كذبا وغرضه تحقيق مطامعه في أرضنا التي كانت أرض السمن والعسل والموقع الجغرافي التجاري الممتاز ، حتى بدء النهضة الحديثة في البلاد العربية التي شاء بعض الباحثين ان يستهلوها باستيلاء نابليون على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، ونرى نحن أن تتجاوز هذا التاريخ في أكثر البلاد العربية الى بداية الحرب العالمية الاولى .

ومعنى ذلك ان هذه الدراسة ستشمل أواخر الحكم الفاطمي في مصر وجزء من سورية ، وأواخر الحكم السلجوقي في العراق والشام ، وحكم الخلفاء الأخيرين المستقلين بحكم بغداد وبعض أرض العراق ، والعهدين الزنكي والايوبي ، ثم العهدين المملوكيين الأول والثاني ، ثم العهد العثماني الطويل الذي يمكن أن ينقسم الى عدة أدوار . ومما يزيد في تقبل الرأي الذي ذهبنا اليه من توسيع فترة الدول المتتابعة بحيث تشمل العهدين الزنكي والايوبي ، أن دراسة هذين العهدين في الأدب العباسي تكون غالبا مهمة أو موجزة ايجازاً مخلا في كتب تاريخ الأدب . وهذه الفترة الطويلة التي تمتد زهاء سبعة قرون لا يمكن ان تعمها خصائص أو أحكام أدبية واحدة ، تبعا لتغير ظروف الحياة العامة فيها من مادية ومعنوية وتطورها بحسب

عوامل الزمن ، ولا بد من تقسيمها الى عهود قصيرة نسبيا لتسهيل دراستها وتكون الأحكام المستنتجة فيها أقرب الى الصواب حتى لا تقع في خطأ تعميم حكم ما على هذه الفترة كلها • على حين أنه لا ينطبق الا على بعضها • ونحن نرى ان تكون هذه العهود سبعة كما يلي :

١ - العهد الفاطمي - العباسي - الزنكي الذي يبدأ مع بدء الحروب الصليبية وينتهي بقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٨ هـ ويمتاز هذا العهد بأنه عهد حكم الوزراء وضعف الخلفاء في الدولة الفاطمية ، واسترجاع آخر الخلفاء العباسيين سلطتهم في حكم بغداد وبعض العراق دون بقية أجزاء العالم الاسلامي ، ويمتاز بقدرة الزنكيين على الصمود أمام الصليبيين واتتصارهم عليهم ثم بسعي الزنكيين الى تحقيق الوحدة بين الشام ومصر وما يليهما من البلاد العربية ^(١) ، وبمثالية نور الدين أحد الحكام الزنكيين ، وبأن أصل الحكام الزنكيين من المماليك ولكنهم لم يطلق عليهم هذا الاسم •

٢ - العهد الأيوبي ، ويبدأ بانتهاء العهد الزنكي وينتهي باستيلاء المماليك على السلطة سنة ٦٥٤ هـ ويمتاز بتحقيق وحدة البلاد المكافحة ضد العدو الفرنجي ، وبجني ثمار هذه الوحدة نصرا وازدهارا ، وبأن هذه الوحدة كانت تتعرض فيه للتصدع أحيانا ثم تعود فتلثم ، وبمثالية صلاح الدين مؤسس هذا العهد مثالية ممزوجة بالواقعية ، وبأن حكامه ليسوا من المماليك ، وبرعاية العلم والأدب والفنون •

٣ - العهد المملوكي الأول ، ويسمى عهد المماليك الأتراك بالنسبة الى

(١) يعتقد الدكتور محمد كامل حسين أن فكرة الوحدة اشرقت في عهد نور الدين زنكي عندما شرع يوحد الجيوش الاسلامية تحت راية عربية واحدة « دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٨٦ - ٨٧ » ، وأرى أن إياه عماد الدين قد سبقه الى الفكرة ووجهه اليها كما سنرى حين الحديث عن أول قصيدة نضال مدح بها •

أصلهم ، أو الممالك البحرية بالنسبة الى انهم كانوا يقيمون في ثكنات على النيل^(١) .
 ويعد هذا العهد استمرارا للعهد الأيوبي من حيث وحدة البلاد فيه ، ومن حيث رعاية
 العلوم والآداب ، ومن حيث الكفاح ، ثم يمتاز بشيء آخر هو وقوع الغزو المغولي
 فيه للعراق وبغداد ثم للشام ، واضطرار الممالك الى مكافحة عدوين كانا يتحالفان
 في حرب واحدة أحيانا فاذا غاب الفرنجة عن الحلف فكثيرا ما كان يحل محلهم ملك
 الروم . وكان حكامه من الممالك كما يفهم من اسمه ، ثم يمتاز بانتهاء الحروب
 الصليبية فيه وخروج آخرهم من عكا ، آخر معقل لهم ، وذلك بفضل الاشراف خليل
 ابن قلاوون أحد سلاطينهم . وينتهي هذا الدور باستيلاء السلطان برقوق الجركسي
 على الحكم سنة ٧٨٣ هـ .

٤ - العهد المملوكي الثاني ، وهو استمرار للعهد المملوكي الأول من حيث
 نظم الحكم والاستبداد لا من حيث القوة العسكرية والسياسية فيه الا في بعض
 لمعات من القوة والفتح . فلو ان حكامه تعرضوا لما تعرض له سابقوهم من غزو
 المغول لسقطوا لأنهم لم يكونوا في مثل كفاءتهم واستعدادهم . وقد غزا تيمور في
 عهدهم ديار الشام فلم يستطيعوا صدّه، ولو لا ان المغول قد اضطروا الى الانسحاب
 لقتن قامت وراءهم لما قامت لهؤلاء الممالك بعد هذا الغزو قائمة . ويسمى ممالك
 هذا الدور بالجراكسة نسبة الى أصل اكثرهم ، وبالبرجيين ، نسبة الى سكنهم في
 أبراج قلعة المقطم . وبديهي أن البلاد لم تكن في هذا الدور معرضة الا لغزو واحد
 هو الغزو المغولي . وينتهي هذا الدور باستيلاء السلطان سليم العثماني على الشام
 ومصر سنة ٩٢٣ هـ .

٥ - الدور العثماني الأول في الشام ومصر ويبدأ باستيلاء السلطان سليم
 عليهما وينتهي في الربع الاخير من القرن السادس عشر الميلادي وهو دور
 القوة والفتح والاصلاح ففيه وضع سليمان القانوني قوانينه الاصلاحية ، ومنها نظام

(١) السلوك للمقري ج ١ : ٣٣٩ .

المدارس الذي كان له شأن كبير في نهضة العلم وتخريج القضاة والمفتين ورجال الإدارة (ويوافق ما بين سنتي ٩٢٣ - ٩٨٩ هـ تقريبا) •

٦ - الدور العثماني الثاني وينتهي في الربع الاول من القرن الثامن عشر وهو دور التوقف والضعف ولم يظهر فيه من السلاطين العظام الا مراد الرابع الذي استطاع أن يقف أمام الأخطار الكبيرة في الجبهة الفارسية • وانتقل مركز القوة حوالي منتصف القرن السابع عشر من هذا الدور الى الصدر الأعظم الذي أطلق عليه أيضا اسم الباب العالي وكان ينافس أحيانا الكزار آغا وهو مدير شؤون القصر السلطاني (ويوافق ما بين سنتي ٩٨٩ - ١١٤٤ هـ تقريبا) •

٧ - الدور العثماني الثالث وهو دور الانحلال وينتهي بانقراض الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى (ويوافق ما بين سنتي ١١٤٤ - ١٣٣٦ هـ تقريبا) وفي هذا الدور غزا نابليون بونابرت مصر وجنوب الشام (حوالي ١٢١٤ هـ) وأوقفه عن التوغل دفاع أحمد باشا الجزار عن عكا ، وعداء الانجليز وتحطيمهم أسطوله في أبي قير ، وقيام أحداث خطيرة في فرنسا • وفي هذه العهود العثمانية الثلاثة انتقل مركز الحكم والحضارة من القاهرة الى القسطنطينية التي سماها الأتراك « اسلامبول » وجرف هذا الاسم الى « استامبول » ، وشاركت فيه اللغتان التركية والفارسية اللغة العربية من حيث أنها لغة أدب وعلم وثقافة وسياسة وحديث ولم تبقى اللغة العربية وحدها لغة الطبقة المثقفة ، بل تجاوز الأمر هذا الحد الى ان تكون اللغة التركية هي لغة القصر واللغة المفضلة في الدواوين • ولا يخفى أن القرنين السادس والسابع كانا أهم أجزاء هذه الفترة في حياة العرب والمسلمين فقد سقطت فيهما بيت المقدس بأيدي الصليبيين ، ودمر المغول بغداد ، وتهددت البلاد العربية كلها بالغزوين الصليبي والمغولي ، فضلا عن الغزو الاسباني الذي طرد العرب من اسبانيا وأزال دولتهم وحاول ازالة حضارتهم وحرق كتبهم ، كما لا يخفى أن الفضل في الوقوف أمام الغزوين الأولين يرجع الى الدول الثلاث الزنكية والأيوية والمملوكية الأولى ، التي سعت الى توحيد البلاد المهددة أو حافظت على وحدتها فاستطاعت انقاذ البلاد من المغيرين وطردتهم ، ولذلك يجب أن نهتم بدراسة هذه

العهود التي كانت مهمة وبدى منذ عهد قريب بمحاولة إعطائها حقها من الدراسة •
ولا شك في أن الغزو وصدده قد تركا أثرهما في الحياة العامة وفي الأدب والعلم
والفن والثقافة • ومن واجبنا أن نتلمس هذا الأثر •

ونلاحظ أن الأدب قد خرج عن تفاهته في هذه العهود الثلاثة ليصور الأحداث
ويتفاعل معها أو يكون فاعلا فيها بالتحريض على الجهاد والحرب وتحرير البلاد
المحتلة ، كما نلاحظ أن التأليف قد ازدهر بدافع الحفاظ على التراث ، وبغريزة حب
البقاء ، وبتشجيع من الملوك والأمراء والسلاطين وتوفير أسباب العيش للعلماء
والادباء أيا كانت البلاد التي ينتمون إليها •

ونحب ان نلاحظ هنا أن العهود الثلاثة الزنكي والأيوبي والملوكي متشابهة
أو متقاربة في كثير من قلمها كنظام الاقطاع ونظام الجيش مثلا • ويعتبر العهد
الأيوبي من هذه الناحية استمرارا للعهد الزنكي كما أن العهد الملوكي الأول يعتبر
استمرارا للأيوبي ، ولكن بين هذه العهود فوارق كثيرة وكبيرة سنشير إليها في
أمكنتها •

ونحب أن نوضح هنا ، فضلا عما قلناه قبل ، أننا أدخلنا العهد العثماني ضمن
عهود الدول المتتابة لأنه استمرار للعهود السابقة قبله من حيث استمرار إبعاد
العرب فيها عن ممارسة شؤون السياسة والحرب واقتصار أعمالهم على الكسب في
الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الانصراف للعلم والأدب ، وأنه لم يكن يسمح لهم
الآ بتولي بعض الوظائف القضائية أو العلمية أو الكتابية ، على أن جعله مستقلا في
ثلاثة أدوار متميزة عن العهود الثلاثة قبله يسهل لنا دراسته دراسة مستقلة واعية
عادلة موضوعية ، وتتجنب بذلك ما جرى عليه بعض المؤلفين من جعله تابعا للعهدين
الملوكيين قبله أو مختلطا بهما تشمله أحكامهما وتعمهما أحكامه •

هذا من حيث الامتداد الزمني أما من حيث العمق الجغرافي المساحي فإن هذا
الأدب يشمل أدب العراق والجزيرة العربية والشام ومصر وسائر بلاد العرب من
الخليج الى المحيط ، غير أننا سنترك الحديث في أدب الاندلس وشمال افريقيا لبحث

مستقل جريا على عادة مؤلفي الأدب في افراد الأندلس وشمال افريقيا وحدهما عن سائر البلاد العربية • ولكننا سنتحدث عن العلماء والأدباء الذين رحلوا الى المشرق العربي أمثال ابن خلدون وابن مالك وابن سعيد وابن عربي وذلك لأن انتقالهم الى المشرق جعلهم من علمائه أو أدبائه الذين تركوا أثرا فيه • ولا ننسى أن العلماء والأدباء في الوطن العربي الكبير لم يكن لهم في أي عهد حضاري عربي سابق صبغة اقليمية ، بل كان كل بلد عربي بلدهم ، ولم تكن هنالك حدود أو موانع سياسية اقليمية تمنع تنقلهم ، ثم لأن أمثال هؤلاء العلماء ليسوا ملكا لبلد عربي دون آخر في ثقافتهم واتجاههم ، بل ان بعضهم كابن خلدون مثلاً قد سما الى أفق الانسانية الواسع الشامل •

وقد يكون للادب في الشام ومصر ثم العراق خلال هذه العهود النصيب الأوفى من دراستنا ، وذلك يرجع الى أن حالة العلم والأدب كانت فيها حينئذ خيرا منها في غيرها ، ثم لأن مصادر البحث قد تتوافر لنا فيها وعنهما أكثر من غيرها •

ونذكر هنا بأن الادب والثقافة العربيين لم يكونا منذ وجودهما اقليميين فقد كانت ولا تزال تشملهما وحدة العناصر المكونة للحياة العقلية والثقافية والروحية والفنية ، وقد كانت ولا تزال تشمل البلاد العربية كلها وحدة اللغة والدين والتاريخ والعلوم المدروسة والكتب المدرسة وطريقة تحصيل العلوم والآداب، مع بعض تنوع بيئي لا بد منه في كل حضارة مهما كانت متجانسة •

ان الطابع الجامع للعلماء والأدباء والمثقفين في العهود التي ندرسها هو الطابع العربي الاسلامي • ولم يكن المؤلفون يميزون رجلا منهم بنسبته الى بلده الا لتسهيل البحث أو التعريف بموطنه الأصلي • وكنا نود أن تتوسع في أدب الأقطار العربية المشرقية الأخرى غير مصر والشام ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا لقلة مصادرها ، كما ذكرنا من قبل ، ثم لسعة مدى البحث بحيث تصعب الاحاطة به • ومع ذلك فسنوليها ما بوسعنا من العناية كلما أمكننا ذلك فالعراق على سبيل المثال سينال نصيبا حسنا من دراستنا في العهود الثلاثة الأولى الزنكي والأيوبي والمملوكي التركي •

والحقيقة هي أن أدب الدول المتتابعة منذ بدء العهد المملوكي الأول كان يسمى أدب عصور الانحطاط ولكن كثيرين من المؤرخين والأدباء لم تعجبهم هذه التسمية ، لأن الفترة الأولى منه التي تشمل دولة المماليك البحرية بدت لهم مزدهرة فمن حيث السياسة والحرب استطاع المماليك البحريون ان يصدوا غزوين رهيبين مدمرين جاء أحدهما من الغرب وهو الغزو الصليبي والآخر من الشرق وهو الغزو المغولي ، وذلك بالتعاون مع الشعب الذي استيقظ بعد نوم على صوت النفير العدواني ، ولأن فترتي المماليك البحرية والبرجية استطاعت الأمة فيهما من حيث الحياة الاجتماعية أن تصمد لأخطار الغزوين وأن تحافظ على خصائصها القومية ، ولأنهما كانا من حيث الحياة العقلية من أكثر عهود التأليف العلمي والأدبي ازدهارا وفيهما وجدت الموسوعات العلمية والأدبية وفيهما وجدت علوم جديدة كان العرب أسبق الأمم الى التأليف فيها كعلم العمران الذي يسمى اليوم بعلم الاجتماع ، وفلسفة التاريخ، فقد سبق اليهما ابن خلدون في مقدمته المشهورة ، ولانه وجد في هذه الفترة من حيث الحياة الأدبية شعراء وكتاب ومؤلفون مجيدون سنتحدث عنهم حديثا كافيا حين كلامنا على فنون الأدب الشعرية والنثرية .

هؤلاء العلماء والأدباء الذين لم يستحسنوا تسمية هذا العصر بعصر الانحطاط وعدوا هذه التسمية ظالمة ، أحبوا أن يطلقوا عليه اسما آخر فكان « عصر الدول المتتابعة » فما كان يشمل عصر الانحطاط من عهود وفيها العهد العثماني لا بد ان يشتمل عليه عصر الدول المتتابعة . ونعود فننبه الى أن العهدين الزنكي والأيوبي لا تشملهما صفة الانحطاط لأنهما في عرف المؤلفين حتى الستينات من هذا القرن يكونان ، كما قلنا ، جزءا من الدور الرابع العباسي ولم تشملهما هذه الصفة الا في كتابات بعض المتأخرين لأنهم تحدثوا في كتبهم حديثا اجماليا ليس فيه دقة عن هذه العهود وشملوها بأحكام واحدة مدافعين عنها، أو مهاجمين تأخرها وانحطاطها في رأيهم .

ونحب أن ندون هنا رأيا لأستاذنا العلامة المرحوم أحمد أمين في هذا العصر سمعناه منه خلال محاضراته في جامعة القاهرة سنة ١٩٤٤ م فهو يقول ان من يعد هذا

العصر عصر سقوط وانحطاط في الأدب لا يراعي أن العرب في عهودهم الأولى كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فيختارون للحفظ أحسن ما يسمعون ثم يحدثون بأحسن ما يحفظون ، وانهم حين بلدوا بتدوين أدبهم دونوا أحسن ما يحدثون به فكان مادون خيارا من خيار من خيار . أما في هذا العصر فقد كثر الشعراء جدا ودون تقريبا كل ما ظموه ، على ضعف الشاعر أو قوته ، وعلى تفاوت شعره بين مرحلة التقليد ومرحلة النضج والاستقلال بنفسه ، فكان أن ضمت كتب الادب ودواوين الشعر الفث والسمن والحسن والقبيح ولو أننا عكفنا على هذه الكتب والدواوين من جديد وأحسننا الاختيار لاستطعنا ان نخرج منها بشعر كثير يضاهي شعر الفحول في العصر العباسي أو يقاربه .

ونحن نؤثر ان تقدم رأينا في هذه العهود بعد ان نستنتج من نماذج أدبية شعرية وثرية ، ومن حركة التأليف فيها ، ولكننا نذكر بمناسبة ايرادنا رأي أحمد أمين أن هذه العصور قد أهملت دراستها في عصرنا اهمالا كبيرا ولم تحظ بالعناية الكافية الا حين الحديث عن بعض الكتب المؤلفة ، وربما تتكشف عن كنوز كثيرة ، لو أنها نالت حقها من الدرس والعناية . هذا مع ايماننا بأن كثيرا من آثار هذه العهود قد ضاعت أيضا ولكن ما ضاع من آثار العهود قبلها كان اكثر .

ونضيف كذلك أننا لا نزال عيالا على دراسات المستشرقين وآرائهم في أكثر ما نسطره في كتبنا من آراء ونظريات . وبعض هؤلاء المستشرقين مخلصون للعلم يقولون ما يعتقدونه بصدق وأمانة ، والآخرون ، وهم كثر ، ينظرون الى تاريخنا ومخلفاتنا العلمية والأدبية من زاوية خاصة متعصبة حائقة مغرضة هادفة الى خدمة أغراض الاستعمار الذي يريد أن يمزقنا ويشككنا في أنفسنا وامكانياتنا ، فلا يمكن ان نأخذ أقوالهم على أنها صحيحة مسلمة ما لم نعمل فيها معاول الفكر والنقد ولكن هذا الاعمال يتطلب منا العمل الدائب والحركة النشيطة ، لا أن نعشق النوم ونؤثر الراحة والتقليد .

فاذا أضفنا الى هذه النظرة العامة نظرة خاصة تتعلق بموقف بعض المستشرقين

من هذه العهود ذاتها التي أسسوها عصور الانحطاط ، وهي أن هذه العصور كانت بالنسبة اليهم جزءا من العصور التي صمدت أمام غزوات أجدادهم واستطاعت أن تطردهم وأن تحافظ على خصائصها الروحية والقومية والاجتماعية ، فان من حقنا أن نتوقع أن يفهموها فهما خاصا لا يتلاءم في كثير من الأحيان مع حقيقتها ، ثم أن يشوهوا ما استطاعوا حسناتها • ونضيف الى ذلك ان بعض المستشرقين حسنوا النية ولكنهم يقيسون الأمور حين دراستهم تاريخنا وأدبنا بمقاييسهم ومفاهيمهم الخاصة التي ألفوها في بيئاتهم ، لا وفق مقاييسنا ومفاهيمنا المستمدة من بيئتنا المادية والمعنوية • وهذه المقاييس والمفاهيم تختلف من أمة الى أخرى ، وقل من المستشرقين من استطاع ان يفهم مقاييسنا الروحية والذوقية وأن يحس بها كما تفهمها نحن ونحس بها •

ان خطتنا في دراسة أغراض الشعر التقليدية وفنونه المستحدثة وأساليبه هي أن ندرسها من خلال نصوص لعدة شعراء ، ندرسها أو نستشهد بها •

وما قلناه في الشعر ينطبق على النثر فنحن سندرس فنونه وأساليبه ومذاهبه من خلال نصوص لعدة كتاب ومؤلفين •

١ - باي شيء نهتم من مفهوم كلمة « الأدب » :

ويتحتم علينا قبل البدء بدراسة النصوص أن نبين ما الذي نهتم به من مفهوم كلمة الأدب في بحثنا ؟ ثم ان نبين أسباب اهتمامنا بدراسة الحياة العامة في هذه العهود •

لقد كان الادب في مفهوم الجاهليين يعني الأخلاق والمكارم ولم يلبث ان ظهر له مفهوم آخر على لسان النبي عليه السلام حين قال جوابا لعلي كرم الله وجهه : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وذلك حين رآه عليّ يكلم بني نهد بما لا يفهم القرشيون أكثره فسأله عن سر ذلك ، وكذلك حين سئل : فيم الجمال ؟ قال « في

اللسان » يريد « البيان » وذلك ، كما يتضح جليا ، هو ما عناه في جوابه لعللي .
(ابن رشيق العمدة ، ج ١ ص ٥٤١) .

وفي أول العصر العباسي سمي العالم بالشعر وعلوم العربية أدبيا وسمي علمه
أدبا (الخفاجي ، شفاء الغليل ص ٢٧) .

ثم اتسعت التسمية فشملت هذه العلوم وغيرها (الكامل للمبرد ص ٢) . ثم
جمع النقاد في القرنين السادس والسابع بين المفهومين الخلقي بمعنى أدب النفس
والفني بمعنى أدب الدرس بما يحوي من خلق وإبداع في الشعر والنثر . ويقول ابن
الاثير في هذا المعنى : شيئان لا نهاية لهما ، البيان والجمال ، (المثل السائر ج ١ ص
٢٣٠ ، ٢٣١) .

ونحن سنكتفي من الأدب في مفهومه الواسع بالكلام مجملا على الحياة العامة
في هذه العهود وهي تشمل لمحات من تاريخها ، والحياة الفكرية ومنها حركة التأليف ،
ووصف الحالة الاجتماعية فيها . أما الأدب بمفهومه الفني الشامل للشعر والنثر
فسنسعى الى دراسة ما قررنا دراسته منه دراسة كافية . وهو الغاية الأساسية من
هذا الكتاب .

٢ - لماذا ندرس الحياة العامة في هذه العهود :

لا بد لنا من دراسة الحياة العامة في هذه العهود ، لأن حياة الأمة وحدة مترابطة
متكاملة لا يمكن فصل عنصر من عناصرها عن بقية العناصر فكلها تتفاعل فيما بينها
ويرقى بعضها برقي الآخر ، ولأن دراسة ألوان الحياة العامة الأخرى ضرورية لفهم
نصوص الادب على وجهها وللقدرة على تحليل بعض الحركات الأدبية وظهور بعض
الموضوعات الجديدة وانقراض بعضها الآخر أو استمراره كما هو أو تطوره ، وتحليل
تطور حياة الالفاظ والتعابير وظهور بعضها وانقراض بعضها ، وظهور بعض الاساليب
وانقراض الاخرى او تعديلها ، ونذكر على سبيل المثال أنه لا شك في وجود رابطة
نفسية اجتماعية بين التألق في الحياة والزخرف في الأسلوب ، فان الأدب بمجموعه
صورة للعصر والبيئة بمجموعهما فحيث يكون الجهاد والاستعداد لقتال الأعداء

يظهر أدب الجهاد والمعارك وحيث يكون الضعف واللهم المفرط والانحلال يكون الغزل الماجن ويكون الاهتمام بالموضوعات المسلية أو غير الجدية •

وفضلا عن ذلك فإن دراسة تاريخ هذا العصر الاجتماعي والسياسي هي أمر ضروري لنا في حد ذاته لتمثل الجو الذي كان يعيش فيه الشباعر أو الكاتب ، ولنعرف دوافعه الى القول ، وتنفس الهواء الذي كان يتنفسه فيخفق قلبنا مع قلبه ، ثم لأن دراسة التاريخ مفيدة لنا في ذاتها فإنا نستطيع بها أن نوازن بين الحاضر والماضي ونقيسه عليه لنستفيد من تجاربه وعبره • فصحيح أن الحاضر لا يطابق الماضي لأن المرء كما يقول أحد الفلاسفة « لا يستحم في النهر الواحد مرتين » ، ولكن الماضي والحاضر قد يتشابهان أو يتقاربان الى حد كبير بحيث يكون من الحق ألا نستفيد من حسنات الماضي ، وألا نعتبر بسيئاته ونطلع على الصورة التي عالجها بها الأقدمون حين تخلصوا منها •

ونظرة واحدة نلقيها على عالمنا العربي في الماضي والحاضر تجعلنا ندرك أن وضعنا السياسي الآن يتشابه مع وضعنا السياسي قبيل ظهور الاسلام ولكنه أكثر شبها مع وضعنا السياسي قبيل الحروب الصليبية والتتارية وفي بدئها بخاصة •

فقد كان الصليبيون والتتار يطمعون في خيراتنا وموقعنا الجغرافي ويستغلون ضعفنا وتفرقنا ، وضعف النفوس لدى بعض حكامنا ، كما هو حالنا اليوم تماما • ولم يكن من دواء لدى أسلافنا يتغلبون به على أعدائهم الا الوحدة بين البلاد العربية المجاورة لفلسطين وسائر الاراضي المحتلة ولا سيما بين مصر وسورية وكانت النقطة التي اختارها الاستعمار لهجومه وركز عليها هي فلسطين ، واليوم نرى الامر ذاته ، ونلاحظ ان عماد الدين ونور الدين الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي قد سعوا الى تحقيق الوحدة على أنها خطوة أولى للمعركة الحاسمة مع الأعداء كما أن كل رجالنا المخلصين اليوم لا يرون خلاصا لنا مما نحن فيه الا بالوحدة •

ولقد كان تحقيق الوحدة والاعداد لقتال العدو يتطلبان سموا خلقيا وترفعاً عن الأنانيات ونسيانا للخلافات السياسية والمذهبية السابقة حتى تجابه الأمة عدوها

قلبا واحدا ويذا واحدة ، وقد تحقق ذلك في أبطال المارك الذين ذكرناهم كما تحقق في الخليفة الفاطمي العاضد الذي غضب على وزيره شاور لخياته وتأثره مع الفرنجة ولأمر أخرى . وكما وجد خونة وضعاف قهوس في الماضي مثل شاور في مصر ومعين الدين أنر في بعض مراحل حكمه بدمشق ، كذلك نجد في الحاضر خونة وضعاف قهوس لا بد من التغلب عليهم لتحقيق لنا الوحدة ويتم النصر . وكما كانت معنويات الشعب ضعيفة منحلة قبل الحروب الصليبية وفي بدئها فسمى أبطال المارك الصليبية الى رفعها باصلاح الفساد كذلك تقوم اليوم أجهزة الدعاوة المدنية وإدارات التوجيه المعنوي في الجيوش العربية التي توالي استعداداتها للمعركة الحاسمة بمساعيها لرفع معنويات المحاربين ومعنويات الشعب بعامه . وكانت هنالك عزلة بين الحاكم والشعب قبل الحروب الصليبية وفي بدئها ولولا هذه العزلة ، بالإضافة الى فقدان الوحدة ، لما استطاع الصليبيون ان يستولوا في حملتهم الأولى بسهولة على جميع الساحل الشامى وعلى جزء من الداخل ، ولكن الملوك والصلالين المخلصين ، من آل زنكي وأيوب ومن الماليك ، سعوا الى إزالة هذه العزلة بالتقرب الى الشعب وكسب ثقته بجميع الوسائل حتى اصلاح النفس والسلوك . فقد كان من عادة صلاح الدين أن يشرب الخمر قبل أن يتولى السلطنة فترك ما كان فيه ، وشعر بيبرس بأن الشعب حاقد عليه لاغتياله سيف الدين قطز فتقرب الى الشعب بإقامة الخلافة العباسية في بغداد ، وقاموا كلهم بإصلاحات إدارية وعلمية واجتماعية وسياسية وامتزجوا بالشعب وامتزج بهم وأقاموا الهدل . واليوم نلاحظ ان السعي لإزالة العزلة بين الحكم والشعب أمر ضروري لا بد منه للنصر .

لقد كانت عزلة الشعب عن الحكم في الماضي ناشئة عن سوء سياسة الحكم التي تتوخى منافع شخصية او عصبية او قبلية أو فتوية منحرفة وقد بدأت هذه السياسة في مطلع العصر العباسي بمساعي الشعوية ، ثم أخذ خطر العزلة يستفحل مع الزمن حتى كادت هذه العزلة تكون كاملة في مطلع الحروب الصليبية فكان الضعف وكانت الهزيمة .

وقد كان من أسباب الهزيمة أن العرب لم يكونوا يعيشون حياة استعداد

وجهاد ، حياة معسكرات دائمة تغذي فيهم الرجولة وتنميها وتجعلهم يتنفسون الحرب كما يتنفسون الهواء ، على حين كان أعداؤهم الصليبيون يعيشون حياة معسكرات منظمة كاملة .

وما أشبه الليلة بالبارحة فنحن لا نستطيع ان نقهر « الاسرائيليين » ، ومن وراءهم ، إلا إذا عشنا جميعا حياة معسكرات دائمة رجالا ونساء كبارا وصغارا كما يعيش اليوم الإسرائيليون في فلسطين المغتصبة .

إن فكّ العزلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالامتزاج بالشعب في حياة ديموقراطية تسودها الحرية التي عشقها العربي منذ الجاهلية حتى اليوم وقد قامت حضارتنا على أساس من كلمة عمر المشهورة : « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، لأن فكّ العزلة معناه ان يكون للفرد العربي شخصيته الحرة التي يشارك فيها طوعية بجهاد الأعداء والتي يستطيع معها على أساس من الشورى أن يقول ما يعتقد في أموره وأمور أمته وأن يصوّب ما يراه صوابا ويخطئ ما يراه خطأ ، وبذلك تفتح شخصيته وتكون قادرة على العطاء .

وفرق ما بين العصرين أن الطابع الإسلامي كان الغالب على عصر الحروب الصليبية على حين أن الطابع القومي (العربي الوحدوي) هو الغالب على عصرنا اليوم ولكن المتأمل يرى أن جوهر الأمور واحد من حيث أن المبادئ التي يجب أن تسير الأمة عليها لتكسب معركتها هي المبادئ المستمدة من أصالتها وقواها المعنوية وهي المبادئ التي تحارب الميوعة والضعف والخيانة والاستسلام وعدم المبالاة بمستقبل هذه الأمة .

أظن بأنني أوضحت بما فيه الكفاية ضرورة استفادتنا من حقائق التاريخ في دراستنا لأدب الدول المتتابعة من جهة ، وفي سعيها لتحقيق ذاتنا فكريا ولتحقيق اهدافنا القومية ، غير أنني أرى من الضروري أن نوضح مدى التشابه بين الغزوين الصليبي والصهيوني : إن كلا من الغزوين ذو طابع استيطاني وقد وفد من الغرب واستمد قوته ومقومات بقائه منه فضلا عن تشابه عجيب بينهما في كثير من الوقائع والملابسات .

وقد ظهر أدب المقاومة حين الغزو الصليبي كما ظهر اليوم في ميداني الشعر والنثر على السواء • ومن الغريب عدم شيوع شعر المقاومة ضد الصليبيين والتتار على ألسنة الناس في عصرنا لعدم الاطلاع عليه وعدم حفظه عن ظهر قلب بالرغم من الحوادث الكبار المتصلة به ، وتتساءل عن السبب : أهو التقسيم المدرسي للعصور الادبية الذي تجاهل هذه الفترة لأنتها في قعر واضعيه تمثل الجمود والانحطاط مع أن حالة الدفاع المتحمس التي كانت عليها الأمة حينئذ تنفي عنها فكرة الجمود ، أو أن هناك أسبابا أخر مقصودة لهذا الإهمال خططها لنا غيرنا ولم نخلص أنفسنا منها حتى اليوم •

إن من المهم دراسة مدى تأثير الغزو الصليبي في الأدب العربي ولا سيما أنه يمثل أول لقاء لنا على نطاق واسع شامل مع المستعمرين الأوروبيين •

ولما كانت العهود التي ندرسها هي في قسم كبير منها عهود الحروب الصليبية والتتارية فإن الآثار التي تركتها هذه الحروب الطويلة المستمرة المبيدة ستكون عميقة فلا بد من أن تلهب هذه الحروب المشاعر وتحرك الضمائر وتثير الفكر وتحدث تبعاً لذلك نهضة أدبية في الشعر والنثر ونهضة علمية • وهذا ما حدث في مصر وفي الشام فعلا فقد قامت في مصر نهضة أدبية مستجدة كما سنرى ، أما في الشام فقد حدثت يقظة أدبية جديدة بعد خمود نسبي سابق ولا بد من أن يتخذ الأدب وسيلة للدعوة الى الجهاد والكفاح والتحريض على الاستعداد والقتال وذلك في شعر الحماسة والكفاح ، على الأقل ، ولا بد من أن يترجم عن بلاء الناس وكروبهم وأحزانهم وأفراحهم وأن ينشر ما تنطوي عليه نفوسهم من أمل ويأس •

وقد ظهر في الحروب الصليبية أبطال كثيرون تغنى الشعراء والكتاب ، بمدحهم وأشادوا بمعاركهم وأسفوا لفقدتهم بالموت أو الاستشهاد فرثوهم ودعوا الى احتذاء مثالهم •

وظهرت كذلك العاطفة الدينية متقدة في كلا الجانبين المتحاربين فاستطاع الشعراء والكتاب أن يعبروا عنها أحسن تعبير وان يوجهوها للحث على الجهاد ،

وتركت هذه الحروب آثارا في الحياة الاجتماعية لاتمحي ، فينتظر ان يكون الشعر والنثر خير معبر عنها ، ومحبذ لما استحسن منها ، ومستنكر لما استقبح ، او مسترسل فيه •

ولقد تنج عن هذه الآثار ظهور أغراض وألوان جديدة في الشعر والنثر ، وكثرة بالغة من الشعراء والكتاب •

فاذا أضفنا الى ذلك أثر التطور الطبيعي بما فيه من استمرار تفاعل الحياة مع ما يحيط بها من عوامل متغيرة في جميع نواحي الحياة العامة للأمة : سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية وفنية ، في أوقات الحرب وفي أوقات السلم معا ، تبين لنا أنه لا بد من ظهور خصائص في الأدب شعره ونثره تمتاز بها هذه العهود • وهذا مما سنسعى الى تبيانه خلال بحثنا •

الحياة السياسية :

١ - اجمال لحالة البلاد الاسلامية في بدء الحروب الصليبية قبل مطلع القرن السادس الهجري :

كان القرن السادس قرن الحوادث العظام ، قرن الحروب الصليبية وزوال الدولة الفاطمية واضمحلال دولة المسلمين بالاندلس وقيام دولة الزنكيين ثم الأيوبيين في مصر والشام • وهو عصر الجزر الاسلامي العربي والمد الصليبي في هذه المنطقة في أوله وعصر انقلاب هذه الحال في النصف الاخير منه • كانت الدولة العباسية في الشيخوخة وكان خلاف السلاجقة يمزق قوتهم ، وكانت تقوم في الشرق الاسلامي الدولة الخوارزمية والدولة الغورية ودولة الخطا المناوئة لهما وكانت القبائل التركية الأخرى تغير على العالم الاسلامي وتقتطع أجزاء من مشرقه وشماله الشرقي • وكانت تقوم في الغرب دولة الموحدين من بني عبد المؤمن وفي مصر والشام الدولة الفاطمية •

كان السلطان الفعلي في بغداد والبلاد القريبة من الشام للسلاجقة لا لخليفة

بغداد وقد حاول المكتفي بالله (٥٢٠ هـ - ٥٥٥ هـ) ان يستعيد سلطان الخلافة والتغلب على السلطان محمد السلجوقي عند حصار هذا بغداد ، بمساعدة البغداديين ووزيره عون الدين بن هبيرة ، ولكنه لم ينجح في محاولته .

وكان السلاجقة يحاولون اضعاف الخلفاء ، ليستبدوا دونهم بالأمر وليجعلوهم أتباعا لهم بالقوة المسلحة والمؤامرات ، وقد ساعدت الاسماعيلية على اضعاف موقف الخلفاء العباسيين فهي التي اغتالت الراشد العباسي سنة ٥٣٢ هـ (أخبار الدولة السلجوقية ص ١٠٩) . ومع ذلك فقد كان الخلفاء يتمتعون بالاحترام الديني . وكانت دولة السلاجقة ثلاثة اقسام لكل منها سلطان : سلاجقة خراسان والمشرق ، وسلاجقة العراق والجزيرة الفراتية وجزء من الشام اقتطعوه من الفاطميين ، وسلاجقة الروم في غرب الجزيرة الفراتية وشمال الشام وشبه جزيرة الاناضول .

كان سلاجقة المشرق في نزاع مع الدولة الخوارزمية التي انتهزت فرصة استنجد الخليفة العباسي سنة ٥٢٠ هـ وحاولت القضاء على السلاجقة في بغداد والحلول محلهم في الدولة العباسية واستطاعت أن تهزم طغرل بك السلجوقي سنة ٥٩٠ هـ ولكنها عجزت عن الوصول الى العراق .

وقد بدأ ملك السلاجقة ينفار في بغداد بعد موت ملكشاه وقتل وزيره نظام الملك الذي اغتاله الحشاشون . وقد ضعفتهم المنازعات والحروب بينهم كما ضعفتهم حروبهم مع الخوارزميين شرقا والروم والصليبيين والفاطميين غربا ، وحين بدأت الحروب الصليبية لم يبق لهم الا دمشق وحلب وبعض المدن الاخرى واصبح الساحل بيد الصليبيين ما عدا عسقلان وغزة اللتين بقيتا بيد الفاطميين مع جنوب الشام .

وكانت الدولة الفاطمية متضعضة على وشك الانقراض ينصب عليها خلفاء صغار السن يتلاعب بهم وبدولتهم الوزراء والقواد والخدم وسيدات القصر وكانت الاحوال الاقتصادية مضطربة فيها لبذخ الحكام واسرافهم واعتيادهم الترف ولم يستطع جيشها الصمود أمام الصليبيين ، على أنه كان لبعض رجالاتها دور ايجابي

في رد الغزاة وصدهم عن حدود مصر مثل الوزير اليازوري وابن رزيك الوزير الشاعر •

وحمل الأسطول المصري سواحل الشام ومصر وخاض معارك مريرة مع الفرنجة ولكن خيانة بعض ضعاف النفوس ونزاعهم فيما بينهم وتآمرهم ، ومنهم عباس وشاور وضرغام ، وضغط الصليبيين المتواصل مكن هؤلاء من الاستيلاء على بيت المقدس •

وكان الاسبان ومن والاهم من الفرنجة يقتحمون شبه الجزيرة الأندلسية ويقطعون أوصالها وظهرت جينث في المغرب دولة الموحدين من بني عبد المؤمن فأحيت أمل المسلمين هناك بإمكان وقف تقدم أعدائهم كما أحيت الدولتان الزنكية والأيوبية أمل المشرقيين بإمكان صد الصليبيين وطردهم •

وكان المسلمون مذهبين عظيمين يتناحran بينهما دائما • وكان المسيحيون كنيستين عظيمتين الشرقية البيزنطية والرومانية الغربية ، والعداء بينهما على أشده ، ولكن العاطفة الدينية العليا وهي عاطفة المسيحيين جملة ضد المسلمين جملة أو العكس هي التي قامت من أجلها هذه الحروب في رأي بعض المؤرخين ولكننا سنبين خطأ هذا الرأي •

وكان امبراطور القسطنطينية يحاول أن يأخذ العهد والمواثيق على قواد الصليبيين الغربيين ليردوا له ما كان ملكه سابقا وكان بعضهم يرفض القسم له • وممن اقسام له جودفري وبوهمند ، ولكن المقسمين لم يردوا له شيئا مما استولوا عليه برغم أيمانهم لأنه لم يشاركهم في المعارك •

وكان مسلمو المغرب في حالة تدهور : سقطت طليطلة بيد ألفونسو السادس أمير قشتالة ، وجنوب ايطاليا في أيدي النورماندين ، وكذلك صقلية ، ولم يبق في أيدي العرب في آخر القرن الحادي عشر الميلادي الا جنوب اسبانيا وشمال افريقية •

وكان المسلمون في الشرق موزعين خلافتين خلافة فتيه جاءت من المغرب

وخلافة هرمة تخلصت من آل بويه الشيعيين وسيطر عليها آل سلجوق السنيون الذين استولوا على أرمينيا وآسيا الصغرى والشام (وفيه بيت المقدس) فألقوا الرعب في قلب الخلافة الفاطمية وفي قلب الامبراطورية البيزنطية التي هزموا عاقلها الأكبر في موقعة « منازجرد » فرجحت كفة السلاجقة على الفاطميين واقترن بذلك قيام الحروب الصليبية •

حال الصليبيين في الحرب ورد الفعل العربي :

كان الصليبيون يرددون في هذه الحرب شعارهم « هكذا أراد الله » الذي صاحوا به يوم سمعوا خطاب البابا • وكان المسلمون يرددون نداءهم « الله أكبر » • وأشهر من لمع عند الصليبيين واستطاع أن يحرك مشاعر الجماهير « بطرس الناسك » • وقد تأخر الأفضل بن بدر الجمالي في نصرته افتخار الدولة والي القدس من قبل المستعلي بالله الفاطمي ، ووصل الى القدس بعد أن كان الفرنجة قد دخلوها فعاد الى مصر • وتلك الأفضل مرة أخرى حين استنجد به سيف الدولة أميرها فأحال أمرها الى الأتابك ظهير الدين طغتكين •

وانما تخلف الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في مصر عن نصرته الشام لأنه رأى أن من واجب السلاجقة الدفاع عنه ولم يعد العدة للدفاع عن ممتلكاته فيه ، ومنها القدس ، فسقطت لقمة سائغة بيد الصليبيين الذين أصبح بمقدورهم بعد استيلائهم على الساحل الشامي والقدس والكرك أن يهددوا بغداد والقاهرة • وقد قطع الصليبيون كل الطرق الموصلة إلى دمشق إلا طريق الصحراء وضربوا الجزية على مدن لاعد لها ووجدوا في ثراء هذه البلاد سدا لحاجتهم ، فقد كانت جموع صليبية كثيرة قد خرجت قاصدة الى الشرق لاجئة اليه مما أصاب أوروبا من قحط مخيف صارت معه البلاد خرابا وانتشرت الجرائم وكثر قطع الطرق وشح الغذاء وفقدت الراحة والامن •

وكانت أوروبا تعج بالفوضى والحكم فيها للسيف الذي يغسل الاهانات ، وكانت سياسة الملوك والحكام مبنية على الحروب • وقد لمس البابا أن النفوس مهياة للحروب فحول نشاطها الى الحروب الصليبية • (تاريخ الحروب الصليبية ص ٤١) •

سمع الشرق المهاجم بهذا الزحف عليه ولكنه لم يتحد برئاسة حاكم واحد قوي ينظم جموعه ، وبقي الحكام في مصر وسورية والعراق متفرقين متعادين لا تتور بهم رغبة التعاون والتعاقد لاعداد العدة لدفع الخطر المهدد .

وقد هدم النظام الاقطاعي أسس امبراطورية السلاجقة القوية فلم يعد لسلطينهم سلطان فعلي على أمراء المدن الذين استقل كل منهم بنفسه وهمه ان يقتل جيرانه فليس من الممكن ان تثبت هذه القوى المجزأة أمام القوى الزاحفة المتكاثفة .

واتبع الصليبيون طريقة الارهاب : فقد رعد من قتل في أنطاكية بعشرة آلاف وفي معرة النعمان بمئة ألف ، وأعاد بوهمند النظر في أسراه فمن كان قويا جميلا احتفظ به رقيقا يباع في اسواق انطاكية ومن كان معمرًا أو مريضًا قتله دون رحمة « الحياة الادبية ، د . بدوي ص ١١ » عن (History of the Sarasens. P. 329)

واتفق المؤرخون الشرقيون واللاتين على ان عدد القتلى كان كبيرا . ولم يحترم الصليبيون عهدا قطعوه كما حدث في قيسارية (المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها) ولم يثمنهم عن القسوة والتدمير والتخريب أن المدن التي هاجموها كانت في أوج مجدها وقد وصف ناصر خسرو (في سفر نامه ص ١٣) مدينة طرابلس وصفا مشوقا يصور ما بلغه أهلها من حضارة ، في نواحي الزراعة والعمارة والتخطيط والنظافة وجر المياه وضنح الورق والعلم . وقد نهب الصليبيون هذه المدينة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها (١) . وقتك الفرنج بـ ٧٠ ألفا من المسلمين في المسجد الأقصى (ابن الوردي ، تمنة المختصر ٢ : ١١) .

وقد رأينا الخليفة العباسي الذي لم يكن له من الأمر شيء يرسل حين استنجد

.....
(١) الحياة الادبية . بدوي ص ١٣ عن « The Crusades F. 28 »

به أهل الشام إلى السلطان باركياروق السلجوقي وأخيه محمد يطلب منهما أن يتصالحا ليردا الخطر الصليبي فلم يصغيا إليه واستمرا في قتالهما •

وقد كلفت هذه الحروب مصر والشام أموالا كثيرة لتكوين جيش ضخم • وقد جبي السلاطين من أجلها الزكاة وأتفقوا منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وردوا إلى بيت المال سهام العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله وفي الرقاب •

وكان الفريقان يفتنان في اختراع آلات الحرب : صنع الفرنجة في حصارهم عكا ثلاثة أبراج من الخشب والحديد ألبسوها الجلود المسقية بالخل حتى لا تؤثر فيها النيران وجعلوها عالية بارتفاع السور وأجرونها على عجل وجعلوها تتسع لخمسمائة مقاتل وجعلوا سطحها متسعا لنصب منجنيق عليه وقد امتلأ المسلمون رعبا منها • وأعمل صلاح الدين فكره لمقاومتها وحث الصانع على إيجاد وسيلة لإحراقها ورغبهم بالمال الكثير ، فطلب نحاس دمشقى شاب أن يهيأ له سبيل الدخول إلى المدينة المحاصرة وأن يهيأ له ما يحتاج إليه من الأدوية ثم طبخها في قدور من النحاس ثم قذف بها الأبراج الصليبية واحدا بعد الآخر حتى صار كل منها كالجبل من النار وضج الناس فرحا لذلك • « شفاء القلوب ص ٤١ » •

وكان القادة المسلمون يجدون في إعداد الجيوش وبث الحماسة في النفوس ، ففرى بيبس مثلا يشيع روح الجندية ، وكثيرا ما اشترك هو وابنه في مناورات الجيش وكان عدد الجند ضخما فكانوا إذا ركبوا في ظاهر القاهرة يزيدون على مئتي ألف (خطط المقرئ ج ١ ص ١٥٢) • وفي المعارك الكبرى كان المتطوعون يقدمون من كل فج حتى ليزيد عددهم على الجند المسجلين في ديوان الجند •

قال صاحب النجوم الزاهرة (ج ٨ ص ٥) « اجتمع مع الاشرف خليل على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة » •

وعني بالاسطول عناية بالغة في عهد الصالح بن رزيق وزير الفاطميين وزمن

صلاح الدين وبيبرس والأشرف خليل : وأفرد له صلاح الدين ديوانا خاصا سلمه إلى أخيه الملك العادل وأعطى صاحب الأسطول سلطة كبرى في تخيّر رجاله وإعداد سلاحه .

وكان بيبرس يشرف على صنع سفنه بنفسه ويجلس بين الأخشاب والعمال واقتدى به الأمراء فكانوا يحملون بأنفسهم آلات السفن ويساعدون في صنعها .

وفي عهد خليل بن قلاوون زادت العناية بأمر الأسطول ، وملاه بالعدد وآلات الحرب وعزم السلطان على الخروج لمشاهدته فاحتشد لذلك الناس وقد عمل في كل سفينة برج وقلعة تحاصر ويلح القتال عليها ويرمي عليها النفط وعدد من النقاين يعملون الحيلة في النقب ، وتباروا في القيام بالأعمال المثيرة للعجب . ولما بلغ خبر ذلك بلاد الفرنجة بعثوا رسلا بالهدايا يطلبون الصلح . « الحياة الأذية ، بدوي ١٨ - ١٩ » .

ولم يقتصر دور الأسطول على البحر الأبيض بل تعدى ذلك إلى البحر الأحمر فكان يقوم بحماية السواحل هناك فقد باغت صاحب الكرك المسلمين في البحر الأحمر بأسطول أعده بأخشاب مهياة حملت على الإبل عن طريق الصحراء إلى الساحل وركبت هناك وقسم الأسطول قسمين قسما حاصر أيلة وقسما اتجه إلى عيذاب ليهاجم المدينة وينبش جنوده قبر النبي ، واستطاع أسطول المسلمين أن ينقض على محاصري أيلة وأن يتتبع المتجهين إلى المدينة المنورة ويحصرهم في شعب لا ماء فيه فقتل المسلمون من قتلوا واستسلم لهم الباقون .

وكان رجال الأسطول يتزيون أحيانا بزي رجال الأسطول الصليبي ليصلوا إلى أهدافهم سالمين ، وربما يفرقون سفنهم وهم فيها حتى لا يستسلموا ولا يسلموها إلى الأعداء .

وتفوق المسلمون على الصليبيين في استعمال النار اليونانية التي عرفوا سرها وكانوا يقذفون بها معسكر أعدائهم فيحرقونه كما فعلوا في معركة المنصورة .

« المرجع السابق ص ١٩ عن مراجع كثيرة ذكرها » •

اسباب الحروب الصليبية وبدايتها :

يظهر أن المؤرخين العرب القدامى لم يبحثوا في أسباب الحروب الصليبية ما عدا ابن الاثير منهم الذي أرجعها (الكامل ج ١٠ ص ١٠١) إلى رغبة الفرنجة في الاستيلاء على البلاد العربية في شمال إفريقيا وغيرها كرها للمسلمين ورغبة في التوسع ، وذكر كيف أرسل برودويل ملك الفرنجة إلى رجار ملك صقلية يخبره أنه سيزوره في صقلية ثم ينطلق من عنده إلى الفتح فيكون جارا له وكيف جمع رجار حاشيته فأشاروا عليه باستقباله ومساعدته وكيف خالفهم في الرأي لما يلحق به من خسارة مقابل كسب برودويل ، ويبيّن لهم أن في استطاعته إذا استكمل قواته أن يربح هذه البلاد لنفسه وذكر ابن الأثير كيف أشار رجار على بروديل باستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين فيكون لهم الفخر دون أن يخرق هو العهود والأيمان التي بينه وبين حكام شمال أفريقيا •

وقد أضاف ابن الأثير إلى ذلك سببا آخر هو أن حكام الدولة الفاطمية الذين ضعف أمرهم في آخر عهدهم خافوا من توسع الدولة السلجوقية ومن استيلائها عليهم فأرسلوا إلى الفرنجة يزينون لهم غزو الشام ليقفوا حاجزا بينهم وبين السلجوقيين •

لكن تصرف الخليفة الفاطمي العاضد حين استاء من وزيره شاور المتآمر مع الصليبيين ضد بلاده واستتجد بنور الدين زنكي يضعف كلام ابن الاثير بصورته المطلقة ويجعلنا نحدده بأن الخليفة وأنصاره لم يكن يعميهم التعصب الطائفي المذهبي عن صون بلادهم والاستعانة بملوك المذاهب السنية الذين كانوا خصومهم في السياسة ، غير أنه كان إلى جانبهم جماعة من ضعاف النفوس مثل شاور في الدولة العلوية ، ومعين الدين أنر السلجوقي في الدول السنية ، في بعض أيام حكمه •

لقد قيل بأن سبب الحروب الصليبية هو تخليص بيت المقدس من أيدي

المسلمين وأن الذي أثار الصليبيين لذلك هو سوء معاملة بعض الحكام المسلمين ، ولا سيما السلجوقيين ، لحجاج القدس من المسيحيين • ونرى أن هذا الأمر قد استغله حقا رجال الدين والملوك في أوروبا ليجمعوا الجيوش ضد البلاد الإسلامية وأنه لا يعدم جماعة آمنوا به وتصرفوا بموجبه ، ولكننا نرى أن السبب الحقيقي هو ضعف البلاد الإسلامية وتفرقها مما أطمع المغيرين في موقعها الجغرافي العظيم وثرواتها ولا شك في أن بعض المغيرين كان يريد الرجوع الى بلاده بعد أن يحصل بالنهب والقتل على ثروة كبيرة ولكن بعضهم الآخر كان يريد الإقامة واستغلال الأرض وأهلها فالسبب الرئيسي كما نرى استغلالي أو استعماري وليس دينيا •

يدل على ذلك ما قاله البابا أوربانس الثاني لرعاياه في أوروبا (تاريخ الحروب المقدسة تعريب مكسيموس مظلوم ط دير الفرنسيكان ، ص ١١) :

« لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر لأخذ الثأر عن بعض إهانات ، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست لأخذ الثأر عن إهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي لاكتساب أقاليم آسيا بمجملها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى • فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، واتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا » (١) • (ييلي ، حياة صلاح الدين : ٥٣) •

وقد ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوي في « الحياة الأدبية زمن الحروب الصليبية ص ١٠ » أن بدءها رافق حدوث مجاعة في أوروبا • لقد سارت أوروبا حينئذ لاستعمار الشرق الذي يفيض لبنا وعسلا مشحونة بالتعصب والكراهية على حين كان الشرق في نوم وغفلة فاستفاق على هول الصدمة •

(١) أورد د . بدوي (الحياة الأدبية : ١٠١) نصا آخر في ترجمة هذه الخطبة يختلف عن هذا النص بعض الاختلاف . ترجمه عن الفرنسية من كتاب Histoire des Croisades par Michaud. P. 51

ويمكن ان نلخص أسباب الحروب الصليبية (موجزة عن كتاب حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ، ص ٢٤٣) بما يلي :

أ - تمكن السلاجقة في الأناضول وآسيا الصغرى وتهديدهم القسطنطينية واستيلائهم على بيت المقدس من الفاطميين ، واستشعار الأوروبيين الخطر على حجهم إلى القدس •

ب - دخول عناصر بربرية في الدين المسيحي بعثت الروح الحربية في الكنيسة وأطمعتها في بسط نفوذها على الشرق •

ج - انتصار البابوية على الامبراطورية ورجحان نفوذ البابا على غربي أوروبا مما جعله مسموع الكلمة مطاع الدعوة •

د - رغبة المدن التجارية وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزا في استغلال تجارتها في الشرق • وهذه الرغبة تمثل تحرك البورجوازية في أوروبا لفك الحصار الإسلامي عنها في تجارتها معه ومنع سائر المشرق • ومما شجع أوروبا على شن هذه الحروب :

١ - انقسام السلاجقة على أنفسهم بعد موت ملكشاه بن ألب ارسلان وازدياد انقسام العالم الإسلامي وضعف الفاطميين العسكري •

٢ - تغلب القراصنة الإيطاليين على السفن الإسلامية في البحر الأبيض •

٣ - دخول المجرين في الدين المسيحي فانه فتح الطريق الى الشرق برا •

٤ - استغاثة الإمبراطور البيزنطي بالبابا أربان الثاني من السلاجقة الذين ازدادت الدعاوة ضدهم •

لقد حملت هذه الاسباب كلها على إعلان الجهاد المقدس ••

بدء رد الفعل المسلم وابطال الكفاح :

لقد بدء رد الفعل المسلم بتحريك العلماء والفقهاء ودعوتهم إلى القضاء على

الفرقة بين أمراء المسلمين والدعوة إلى الجهاد وباستجابة العامة وحماستهم وعدم استجابة الأمراء والقواد بادية الأمر •

وكان هؤلاء إذا استجابوا فسرعان ما تلعب الخيانة والرشوة والخلافات الشخصية دورها فتفرق الصف وتفتح الثغرات ليستولي الفرنجة على الحصون والقلاع من جديد •

مثل ذلك ما ذكره ابن الأثير (الكامل ١٠، ١٨٩) من أن كربوقا قائد السلطان السلجوقي جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق وانضمت إليه عساكر الشام تركا وعربا وخافت الفرنجة فسار المسلمون ونازلوهم عند انطاكية ولكن كربوقا أساء إلى من معه وتكبر على الأمراء وأغضبهم فأضرموا له الغدر وتفرقوا من حوله فاستفاد الأعداء من هذا الوهن •

كان العالم الإسلامي بحاجة إلى قيادة جديدة واعية مخلصه وقد تهيأ ذلك في شخص عماد الدين ونور الدين ثم صلاح الدين ثم الظاهر بيبرس وغيرهم وساعد العلماء والفقهاء في الدعوة لأولئك الزعماء والتمهيد لهم بين العامة •

وظهرت إنسانية المسلمين منذ البداية فقد استنوا سنة تختلف عما استنه الصليبيون فكانوا إذا استردوا بلدا أمنوا من فيه من أعدائهم ولم يسبوا نساءه ولم يقتلوا أطفاله فأعطوا أعداءهم درسا في التسامح والإنسانية •

وأول من اختط ذلك منهم عماد الدين جريا على روح الدين فقد ذكر ابن واصل أنه حينما فتحت « الرها » رآها عماد الدين فأعجبته ورأى أنه لا يجوز في السياسة تخريب مثلها ، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتتموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر وعاد البلد إلى حاله (مفرج الكروب ١/ ٩٤) •

بدء الحروب الصليبية :

بدأت الحروب الصليبية بوصول جيش صليبي إلى « قونية » فستطاع

قليج أرسلان الذي كانت قونية تحت حكمه أن يبيد الغزاة •

فسيرت أوربا على أثر ذلك ثلاثة جيوش قوية استطاعت أن تستولي على قونية سنة ٤٩٠ هـ ثم الرها وكانت إمارة مسيحية خاضعة للمسلمين ثم أنطاكية بعد دفاع عظيم ثم قيسارية وحماة وحمص وأركاس واللاذقية وجبله وطرطوس ثم مروا بعكا وحاصروا بيت المقدس أربعين يوما ثم استولوا عليه ففتكوا بأهله فتكا ذريعا رجلا ونساء صغارا وكبارا حتى أصبحت الجثث تملأ الأزقة وحتى خاضوا في الدم إلى الركب » ، كما يقول أحدهم في رسالة بعث بها إلى صديق في فرنسا •

وسار جيش مصري للقائهم فهزموه هزيمة منكرة وبهذا بسطوا سلطانهم على سواحل الشام من الشمال إلى الجنوب • وقيل إن عدة من قتلهم الفرنجة في المسجد الأقصى وحده ٧٠ ألفا •

ثم سار « بلدوين » الذي ملكوه على بيت المقدس حتى استولى على الفرما في الطريق إلى القاهرة وذبح أهلها وأحرق جوامعها ولم يمنعه من السير إلى القاهرة إلا وفاته ، فخلفه على بيت المقدس « بولدوين دي بورغ » ويسميه العرب « بغدوين » على حين كانوا يسمون الأول « بردويل » •

وساروا بعد ذلك إلى حلب فدخلوها وخربوها ثم اتجهوا إلى طبرية يعيشون في الأرض قتلا ونهباً وفسادا •

وقد ذهب وفد من الشام إلى بغداد ليستغي ، بالخليفة وحكامها وأهلها ويستنصروهم وكان في هذا الوفد القاضي أبو سعد الهروي وقد بكوا وأبكوا وذكروا ما أصاب المسلمين من قتل الرجال وسبي الحرير والأولاد ونهب الأموال • ولكنهم لم يلقوا أي عون فعلي • « الكامل لابن الأثير ح ١٠ : ١١٧ » •

لقد استطاع الصليبيون باستيلائهم على ساحل الشام أن يتحكموا في منافذ العالم الإسلامي وأن يحصلوا على غرضهم الرئيسي من الغزو وهو التجارة والثروة وقد ساعدتهم مدن إيطاليا التجارية لأنها وجدت في حركتهم تحقيقاً لأغراضها في

السيطرة على الأسواق الشرقية فساعدتهم بأساطيلها •

ولم يتوغل الصليبيون في الداخل إلى أبعد من القدس والكرك والشوبك إما خوفا من مغبة هذا التوغل أو لأن جل همهم كان منصرفا إلى تأمين حدودهم الشرقية فاكتفوا لذلك ، بسلسلة من غارات الإرهاب دون محاولات جدية للاستيلاء والاستيطان ، وبعقد معاهدات مع حكام المدن القوية كدمشق ، أو تدير المؤامرات وشراء الجواسيس والأعوان أو استخدام الحشاشين لإحداث الاضطراب وبث الذعر وتخذيل الهمم بين صفوف المسلمين •

وهذه المرحلة من الحروب الصليبية هي مرحلة المباغته والمد من قبل الصليبيين ومرحلة الجزر والانحسار والصدمة المفاجئة المفقدة للوعي من قبل المسلمين •

وقد استمر الصليبيون مصدر إرهاب وإقلاق للمسلمين حتى عام ٥٢١ هـ الذي تولى فيه البطل عماد الدين زنكي أمور الموصل فبدأ الصراع المبرر بين الفريقين وبدأ الصليبيون يذوقون طعم الهزائم •

ب - لمحات هامة من تاريخ اليهود الأربعة الأولى مشفوعة بالشعر وبعض النثر .

١ - العهد الفاطمي - الزنكي * :

بداية الاصطدام :

احتل الفرنجة ساحل الشام كله ، والجزء الداخلي الجنوبي منه ، وفيه القدس ، وهاجموا مصر في عقر دارها ، ولم يروا أمامهم أحدا من السلاطين والأمراء والشعب ، يوقفهم عند حدّهم أو يشعرهم بمقاومة جدّية أو يثور عليهم في البلاد التي احتلوها ، ولم يخف أحد لنجدتها ، برغم استنجاحها بالخليفة في بغداد وبسائر المسلمين . « الكامل لابن الأثير ١٠ : ١١٧ » . فهاهنا الناس هذا الخطب العظيم وقال أحد الشعراء ولم نعرف من هو :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً	يطول عليه للدين النحيب
فحقّ ضائع ودمّ مباح	وسيف قاطع ودم صيب
وكم من مسلم أمسى سلياً	ومسلمة لها حرّم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب ^(١)
أمور لو تأملهنّ طفّل	لطفّل في عوارضه المشيب ^(٢)
أتسبى المسلمات بكل ثغر	وعيش المسلمين اذاً يطيب
أما والله للإسلام حقّ	يُدافع به شبنان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا	أجيئوا الله ويحكم أجيئوا

« النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥١ »

* هذه اللمحات المشفوعة بالشعر هي في الوقت نفسه تمهيد للكلام في ادب النضال الذي يعاصرها .

- (١) الخلق : الطيب .
(٢) طفّل : جاء طفلياً . العوارض : ج عارض وهو جانب الراس والوجه .

وقال الأبيو ردي^(١) الشاعر العربي العراقي في هذه الكارثة :

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراحم ^(٢)
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شُبَّتْ نارُها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذئرا بالمناسم ^(٣)
أتهوية في ظل آمن وغبطة	وعيش كنوّر الخيلة ناعم ^(٤)
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحون مقلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم ^(٥)
تسومهم الروم الهوان وأتم	تجرشون ذيل الخفض فعل المسالم

(١) هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد الأبيوردي ، يتصل نسبه بأبي سفيان من بني أمية ، كان من الأدباء المشهورين ، رأوية نسابة شاعرا ظريفا . قسم أشعاره إلى أقسام سماها العراقيات ، والتجديات والوجديات . وقد شرح التجديات عمر بن التوام المعروف بالنظام تحت اسم « جهد المقل وجهد المستدل » وتوجد نسخة من الشرح في مكتبة القاهرة ، في ٣٥٦ صفحة كبيرة ، والعراقيات أكثرها في مدح المقتدر والظاهر . ومنها نسخة في باريز وأيا صوفيا . والوجديات منها نسخة في برلين واكسفورد ومنشن ، طبع ديوانه في لبنان سنة ١٣٠٧ هـ . ومن آثاره أيضا « زاد الرفاق » في المحاضرات على غرار محاضرات الأصفهاني . ومنها مناظرات مع أصحاب النجوم وتقض لحججهم . منه نسخة في مكتبة القاهرة في ٧٣٠ صفحة . وله مؤلفات ضائعة في الطبقات والأنساب (ابن خلكان ص ١٢ ، ج ٣) « عن تاريخ الأدب العربي لجرجي زيدان » .

(٢) السواجم : ج ساجمة : منسكبة . المراحم : ج مرحمة مكان الرحمة والرحمة نفسها ، وهناك رواية المراحم في « النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠-١٥١ » .

(٣) المناسم : ج منسم وهو خف البعير .

(٤) التهوية : جولة الطائر أو النحلة في الهواء . النوار : الزهر الأبيض . الخيلة : الشجر الملتف الناضر .

(٥) المقل : النوم ظهرا مثل القيلولة . المذاكي : الخيل السريعة الكريمة مفردها مذكية . القشاعم : النسور ، مفردها قشعم .

وكم من دماء قد أبيضت^١ ومن دُمى^٢
 بحيث السيوف^٣ البيض^٤ محمّرة^٥ الظبّا
 وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
 وتلك حروب^٦ من يغب عن غمارها
 سئلن^٧ بأيدي المشركين قواضبا
 يكاد^٨ لهن^٩ المستجن^{١٠} بطيبة
 أرى أمّتي لا يشرعون إلى العدا
 ويجتنبون النار خوفا من الردى
 أترضى صناديد^{١١} الأعاريب بالأذى
 فليتهم^{١٢} إذ^{١٣} لم يذودوا حيّة
 وإن^{١٤} زهّدوا في الأجر إذ^{١٥} حمّس الوغى
 لئن^{١٦} أذعنت^{١٧} تلك الخياشيم^{١٨} للبرى
 دعوناكم والحرب تدعو ملحّة
 ثراقب^{١٩} فينا غارة^{٢٠} عربيّة

توّاري حياء^{٢١} حسنّها بالمعاصم^{٢٢}
 وسمّر^{٢٣} العوالي داميات^{٢٤} اللهازم^{٢٥}
 تظل^{٢٦} لها الورل^{٢٧} لدان^{٢٨} شيب^{٢٩} القوادم^{٣٠}
 ليسلم^{٣١} يقرع^{٣٢} بعدها سن^{٣٣} نادم^{٣٤}
 ستغمد^{٣٥} منهم^{٣٦} في الطلّا والجماجم^{٣٧}
 ينادي بأعلى الصوت يا آل^{٣٨} هاشم^{٣٩}
 رماحهم^{٤٠} والدين^{٤١} واهي الدعائم^{٤٢}
 ولا يحسبون العار^{٤٣} ضربة لازم^{٤٤}
 ويغضي على ذل^{٤٥} كرامة الأعاجم^{٤٦}
 عن الدين ضنّوا غيرة بالمحارم^{٤٧}
 فهلا^{٤٨} أتوه^{٤٩} رغبة^{٥٠} في الغنائم^{٥١}
 فلا عطست^{٥٢} إلا^{٥٣} بأجدع^{٥٤} راغم^{٥٥}
 إلينا^{٥٦} بالحافظ^{٥٧} النور^{٥٨} القشاعم^{٥٩}
 تطيل^{٦٠} عليها الروم^{٦١} عض^{٦٢} الأباهم^{٦٣}

-
- (١) الدمى : النساء الجميلات يشبهن بالتمائيل .
 (٢) الظبا : ج ظبابة وهي حد السيف . اللهازم : ج لهزم وهو سنان الرمح .
 (٣) القوادم ، في الأصل ج قادمة وهي الريشة الكبيرة في مقدمة جناح الطائر
 وأراد بها هنا مقدّمات الرؤوس .
 (٤) الفمار : الأمواج والمعارك التي تفر خائضها ، المفرد غمرة .
 (٥) الطلّا : الأعناق .
 (٦) المستجن^٦ : المختبىء وراء المجن وهو الترس . طيبة : المدينة المنورة .
 (٧) الخياشيم : ج خيشوم وهو أعلى الأنف وأراد به هنا جميعه . البرى :
 الحلقات من المعدن توضع أحداها في أنف البعير أو الأسير .

فإن أتم لم تغضبوا بعد هذه رَمَيْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا بِالْحَرَائِمِ (١)
« الكامل لابن الأثير حوادث ٤٩٢ هـ وتاريخ أبي الفداء السنة نفسها ، وفي ديوان الأبيوردي » (٢) .

وبقيت مقاومة المسلمين للفرنجة الصليبيين شبه معدومة حتى ظهر عماد الدين زنكي وكان ذكيا شجاعا أبلى بلاءً حسنا في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام وتحدث الناس بشجاعته وكان يدعى بزكني الشامي .

وقد ساءه تناحر الأمراء على السلطنة والإقطاعات ، وقال لبعض أصحابه :
« قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير » (أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ٢٩) . وترك البصرة ومدينة واسط اللتين كانتا يأمرة ، والتحق بخدمة السلطان محمود السلجوقي الذي وثق به فندبه ليتولى أمر بلاد الشام الممزقة ، حين شعر بالخطر الذي يهددها بعد أن تمكن الفرنج من ديار الجزيرة والشام واستولوا على أكثرها من ماردين شمالا إلى عريش مصر جنوبا ، ما عدا بعض البلاد الباقية في حوزة المسلمين .

كتب السلطان محمود منشورا إلى الأقطار بتولية عماد الدين ، وبعث معه ابنه ألب أرسلان ، وجعل عماد الدين زنكي أتابك أي الوصي عليه الذي يتولى شؤون الحكم عنه . فافترن هذا اللقب « أتابك » بملوك الأسرة الزنكية كلها السابقين واللاحقين .

ويظهر أن عماد الدين زنكي كان قد لقّب بالأتابكي من قبل حين كان في الموصل لأنه كان في الحقيقة أتابك ابن السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٣٣) .

نظر الناس الى عماد الدين على أنه البطل الموعود لانقاذ بلاد الشام من

(١) الحرائم : ج حرمة . وهي هنا المرأة ، وكل ما يجب على الإنسان صونه .

(٢) وذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ص ١٥٠ - ١٥١) أن القاضي

الهروي انشدها في بغداد مستنجدا بالخليفة وذكر انها تنسب للأبيوردي .

الصليبيين ، (راجع صدى الحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم ، المقدمة فقيه حديث عنه وعن نور الدين) واستطاع أن يسترد منهم جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحران ، وعبر الفرات ثم دخل حلب الشهباء فرحب أهلها بمقدمه ووصل اليه توقيع سلطاني بتوليته الموصل والجزيرة والشام وأضاف اليه سنة ٥٢٥ هـ العراق فعظم أمل الناس فيه .

رأى بثاقب فكره أن يوحد البلاد قبل منازلة الصليبيين في معركة حاسمة ، فهادن مؤقتاً جوسلين صاحب الرها ريثما يثعدّ العدة ، ونازل صاحب دمشق مدّة ، ولكن رسل الخليفة جاءته تطلب نجدته على السلطان السلجوقي مسعود ، وتأمره بمصالحة صاحب دمشق .

(راجع في العمل للوحدة : خطط المقرئ ٢ : ٢٧٩ والروضتين ٢ : ١٧٧) .

أراد الصليبيون الذين كانوا يرقبون الأمور عن كثب أن يستغلوا التصدع بين الخلفاء والسلاطين والأمراء في بغداد وغيرها فيحصلوا على مكاسب جديدة في بلاد الشام ، فجمعوا صفوفهم لمنازلة عماد الدين ، ولكنه فاجأهم بالحرب وأخذ يظهر البلاد منهم ، وحاصر قلعة « بارين » وأحسّ الفرنجة بالخطر المهدق بهم فتسلل القسّس والرهبان الى بلاد الروم والفرنجة ليستنصروهم على المسلمين ، وأقنعوهم بأن زنكي اذا استولى على حصن بارين ، فإنه سيستولي على جميع البلاد التي بخوزتهم ، وستنصرف همة المسلمين الى فتح بيت المقدس » . (الروضتين ج ١ : ٢٨ - ٣٠) و (مفرّج الكرب ١ : ٣٠ - ٣٣) .

دارت رحى معركة قرب بارين وكان ملك بيت المقدس بين الصليبيين الذين فرّوا على أثرها ولجؤوا الى حصنها ، فشدّد عليهم عماد الدين الحصار فطلبوا منه الأمان وسلّموه الحصن ونجّوا بأنفسهم وكان عماد الدين يتابع فتوحه خلال الحصار ، فاستردّ منهم المعرّة وكفرطاب وغيرها . وقد خلّد الشعراء هذا الفتح بكثير من القصائد ومنها قول ابن القيسراني ^(١) : (الروضتين ج ١ ص ٣٤) :

(١) ابن القيسراني : ولد في مدينة عكا سنة ٤٧٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٨ هـ وكانت =

حذارِ منا وأنتى ينفع الحذرُ
وأين ينجو ملوكُ الشرك من ملك
سلوا سيوفا كأغمد السيوف بها
حتى اذا ما عمادُ الدين أرهقهم
ولكوا تضيق بهم ذرعا مسالكهم
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا
وطالما استفحل الخطبُ البهيمُ بهم
والسيفُ مفترعٌ أبكاراً أنفسهم

وهي الصوارمُ لا تبقى ولا تذر
من خيله النصرُ لا بل جندُه القدر
ضالوا فما أغمدوا نصلا ولا شهروا
في مأزقٍ من سناه يرق البصر
والموتُ لا ملجأ منه ولا وزر
يخاف ، والكفرُ لا عين ولا أثر
فالقومُ ان نَقَرُوا ألوى بهم نَقَرُ
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حُصروا
حتى أتى ملكٌ آراؤه غرر
ومن هنالك قيل الصارمُ الذكرُ

(أبو شامة الروضتين ١ : ٨٨ - ٨٩)

وهذه أبيات من قصيدة أبي الحسن أحمد المشهور بابن منير الطرابلسي^(١)
منافس ابن القيسراني :

سنه ٩ سنوات حين استولى الفرنجة على بلده فانتقل الشاعر مع أهله الى
قيسارية الساحل واليه نسب ثم هاجر الى الداخل فاستقر باديء الامر
في دمشق وتابع دراسته العلمية متنقلا كما كان يفعل أهل العلم في زمانه
واختلف مع آل طفتكين حكام دمشق فتوجه الى الملوك الزنكيين في حلب .
عاصر الدولة الزنكية ونظم في أهم أحداثها وكان يتنافس مع معاصره ابن
منير الطرابلسي وكانا يشبهان بالفرزدق وجريير ، وكان هو المشبه بجريير
لأنه أسهل وأغزر شعرا وأقل صناعة من منافسه ، مات الشاعر في دمشق .
ولم يعرف له من أثر الا ديوانه ، ولم يصل إلينا ، والا ديوان صغير آخر
هو الثغريات اختاره من شعره وأضاف اليه مقطعات في التشويق الى وطنه
وفي المدح . ولقب الشاعر حين اشتهر بالعماد . (ابن خلكان : وفيسات
الاعيان ٢ : ١٦) .

(١) ابن منير الطرابلسي : ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ هـ وتوفي في حلب سنة
٥٤٨ هـ كان معاصرا لابن القيسراني كما رأينا ، نشأ في أسرة فقيرة واجمع

فدتك الملوك وأيامها ودام لنقضك إبراهيمها
 وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها
 ولو لم تسلم اليك القلوب هداها لما صح إسلامها
 أيا محيي العدل لما نعاها أيامى البرايا وأيتامها
 ومستنقذ الدين من أمّة أزال المحارب أصنامها
 جزرت جزيرتها بالسيو ف حتى تشاءها شامها
 (الروضتين ١ : ٣٥)

وقال ابن قسيم الحموي^(١) في هذه المعركة: «الروضتين ١: ٣٢ والخريدة ١: ٤٧١»

المتقدمون على أنه كان متشيعا مغاليا . غادر وطنه بعد أن استولى عليه الفرنجة ودخل دمشق وحاكمها حينئذ تاج الملوك بوري بن طفتكين الذي سجنه لو شاية به . وأنهم بالزندقة حين عاد الى دمشق مرة ثانية في عهد اسماعيل بن تاج الملوك . . . قضى في حماة وشيزر مرحلة من حياته واتصل بنقيب الاشراف في بغداد ، لجأ الى هجاء الشعراء الآخرين ، وكنتم شيعيته في آخر حياته ولجأ الى التقية ، اختار شيزر دار اقامة له وكان يتردد على حماة وعلى حلب يمدح الزنكيين وأمراءهم ، واستقر في حلب أخيرا وصور في شعره معارك المسلمين مع الصليبيين ، وانيط به عمل في خدمة نور الدين الذي جعله رسوله الى دمشق ليفاوض ملكها من آل طفتكين . له ديوان شعر مفقود . (السيوطي ، بنية الوعاة ٣ : ٩٧ - ٩٩) . وغيره .

(١) ابن قسيم الحموي : ولد بحماة سنة ٥٠٠ هـ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ وذلك على التقريب . كان احد الشعراء الثلاثة الذين اشتهروا في عصره ومعه القيسراني وابن منير . نبغ في شيخوختها وضاهاهما جودة شعر . درس الدين واللغة والادب وطارح الشعر ابن منير وغيره من شعراء عصره . كان متشيعا ، حسن الحال ، قانعا لم يكثر من الرحلة ، استنفذ الغزل أكثر ديوانه ونبغ بين شعراء عصره حين مدح عماد الدين بعد انتصاره على ملك الروم أمام بارين بأحسن قصيدة قيلت حينئذ وهي التي بين أيدينا .

مدح نور الدين وتنبأ له بفتح انطاكية ومات الشاعر قبل سنتين من فتحها على يده :

وغدا يكون له بأنطاكية مشهور فتح في الزمان مبينه

أصيب الشاعر ببؤسى لا نعرف ما هي :

بعزمك ايها الملك العظيم
 ألم تر أن كلب الروم لما
 فجاء يطبق القلوات خيلا
 وقد ترك الزمان على رضاه
 فحين رميته بك في خميس
 وأبصر في المفاضة منك جيشا
 كأنك في العجاج شهاب نور
 أراد بقاء مهجته فولسى
 يؤمل أن تجود بها عليه
 أيلتمس الفرنج لديك عفوا
 وكم جرعتها غصص المنايا
 ولما أن طلبتهم تمنى المنية جوسلنهم اللئيم
 تذل لك الصعاب وتستقيم
 تيقن أنك الملك الرحيم
 كأن الجحفل الليل البهيم
 فكان لخطبه الخطب الجسيم
 تيقن أن ذلك لا يدوم
 فأحزن لا يسير ولا يقيم
 توقد ، وهو شيطان رجيم
 وليس سوى الحمام له حميم
 وأنت بها وبالدينا كريم
 وأنت بقطع دابرها زعيم
 يوم فيه يكتهل الفطيم
 ولما أن طلبتهم تمنى المنية جوسلنهم اللئيم

خلع في هذه الاثناء الخليفة الراشد واقم مقامه المقتني بالله واضطر عماد الدين
 الى ارسال قاضيه كمال الدين الشهرزوري ليباع الخليفة الجديد .

خشي الفرنجة من مغبة معركة بارين وتداعوا وهب لمساعدتهم سنة ٥٣٢ هـ
 ملك الروم وفتح ما أمامه حتى وصل الى حماة ، فصمدت أمامه فتحوّل إلى حصن
 شيزر على مسافة قريبة منها فاستنجد صاحبها بعماد الدين الذي هب لنجده ، وقد
 اجتمع عليه الروم والفرنجة فاستطاع عماد الدين أن يقهرهم بعد حصار دام أربعة
 وعشرين يوما استعملت فيه جميع انواع الاسلحة المعروفة حينئذ وأسر كثيرا منهم .

لو كنت أعرف أن الدهر يعقبني بؤسى لما اخترت أن تهدى لي النعم
 له ديوان مفقود أورد العماد الكاتب في الخريدة 'جود ما فيه' ، وفيه بعض
 اللحن لأن الشاعر لم ينقحه . « ابن الاثير الكامل ١١ : ٢٤ » وغيره .

حاضر عماد الدين بعد هذا النصر دمشق سعيًا وراء توحيد البلاد ضد الأعداء، ولكن ملكها الجديد مجير الدين آبق بن محمد ومدبّر أمور دولته معين الدين أنر راسلا الفرنجة مستعينين بهم عليه ومما جاء في مراسلة لهما :

« إِنْ مَلِكْ دِمَشْقَ يَمْلِكُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَلَا يَتْرُكْ لَهُمْ بِلْدًا بِالسَّاحِلِ » .
فهبّ الفرنجة جميعًا لنجدة ملك دمشق الخائن (في هذه الحادثة) ودارت الدائرة على عماد الدين ، ودخل معين الدين بانياس وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة . وهكذا خان البلد والمبدأ في سبيل العرش .

أخذ جوسلين صاحب الرها يهدد شمال الشام ومد غاراته إلى آمد ورأس العين والرقّة ونصيبين واستولى على البيرة وسروج ، ولكن هزيمة عماد الدين في دمشق لم تضعف عزيمته وصمم على تطهير البلاد من الفرنجة وفتح الرها بخاصة لأنها كانت عندهم تلي مباشرة في القداسة القدس وأنطاكية وروما والقسطنطينية . فاستولى عليها عنوة بعد أن حاصرها ثمانية وعشرين يومًا ، ثم حرر بعدها الجزيرة وشمال الشام (١) . ومما قال ابن القيسراني في هذا الفتح:

هو السيف لا يثغنيك إلا جلاذه	وهل طوّق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا	سناها وان فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخراً بطوّله	ولم يك يسمو الدين لولا عِماده
وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها	عن الله مالا يستطيع زياده

(١) « الروضتين ١ : ٣٦ - ٣٧ ومفرج الكروب ١ : ٩٤ ، والكامل لابن الأثير ١١ : ٣٨ » . ويحمد لعماد الدين حين فتح الرها انه رأى جمال بنيانها وتقدم حضارتها فأمر بأن يرد جنده إلى أهلها جميع ما سلبوه ومن أسروه ومن سبوه من النساء ، واستصدر حكماً من الفقهاء بذلك مستمداً من تعاليم الاسلام ولم يعامل أهل المدينة المسيحيين كما عامل الصليبيون أهل القدس المسلمين حين فتحها . وقد سن بذلك سنة حسنة اسلامية انسانية لمن بعده .

ليهن بني الإيمان أمن ترفعت
 وفتح حديث في السماع حديثه
 لقد كان في فتح الرشاء دلالة
 مدينة إفك منذ خمسين حجة
 وجامعة عز الملوك قيادها
 فأضرمت نارين حربا وخدعة
 فصدت صدور البكر عند اقتضاها
 فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
 فلا منبر إلا ترتج عوده
 إلى أين يا أسرى الضلالة بعمده
 رويدكم لا مانع من مظفر
 وقل لملوك الكفر تسليم بعدها
 والله عزم ماء سيحان وردّه
 (الخريدة للعماد الكاتب ج ١ ق ١ ، ١٥٤ - ١٥٥) وأبو شامة ، (الروستين
 ١ ق ١ ص ٩٦) .

ومما قاله ابن منير في هذا الفتح :

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
 أذاك بمثل الروم حشداً وأنه
 فقاتلت به بالله ثم بعزيمة
 توهم أن الشام مرعى ومادري
 فطار وخير المغنمين ذماؤه (٢)
 أزحت به ما في الجناحين من ثبل
 ليفضل أضعافاً كثيراً عن الرمل
 تصكّ قلوب العاشقين بما يسلي
 بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (١)
 إذا رُدَّ عنه مغنم المال والأهل

(١) الشزر : شدة قتل الجبل . والسحل : عدم قتله حين النسج .

(٢) الدماء : بقية الروح .

اغتيال عماد الدين ورثاؤه :

حاول عماد الدين بعد ظفّره أن يوحد البلاد فاتجه الى قلعة جعبر وقلعة « فنك » وحاصرها ، وهاجمه خلال ذلك ، وهو نائم ، جماعة من خدّامه على رأسهم غلام أفرنجي اسمه (برتقش) فطعنه وفرّ مع جماعته الى قلعة جعبر ، وتوفي عماد الدين إثر ذلك وحمل الى الرقّة ودفن في صفيّين * « الروضتين ١ : ٣٦ - ٣٧ ومفرّج الكروب ١ : ٩٤ والكامل لابن الأثير ١١ : ٣٨ » .

لقد أعاد عماد الدين الأمل بالنصر الى الناس واستطاع أن يوحد قسما كبيرا من البلاد ، وأن ينتصر على الفرنجة في كثير من المواقع ووطّد الأمن ونشر العدل وقضى على الفساد فلا عجب ان يسعى الفرنجة الى اغتياله بعد أن أعجزهم القضاء عليه في ساحة الحرب ، فلقد أثبت أن من الممكن هزيمتهم ، بعد أن اعتقدوا أنهم لا يهزمون ، وظنّ أهل البلاد مثل ظنّهم خطأ واستسلاما وتشاؤما .

وقد بكاه الشعراء بعدة مرثي ومث ذلك قول أبي الحكيم المغربي :
« الروضتين ١ : ٤٦ » .

عينٌ لا تذخري المدامع وابكي	واستهليّ دماً على فقد زنكي
لم يهب شخصه الردى بعد أن كا	نت له هيبة على كل تركي
إنّ داراً تمدّنا بالرزايـا	هي عندي أحقّ دار بتـرك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد	وانضحوه بزعفران ومسك
كلّ خطب أتت به ثوب الدهر يسير	في جنب مصرع زنكي
بعد ما كاد أن تدين له الرو	م ويحوي البلاد من غير شك

ورثاه الرئيس أبو يعلى التميمي بقصيدة منها : « الروضتين ١ : ٤٥ » :

كذلك عمادُ الدين زنكي تناثرت	سعادته عنه وخرّت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر	أنواع دياج حوتها مخاتمه

وَمِنْ صَافِنَاتِ الْخَيْلِ كُلِّ مِطْهَمٍ
وَكَمْ مَعْقِلٌ قَدْ رَامَهُ بِسَيْوفِهِ
وَدَانَتْ وَلَاةُ الْأَرْضِ فِيهَا لِأَمْرِهِ
وَأَصْبَحَ سُلْطَانُ الْبِلَادِ بِسَيْفِهِ
فَلَمَّا تَنَاهَى مُلْكُهُ وَجَرَّادَهُ
أَتَاهُ قَضَاءٌ لَا تُرَدُّ سَهَامُهُ
وَأَضْحَى عَلَى ظَهْرِ الْفَرَّاشِ مَجْدٌ لَا
وَقَدْ كَانَ فِي الْجَيْشِ الثَّلَاحُ مَبِيتُهُ
وَسَمَرُ الْعَوَالِي حَوْلَهُ بِأَكْثَرِهِمْ
وَكَمْ رَامَ فِي الْأَيَّامِ رَاحَةً سَرَّهُ
وَكَمْ ثَغَرَ إِسْلَامَ حَوَاهِ بِسَيْفِهِ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْجُو مِنَ الدَّهْرِ سَالِمًا
وَمَنْ رَامَ صَفْوًا فِي الْحَيَاةِ فَمَا يَثْرَى
فَإِيَّاكَ لَا تَغْبِطُ مَلِيكَ بِمُلْكِهِ
وَقَتْلُ الَّذِي يَبْنِي الْحُصُونِ لِحَفْظِهِ

يُرْوَعُ الْأَعَادِي حَيْثُ وَبَرَاجِمُهُ
وَشَامَخَ حُصْنٌ لَمْ تَفْتَهُ غَنَائِمُهُ
وَقَدْ أَمْتَنَتْهُمْ كِتَابُهُ وَخَوَاتِمُهُ
وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا قَظِيرٌ يَزَاحِمُهُ
وَرَاعَتْ وَلَاةُ الْأَرْضِ مِنْهَا لَوَائِمُهُ
فَلَمْ تَنْجِهْ أَمْوَالَهُ وَمَغَانِمُهُ
صَرِيحًا تَوَلَّى ذَبْحَهُ فِيهِ خَادِمُهُ
وَمِنْ حَوْلِهِ أَبْطَالُهُ وَصَوَارِمُهُ
تَذُودُ الرَّدَى عَنْهُ وَقَدْ نَامَ نَائِمُهُ
وَهَمَّتْهُ تَعْلُو وَتَقْوَى شَكَائِمُهُ
مَنْ الرُّومُ لَمَّا أَدْرَكَتْهُ مَرَاحِمُهُ
إِذَا مَا أَتَاهُ الْأَمْرُ وَاللَّهُ حَاتِمُهُ
لَهُ صَفْوٌ عَيْشٍ وَالْحِمَامُ يُحَاوِمُهُ
وَدَعَهُ فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا شَكَّ قَاصِمُهُ
رُئُوسُكَ مَا تَبْنِي فَدَهْرُكَ هَادِمُهُ

قال المؤرخ أبو شامة في موته (الروستين ج ١ ص ٤٢) :

« فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل ، فأَي نجم للإسلام قد أفل وأي ناصر للإيمان رحل ، وأي أسد افترس ، ولم تنجِه قُتْلُةُ حصن ولا صهوة فرس ، فكَمْ أجهَد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكَمْ أدبها في حفظه وحراسته ، فأَتَاهُ مَبِيدُ الْأُمَمِ ومهينها في الحدث والقدم ، فأَصَارَهُ ، بعد القهر للخلائق ، مقهوراً ، وبعد وثير المضاجع في التراب مغفراً مقبوراً » •

وهذا النثر على صناعته خير من الشعر الذي سبقه •

خلف نور الدين محمود أباه في الشام . وقد ولد سنة ٥١١ هـ ولم يكن ابن عماد الدين الأكبر ، ولكنه كان مع أبيه حين قتل ، فأخذ خاتمه وتوجه الى حلب وتملكها بمساعدة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الايوبي . وقد نصحه هذا بالاستيلاء عليها ، لأن ملك الشام يحصل بحلب ، ولأن من ملك حلب يستظهر على بلاد الشرق (أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٤٣ ، ٤٧) وتملك أخوه الأكبر سيف الدين غازي الموصل وانشطرت بذلك الدولة وكادت تقع الحرب بين الأخوين ولكنهما تلاقيا خارج معسكريهما وتصافيا وعاد نور الدين الى خدمة أخيه ، فعادت الدولة واحدة . ومما قال له أخوه : « لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا » (ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٤٣) وقد برهن هو وأخوه بذلك على إخلاص وبعد نظر (١) .

وقد استطاع نور الدين أن يقضي بسرعة على عصيان قام في الرها ، وخاف الغرب من خطره فأرسل حملة صليبية ثانية سنة ٥٤٣ هـ فنازلها نور الدين وهي بقيادة ملك الألمان كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع ، وخاف معين الدين أنر مدبر أمور الدولة في دمشق بعد تأمره مع الفرنجة من بطش نور الدين ، فاستنجد بأخيه سيف الدين غازي . والمهم أن هذه الحملة خابت وعاد ملك الألمان ومن معه خائبين الى بلادهم . (ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١١١ - ١١٣ و ١٢٥) و (الروضتين ١ : ٩٤ و ٥٢ - ٥٣) .

ثم سار نور الدين الى حصن حارم وكان بيد الفرنجة ، ثم سار الى حصن إنب و انتصر عليهم في موقعة هائلة انتهت بقتل البرنس صاحب انطاكية سنة ٥٤٤ هـ

(١) كان نور الدين مثاليا في حكمه زاهدا عابدا يأكل من كسب يده ومن حصته في الغنائم ، ولم يأت بعد عمر بن عبد العزيز رجل مثله . وقد اشتهر بفروسيته واستعداده الدائم للحرب : « نحن كل يوم في النفير » « مفرج الكروب ١ : ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ » .

وحمل رأسه الى حلب • وقد أكثر الشعراء من مدحه وتهنته بهذا الفتح ومنهم ابن القيسراني • ومن قوله في قصيدة عارض فيها بائية أبي تمام :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
لله عزمك ما أمضى وهمك ما
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
ضربت كبشهم منها بقاصمة
ما يوم « آ ثب » والأيام دائلة
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
حتى استطار شرار الزند قاذفه
والسيف هام على هام بمعركة
والنبل كالوبل هطال وليس له
وللظبا ظفر حلو مذاقته
وللأسنة عمّا في صدورهم
أجسادهم في ثياب من دمائهم
أنباء ملحمة لو أنها ذكرت
من كان يغزو بلاد الروم مكتسبا

وذى المكارم لا ما قالت الكتب
تعثرت خلفها الأشعار والخطب
أقصى اتساعا بما ضاقت به الحقب
فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
من يوم (يغرا) ^(١) بعيداً لا ولا كتب
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهارة كل سيف عندها جئب ^(٢)
فالحرب تضرّم والآجال تحتطب
لا البيّض ذو ذمّة فيها ولا اليلب ^(٣)
سوى القسي وأيد فوقها سحب
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
مصادر أقلوب تلك أم قلب
مسلوبة وكان القوم ما سلبوا
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من الملوك فنور الدين محتسب ^(٤)

(١) يوم يغرا معركة انهزم فيها نور الدين .

(٢) أي ان كل سيف من سيف جنودك اصطبغ بدم الأعداء . والصورة مستمدة من علاقة الرجل بالمرأة .

(٣) هام : حام . الهام : ج هامة وهي الرأس . البيض هنا ج بيضة وهي الخوذة والمغفر . واليلب : الدروع تصنع من الجلد وغيره .

(٤) محتسب : أي يترك لله حسابه ومكافاته ولا يرجو نفعا عاجلا .

أفعاله كاسمه في كل حادثة
 في كل يوم لفكري من وقائعه
 من باتت الأُسْد أسرى في سلاسله
 فملكوا سلب الإبرنس قاتله
 عجبت للصعدة السمرء مثمرة
 اذا القناه ابتغت في رأسه تفقا
 ووجهه نائب عن وصفه اللقب
 شغل فكل مديحي فيه مقتضب
 هل يأسر الغلب الا من له الغلب^(١)
 وهل له غير انطاكية سلب
 برأسه إن اثمار القنا عجب^(٢)
 بدا لتعلبها من نحره سرب^(٣)



كنا تعد حمى أطرافنا ظفرا
 عمّت فتوحك بالعدوى معاقلها
 لم يبق منها سوى بيض بلا رمق
 فملكك الظبى ما ليس نحتسب
 كأن تسليم هذا عند ذا جرب
 كما التوى بعد رأس الحية الذنب



فانهض الى المسجد الأقصى بذى لجب
 وأذن لموجيك في تطهير ساحله
 يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة
 مازلت تلحق عاصيها بطائعها
 فاسعد بما نلت من كل صالحة
 وقد استولى الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ على عسقلان وفي سنة ٥٥٣ هـ أرسل
 يؤوليك أقصى المثنى فالقدس مرتقب
 فانما أنت بحر لثبته لجب
 من الظبى عن ثغور زانها الشنب
 حتى أقمت وأنطاكية حلب
 يأوي إلى جنة المأوى لها حسب

-
- (١) الغلب : ج اغلب وهو الأسد القوي الفليظ العنق . والغلب : الفوز .
 (٢) الصعدة : الرمح الطويل .
 (٣) تلعب الرمح : سناحه . والسرب : السرداب والطريق .

الملك الصالح طلائع بن رزيك^(١) من مصر حملة في البر وأخرى في البحر فاستطاع المسلمون أن يهزموا الفرنجة هزيمة منكرة وهم بقيادة أموري صاحب عسقلان . وقد كتب طلائع بذلك شعرا الى صديقه أسامة بن منقذ يطلب منه ان يحرض نور الدين على قتال الفرنجة وتوحيد الجهود مع مصر ومنه :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم	وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم	وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزي جيوش الكفر في عقر دارها	ويوطأ حماها والأنوف رواغم
ويثوي الكرام الناذرون بنذرهم	وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما اذ	ثنى نصفه حتى اثنى وهو غائم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعا	مقاويز وخذ العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى	عزيمته جهد الظما والسائم ^(٢)
يُهجر والعصفور في قعر وكره	ويسري الى الأعداء والليل قائم

(١) الملك الصالح طلائع بن رزيك :

هو أرمني لقب بأبي الفارات لكثرة غاراته على الصليبيين ، عصامي يعد من الملوك . أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، جاء مصر فقيرا وما زال يرقى في الخدم حتى ولي منية بني خصيب في الصعيد ، ولما قتل الخليفة الظاهر استنجد به أهل القصر فدخل القاهرة على رأس قوة وولى الخليفة الفائز بنصر الله سنة ٥٤٩ هـ ، واستقل بأمور الدولة ونعت بفارس المسلمين نصير الدين . ولما ولي العاضد بعد الفائز سنة ٥٥٥ هـ تزوج بنت طلائع الذي استمر في الوزارة حتى دس له العاضد من قتله تخلصا من سيطرته . كان شجاعا لا يفتر عن غزو الفرنجة في البر والبحر صادق العزيمة شاعرا عارفا بالأدب ، له ديوان شعر في جزئين وأكثره في مدح آل البيت ، وله كتاب باسم « الاجتهاد في الرد على أهل الفساد » يقرر فيه قواعد التشيع . ترجم له العماد في شعراء مصر « من الخريدة ج ١ : ص ١٧٣ . وترجم له في الاعلام للزركلي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وشذرات الذهب ج ٤ : ص ١٧٧ ، والنجوم الزاهرة في عدة أماكن من الجزء الخامس .

(٢) السائم : ج سموم وهي الريح الحارة المشهورة .

يُبَارِي خِيُولًا مَا تَزَالُ كَانَهَا
يسير بها (ضِرْغَام) فِي كُلِّ (مَازِق) ورفقته (عينُ الزمان) و (حاتم)^(١)
وواجههم جمعُ الفرنج بحملة فلقوهم زرقَ الأسنّة وانطووا^(٢)
وما زالت الحربُ العوانُ أشدّها يشبههم^(٣) من لاح جمعهم له
وعادوا الى حزّ السيوف وقطّعت فلم ينج منهم يوم ذاك مخبّر
نقتلهم بالرأي طورا وتارة فقولوا لنور الدين لا قتل حده
تجهّزوا الى أرض العدو ولا تهين^(٤) فما مثلها تبدي احتفالا به ولا
فعندك من الطاف ربّك ما به أعادك حيّا بعد أن زعم الوري

إذا ما هي انقضت نسور^(٥) قشاعهم
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم و (يحيى) وإن لاقى المنية حاتم^(٦)
يهون على الشجعان فيها الهزائم عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم^(٧)
إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم^(٨) بلجة بحر موجها متلاطم^(٩)
رؤوس^(١٠) وخرّت للفرنج غلاصم^(١١) ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
يدوسهم منا المذاكي الصلادم^(١٢) ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
وتظهر فتورا انمضت منك حارم^(١٣) يعض عليها الملوك الأباهم
علمنا يقيناً أنه بك راحم بأنك لا قيت ما الله حاتم

-
- (١) ضرغام ، وعين الزمان ، وحاتم ، ويحيى . أسماء قواد هذه الحملة ، ورأسهم ضرغام .
- (٢) ناجم : ظاهر ، انسان حي . من نجم النبات اذا ظهر ونما .
- (٣) المتضاجم : المتعارك (حتى بالأسنان) من ضججه الأسد اذا نهشه .
- (٤) الغلاصم في الأصل للأسماك وشبه بها الأذان والأعناق .
- (٥) المذاكي : الخيل الكريمة السريعة (سبقت) . الصلادم : القوية ج صلدم .
- (٦) يشير الى خسارة نور الدين « حارم » في معركة مع الفرنجة . وقد كساد يقع فيها نور الدين بالأسر ولكنه نجى ثم انتصر .

بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها
 وخيّم جيش الكفر في أرض شيزر
 وقد كان تاريخ الشام وهلكته
 فقم واشكر الله الكريم بنهضة
 فنحن على ما قد عهدت نرثوهم
 وغاراتنا ليست تفتّر عنهم
 فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا
 ونرجو بأن يجتاح باقيهم به

وحلت بها تلك الدواهي العظام
 فسيقت سبايا واستحلت محارم
 ومن يحتويه أنه لك عادم
 إليهم فشكل الله للخلق لازم
 ونحلف جهدا أننا لانسلم
 وليس ينجي القوم منا الهزائم
 إليهم فلا حصن لهم منه عاصم
 وتحوى الأسارى منهم والمغانم

« ديوان أسامة ص ٢٧٢ »

أراد نور الدين غزو الكرك فأرسل الى صلاح الدين ، قائده في مصر ، يطلب
 منه موافاته إليها ، فاعتذر عن ذلك بأن الامور لم تستتب له بمصر فلا يستطيع أن
 يفارقها ، فصرف نور الدين نظره عن حصار الكرك ، وارتد غضبا .

ويظهر أن نور الدين خشي من استقلال صلاح الدين بمصر ومن عودة البلاد الى
 الفرقة ، وأن صلاح الدين خاف أن يصرفه نور الدين عن ولايتها .

وفكر نور الدين في التوجه الى مصر ، وأشار أهل صلاح الدين وسائر الامراء
 عليه بحربه اذا شاء المجيء ، ولكن والده نجم الدين أيوب خالفهم جميعا ، في الظاهر
 وطلب من ابنه الإذعان لأمر نور الدين ونصحه سرا باستعمال الحيلة .

وحلّ هذه المشكلة موت نور الدين بعلّة الخوانيق سنة ٥٦٩ هـ (ابن شداد :
 النوادر السلطانية ص ٣٧) (١) . فصفا الأمر لصلاح الدين .

وقد حزن الناس جميعا لموت نور الدين وأكثر الشعراء من المراثي فيه . وقد
 رثاه العماد الأصفهاني (٢) بقصيدة منها قوله :

(١) راجع أيضا الروضتين لأبي شامة ، ففيه تفصيلات لم يذكرها ابن شداد .
 (٢) هو ابو عبد الله محمد بن أبي الفرج محمد بن حامد . شهر بلقبه « العماد »

الدين في ظلهم لغيبة ثوره
فليندب الإسلام حامي أهله
ما أكثر المتأسفين لفقد من
ما أغوص الإنسان في نسيانه
من للمساجد والمدارس بانياً
من ينصر الإسلام في غزواته
من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للخطوب مذللاً لجماحها
من للكريم ومن لنعش عثاره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للفتوح محاولاً أبكارها
ما كنت أحسب نور دين محمد
والدهر في غم لفقد أميره
والشام حافظ ملكه وثورته
قرت نواظرهم بفقد ظهيره
أو ما كفاه الموت في تذكيره
لله طوعاً من خلوص ضميره
فلقد أصيب بركنه وظهره
من للهدى يبغي فكاً أسيره
من للزمان مسهلاً لوعوره
من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للجهاد ومن لحفظ أموره
برواحه في غدوه وبكوره
يخبو وليل الشوك في ديجوره

الكاتب الاصبهاني « ولد باصبهان ونشأ بها . تنقل في عدة بلدان ثم رتبته
نور الدين زنكي في ديوانه منشئاً سنة ٥٦٣ هـ ثم مشرفاً سنة ٥٦٨ هـ ولما
مات نور الدين حزن عليه أشد الحزن فهو يقول : « ولما توفي نور الدين
اختل أمري واعتل سري . وعلت حسادي ، وبلغ مرادهم اضدادني » .
ثم اتصل الود بينه وبين القاضي الفاضل فسعى له هذا لدى السلطان
صلاح الدين فعيّنه كاتباً له في دمشق إذا غاب القاضي الفاضل بمصر ،
وسجل في رسائله ، كالقاضي الفاضل ، حروب صلاح الدين وأقام في
مصر مدة وصفت له الحياة فيها ثم غادرها الى الشام ولزم خدمة صلاح
الدين فيها . ويظهر أنه كان يشرب ويطرب ثم أقلع عن ذلك استحياء من
القاضي الفاضل . وبعد تولي الأفضل بن صلاح الدين في المرة الثانية
اعتزله العماد ، لان المكانة الاولى صارت لابن الأثير . توفي العماد سنة
٥٩٧ هـ . اشتهر برسائله . ومن كتبه : « خريدة القصر في شعراء العصر »
و « الفتح القدسي » . وشعره متوسط لا يبلغ حد الجودة وان أعجب
به بعض معاصريه .

أعزّزْ عليّ بأن أراه مغيّباً
لهفي على تلك الأنامل إنَّها
ولقد أتى من كنتَ تجري رسمه
ولقد أتى من كنتَ تؤمنُ سربه
والجيشُ قد ركب الغداة لعرّضه
أنت الذي أحيتَ شرع محمد
كم قد أقمتَ من الشريعة معلّماً
كم قد أمرتَ بحفر خندقٍ معقل
كم قيصرٌ للروم رمتَ بقصره
أوتيتَ فتح حصونه وملكتَ عقر
أزهدتَ في دار الفناء وأهلها
أو ما وعدتَ القدس أنك منجز
فمتى تجير القدس من دنس العدا
يا حاملين سريره مهلاً فمن
يا عابرين بنعشه أنشقتهم
نزلتُ ملائكة السماء لدفنه
ومن الجفاء له مقامي بعده
حيّاك معتلّ الصبّا بنسيمه
ولبستُ رِضوانَ المهيمنِ ساحباً

عن محفل متشرّف بحضوره
مذ غيّبتَ غاضّ الندى بنحوره
فضع العلامة منك في منشوره
وقعَ له بالأمن من محذوره
فاركب أتبصره أوان عبوره
وقضيتَ بعد وفاته بنشوره
هو منذ غبتَ معرّضٌ لدثوره
حتى سكنتَ اللحد في محفوره
إرواء بيض الهند من تاموره^(١)
بلاده وسيتَ أهل قصوره
ورغبتَ في الخلد المقيم وحثوره
ميعاده في فتحه وطهوره
وتقدّس الرحمن في تطهيره
عجبٌ نهوضكم بحمل ثبيره^(٢)
من صالح الأعمال نشر عبيره
مستجمعين على شفير حريه
هلاً وفيتَ وسرتَ عند مسيره
وسقاك مثهل الحيا بدّوره
أذبال سنّدس خيزّه وحريه

(١) التامور : القلب .

(٢) ثبير : جبل عظيم .

وسكنتَ عليّين في فردوسه حلف المسرة ظافرا بأجوره

« أبو شامة ، الروضتين ١ : ٢٤٤ - ٢٤٥ »

وقد قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية في مصر وهو والٍ عليها
لنور الدين ، فقال عمارة اليمني ^(١) يرثيها :

رمىته يادهر كفّ المجد بالشلل	وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فإن	قدرت من عثرات الرأي فاستقل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سقيت مهلاً أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة	على فجيئتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها	من المكارم ما أربى على الأمل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم	ولا نجا من عذاب النار غير ولي
عمارة قالها المسكين وهو على	خوف من القتل لا خوف من الزلل

ويُرى في هذه الأبيات المختارة من قصيدة طويلة شدة نقمة الشاعر على
الدهر وعلى صلاح الدين لأنهما أزالا هذه الدولة التي كانت مصدر نعمته ،
واصراره على تأييدها وشعوره بالخطر المحدق به من جرّاء ذلك ، كما يرى حسرته
عليها واعترافه بجميلها • « الروضتين ج ١ ، ص ٢٢٣ » •

(١) شاعر جاء من اليمن سفيراً لصاحبها لدى الخلفاء الفاطميين في مصر وكان
سنتياً ولكنه مدحهم ونال هباتهم وأيد دوتهم ، ثم حاول التقرب من
صلاح الدين فلم يحظ عنده ثم تأمر عليه لارجاع الدولة الفاطمية فعوقب
مع غيره بالإعدام .

٢ - العهد الأيوبي ••

استولى صلاح الدين على دمشق ليعيد للبلاد وحدتها بعد موت نور الدين واختلاف أمرائه ، وتسلم قلعتها وفرق ما فيها من الكنوز والاموال على الناس تألقا لقلوبهم وطلب من الخليفة العباسي تقليدا يقرّه على ما بيده ، وذكر له تشتت البلاد شيعة وأحزابا واستقلال كل أمير ببلده ، ومنّاه بفتح بيت المقدس وإلا اتسع الخرق على الراقع •

وأعلمه أنه قدم لإصلاح أحوال الشام من كفلة ابن نور الدين المغلوب على أمره ، وأشار الى رغبته في أن يتضمن التقليد ^(١) شموله لمن يقيمه بعده من أخ أو ولد (ابن واصل ج ٢ : ١١٥ - ١١٧) •

وصل تقليد الخليفة اليه ، وحلب لا تزال في أيدي المتسلطين على الصالح اسماعيل ولم يوحد بعد جميع الشام فأجلّ التوجه الى حلب لوقت أفضل وعاد الى القاهرة فاغتتم حاكم الموصل رحيله ، فكاتب الفرنجة ليشغله بهم عن قصده الى توحيد البلاد ^(٢) ، فرأى صلاح الدين أن يعود ليقتضي على معارضيه ووصل الى البيرة سنة ٥٧٨ هـ ، وكاتب ملوك الأطراف بأنه من جاء منهم مستسلما سلمت له بلاده على أن يكون من جنود السلطان في جهاد الأعداء • (ابن واصل ج ٢ : ١١٥ - ١١٧) •

ونازل جند حلب بعد ذلك ثم رأى حقن دماء المسلمين فرحل عنها ، ثم اتفق مع صاحبها عماد الدين على أن يعطيه سنجار مكانها ، ثم زاده عليها الخابور ونصيبين وسروج والرقّة • وبذلك دانت لصلاح الدين بلاد الشام كلها فألغى

(١) التقليد ، في لفظة ذلك العصر ، مرسوم التعيين الصادر عن الخليفة أو السلطان .

(٢) تصرف هذا الحاكم حينئذ مثال على خيانة ذوي السلطان للأمة في سبيل كراسيهم وعروشهم وأطماعهم •

المكوس والضرائب ووزّع الاموال على أهلها كما فعل في دمشق ، (المرجع السابق نفسه) •

وجلس ليهنئه الناس فمدحه الشعراء بقصائد كثيرة منها قول ابن سناء الملك * :

بدولة الترك عزّت دولة العرب	وبابن أيوب ذلّت بيعة الصلثب
جليسة النجم في أعلى مراتبه	وطالما غاب عنها وهي لم تغب
وما نعتيه كمعشوق تمتعه	أحلى من الشهدأو أشهى من الضرب ^(١)
فمرّ عنها بلا غيظ ولا حنق	وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوي البلاد وأهلها كتائبه	طيّا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها	بمالك فطين أو سائس درب
ممالك لم يدبرها مدبرها	الا برأي خصي أو بعقل صبي

* ابن سناء الملك :

هو القاضي هبة الله بن القاضي جعفر بن سناء الملك المصري ، ولقب بالسعيد . عاصر صلاح الدين ومدحه وتوفي سنة ٦٠٨ هـ . كان من الرؤساء النبلاء ، وكان واسطة العقد في المجالس الادبية التي كان يعقدها الشعراء في أيامه ، وكان يجري فيها مفاكهاة ومحاورات لطيفة . كان منشئاً حسن الإنشاء على طريقة ذلك العهد . وهو أول من استكثر من الموشحات وأجاد فيها من المشاركة .

ومن آثاره دار الطراز في عمل الموشحات وقد طبع في دمشق سنة ١٩٤٩ بتحقيق الدكتور جودة الركابي . ومن شعره قصيدته المشهورة في الفخر ومطلعها :

سواي يهاب الموت او يرهب الردى وغيري يهوى أن يعيش مخلداً

ومن آثاره أيضاً كتاب « فصوص الفصول وعقود العقول » وهو مجموعة شعر ونثر ومراسلات أكثرها للقاضي الفاضل يمدح فيها ابن سناء الملك وأباه وجدّه ، وقد صدرها ابن سناء الملك بمقدمة يفخر فيها بهذا الدح . (له ترجمة في ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٨) .

(١) الضرب : العسل .

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت
وقد رأت صدّه عن ربّها حلب
غارت عليه ومدّت كف مفتقر
واستعطفته فوافتها عواطفه
وحلّ منها بأفق غير منخفض
فتح الفتوح بلاميّن وصاحبّه
من الفساد كما صحّت من الوصب^(١)
ووصله لبلاد الغير بالحلب^(٢)
منها اليه وأبدت وجه مكتب
وأكتب الصلح إذ نادته عن كُتب
للصاعدين وبرج غير منقلب
ملك الملوك ومولاها بلا كذب
« الديوان ، ص ٩ ، تحقيق د . عبد الحق »

وممن هنّا صلاح الدين بفتح حلب أبو طيّ النجار^(٣) والد المؤرخ الشيعي
المشهور بابن أبي طي الذي أخذ عنه أبو شامة فيمن أخذ ، قال من قصيدة له :

حلب شامة الشّام وقد زِيدت
هي أَسُّ الفخار من نال أعلا
ومحلّ العلاء من حلّ فيها
من حواها مملّكا ملك الار
فافتزّتها مهنّا بمحلّ
جلالا يوسف وجمالا
ها تعالى فخامة وتعالى
تاه كبرا وعِزّة وجلالا
ض اقتسارا سهولة وجبالا
سمك الأنجم الوضاء وطالا
« الروضتين ٢ : ٤٥ »



- (١) الوصب : المرض الشديد .
(٢) الحلب : هو الحلب والحليب .
(٣) أبو طي النجار :

هو أبو حميدة عرف عنه انه والد المؤرخ الشيعي ابن أبي طيّ الذي اخذ
عنه أبو شامة السيرة الصلاحية ، وانه عاصر الدولة الايوبية . وان أصله
من حلب وكان أحد اشراف بلدته طرده نور الدين منها لاعتناقه مبادئ
الشيعة كما امتنقها ابنه يحيى الذي وضع رسالة في فضل الأئمة الاثني
عشر .

ولم اعرف سنة وفاته . اما ابنه المؤرخ فقد توفي سنة ٦٣٠ هـ .

لم يفتر صلاح الدين لحظة عن العمل لجمع شمل الامة وتحرير بيت المقدس وغيره من البلاد إتماما للرسالة التي بدأها عماد الدين ونور الدين قبله ولا يزال منبر نور الدين ^(١) في حلب ينتظر مكانه في المسجد الاقصى • (ابن الأثير ١١ : ٢٠٩ وابن واصل ٢١ : ٢٢٨) •

وحّد صلاح الدين البلاد والامراء تحت راية الجهاد الاكبر فاستاء الصليبيون وجمعوا صفوفهم لحربه وانحاز الى جانبه منهم ريموند صاحب طرابلس •

وقد خاب صلاح الدين بعد أن تمّ له توحيد مصر والشام واليمن في أول معاركه مع الفرنجة في فلسطين سنة ١١٧٧ م ثم عاود حملاته سنة ١١٧٩ م وافتصر هذه المرة في عدة معارك أهمها معركة مرج عيون سنة ١١٧٩ م •

وكانت قوة الصليبيين لا تزال صلبة فعقد الصلح معهم مدة سنتين ثم رأى أن يتعاون مع جميع القوى الانسلامية وعقد مؤتمر سميّ ساط من أمراء الجزيرة الموصل وإربل وكيفا وماردين وقونية وملك أرمينيا واتفقوا على أن يسود السلام بينهم وألا يعادي أحدهم الآخر وأن يكونوا صفّا على العدو • كان ذلك سنة ١١٨١ م (٥٨٧ هـ) ثم أناب عنه في دمشق ابن أخيه فروخشاه وخرج الى مصر وعاد في العام التالي فودّعه مصر وداعا حافلا بالغ الحماسة وقد جاء على لسان أحدهم :

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وبالحقيقة كانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين مصر فقد انتصر في حطين وفتح القدس ولقي ربه سنة ٥٨٩ هـ دون أن يعود الى مصر •

بدأ صلاح الدين بفتح طبرية ثم تابع تقدمه واستطاع أن يتحكم في زمن المعركة ومكانها فلما لاذ الصليبيون بتلّ حِطّين أحاط بهم من كل جانب وأحرق

(١) هو منبر اوصى عليه نور الدين الاختريني امهر نجار في حلب حينئذ لينصبه في المسجد الاقصى حين يتم له استرداد بيت المقدس . وقد وافته منيته قبل أن يحقق أمنيته .

بهم عشب التل اليابس وهزمهم مجتئعين سنة ٥٨٣ هـ وبكى فرحا بعد هذه المعركة
وسجد لله شكرا وكان فيمن أسر الملك « كي » وأمير الكرك أرناط وأخو الملك
جفري ، وعدد كبير من فرسان الداوية (فرسان المعبد) والأسبتار *Hospitaliers*
والبارونية وقتلوا دهم .

وكان هذا النصر مؤذنا بفتح بيت المقدس فقد كانت هذه المعركة فاصلة في
التاريخ الاسلامي ، يقول ابن الأثير : « وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل
سنة إحدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الواقعة » .
ولم يمض وقت طويل حتى فتح بيت المقدس ونصب المنبر النوري في المسجد
الاقصى .

ذكر ابن الاثير أن هذه المكرمة لم يحققها بعد عمر بن الخطاب الا صلاح
الدين . (ابن الأثير ١١ : ٢٠١ - ٢٠٩) .

وقد أشاد الشعراء بنصر حطين وفتح القدس بقصائد كثيرة منها قصيدة
نقيب الاشراف بالديار المصرية محمد بن أسعد الحلبي المشهور بالجواني
المصري (١) وفيها يقول :

أترى مناما ما بعيني أبصر	القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي	بزواله وزوالها يتطهر
ومليكتهم في القيد مصفود	يتركب ذاك لهم ملك
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعيد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد	ماذا يقال له وماذا يذكر
يايوسف الصديق أنت لفتحها	فاروقها عمر الإمام الأطهر

(١) محمد بن أسعد الحلبي المشهور بالجواني المصري يكنى أبا علي توفي سنة
٥٨٨ هـ . كان نقيب الاشراف . له « شجرة رسول الله » في النسب
النبري مع ملاحظات تاريخية . ومنها نسخة في برلين .

ملك غدا الإسلام من عجب به
 ثر وظم طعنه وضراجه
 حيث الرقاب خواضع، حيث العيو
 غاراته جمع فان خطبت له
 إذ لا ترى الا طلى بسنابك
 وصوفنا تختار أن تطأ الثرى
 تمشي على جث العدا عرجاً ولا
 يختال والدنيا به تتبخر
 فالرمح ينظم والمهند يشر
 ن خواشع حيث الجباه تغفر
 فيها السيوف فكل هام منبر
 تحذى نعالاً أو دماء تهدر
 فيصدوها عنه طلى وسنور
 عرج بها لكنها تتعثر
 «الروضتين، ٢: ١٠٥»

ومن الشعراء المهنيين بالفتح بن سناء الملك^(١) ومن قوله :

لست أدري بأي فتح تهنّا
 أنهيك اذ تملك شامّا
 قد ملك الجنان قطرا فقطرا
 إن دين الاسلام من على الخلق وأنت الذي على الدين منّا
 لك مدح على السماوات ينشأ
 شاق جبريل بيت جبرين حتى
 تخرج الساكنين منه ، ورب البيت
 كم تأنى النصر العزيز على الشا
 قمت في ظلمة الكريهة كالبد
 لم تقف قط في المارك الا
 تجتني النصر من ظباك كأن ال
 يا منيل الاسلام ما قد تمنى
 أم تهنيك اذ تملك عدنا
 اذ فتحت الشام حصنا فحصنا
 ومحل فوق الأسنة يبنى
 جاء يسعى اليه شوقا وحنّا
 في يته أحق بسكنى
 م ولما نهضت لم يتأثّا
 ر سناء والبدر يطلع وهنّا
 كنت يا يوسف كيوسف حسنا
 غضب قد صحفوه فصار غصنا

(١) سبقت ترجمته .

قصدت محوَك الأعادي فردَّ الله ه ما أمْلوه عنك وعنا
 حملوا كالجبال عِظْما ولكنَّ جعلتها حمّلات خيلك عِهْنا (١)
 جمعوا كيدهم وجاؤوك أركا نا فمن هدَّ فارسا هدَّ ركنّا
 لم تلاقِ الجيوش منهم ولكنَّك لا قيتهم جيالا ومدنا
 كلُّ من يجعل الحديدَ له ثو با وتاجا وطيلسانا ورؤدنا
 خانهم ذلك السلاحُ فلا الرم ح يغني ولا المهْدُ طنّا
 وتولّت تلك الخيولُ ولم يثْنِ عليها بأنّها ليس تثني
 وتصيّدتهم بحلقة صيدٍ تجمع الليث والغزال الأغنا
 وجرت منهم الدماءُ بحارا فجرت فوقها الجزائرُ سقنا (٢)
 صنعت فيهم وليمة عرس رقص المشرقيّ فيها وغنى
 ظل معبودهم (٣) لديك أسيرا مستضاما فاجعل له النار سجنا
 صلبوا ربّهم فلم يثْنِ عنهم من يرى بعد صلبه قطّة أغنى ؟
 وجوى الأسر كلّ ملك يظنّ الد هرّ يفنى ومثلكه ليس يفنى
 ظنّ ظنّا وكنت أصدق في الله يقينا وكان أكذب ظنّا
 كم تمنى اللقاء حتى رآه فتمنّى لو أنه ما تمنى
 زق من رحمة له القيد والغل عليه فكلّما أنّا
 واللعين الإبريس أصبح مذبو ح يمين لم تعدم الدين يثما
 أنت ذكيتَه فوقيت نذرا كنت قدّمته فجوزيت حسنا
 وتهادت عرائس المدن تجلى وثمار الآمال فيهنّ تجنى

(١) العظم : ضد الصفر ، والعهن : الصوف .

(٢) الجزائر : ج جزور وهو الشاة المذبوحة أو الناقة .

(٣) المعبود هنا صليب الصلبوت .

لا تخشُ السَّامَ منك التهانى كل صقعر وكل قطر يهنّا
قد ملكت البلاد شرقا وغربا وحويت الآفاق سهلا وحزنا
واغتدى الوصف في عثلك حسيرا أي لفظ يقال أو أي معنى
« ديوان ابن سناء الملك (خ) قافية النون دار الكتب المصرية »

لقد اقام صلاح الدين بعد فتح القدس دولة كبرى ، ولكنه لم يكتف بذلك
فقد كان يخشى من كيد الاقطار المجاورة لدولته وتهديد أمنها ولذلك رسم خطة
لمهاجمة بلاد الروم وبلاد الفرس معا وكان ينوي أن يرسل أخاه العادل وبعض أولاده
الى « خلاط » لمهاجمة المشرق الفارسي وأن يتوجه هو بنفسه الى بلاد الروم (ابن
الأثير ١١ : ٣٧ وابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ٢ - ٣) •

ولم يكن يريد أن يكتفي بذلك بل كان يطمح لركوب البحر ليستولي على
جزائره التي كانت محطات ومنطلقات للجيوش الصليبية الآتية من البحر ولقد أسر
بذلك الى قاضيه بهاء الدين بن شداد • (ابن شداد : ١٧ و ابن واصل ٢ : ٤٣٢ -
٤٣٣) •

ولكن المنية عاجلته سنة ٥٨٩ هـ وهو في دمشق دون أن يحقق هذه الامنية
العظيمة •

وكان موته عظيما على الناس فضجوا بالبكاء وودوا صادقين لو يفدّونه
بالنفس وقد صور القاضي ابن شداد حالهم وحاله (الروضتين أبي شامة ، ٢١٣ نقلا
عن النوادر السلطانية لابن شدّاد) قال :

« وكان يوما لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي
القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه الا الله تعالى ، وتالله لقد كنت أسمع من
بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب
من التجوز والترخص الى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبِل
الفداء لفداه بالنفس ... وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن
والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر الى غيره ... »

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى إنَّ العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً ، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة » .

وعبر الشعراء عن أحزان الناس وأحزانهم في مرثيتهم لصالح الدين ومنهم العماد الأصفهاني (١) ومن مرثيته فيه قوله (٢) :

شمل الهدى والمثلِّك عمّ شتاتّه	والدهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مئذٍ لم يزل مخشيةً	مرجوةً رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا	مذولةً ولربّه طاعاته
بالله أين الناصرُ الملك الذي	للّه خالصةً صفت نيّاته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا	يرجى نداءه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضلّه	وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه	ذلاً ومنهما أدركت ثاراته
أغلالُ أعناقِ الهوى أسيافه	أطواقُ أجْيادِ الورى مِنّاته
لم يثجّدِ تديرُ الطيب وكم وكم	أجّدت لِطّبِ الدهر تديراته
مَن في الجهاد صِفاحه ما اغمدت	بالنصر حتى أغمدت صفحاته
لذّ المتاعب في الجهاد ولم تكن	مذ عاش قطك ليدّاته لذّاته
لا تحسبوه مات شخصٌ واحد	فسمات كل العالمين ممّاته
ملك عن الإسلام كان محامياً	أبداً إذا ما أسلمته حُمّاته
قد أظلمت مئذٍ غاب عنها نورُه	لما خلت من بدره داراته
الدينُ بعد أبي المظفر يوسف	أقوت قُتّواه وأقُتت ساحاته

(١) سبقت ترجمته .

(٢) تبلغ القصيدة ثلاثين ومئتي بيت (عن كتاب الروضتين) .

أركاننا وتهدنا هداته
يَهوي ولا تهوي بنا مهواته
فينا يُطَمُّ^(١) وتنتهي زخراته
مُتَعَطِّف مَفْضُوزَة صدقاته
في ذِكْره مِنْ ذِكْره آياته
رضوانٌ ربُّ العرش بلْ صلواته
تَحْضُرُ لرحمة ربه سَقِيَّاته
مَنْ لِلجِهَاد ولم تعد عاداته
من سُبُلها وركوبها غزواته
لا تتضيها للوغى عزَماته
أَسَدٌ وإنَّ بلادَه غاباتَه
فكأنَّما سنواته ساعاته
يُبدِي السُّبُباتَ وقد بدت غَشِيَّاته
والوجهُ منه تَلَالُت سَبَحَاتَه^(١)
في مرَّضة حصلت بها مرَّضاته
منه الذُّباب وأسلمته رُمَعَاتَه
دِينا تولى مذ رحلت وولاته
مَنْ تُصَاب لشدَّة ضَجَرَاتَه
فوق السَّماءِ عِلِّيَّةٌ درجَاتَه
ووصلت ملكا باقيا راحاته

جَبَلٌ تَضَعُوعٌ مع تَضَعُوع ركنه
ما كنتُ أعلمُ أنَّ طودا شامخا
ما كنتُ أعلمُ أنَّ بحرا طاميا
مَنْ لِلتَّامِي والأرامِل راحمٌ
لو كان في عصر النبي لَأُنْزِلَتْ
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
ليُضْرِيحَه سَقِيَا السَّحَابِ فإنَّ يَغْبِ
مَنْ لِلشُّعُورِ وقد عَدَّاهَا حَفْظُهُ
بَكَتِ الصَّوَارِمُ والصَّوَاهِلُ اذْخَلَتْ
ياوحشتا للبيض في أغمادها
ملأت مهابته البلاد فائته
ما كان أسرعَ عصره لَمَّا انقضى
لم أنسَ يوم السبت وهو لِمَابِه
والبشر منه تَبَلَّجَتْ أنوارُه
ويقولُ لله المهيمن حكمة
يا راعيا للدين حين تمكَّنتُ
ما كان ضرُّك لو أقمت مراعيا
أضجرتُ منّا أم أفت فلم تكن
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فارقتُ ملكا غيرَ باقٍ متعبا

(١) يطم : يوارى التراب .

(٢) السبحات : ج سبحة وهي الدعاء والسبحات أيضا : الانوار .

أَعِزُّزْ عَلَى عَيْنِي بِرُؤْيَا بِهَجَّةِ الدِّ
نِيَا وَوَجْهَكَ لَا تُرَى بِهَجَاتِهِ
أَبْنِي صِلَاحَ الدِّينِ إِنَّ أَبَاكُمْ
مَا زَالَ يَأْبَى مَا الْكَرَامُ أَبَاتِهِ
لَا تَقْدُوا إِلَّا بِسُنَّةِ فَضْلِهِ
لِتَطِيبَ فِي مَهْدِ النِّعَمِ سَنَاتِهِ
«أَبُو شَامَةَ، الرُّوْضَتَيْنِ ٢: ٢١٥-٢١٦»

واختلف أبناء صلاح الدين بعد موته واستطاع عمّهم الملك العادل أن يؤجج الخلاف بينهم وأن يستفيد منه وأن يوحد البلاد تحت رايته وراية أبنائه من بعده. ولقد أسي القاضي الفاضل لما أصاب قصر العزيز بن صلاح الدين فرثاه بالأبيات التالية :

(أبو شامة ٢: ٢٣٨ وابن كثير : البداية والنهاية ١٣: ٧) •
وقفنا على قصر العزيز وقد عفا
نعيب عليه الدهر لما تحكما
بكيت له دمعاً ولو كنت منصفاً
بكيت دماً والدمع ضرب من الدما
عزيز علينا أن نراك على البلى
تراباً نهى المشغوف أن يتيماً
وكم قد وجدنا فيك راحة راحة
تقبّل إذ تعطي حطيماً وزمزماء
وقل يا ديار الطاعنين برغمنا
وعهدك أن أضحي لك الدهر مرغماً
«ديوان القاضي الفاضل ص ١٤»

ويتبيّن من هذه الأبيات حسرة الشاعر على ما أصاب هذا القصر ، وتمنّيه ألاّ يكون قد حصل ذلك ، وحينئذ إلى النعمة التي كان يحظى بها فيه ، ولومه الدهر على ما أنزله فيه من كوارث • وهذا الشعر سياسي الطابع •

وقد هاجم الصليبيّون ثغر دميّاط سنة ٦١٦ هـ في زمن الملك الكامل ، ولكنهم هزموا أخيراً هزيمة منكرة • وكانت هذه هي الحملة الثانية على البلاد • بعد وفاة صلاح الدين • وقد غيّرُوا في هذه الحملة خطّتهم فهاجموا ساحل مصر ، لا ساحل الشام • كما كانوا يفعلون من قبل ، متخذين منه منطلقاً لتوسّعهم • لأنّهم رأوا أن مصر هي مصدر الامداد الرئيسي بالرجال والعتاد والمواد التموينية

• وأنها مركز الثقل • (ابن الأثير ١٢ : ٨٧ و أبو شامة : ذيل الروضتين : ١١٦) •

قال قاضي غزوة هبة الله بن مخاسن ^(١) مهناً الملك الكامل بنصره في دمياط :

هنيئاً فإنَّ السعد جاء مخليداً وقد أنجز الرحمن بالنصر موعداً
 حباناً آله الخلق فتحاً لنا بداً مييناً وإنعامها وعزاً مؤيَّداً
 تهلَّل وجه الأرض بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسوداً
 ولمَّا طغى البحر الخضمَّ بأهله السطغة وأضحى بالمراكب مژَّباداً
 أقام لهذا الدين من سلَّ عزمه صقيلاً كما سلَّ الحسام المهنَّداً
 فلم ينبج إلاَّ كلَّ شلَّوٍ متجندلٍ ثوى منهم أو من تراه مقيَّداً
 ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً عقيرته في الخافقين ومنشداً
 أعباد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمَّداً

« النجوم الزاهرة ٦ : ٢٧١ »

وأسنوا ما جرى خلال هذه الحملة تأمر الأشرف موسى صاحب « ميفارقين »
 وبلاد الجزيرة مع أخيه الملك الكامل على عزل ابن أخيها الناصر داود عن دمشق
 ليتولى أمرها الأشرف ، وقد تهادنا لذلك مع ملك الفرنجة واتفقا معه على تسليم بيت
 المقدس إليه لقمة سائغة ، فتشرَّد سكَّانه وتفرقوا من دمشق ومصر والكرك ، ولم
 يغتفر الناس للكامل وأخيه هذه الفعلة برغم انتصاره في دمياط ، والحق أنَّها نكراء
 لا تغتفر • (المرجعان السابقان نفساهما ابن الأثير وأبو شامة) مقال شهاب الدين
 ابن المجاور * في ذلك :

(١) لا نعرف شيئاً عن حياته . وقد نسبها د . أحمد أحمد بدوي إلى الشاعر

الحلتي ولم يذكر اسمه ولمَّله شميم الحلتي .

* لا نعرف شيئاً عن حياته .

أعيني لا ترقى من العبرات
 لعل سيول الدمع يطفى فيضها
 ويا قلب أسعِر نارَ وجدك كلما
 ويا فم بَحْ بالشجو منك لعلّه
 على المسجد الأقصى الذي جلّ قدره
 على سلّم المعراج والصخرة التي
 على القبلة الأولى التي اتجهت لها
 على خير معمر وأكرم عامر
 وما زال فيه للنبيين معبد
 عفا المسجد الأقصى المبارك حوله
 عفا بعد ما قد كان للخير موسما
 يوافي إليه كل أشعث قانت
 خلا من صلاة لا يملّ مقيمها
 خلا من حنين التائبين وحزنهم
 لتبك على القدس البلاد بأسرها
 لتبك عليها مكّة فهي أختها
 لتبك على ما حلّ بالقدس طيبة
 لقد أشمتوا عكّا وصورا بهدمها
 لقد شتّتوا عنها جماعة أهلها

صلي في البكا الآصال بالبكرات
 توقّد ما في القلب من جمرات
 خبت بادّ كارم يبعث الحسرات
 يروح ما ألقى من الكربات
 على موطن الإخبات والصلوات (١)
 أنافت بما في الأرض من صخرات
 صلاة البرايا في اختلاف جهات
 وأشرف مبني لخير بناة
 يوالون في أرجائه السجّادات
 الرافع العِمّاد العالي الشرفات (٢)
 وللبر والإحسان والقرّبات
 لمولاه برّ دائم الخلوات
 توشّح بالآيات والشوّرات
 فمن بين ثوّاح وبين بشكاة
 وتعلن بالأحزان والترحات
 وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
 وتشرحّه في أكرم الحجّرات
 ويا طالما غادتهما بسمات
 وكلّ اجتماع مؤذنّ بشتات

(١) الاخبات : الخشوع .

(٢) اخطأ نحويا في كلمة العالي اظهر عليها الضمة وهي منقوصة وكان يمكن ان يتخلص من ذلك بأن يستبدل بها كلمة السامق أو الشاهق .

وقد هدموا مجد الصّلاح بهدمها
وقد أحمدا مجداً وصيتاً أثاره
أما علمت أبناء أيّوب أنهم
وأنّ افتتاح القدس زهرة ملكهم
فمن لي بنوّاح ينحن على الذي
يردّدن يتّاً للخزاعيّ قاله
« مدارس آيات خلت من تلاوة
وقد كان مجداً باذخ الغرّمات (١)
لهم عظم ما والوّا من الغزوات
بمسعاته عدّوا من السّروّات
وهل ثمرٌ إلّا من الزّهرات
شجاني بأصواتٍ لهنّ شجاة (٢)
يؤبّن فيه خيرة الخيرات (٣)
ومنزل وحيّ مقفّر العرّصات »

(شفاء القلوب : ٨٠ والسلوك ج ١ ، ق ١ : ٣٢٣ والروضتين ٢ : ٢٠٥)
وقد مرّ أحد الشعراء على القدس وهي في يد الفرنجة أثناء احتلالهم الثاني
لها فقال * :

مررت على القدس الشريف مسلّماً
ففاضت دموع العين مني صباة
وقد رام عيلاج أن يعفّي رسومّه
فقلت له شئت يمينك خلّها
فلو كان يهدى بالنفوس فديته
على ما تبقي من ربوع كأنجم
على ما مضى من عصرنا المتقدّم
وشمر عن كفيّ لئيم مذمّم
لمعتبر أو سائل أو مسلم
بنفسي ، وهذا الظنّ في كل مسلم

خلف الكامل في مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيّوب . وفي عهده
جاءت الحملة الثالثة بعد موت صلاح الدين الى مصر ، وكانت بقيادة لويس التاسع
فاستولت على دمياط سنة ٦٤٧ هـ وكان الملك الصالح معسكراً عند المنصورة مريضاً

-
- (١) الصّلاح هنا صلاح الدين وفي اللفظة تورية .
(٢) لاحظ الخطأ النحوي في قوله بنوّاح ينحن .
(٣) الخزاعي هو الشاعر مسلم بن الوليد صريع الفواني وخيرة الخيرات
الحسين بن علي رضي الله عنهما .
* النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤٥ في الحاشية ، ذكر المحقق أنها لمجد الدين
محمد بن عبد الله الحنفي قاضي الطور نقلاً عن الدليل على الروضتين ،
وعقد الجمان ، وشذرات الذهب .

مشرفاً على الموت ، ولم تبدِ دمياط مقاومة لأنَّ الجند الموكِّلين بالدفاع عنها
فرّوا والتحقوا بملكهم ، تاركين المدينة لقمة سائغة للعدوِّ فها م الناس على وجوههم ،
وسلبهم قطاع الطريق ثيابهم ، غير أنَّ مصر استعادت رباطة جأشها وهدوءها سريعاً .

كتب لويس التاسع الى السلطان الصالح نجم الدين أيُّوب الكتاب التالي :

« أما بعد فإنَّه لم يخفَ عنك أني أمين الأمة العيسويَّة ، كما أني أقول إنَّك
أمين الأمة المحمديَّة ، وإنَّه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا
الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمِّل النساء
والبنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت
لك النصيح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكلِّ الإيمان ، وأُدخلت عليَّ (مع)
القسوس والرهبان ، وحملت قدَّامي الشمع طاعة للصلبان ، ما ردَّني ذلك عن
الوصول إليك ، وقتالك في أعزِّ البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لي فيأهديَّة
حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليَّ فيدك العليا ممتدَّة إليَّ ، وقد
عرَّفتك وحدَّرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم
كعدد الحصى وهم مرسلون إليك » .

فأجاب السلطان عليه ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، (لحاله من المرض
والإشراف على الموت) ، بكتاب خطَّه القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب
الانشاء :

بعد البسملة والصلاة على النبي :

« أمّا بعد فإنَّه وصل كتابك ، وأنت تهدِّد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ،
فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منّا قيرَناً إلاَّ جدَّ دناه ، ولا بغى علينا باغٍ إلاَّ
دمرناه ، فلو رأت عيناك أيها المغرور - حدَّ سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحتنا
منكم الحصون والسواحل ، وإخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن
تعصَّ على أناملك بالندم . ولا بدَّ أن تزلَّ بك القدم في يومٍ أوَّلَه لنا وآخره
عليك فهالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون . »

فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أوّل سورة النحل : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وكن على آخر سورة ص : (ولتعلمنّ نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) • « • (المقرئ ، خطّ ، ١ : ٣٥٤) •

يلاحظ على الكتّابين : ١ - طابعهما الديني ، ٢ - أن كلا من الفريقين يحاول تحطيم معنويّات الفريق الآخر ويهوّل عليه أمر نفسه ، ٣ - أن كتاب لويس التاسع (القديس لويس) يتّسم بالتعالي وذكر ما كان يفعله الصليبيون بالمسلمين من إبادة وفظائع وأن كتاب الملك الصالح يتّسم بالاعتزاز بشدة القتال وحسن الدفاع •

ولم يلبث الملك الصالح أن مات ، وجنده يستعدّون للمعركة ، وبينهم المماليك الذين كان قد استكثر في حياته من شرائهم •

وهنا ظهر دهاء زوجته شجرة الدر فقد كتبت موته عن الجند والناس حتى لا يطمع الفرنجة في المسلمين فيسرعوا الى شنّ الهجوم عليهم وهم دون قائد ،

واستدعت ابن زوجها ، الملك المعظم توران شاه ، من حصن « كيفا » ، فنازل المصليبيّين ، وانتصر عليهم في فارسكور والمنصورة ، وأسر ملكهم لويس التاسع ، وسجنه في دار القاضي ابن لقمان مكبلاً بقيد من الذهب ، ووكل أمره إلى الطواشي صبيح ، وأسر معه أخاه وثلاثين ألفاً من جنوده ، ثمّ افتدى لويس نفسه بأربعمائة ألف دينار فأثر ممالك الملك الصالح ، وهم القوّاد ، زمن توران شاه ، أن يطلقوه بهذه الفدية لحاجتهم الى المال ، وكان ذلك خطأ منهم ، لما يمكن أن يكون له عليهم من خطر بعد ، وقد استحقّق الأسير نفسه هذا التصرف منهم •

(النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٦ و ٣٩٤ وأبو شامة ، ذيل الروضتين : ١٨٤)

وقد عبّر أحد الشعراء عن فرحة المسلمين بالنصر في المنصورة فقال :

قُلْ للفرنسيس إنَّ كلاً
لأنَّه محسن الإنسا
ساق الى مصر ما اقتتته
وأورد الجمع بحر حرب
ورام باباهم أمورا
وأذهل القوم هول حرب
لم تعم أبصارهم ولكن
فإن يعد طالباً لثأر
فذلك البحر تعرفوه
أعاده الله عن قريب
بحيث لم تبق للنصارى
ويستريح المسيح منهم
من أمة المسلمين شاكر
بقوده نحونا العساكر
أمة عيسى من الذخائر
مصدره بالمنون آخر
فأخلفت ظنة المقادر
تشخص من فرقته النواظر
قد عيت منهم البصائر
من أرض دمياط فليبادر
والسيف ماض منه وحاضر
لمثلها إنَّه لقادر
من بعد كسر الصليب جابر
من كل عِلج وكل كافر
« فوات الوفيات ١ : ٨٤ »

ويرى الدكتور بدوي (الحياة الأدبية : ٤٨٢) أن هذه الأبيات قيلت في المناسبة نفسها التي قيلت فيها أبيات جمال الدين بن مطروح التالية :

وقد بلغ الناس والحكام في مصر أن لويس التاسع يهيء حملة جديدة لغزو مصر فتهيا الجيش والناس لحربه وظم ابن مطروح في ذلك أبياته الآتية ، ولكن ملك الفرنسيين لم يأت مباشرة الى مصر وانما هاجم تونس وبقي فيها ستة أشهر ، غير أنه مرض فيها مرضاً شديداً ومات وبذلك انتهت حملته هذه بالخيبة وقد قال شاعر تونسي حين مجيئه الى تونس :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهَّبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصِيرُ

لكَ فيها دارُ ابنِ لُقمانَ قبراً وطواشيكَ منكراً ونكيراً (*)
« الحياة الأدبية • د • بدوي ص ٤٧٩ »

قال : جمال الدين بن مطروح^(١) (٥٩٢ - ٦٤٩ هـ)

* يلاحظ على البيتين أن ما فيهما من أسلوب ومعنى وسخرية قريب من أبيات ابن مطروح الآتية ويتجلى فيهما الشعور بالوحدة بين البلدين المذكورين وبالوحدة بين بلاد المسلمين بعامة . ويذكر المقرئ (السلوك ١ : ٣٦٥) وابن تفرج بردي (المنهل الصافي « خ » ورقة ٣٦٠) أنهما لأحمد بن اسماعيل الزيات التونسي .

(١) هو ابن الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم . ولد في الصعيد بمدينة أسيوط وأخذ فيها مبادئ العلم من قرآن وحديث وعلوم العربية ، ثم أتم علومه بالأزهر وانعقدت صداقة متينة بينه وبين البهاء زهير الشاعر في مدينة قوص بالصعيد حيث ضمهما بلط أميرها مجد الدين بن اللمطي ، ثم انتقلا إلى القاهرة حيث اتصل بكبار رجال الدولة الأيوبية زمن الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب . تقدم ابن مطروح في أعمال الدولة واشترك في بعض الحوادث المهمة وتولى نظارة الجيش وتنقل مع الملك الصالح أيوب في المدن المفتوحة في الجزيرة في شمال شرق الشام ، وكان مناصراً للصالح أيوب على أخيه العادل بن الكامل . ونراه يمدح الناصر داود حين انتصر على الفرنجة واسترد منهم القدس ، وذلك في قوله :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا الكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصر " طهره أولاً وناصر طهره أخيراً

وحين عاد الصالح إلى حكم مصر عين ابن مطروح وزيراً وأميراً في دمشق ولكن حدثت بينهما جفوة في آخر حياة الملك الصالح . ولما مات لزم ابن مطروح بيته ثم فقد بصره وعاش بائساً . وقيل أنه أوصى أن يكتب على قبره هذا الدوبيت وهو من نظمه :

أصبحتُ بقعر حفرتي مرتهناً لا أملك من دنياي إلا الكفنا
يا مَنْ وسعتْ عبادَه رحمتَه من بعض عبادِك المسيئين أنا

آثاره : له ديوان شعر مطبوع غير محقق وبعض دويطات •

قل للفرئيس اذا جئتـه
آجرك الله على ما مضى
قد جئت مصرأ تبتغي أخذها
فساقلك الحين الى أدهم
وكل أصحابك أودعتهم
خمسون ألفاً لا يرى منهم
فردك الله الى مثلها
إن كان باباكم بذا راضياً
فاتخذوه كاهناً إله
وقل لهم إن أضروا عودة
دار ابن لقمان على عهدا

مقال صدق من قول فصيح
من قتل عبأد يسوع المسيح
تحسب أن الزمر يا طبل ريح
ضاق به عن ناظريك الفسيح
بقبح أفعالك بطن الضريح
الا قتل أو أسير جريح
لعل عيسى منكم يستريح
فرب غبن قد أتى من نصيح
أنصح من شق لكم أو سطيح
لأخذ ثأر أو لقصد صريح
والقيد باق والطواشي صريح

« الديوان ، ص ١٨١ » و « ابن إياس ، بدائع الزهور ١ : ٨٧ »

٣ - العهد المملوكي الاول :

اجتاح التتار بغداد وقتلوا الخليفة وفعلوا ما فعلوا ، ممًا هو مشهور ، فقال
الشيخ تقي الدين إسماعيل التنوخي^(١) في رثاء بغداد بعد نكبة المغول « النجوم
الزاهرة ٧ : ٥١ »^(٢) :

١ - لسائل الدمع عن بغداد أخبار
٢ - يا زائرین الى الزوراء لاتفیدوا
٣ - تاج الخلافة والربع الذي شرفت

فما وقوفك والأحباب قد ساروا
فما بذاك الحمى والدار ديثار
به المعالم قد عفاه إقفار

(١) لا نعرف شيئاً عن حياته .

(٢) تبلغ القصيدة ٦٦ بيتاً .

- ٤ - أضحى لِعَطْفِ البلى فيه ربه أثر
٥ - ناديتُ والسبي مهتوكُ "يجرهم"
٦ - وهم يساقون للموت الذي شهدوا
٧ - يا لرجال لأحداثٍ تحدّثنا
٨ - من بعد أسر بني العباس كلّهم
٩ - مارق لي قطّ شيءٌ بعد بيّتهم
١٠ - لم يبقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا
١١ - إنّ القيامة في بغداد قد وجدت
١٢ - آل النبي وأهل العلم قد سبّوا^(١)
١٣ - ما كنتُ آملُ أنْ أبقى وقد ذهبوا
- وللدموعِ على الآثار آثار
الى السّفاح من الاعداء دعّار
النارُ يا ربّ نصلّاها ولا العار
بما غدا فيه ، إعدار ، وإنذار
فلا أنارَ لوجه الصبحِ إسّفار
إلا أحاديثُ أرّوها وآثار
سُوقٍ لمجد وقد بانوا وقد باروا
وحدها حينَ للإقبال إدار
فمن تُرى بعدهم تحويه أمصار ؟
لكن أبى دون ما أختار أقدار

ثم اجتاحت جيوش هولاكو الشام بعد أن دمرت بغداد وسائر مدن العراق وارتكبت من الفظائع ما يخجل منه التاريخ ووجه الانسانية . وحين هاجمت حماة ولم يجد الملك المنصور أنه يستطيع صدّها ذهب الى مصر بجيشه ليعود مع الجيش المملوكي مقاتلا . وأرسل قائد التتر المنتصر من الشام كتابا الى سيف الدين قطز الملقب بالملك المظفر يهدّده فيه ويحاول ارهابه ، ولكن قطز لم يبال به وأهان رسوله وأرسل اليه أن الجواب ما سيراه خلال الحرب . وسار قطز بجيشه ، وكان بين قواده بيبرس ، وخطب في جنده قبل المعركة ، وكان على رأسهم في خوض غمارها يضرب بسيفه ويصيح « وا إسلاماه » ، فانتصر على التتار انتصارا حاسما في عين جالوت . وفي هذا اليوم كسرت شوكة التتار أول مرة ولم يكونوا قد ذاقوا مرارة الهزيمة من قبل فانسحبوا من ديار الشام . وسار هو الى دمشق التي رحبت به^(٢) ، وطلب منه في هذه الأثناء قائده بيبرس أن يولّيه حلب فلم يوافق على ذلك . وخلال عودته الى مصر وبينما كانت تعد له الاستقبالات الفخمة في القاهرة صاح مناد في

(١) يرى . د . أحمد أحمد بدوي احتمال تحرّفها عن قتلوا .

(٢) تاريخ ابن إياس في حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

الجيش لقد توفي سلطانكم الملك المظفر فترحموا عليه وادعوا بالنصر للسلطان الجديد الملك الظاهر بيبرس . ولم يمت الملك المظفر موتاً طبيعياً وإنما اغتاله بيبرس متعاوناً مع بعض القواد ، بينما كان يتسلى بالصيد في عودته ، بطريقة تركت في صفحة بيبرس لطحنة سوداء ، لكن المالك كانوا قد ألفوا مثل هذه الاغتيالات . (ابن تغري بردي : المنهل الصافي (خ) ٣ : و ٢٩ - ٣٠ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ : ٢٢٠ - ٢٢٤ والسلوك ١ : ٤٣٧ و ٤٨٠) . ومن المؤسف ألا ينال هذا السلطان العظيم حقه ، لا في الأدب ولا في التاريخ . ولم يصل إلينا في مدحه إلا بضعة أبيات . ومدح بهذه الواقعة أحد مرافقيه وهو الملك المنصور . ومما قاله فيه الشرف الأنصاري (١) :

(١) هو صاحب شرف الدين شيخ شيوخ حماة أبو محمد عبد العزيز بن محمد المشهور بابن الرقاء . ولد في دمشق سنة ٥٨٦ هـ ، وهو عربي صميم من قبيلة الأوس الانصارية ، وكان أهله يقيمون في كفر طاب ، ولما هاجم الروم والصليبيون هذه المدينة انتقل أبوه إلى دمشق ثم إلى حماة حيث ولّي أوقاف الملك المنصور الأول وفي الوقت نفسه أوقاف الخليفة . وكان الشاعر معجباً بأبيه ، كما كان طموحاً إلى المعالي . رحل في طلب العلم إلى العراق وتجول في ديار الشام ، وعلت منزلته العلمية . وقد طلب منه الاجازة كثيرون من النوابغ منهم سبط بن الجوزي . وكان الملوك والعظماء يحترمونه . مدح الملك المنصور الأيوبي في حماة ، وكان من أنصار المظفر الثاني ابنه ضد أخيه « قلج أرسلان » فجعله المظفر وزيره حين استرد ملكه في حماة . أسهم شرف الدين في توطيد الصلات بين ملوك مصر والشام ببعده نظره وشعوره بضرورة الوحدة السياسية ، وحين غزا التتار سورية ، فرّ الملك المنصور إلى مصر مستنجداً بالسلطان قطز وكان إلى جانبه في الحرب حين انتصر عليهم في عين جالوت فهناه الشاعر ومدحه بقوله :

رعت العدا فضمنت ثلّ عروشها ولقيتها فأخذت قلّ جيوشها
وكان محترماً لدى السلاطين والعظماء حتى إن الملك الناصر سار في وداعه وهو يغادر حلب إلى حماة . واستمر على عمله حتى توفي أيام المظفر الثالث سنة ٦٦٢ هـ ودُفن في حماة . له ديوان شعر توجد منه نسخة بخطه في مكتبة بايزيد في استانبول ، ولكنه لا يجمع كل شعره وهو مرتب بحسب الأبجدية ، وذكر الصفدي أن له ديواناً آخر في لزوم ما لا يلزم ويظهر أنه نظم في آخر حياته .

وذكر صاحب كشف الظنون كتابين آخرين له أحدهما « نظرة المعشوق إلى وجه المعشوق » وقد فضل الزركشي أن تكون التسمية بالعكس والآخر « تذكّار الواجد بأخبار الوالد » .
« عن مقدمة ديوان الشرف الأنصاري ، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، بتحقيق الدكتور عمر موسى باشا » و « الصابوني ، تاريخ حماه : ١٣١ » .

رعت العدا فضمنت ثلّ عروشها
 لله درّ كتيبة ملمومة
 جنبتها نغم القيان معوضا
 نازلت أملاك التار فأنزلت
 صمّت عن الإندار حتى أوجرت
 روّيت أكباد القنا بدمائهم
 فتشن غلّف قلوبهم عن غلها
 أقدمت مقتحما على نشابها
 فكأنها بالنبل من نشابها
 دارت رحي الحرب الزّبون عليهم
 فقت الملوك ببذل ما تحويه اذ
 نزلت على ماتر تضيّه ، ولو أبّت
 وطويت عن مصر فسيح مراحل
 حتى حفظت على العباد بلادها
 فرشت حماة لوطء نعلك خدّها

ولقيتها فأخذت فلّ جيوشها
 تبغيك حين حملت في جاليشها (١)
 بتردد الاصوات من شاوئشها (٢)
 عن فحلها قسرا وعن اكديشها
 صمّا تفتّح مسمعي أطروشها
 لما أطال سيواك في تعطيشتها
 عمري ، لقد بالغت في تفتيشتها
 تكسو الجياد رياشها من ريشها
 أهدت اليك لآلئنا من كيشها (٣)
 فعدت رؤوسهم حطام جريشتها
 ختمت خزائنها على منقوشها
 أركبتها قهرا ظهور نعوشها
 ما بين بركتها وبين عريشتها (٤)
 من رومها الأقصى الى أحبوشها (٥)
 فوطئت عين الشمس من مفروشها

- (١) الجاليش : لفظة أعجمية معربة معناها الراية التي في رأسها خصلة من الشعر وبينها بهذا المعنى وبين كلمة شاليش العامية المستعملة في ديار الشام اليوم صلة . وكان المماليك يطلقونها على الطليعة من الجيش والمجاز هنا واضح بين شاليش الشعر وجاليش الجيش .
- (٢) الشاوئش : كلمة تركية تستعمل حتى اليوم في مصر والشام . ومثلها الاكديش لحصان الحمولة .
- (٣) الكيش : نوع من برود اليمن ولعلها رديفة الكيس بمعنى الكنانة وعلى هذا تكون أعجمية وقد يكون بينها وبين الخيش المستعملة في العامية صلة .
- (٤) البركة : لعلها بركة الحبش وهي مشهورة في مصر حينئذ .
- (٥) يقصد بالروم والاحبوش حدود الروم والحبشة مع البلاد العربية .

وضربتَ سِكَّتَها التي أخلصتَها
وكذا المعرَّةُ اذْ ملكتَ قيادها
طربتْ برجعتها اليك كأنما
شمل الرعايا منك برٌّ زاد في
لا زلتَ تنعش بالنوال فقيرَها
« الديوان : ٢٧٠ - ٢٧١ » و « المختصر ٣ : ٢٠٦ »
مما يشوب النقد من مغشوشها
دهشت سرورا سار في مدهوشها (١)
سكرتْ بخمرة جأشِها أو جيشها
إفراطه ، فأزال من تشويشها
وتنال أقصى الأجر من منعوشها

وقد وجدنا في النجوم الزاهرة (ابن تغري بردي ج ٧ ، ص ٨٢) أبياتا قالها
شاعر دمشقي تصوّر الفرح بالنصر في عين جالوت وعزّة المسلمين به بعد أن أذلّهم
النتار ، وقد أنشدها أمام المظفر قطز حين دخل دمشق بعد انتصاره وهي :

هلك الكفر في الشّام جميعاً
بالمليك المظفر الملك الأرم
ملكٌ جاءنا بعزم وحزم
أوجب الله شكر ذاك علينا
واستجدّ الإسلام بعد دحوضه
وعر سيف الإسلام عند نهوضه
فاعتزنا بسنمه وبيضه
دائماً مثل واجبات فروضه
« المختصر ٣ : ٢٠٦ »

غير أنّها ليست في مستوى النصر والمنتصر ، وكل ما فيها أنّها تعبّر عن فرحة
الشاعر وفرحة من حوله .

ويقول المؤرخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة في هذا النصر « ذيل الروضتين
ص ٢٠٨ » :

غلب النتار على البلاد فجاءهم
بالشام أهلهم وبدّد شملهم
من مصر تركيٌ يجود بنفسه
ولكلّ شيء آفة من جنسه
ولهذين البيتين مدلولان هامان أحدهما أن العرب الذين كانوا بعزلة عن
الحياة العسكرية وما فيها من رجولة قد تركوا أمر الدفاع إلى جند الأتراك واعتمدوا
عليهم . والثاني أنّهم يشعرون بأنّ هؤلاء الأتراك جنس غير جنسهم ، وإن

(١) يريد بالمدحوش القلب .

كانوا قد دخلوا في دينهم ، وذلك شعور قومي كامن في النفس دلت عليه عبارة الشطر الثاني : « ولكل شيء آفة من جنسه » .

وقد بدأ بيرس سلسلة حملات في بداية حكمه حين علم بتحالف الصليبيين مع التتار الذين دخل بعضهم في المسيحية ، فاستولى على قيسارية وقلعة أرسوس البحرية جنوب قيسارية برغم الدفاع المستميت الذي قام به فرسان الاسبتارية مدة أربعين يوما ، ثم استولى على صفد ثم على أنطاكية وسار نحو طرابلس وكتب الى أميرها :

« إن رايثنا الصفراء سادت بدلا من رايثكم الحمراء والله أكبر قد أخرجت نواقيس كنائسكم » ولكنه عقد معاهدة مع صاحبها ولم يستول عليها عنوة .

وبلغه أن التتار قد عادوا يهاجمون الشام فسار اليهم ولكنهم فروا من لقائه ثم التقى بثلاثة آلاف منهم على الفرات في الجزيرة فخاضه مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي ولم ينج من التتار في هذه الموقعة إلا عدد قليل . « ابن تغري بردي : المنهل الصافي (خ) ١ : و ٣٧٦ - ٣٧٧ » .

ومما قاله الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري في هذا النصر « النجوم الزاهرة ج ٧ : ١٦٠ » :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منّا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عثدنا بالغنى والغنائم

وقال شهاب الدين محمود (١) في هذا النصر قصيدة منها « النجوم الزاهرة ج ٧ : ١٥٩ » :

(١) ستأتي بعد صفحتين ترجمة الشهاب محمود حين نورد ميميته في الاشادة ببيرس وتجد هذه الترجمة في عدة مراجع منها « الاعلام للزركلي ج ٨ ، ص ٤٨ » ومنها « بروكلمان ، ج ٢ : ٥٢ ، ٤٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية » .

سِرِّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمَنُ جَارُ
لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ
لَمَّا تَرَاقَصْتَ الرُّؤُوسُ وَحَرَّكَتْ مِنْ
خَضَتِ الْفَرَاتِ بِسَابِجٍ أَقْصَى مَتْنِي
حَمَلْتِكَ أَمْوَاجَ الْفَرَاتِ وَمَنْ رَأَى
وَتَقَطَّعْتَ فِرْقَاوْ لَمْ يَكْ طُودَهَا
رَشَّتْ دِمَاؤُهُمْ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرْ
شَكَرْتَ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى
هَذِي مَنْعَتٌ وَهَنُؤْلَاءُ حِمِيَّتُهُمْ
فَلَا مَلَأْنِ الدَّهْرَ فَيْكَ مَدَائِحًا

وقال محمد بن يوسف المهندار في هذه الواقعة (مطالع البدور للغزولي : ج ١
ص ٢٢٧) « وفوات الوفيات ١ : ٨٧ » :

لَوْ عَايَنْتَ عَيْنَاكَ يَوْمَ نَزَلْنَا
وَسْنَا الْأَسِنَّةَ وَالضِّيَاءُ مِنَ الظُّبَى
وَقَدْ اطْرَحَهُمُ الْأَمْرُ وَاحْتَدَمَ الْوَعْيُ
لَرَأَيْتَ سَدًّا مِنْ حَدِيدٍ سَائِدًا
وَرَأَيْتَ سَيْلَ الْخَيْلِ قَدْ بَلَغَ الزُّبَى
لَمَّا سَبَقْنَا أَسْهَمًا طَاشَتْ لَنَا
لَمْ يَفْتَحُوا لِلرَّمِي مِنْهُمْ أَعْيُنَا
فَتَسَابَقُوا هَرْبًا وَلَكِنْ رَدَّاهُمْ
مَا كَانَ أَجْرِي خَيْلَنَا فِي إِثْرِهِمْ
وَجَرَتْ وَجُوهُهُمْ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى
وَالظَّاهِرُ السُّلْطَانُ فِي آثَارِهِمْ
ذَهَبَ الْعَجَاجُ مَعَ النِّجِيعِ بِصَقْلِهِ

ثم هاجم التتار بلاد الشام زمن الملك الظاهر بيبرس فلقق بهم وانتصر عليهم ،
وقد خاض الفرات اليهم ، نصرًا باهرًا ، ثم تحالفوا عليه مع الروم سنة ٦٧٥ هـ

واجتمعوا على نهر جيحان في الاناضول فسار اليهم وحمل عليهم مع جنده حملة رجل واحد فقتلوا وأسروا عددا كبيرا منهم وبينهم جماعة من اعيان الروم والتتار (١) . وقد خلد الشهاب محمود (٢) هذا النصر بقصيدة اقتبسنا منها الأبيات التالية :

-
- (١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (خ) ١ : و ٣٦٤ .
 (٢) هو شهاب الدين ابو الشاء محمود بن سلمان . ولد بدمشق سنة ٦٤٤ هـ اخذ ثقافته الدينية والادبية عن مشاهير عصره . برع في الادب وكان ضليعا في الفقه وولي قضاء الحنابلة ، وعرف بحسن الخلق ، عين لكتابة الانشاء في الثلاثين من عمره واستمر عليها حتى سنة ٦٩٢ هـ ، انتقل الى مصر واصبح صاحب ديوان الانشاء لدى الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٧٠٨ هـ ثم عاد الى دمشق ناظرا في ديوان الانشاء وكاتبا للسر . نال حب الناس لدمائه اخلاقه فكان ذوو النفوذ يجلبونه ومنهم تنكز نائب السلطنة بدمشق . توفي سنة (٧٢٥ هـ) في دمشق ودفن في سفح قاسيون بالقرب من مدرسة اليفمورية .

اشهر آثاره « حسن التوسل الى صناعة الترسل » . و « مقامة العشاق » وهي مفقودة و « منازل الاحباب ومنازه الالباب » وهي في الهوى العذري ولا تزال مخطوطة . وله ايضا كتاب ذيل به على الكامل لابن الاثير وهو مخطوط . وجمع بعضهم من تقاليده الرسمية وتواقيعه ورسائله الاخوانية مجلدين . وقصائده كثيرة تبلغ ثلاث مجلدات وله في المدائح النبوية « أهنا المنائح في أسنى المدائح » وهو مجموع مدائح افردها من شعره .

« ترجم له من المؤلفين المعاصرين الدكتور عمر موسى باشا في كتابه « الادب في الشام » والدكتور محمد زغلول سلام في كتابه « الادب في العصر المملوكي الاول » ، وترجم له الزركلي في الاعلام » .

الآيات :

- ١ - كذا فلتكن في الله تَمْضي العزائمُ
 - ٢ - عزائمُ حاذتها الرياح فاصبحتُ
 - ٣ - سرت من حمى مصر الى الروم فاحتوت
 - ٤ - بجيشٍ تَظَلُّ الارضُ منه كأنها
 - ٥ - كتائب كالبحر الخضم جياذها
 - ٦ - تحيط بمنصور اللواء مظفر
 - ٧ - ملكك يلوذ الدين من عزَماته
 - ٨ - ملكك "لابكار الاقاليم نحوه
 - ٩ - فكم وطئت طوعاً وكرها جياذه
 - ١٠ - ملك له للدين في كل ساعة
 - ١١ - جلا ، حين اقذى ناظر الكفر، للهدى
 - ١٢ - اذا رام شيئا لم يَعْتَقِه لبعدها
 - ١٣ - فلو نازع النسرئين شيئا لناله
 - ١٤ - ولما رأى الرومُ المنيعَ بخيله
 - ١٥ - يروم عَقاب الجوّ قطع عِقابه
 - ١٦ - وسالت عليهم ارضهم بمواكب
 - ١٧ - أدارت بهم سُورا منيعا مشرفا
 - ١٨ - من الترك امّا في المغاني فانهم
 - ١٩ - غدا ظاهرا بالظاهر النصر فيهم
 - ٢٠ - فأهوّوا الى لثم الأسنة في الوغى
- والا فلا تجفو الجفون الصوارم
مختلفة تبكي عليها الغمام
عليه وسّوراه الظُّبَا واللّهّاذم
على سعة الارجاء في الضيق خاتم
اذا ما تهادت موجّه المتلاطم
له النصر والتأييد عبد وخادم
بركن له الفتح المثين دعائم
حنين كذا تهوى الكرام الكرائم
معاقل قرطاهما السّثا والنّعائم (١)
بشائر لل كفر منها ما تم
ثغورا بكى الشيطان وهي بواسم
وشققتها عنه الإكام الطواسم (٢)
وذا واقع عجزا ، وذا بعد حائم
ومن دونه سد من الصخر عاصم
اليه فلا تقوى عليه القوادم
لها النصر طوعاً والزمان مسالم
بسم العوالي ماله الدهر هادم
شموس وأما في الوغى فضراغم
تبيد الليالي والعيدا وهو دائم
كأنهم العشاق وهي المباسم

(١) النعائم : ثمانية كواكب من منازل القمر اربعة منها تسمى الصادر واربعة تسمى الوارد .

(٢) الطواسم : الطوامس ، التي يضل بها الانسان الطريق .

- ٢١- وصافحت البيض الصِّفاح رقابهم
 ٢٢- فكم حاكم منهم على ألف دارع
 ٢٣- وكم ملك منهم رأى وهو موثق
 ٢٤- فلا زلت منصور اللواء مؤيداً
 وعانقت السمر القدود النواعم
 غدا حاسراً والرمح في فيه حاكم
 خزائن ما يحويه وهي غنائم
 على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم

« النجوم الزاهرة ، ٧ : ١٦٨ »

وتوفي الملك الظاهر بيبرس في ٢٨ محرّم سنة ٦٧٦ هـ ، فأخفي موته ، وحُمل إلى القلعة ليلاً وغُسل ، وحنّط ، وصُبر . وكفنه « مهتاره » ^(١) الشجاع عنبر ، والفقيه كمال الدين المعروف بابن المنبجي وعزّ الدين الأفرم أحد قوّاده ، وجعلوه في تابوت وعلّقوه في بيت من بيوت البحرة بقلعة دمشق ، وكتب الأمير بدر الدين يليك الخزندار مطالعة بيده إلى ولده الملك السعيد في مصر .

وفي سنة سبع وسبعين عملت أعزّيته بالديار المصرية ، ونصبت الخيام العظيمة ، وصنعت الأطعمة الفاخرة واجتمع الخاصّ العام ، وحضر القراء والوعاظ ، وخلع عليهم ، وأجيزوا بالجوائز السنية . (فوات الوفيات . بتحقيق د . إحسان عباس ، ج ١ : ٢٤١) .

ويتساءل المرء عن سبب تأخير عزائه أكثر من سنة ، فلا بدّ لذلك من عوامل تتعلق بالحكم ، وقد كان أبناؤه صفاراً فعيّز السلطنة كبير الأمراء قلاوون الذي استخلص الملك بعد ذلك لنفسه دون أولاد بيبرس ، وجعله وراثياً في أسرته . ويستلفت النظر أنه لم تقم لموته ضجّة شعبية عامة كما حدث حين وفاة صلاح الدين ومن قبله نور الدين واكتفي كما رأينا بفخامة الحفل الرسمي وبالشكليات . وهنا مجال للتساؤل أيضاً أكان الشعب أقلّ حبّاً له ، وهذا ما نقدّره من مسلكه الميّال غالباً إلى استعمال القوة كسائر الممالك ، أم أنّ الناس كانوا يقدرّون أن السلطة بعد وفاته أصبحت في يد قلاوون وكانوا يخمّنون أنه لا يرتاح كثيراً لظهور الحزن الشديد عليه . وهذا أيضاً محتمل ويرتبط بذلك أننا لم نجد في رثائه إلا مقطوعتين

(١) المهتار : المملوك الذي يتولى إدارة الشؤون الخاصة لسيدّه .

الواحدة لمحيي الدين بن عبد الظاهر رئيس ديوانه والثانية لكمال الدين ابن العطار وهو أحد كتّاب الإنشاء في دمشق (٦٢٦ - ٧٠٢) هـ^(١) ، على حين أنّه مدح في حياته بقصائد فخمة طوال . ويضاف الى هاتين المقطوعتين بيتان لابن عبد الظاهر قالهما حين دفن الظاهر في دار العقيقي بدمشق وهي المكتبة الظاهرية الآن ، وهما :

ساح هذا ضريحه بين جفنيّ فزوروا من كل فجّ عميق
كيف لا وهو من عقيق جفوني دفنوه منها بدار العقيقي

وظاهر ما فيهما من صنعة ومن فتور العاطفة ورغبة في الجنس بين عقيق والعقيقي .

وسنكتفي من المقطوعتين بمقطوعة ابن عبد الظاهر لأنها في ظرنا أجود .

قال :

الله أكبر إنها لمصيبة	منها الرواسي خيفة تتقلقل
لهفي على الملك الذي كانت به الد	يا تطيب فكلّ قعر منزل
الظاهر السلطان من كانت له	من على كلّ الوري وتطول
لهفي على آرائه تلك التي	مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفي على تلك العزائم كيف قد	غفلت وكانت قبل ذا لا تفعل
ما للرمال تخولتها رعدة	لكنها إذ ليس تعقل تعقل
سهم أصاب وما رمي من قبله	سهم له في كل قلب مقتل
أنا إن بكيت دماً فعذري واضح	ولئن صبرت فإتني أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فادمع	منهالة في أوجه تهلل

« تاريخ ابن إياس ، ج ١ : ١١٠ - ١١١ »

سعى المنصور قلاوون الذي ملك بعد بيبرس إلى وحدة البلاد ، وثار عليه نائبه في دمشق سنقر الأشقر ونادى بنفسه ملكاً فيها فأرسل إليه مملوكه طرناي فقضى

(١) وقد جاءت هذه المقطوعة في « ترجمة اعيان العصر المخطوطة : ١٣٥ ب » ، واسم الشاعر أحمد بن محمود ، أبو العباس بن أبي الفتح الشيباني الدمشقي .

عليه واستتبّ له الأمر • وكان أعجميّاً في حديثه فقد كان كبير السنّ حين اشترى فلم يتقن العربيّة •

صدّ جيوش الفرنجة والتتار الذين دخلوا حلب وخرّبوها فهزّمهم قرب حمص ، وباغت الفرنجة في الساحل وحاصر طرابلس أربعة وعشرين يوماً واستولى عليها وخرّبها كلّها وبنى قربها مدينة طرابلس الحالية • واستولى على حصن المرقب • وأسس لأسرته ملكاً دام إلى آخر هذه الدولة المملوكية البحرية ويعدّ من أعظم سلاطينها •

مدحه شهاب الدين محمود حين فتح حصن المرقب سنة ٦٧٨ هـ وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وكان كبيراً جداً لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح ، ومدحه غيره من الشعراء ، وما قاله الشهاب محمود :

<p>هذا هو الفتح لا ما تزعم السير إلى الكواكب ترجوه وتنتظر شوقاً منابرّها وارتاحت السرر فطال عنه وما في باعه قصر كانت لدولتك الغرّاء تدّخر إسعاده منجداً : القدر والقدر لأشقر البرق من تحجيلها غرر معنى العواصف لا تبقي ولا تذر</p>	<p>الله أكبر هذا النصر والظفر هذا الذي كانت الآمال إن طمحت فانهض وسرّ واملِك الدنيا، فقد نحت كم رام قبلك هذا الحصن من ملك وكيف تمنحه الأيام مملكة وكيف يسمو إليها من تأخر عن عزّ العدا منك حلم تحتهم لها وإن أشبهت لطف النسيم شري</p>
--	---

« النجوم الزاهرة ، ٧ : ٣١٧ - ٣١٨ » •

وسار الملك الأشرف على غرار أبيه ، ومن قبله ، في حرب الفرنجة لتحرير البلاد وكان له شرف طرد آخر جندي صليبي من عكا ، آخر معقل بقي لهم حتى أيامه في بلاد الشام واجتمع معه عليها من الأمم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند في الخدمة (النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٥) • ولذلك كانت الفرحة عظيمة

في قلوب أهل البلاد كلهم (١) . وقد عبّر عنها الشهاب محمود (٢) بالقصيدة التالية الرائعة :

- ١ - الحمد لله زالت دولة الصلْب
 - ٢ - هذا الذي كانت الآمال لو طلبتْ
 - ٣ - ما بعد عكا وقد هُدَّتْ قواعدها
 - ٤ - عَقِيلَة ذهبت أيدي الخطوب بها
 - ٥ - لم يبق من بعدها للكفر إذْ خربت
 - ٦ - كانت تخيلها آمالنا ففري
 - ٧ - اما الحروب فكم قد انشأت فِتْنًا
 - ٨ - سُورَان برْ وبِحرْ حول ساحتها
 - ٩ - مصفَحْ بصِفاح حولها أكمْ
 - ١٠ - مثلُ الغمائم تهدي من صواعقها
 - ١١ - كأنما كلُّ بَرْجٍ حولَه فلكك
 - ١٢ - ففاجأتها جنود الله يقدّمها
 - ١٣ - كم رامها ورمها قبله ملك
 - ١٤ - لم ترضَ هَمَّتْهُ الا الذي قعدت
 - ١٥ - ليث أبى ان يردَّ الوجه من أمم
 - ١٦ - لم يُلْهِه مَلِكُهُ بل في أوائله
 - ١٧ - فأصبحتْ وهي في بحريْن ما ثلّة
 - ١٨ - جيش من التُّرك ترك الحرب عندهم
- وعزّ بالتُّرك دين المصطفى العربي
 رؤياه في النوم لا ستحييت من الطلب
 في البحر للشرك عند البرّ من أرب
 دهرًا وشدّتْ عليها كفّ مغتصب
 في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
 أنْ التفكير فيها اعجب العجب
 شاب الوليد بها هولًا ولم تشب
 دارا وأدناها أنأى من القطب
 من الرماح وابراج من اليلاب
 بالنبل أضعاف ما يهدى من السحب
 من المجانيق يرمي الارض بالشهب
 غضبانُ لله لا للملك والنشب
 جمُّ الجيوش فلم يظفر ولم يصب
 للعجز عنه ملوك العجم والعرب
 يدعون ربّ الورى سبحانه بأب
 نال الذي لم ينله الناس في الحقب
 ما بين مضطرم نارًا ومضطرب
 عار وراحتهم ضرب من الوصب

(١) « ابن تغري بردي المنهل الصافي (مخطوط) ٢ : و ٧٥ - ٧٧ » .

(٢) سبقت ترجمته . والقصيدة في « الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين »
 للحريري ص ١٤٥ - ١٤٦ » ومطلعها عنده يختلف عنه هنا وهو هكذا :

الله اكبر ذلت دولة الصلْب وعزّ بالتُّرك دين المصطفى العربي

في ذلك الافق بثرجا غير منقلب
به الفتوح وما قد خطء في الكتب
عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
والحمد لله شاهدناك عن كتب
الله أي رضا في ذلك الغضب
طلائع النصر بين السر والقضب
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
بفتح الكعبة الغراء في الحجب
فالبر في طرب والبحر في حرب
أبدت من البيض الا ساق مختضب
كانها شطن تهوي الى قلب
فزادها الري في الاشراق واللهب
فراح كالراح اذ غرقاه كالحجب
فقيدتهم بها رعبا يد الرهب
حواسه ففدا كالمزل الخرب
بثرج هوى ووراه كوكب الذنب
بك الممالك واستعلت على الرتب
لديك شيء تلاقيه على لغب
مدت اليك نواصيها بلانصب
صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
منه ، لسر طواه الله في اللقب
امثالها بين آجام من القضب
ازاء جدرانها في جفيل لجب
للكسر والحطم منها كل منتصب

١٩- تسنموا فلم يترك تسنمها
٢٠- يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
٢١- لم يبلغ النطق حق الشكر فيك فما
٢٢- كانت تمنى بك الايام من أمم
٢٣- أغضبت عباد عيسى اذ أبدتهم
٢٤- وأطلع الله جيش النصر فابتدرت
٢٥- وأشرف المصطفى الهادي البشير على
٢٦- فقتر عينا بهذا الفتح وابتهجيت
٢٧- وسار في الارض سير الريح شمتته
٢٨- وخاضت البيض في بحر الدماء وما
٢٩- وخاض زرق القنا في زرق اعينهم
٣٠- توقدت وهي تروى في نحورهم
٣١- أجرت الى البحر بحرا من دماءهم
٣٢- وذاب من حرها عنهم حديدهم
٣٣- كم ابرزت بطلا كالطود قد بطلت
٣٤- كأنه وسنان الرمح يطلبه
٣٥- بشراك يملك الدنيا لقد شرفت
٣٦- ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
٣٧- فانهض الى الارض فالدنيا بأجمعها
٣٨- كم قد دعت وهي في أسر العدا زما
٣٩- ادركت ثار صلاح الدين اذ غصبت
٤٠- وجتتها بجيوش كالسيول على
٤١- وحطتها بالمجانق التي وقفت
٤٢- مرفوعة نصبوا أضعافها ففدا

- ٤٣- ورؤيتُها بنثوبٍ ذلكت شَمَمًا
 ٤٤- وغنّت البيض في الاعناق فارتقصت
 ٤٥- وخلقت بالدم الأسوار فابتهجت
 ٤٦- ظنوا بروج البيوت الشمّ معقِلهم
 ٤٧- فأحرزتهم ولكنّ للسيوف لكي
 ٤٨- وجالت النار في ارجائها وعلت
 ٤٩- وافلت البحر منهم من يخبر من
 ٥٠- علابك الملك حتى إنّ خيمته
 ٥١- فلا برحت عزيز النصر مبتهجا
- منها ، وأبدت محيّاها بلاثقّب
 ابراجها لعبا منهم بالثعب
 طيبا ولولا دماء الموت لم تطب
 فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب
 لا يلتجي أحد منهم الى هرب
 فاطقات ما بصدر الدين من كرب
 يلقاه من قومه بالويل والحرب
 على الثريا غدت ممدودة الطنثب
 بكل فتح مبین المنح مرتقب
- وهاجم التتار بقيادة غازان بلاد الشام فالتقى الملك الناصر محمد
 ابن قلاوون الذي خلف أخاه السلطان الأشرف خيلا بهم قرب حمص
 في وادي « مجموغ المروج » فانهزم أمام غازان هزيمة ساحقة وقتل
 عدد من كبار المماليك ، ودخل غازان دمشق فاتحا سنة ٦٩٩ هـ وخطب له فيها على
 المنابر ، غير أنّ قلعة دمشق امتنعت عليه فأكتفى بجباية الأموال من الأهالي وأخذ
 كلّ ما وجد من الغلال والخيول والبغال ، وأحرق جامع التوبة في العقبة ، وهدم
 كلّ ما حول دمشق من معالم العمران وقتل من حي الصالحية أربعة آلاف ، وأسر
 مثلهم . وتابع التتار تقدّمهم في الشمال بعد أن انسحب الناصر إلى العريش . وعاد
 غازان إلى دمشق ، فاحتفى الناس بالقلعة وفرّ بعضهم إلى مصر ، وعسكر المغول
 بالغوطة ثمّ رحل غازان إلى بلاده بعد أن استخلف نائبه « قطلوشاه » (١) .
- وقد وصف علاء الدين الأوتاري (٢) ما حلّ بدمشق حين استولى عليها غازان
 فقال : (خطط الشام لكرد علي ج ٦ ص ٣٧٦) .

(١) « الصفدي : اعيان العصر (خ) ٦ : و ٢٣١ - ٢٣٣ وابن تغري بردي ،
 المنهل الصافي (خ) ج ٢ : و ٥٠٠ » .
 (٢) لا اعرف عن هذا الشاعر شيئا .

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجّبات عن الشمس تنادت بين أيدي الأعادي
وقصور مشيّدات تقضّت في ذراها الأيام كالأعياد
حرّقوها وخرّبوها وبادت لقضاء الإله ربّ العباد

وقد أحسن الشاعر شرف الدين الوحيد حين وصف تداول النصر بين التتار
وأهل البلاد قائلا : (خطط الشام ج ٢ ص ١٤٣) :

وجاءت ملوك المثل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا فكانت له الأولى وكانت لنا الأخرى

وما أجمل قوله : فأنصفت الأيام في الحكم بيننا .. فإنّ الأيام لا تنصر
ضعيفا أوجباناً أو مخذولاً ، وإنّما تنصر القويّ الشجاع المصمّم المخطّط
المدبّر .

وقد توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون (سنة ٧٤١ هـ) فرثاه بعض الشعراء ،
كما قال ابن إياس ، (ج ١ ص ١٧٤) بالآيات التالية :

حكم المنيّة في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكلّف الأيام ضدّ طباعها متطلّب في الماء جذوة نار
طبعت على كدرٍ وأنت تريدُها صفوا من الأقذار والأكدار
وإذا رجوت المستحيل فإنّما تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم والمنيّة يقظة والمرء بينهما خيال سار
جاورت أعدائي وجاور ربّه شتآن بين جواره وجواري

وأعتقد أنّ هذه الآيات ليست من هذا العصر ، بل من عصر متقدّم عليه

جدّا ، ولعلّه العصر العبّاسي الثاني وهي لأخ في أخيه وأن القائل إنما تمثل بها
وليس صاحبها •

وهاجم الفرنجة ثغر الاسكندرية مفاجأة سنة ٧٦٧ هـ فقتلوا وأسروا ونهبوا : فقال
الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة يرثي الثغر ويذكر ما حلّ به ومثل هذه
الهجمة كانت تقع هجمات ! :

ألا في سبيل الله ما حلّ بالثغر	على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتأها من الإفرنج سبعون مركبا	وضاقت بها العربان في البرّ والبحر
وصيّر منها أزرق البحر أسودا	بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوّا نحوها هجّما على حين غفلةٍ	وباعثهم في الحرب يقصر عن فتر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى	وكم من غنيّ مات فيها من الفقر
نثرت دموعي يوم فرط نظامهم	فيا ليت شعري من يبلّغهم ثري

« تاريخ ابن إياس ، ج ١ ، ص ٢١٥ »

٤ - العهد الملوكي الجركسي :

كتب تيمور لنك الى الملك الظاهر برقوق كتابا يهدده فيه جعل عنوانه :
سلام ، وإهداء السلام من البعد دليل على حفظ المودة والعهد
فكلف برقوق كاتب سره بدر الدين محمد بن علي بن فضل الله (*) بالرد عليه
فافتح البدر العنوان بقوله :

طويل حياة المرء كاليوم في العبد فخيرته ألا يزيد على العبد
فلا بد من نقص لكل زيادة لان شديدا البطش يقتص للعبد

وجاء في الكتاب من شعره جوابا عن كثرة تهديد تيمور لنك واقتضاه :

السيف والرمح والنشاب قد علمت منا الحروب فسل منها تلييكا (١)
اذا التقينا تجد هذا مشاهدة في الحرب فاثبت فأمر الله آتيكا
بخدمة الحرمين الله شرقتنا فضلا وملكنا الامصار تلييكا
وبالجميل وحلو النصر عودنا خذ التواريخ واقراها فتنييكا (٢)

* هو محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري . ولاء الملك الاشرف
شعبان بن حسين كتابة السر ، وابوه علاء الدين علي في مرض موته ، وله
من العمر تسع عشرة سنة وجعل اخاه عز الدين حمزة نائبا عنه ، واعفي
من العمل ثم عاد اليه في سلطنة الملك برقوق الثانية بعد ان قضى برقوق
على ثورة الامير يلبغا الناصري ، وحظي عند مليكه . توفي في دمشق سنة
٧٩٦ هـ وتوفي اخوه حمزة سنة ٧٩٧ هـ وهما آخر من عرف من كتاب
السر من هذه الاسرة .

(١) فسل منها : استعمال الجار والمجرور هنا خطأ صوابه التعدية المباشرة :
فسلها .

(٢) بالجميل : الباء لا ضرورة لها .

والانبياء لنا الركن الشديد وكم
ومن يكن ربه الفتاح ناصره
بجاههم من عدو راح مفكوكا
من يخاف ؟ وهذا القول يكفيكا

وجاء فيه أيضا :

إذا المرء لم يعرف قبيح خطيئة
فذلك عين الجهل منه مع الخطا
ولا الذنب منه مع عظيم بليته
وسوف يرى عقابه عند منيته
وليس يجازي المرء الا بفعله
وما يرجع الصياد الا بنيته (١)

« المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٥٨ ، المقريري »

ظهر الخطر المغولي من جديد فقد هاجم تيمور لك سورية بعد أن كان قد
دوخ المشرق ووصل إلى الهند ، فاستولت جيوشه على حلب سنة ٨٠١ هـ وبني
من رؤوس القتلى تلالا مستديرة صفت بحيث تبرز وجوهها لمن يراها ، وهدم
المساجد والمدارس التي بناها الزنكيون والأيوبيون ثم اتجه إلى دمشق فاستولى
في طريقه على حماة وحمص وبلبك ، وانهزم أمامه الجيش القادم من مصر ، وقد
اضطر السلطان فرج ان يرجع إليها قبل المعركة لثورة حدثت فيها أثناء غيابه .
وسقطت دمشق بأيدي التتار بعد أن دافعت قلعتها شهرا ، وسبوا أهلها ، وأحرقوا
عماراتها ومنها الجامع الأموي الذي سقطت سقفه ولم يبق قائما إلا جدرانه
ونقلوا خيرة علماء دمشق وصناعاتها وفنائنها إلى سمرقند ، ففقدت دمشق كثيرا من
صناعاتها التي كانت تختص بها . وكان ابن خلدون في الوفد الذي أتته
الدمشقيون لمفاوضة تيمور .

ثم هاجم تيمور مدن الشام حلب وحماة ودمشق فقال بهاء الدين البهائي يرثي
هذه المدن ، ولا سيما دمشق ويصف ما حل بها على يد التتار سنة ٨٠٣ هـ :

لهني على تلك البروج وحسنا
لهني على وادي دمشق ولطفه
حفّت بهن طوارق الحدّثان (٢)
وتبدّل الفزلان بالثيران

(١) هذا تعريب للمثل العامي « نية الصياد في مخلاته » (مخلاته) .

(٢) حدّثان الدهر وحدّثانه : مصائبه ، والحدّثان أيضا أول الامر .

وشكا الحريقَ فؤادها لما رأت
جَنّاتها في الماء منها أضرمت
كانت معاصم نهرها فضيئة
ما ذاك إلا تَرَكْهُمْ ولجت بها
كرهت جداولها حوافر خيلهم
خافت خدود الأرض من أفعالهم

♦♦ ♦♦ ♦♦

لو عاينت عيناك جامعَ تنكز
وتعطش المرجين من أورادها
لأتتْ جفونك بالدموع ملوّنات
قطرات جفنٍ ترجمتْ عن حرّ قتي
أبني أميّة أين يمنٌ وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم
قصّوا جناح النسر بعد نهوضه
ألواحهُ أجرت دموعي أسطراً
إن أنكروا يوم الحساب فعالهم
لهفي على كتب العلوم ودرسها
أعرو سناً لك أسوة بحماتنا

والبرّكتين بحسنها الفتان
وتهدّم المحراب والإيوان
دمعاً حكى اللولو مع المرجان^(٢)
فكأنهنّ قلائد العقيان
والمُغل تقتل في ذرا الأركان
ألقوا عرابدهم على النسوان
في الفتك صخر لا أبو سفيان
يأليته لو فاز بالطيران^(٣)
كتبت على اللوحين من أجفاني
فشهيدنا عثمان ذو القرآن
صارت معانيها بغير بيان
في ذا المصاب فأنتما أختان^(٤)

(١) النور : ج نور ونور وهو دخان الشمع ، والنورة : السمة والجمع نور .

(٢) اللولو : استعملها دون همز كما تقولها العامة اليوم .

(٣) النسر : ربّما يقصد قبة النسر وهي قبة الجامع الأموي الكبيرة .

(٤) الحماة : يقصد هنا مدينة حماة .

غابت بدور الحسنِ عن هالاتها
ناحت نواعير الرياض لفقدهم
حزني على الشهباء قبل حماتنا
لا تدّعي الأحزان يا شقراءنا
رتعت كلابُ المِغَلِّ في غزلانها
لهفي عليكِ منازلٍ ومنازلها
فاستبدلت من عزّها بهوانِ
فكأنّها الأفلاك في الدوران
(هو أوّل وهي المحلّ الثاني)
السبق للشهباء في الأحزان
وتحكّمت في الحثور والوردانِ
ومقام فردوس وباب جنان

♦ ♦ ♦

لم أدر من أبكى وأندبُ حسرةً
للجهة الغرباء أم خلخالها
للقصر ، للشرفين ، للميدان
للمزّة الفيحاً ، أم اللّسوان
« خطط الشام ، محمد كرد علي ، ج ٢ ، ص ١٧٣ »

* * *

لمحات من الحياة الاجتماعية في عهود الدول المتابعة ما عدا الأدوار العثمانية :(*)

طبقات المجتمع :

كان نظام المجتمع اقطاعيا منذ العهد السلجوقي فقد وضعه نظام الملك ليهيئ به جنداً دائماً للاستعداد لخدمة الدولة ولكنه تحول عن غايته الى نظام لاستغلال الشعب وظلمه وإرهاقه .

وقد قسم المقرئزي المجتمع المملوكي الى سبعة أقسام طبقية : القسم الاول منها أهل الدولة . ويلحق به الوزراء ، والكتّاب وأرباب السلطة والقضاة الكبار وهم الجماعة التي أسعدها الحظ أو الحيلة من الأدباء والفقهاء والعلماء فبلغت هذه المراتب الرفيعة . والثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، والرابع أهل الفلح ، والخامس الفقراء ، وهم جلّ العلماء وطلاب العلم والكثير من أجناس الحلقة ونحوهم ، والسادس أرباب الصنائع والأجراء ، والسابع ذوو الحاجة والمسكنة الذين يسألون الناس . ولم يكن النظام الاجتماعي المملوكي في هذا إلاّ وريث الأظمة التي سبقته وكلّ ما كان يجري هو استبدال حكام جدد بآخرين .

وقد جعل المقرئزي العلماء والمثقفين في القسم الخامس . ولا عجب في أن يكون المقام الأول لأرباب السيف والرمح والنشاب ، وأن يكتب كثير من أدباء هذا العصر مقارنات بين مكانة السيف ومكانة القلم ليبينوا ضمناً أنّهم مغبونون .

وجعل جند الحلقة ، وهم الجند العربي من الشعب في الطبقة الخامسة لأنّ الممالك لم يكونوا يطمئنون الى أهل البلاد ولم يكونوا يعطونهم مميزات الجند المملوكي من الإقطاع وغيره ، فكانوا يعيشون في فقر . وكان الممالك يشورون على السلطان اذا حاول الرفع من شأنهم ، وكثيرا ما كانت فرقهم تحلّ بعد المعارك

* هذه اللّمحات المشفوعة بالشواهد هي في الوقت نفسه دراسة للأدب الاجتماعي في هذه العهود .

الكبرى وعدم الحاجة الملحة اليهم • (المقريري ، إغاثة الأمة بكشف الغمّة : ٧٢
و عاشور ، دراسات في الحياة الاجتماعية : ١٠) •

وقد أهل المقريري في تقسيمه طبقة الأعراب وكانت ذات شأن ، فكثيرا
ما كانت تثور على السلاطين وكثيرا ما كانت تشارك في المارك صد الأعداء المحتلين
من فرنجة ولكنها كانت تعيش في فقر • (دراسات في الحياة الاجتماعية لعاشور :
١٠ عن : Pilote de Crete) •

وقد أضاف بعض المؤلّفين المعاصرين قسما آخر هو أهل الذمة من اليهود
والمسيحيين وأرباب الملل والنحل الأخرى^(١) ولكن هذا القسم ليس طبقة مستقلة
وإنما ذكر لتمييز كل فئة منه بدينها الخاص ولكنها تنقسم الى طبقات تتسلسل بين
الغنى الفاحش والفقر المدقع كأكثرية أهل البلاد •

الماليك

ليس وصول الماليك الى الحكم شيئا جديدا في المجتمع العربي المتحضّر فقد
بدأ ذلك من زمن المعتصم الذي ألّف جيشا من الأتراك أهل أمّه فلم يلبث قواده
الكبار حين ضعف الخلفاء بعده ، من أن يصبحوا أصحاب الأمر والنهي ، وتابع غير
المعتصم من الخلفاء والملوك خطأ المعتصم في الاعتماد على القواد والجنود الأعاجم
واستبعاد العرب من شؤون الحكم والسياسة والحرب ، حتى أصبحوا كالأغنياء في
بلادهم وزاد الشر أن هؤلاء الماليك أصبحوا يستمتعون بخير البلاد ويتركون
سائر الناس يعيشون في فقر شديد ويمتدّون على مصالحهم وأموالهم وأعراضهم ،
وقد شعر الناس بخطرهم حين أخذ الملك الصالح نجم الدين أيوب يكثّر منهم •
قال أحد الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته ياشر مجلوب
قد أخذ الله أيوباً بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرر أيوب

« النجوم الزاهرة ٦ : ٣١٩ »

(١) الادب في بلاد الشام : د. عمر موسى باشا ص : ٦٠

ولم يكن المماليك ينتمون الى عنصر واحد • وكان كل سلطان أو أمير منهم يعتمد على أهل عنصره فينشأ من ذلك فئات متنافسة في الجيش ولكنهم كانوا متكافلين متضامين على ابتزاز الشعب حتى إنهم قتلوا الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، لأنه أراد أن يكون أكثر اعتمادا على جند الحلقة من أهالي البلاد • وكان قانون الغاب هو السائد بينهم في علاقاتهم بعضهم ببعض ، فكان الظالمون منهم إلى السلطنة يعتمدون على الدس والتآمر والقتل والاعتقال بالسلاح أو بالسّم •

وقد جيء بهم في الأصل لأمرين : أولهما الانتساب إلى الجيش وثانيهما اللهو والمتعة ، ولكنهم أصبحوا يستمتعون بكل خيرات البلاد وجهود أهلها • وبلغ البذخ عندهم حدّا لا يتصور : وكان المخصصون للحرب منهم يتلقون تربية عسكرية قاسية • وقد قاموا زمن الحروب بجهود جبّارة لصدّ المغيزين من الفرنجة والمغول ، ولكنهم تواكلوا في آخر الامر وأهملوا الشؤون العسكرية والتدريبات القاسية وصار بطشهم ينصرف فقط إلى ظلم الأمة وقتال بعضهم بعضا •

وكانت أخلاق أكثرهم سيئة وأولعوا بالعلمان كما أولعوا بالنساء على أنه وجد بينهم من كان غيوراً على تنفيذ أحكام الدين والمحافظة على الأخلاق كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون • وكان المسيئون منهم يكفّرون عن ذنوبهم ببناء المساجد والمدارس والتكايا فيشاركون الصالحين في ذلك • على أن هؤلاء الصالحين منهم لم تخل حياتهم من بعض الأخطاء كاعتقال بيبرس لدلطان المظفر قُطُز ، وكفتك المنصور قلاوون مرّة بالناس ، ظلما •

وكانت القسوة طابعهم وكان من عقوباتهم التسمير والتوسيط وهو قطع الجسم نصفين والتقطيع قطعاً والتعذيب بالأشياء المحمّاة والسلخ وكحلّ الأعين والتخزيق •

يقول ابن الوردي في أرغون شاه والي حلب الذي افتنّ في القتل والتعذيب مع التظاهر بالتقى :

عقلتَ طرفك حتى أظهرتَ للناس عقلك°

لو كان دهرٌ يُؤلِّي على بني الناس مثلك°

« تاريخ ابن الوردي ٢ : ٣٤٦ »

وقد يأتي الشر والظلم من جنودهم وأفرادهم العاديين كما يأتي من القواد .
يقول محمد ابن دينار في جماعة الأُوَيْرَاتِيَّة الذين أسكنهم كتبغا في حيّ الحسينية
بالقاهرة لأنّهم من جنسه المغولي :

ربّ اكشِفْ عنا العذابَ فَإِنَّا

قد تَلِفْنَا في الدولةِ المَغْلِيَّة°

جاءنا المَغْلُ والغلا فانسلقنا

وانطبخنا في الدولةِ المَغْلِيَّة°

« المقرئزي ، الخطط ج ٢ : ٢٢ » .

وكان من أثرهم في الأدب استعمال بعض الشعراء ألفاظا تركية إمّا لأنها
شاعت بين الناس كأسماء بعض الأسلحة والوظائف أو تهكما بالترك . ومن ذلك
قول أبي الحسين الجزار :

وكم قابلتُ تركياً بمدحي

فكاد لما أحاول منه يَحْنَق°

ويلطمّني إذا ما قلتُ آلطين°(١)

ويرمّقني إذا ما قلتُ يرمّق°(٢)

وتسقطُ حرّمتي أبداً لديّهِ

فلو أنّي عطستُ لقال يشمّق°(٣)

« الأدب العامي في مصر ، الجمال ، ص ٤٦ » عن « محاضرات الدكتور محمد

كامل حسين سنة ١٩٥٥ » .

ومن أثرهم الغزل بالنساء التركيات كقول ابن نباتة :

بُهِرَ العَدُولُ وقد رأى الحاظَها

تُرْكِيَّةٌ تدعُ العَدُولَ سفيها

فثنى الملام وقال دونك والأسى

هذي مضايقُ لستُ أدخلُ فيها

« ابن نباتة الديوان : ٥٤٥ »

(١) آلطين : بالتركية : الذهب

(٢) يرمق : بالتركية : نهر

(٣) يشمق : بالتركية : نوع من القماش ، ويشمق : الرغبة في الحياة .

وكذلك الغزل بالعلماء الأتراك ، قال عبد الله بن عبد الواحد المعروف بابن اللوز من أبيات :

بي من بني الترك ظبي " ساحر الحدق
ناديته حين أبدى جفوة وقلبي
صليني فقد ذبت من وجدي ومن كمدي
فقال لي بفتور من لواحظه
شقيق خدي يحكي حمرة الشفق
والطرف في فرق والقلب في حرق
واعطف بوصلك هذا آخر الرمي
إن العناق لاثم ، قلت في عنقي
« ابن حجر العسقلاني ، الدرر ٢ : ٢٧٢ - ٢٧٣ » .

وكان لهم أثر في الجانب المشرق من حياة الأمة وهو كفاح الأعداء المهاجمين من الشرق والغرب فقد أشاد الشعراء والكتاب بأمجاد سلاطينهم وقوادهم المنتصرين كما رأينا في شعر اللمحات التاريخية الذي أسميناه شعر النضال . كما أنهم أشادوا بجنسهم المحارب ، قال الشهاب محمود أحد أدباء العهد المملوكي :

الحمد لله ذلت دولة الصليب
وعز بالتشرك دين المصطفى العربي
وقد سبقه الى هذا المعنى ابن سناء الملك أحد أدباء العهد الأيوبي فقال :
بدولة الترك عزت دولة العرب
وبابن أيوب ذلت دولة الصليب
وقد أطلق الشاعر اسم الترك على الأكراد هنا تجوزاً .

علماء السنة :

وقد نصر الزنكيون والأيوبيون والمماليك المذهب السني ونشأ تنافس بين أصحاب المذاهب الأربعة من العلماء على النفوذ . وكانت المكانة الأولى للمذهب الشافعي . وقد ادعى كثيرون في هذه الفترة التي كثرت فيها الحروب والمصائب والمظالم والآلام وحالات الفقر والبؤس أنهم كانوا يرون النبي في اليقظة وذلك لينالوا مكانة مرموقة لدى الناس وقد تصدى لهم بعض العلماء ، كابن تيمية ، وفتدوا دعواهم .

وعلى كثرة اللهو والفساد في تلك الأيام بين الطبقات الغنية والفقيرة على السواء فان بعض الناس قد جمح بهم خيالهم إلى وصف نساء أهل الجنة وما لهن من

سجايًا ، وقد أسهم في ذلك بعض علماء أعلام كابن قيم الجوزية على عظم فضله ومحاولته الإصلاح • وهذان يبتان له من قصيدة يذكر فيها أن نساء الجنة لا يحملن :

والناس بينهم خلاف هل بها حبل وفي هذا لهم قولان
فنفاه طاووس وإبراهيم ثم مجاهد وهم أولو العرفان

« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب : محمد سيّد كيلاني ص ٥٠ »

وقد وجد أحيانا علماء جريئون وقفوا في وجه المماليك الظالمين كالشيخ عز الدين ابن عبد السلام الذي توفي في زمن الملك الظاهر بيبرس وصلى هذا عليه وقال :
ما استقر ملكي الا الآن • فقد نادى هذا الشيخ بعدم جواز حكم المماليك لأنهم عبيد دفع ثمنهم من بيت مال المسلمين ولم يقيم الدليل على أنهم أعتقوا وأصبحوا أحرارا فلا بد من بيعهم وقبض ثمنهم • وحاول المماليك أن يثنوه عن رأيه ولكنهم لم ينجحوا ، وفكروا في التخلص منه فلم يستطيعوا لعظم مكاتته عند الناس وخوفهم من عاقبة قتله • (السبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٨٠ - ٨٣ ، وغيره) •

وممن وقف وقفة قوة أمام السلاطين والمماليك من العلماء إسماعيل الواسطي فقد خطب مرة بحضور الظاهر بيبرس فقال :

« إنك لن تدعى يوم القيامة يا أيها السلطان ولكن تدعى باسمك ، وكل من يسأل عن نفسه ، إلا أنت فتسأل عن رعاياك ، فاجعل كبيرهم أباً ، وأوسطهم أخاً ، وصغيرهم ولداً » •

(ابن الوردي ، تنمة المختصر ٢ : ٢٢٥) •

وقد تعرض أمثال هؤلاء العلماء لسخط المماليك على أن بعض العلماء نافقوا لهم فلم يسلموا من سخط الشعب حين جروا وراء مطامعهم فنراهم في أخريات حكم الظاهر برقوق مؤسس الدولة الجركسية ، وفي حكم ابنه الناصر فرج ومن بعدهما ينزلون من أهل الدولة ومن الناس منزلة سوء ويذمهم أقل الغلمان وأجط الناس بكل قبيح فنالوا عقابهم لامتهانهم العلم وخضوعهم في طلب الدنيا •

وقد جعل للعلماء البسية تميّزهم ، وكذلك رجال الصوفية والأشراف من نسل

النبي ، وقد مَيَّز هؤلاء بعمامة حضراء • ونقد ذلك الرحالة الشاعر عبد الله بن جبير الأندلسي حين زار المشرق في العهد الأيوبي فقال :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً
نور النبوة في كريم وجوههم
إنَّ العلامة شأنٌ مَنْ لم يَشْهَرِ
يُغْنِي الشريف عن الطَّرَاز الأخضر
« شذرات الذهب ٦ : ٢٢٦ »

وكان المماليك يستشيرون كبار الفقهاء في القضايا المهمة ويعقدون لذلك المجالس وكان هؤلاء يضيقون ذرعا بجهل المماليك وفي أنفسهم أئتهم خير منهم للحكم والإدارة ولا سيَّما أئتهم عرب وأئتهم أهل البلاد ، قال ابن النجار في أوَّل دولتهم :

همُ الوحوش ونحن الإنس حكمتنا
وليس شيءٌ سوى الإهمال يقطعنا
لنا المريحان من علمٍ ومن عدمٍ
تقودهم حيثما شئنا وهم ناعمٌ
عنهم لأئتهم وجدائهم عدمٌ
وفيهم المتعبان : المال والغشم
« فوات الوفيات ١ : ١٠ »

فالحسرة من حكم المماليك وتسلطهم ، وكون المال بأيديهم ، ومن فقر العلماء ، على علمهم ، ظاهرة في هذه الأبيات •

المذهب الشيعي :

وكان المذهب الشيعي في دور المدّ زمن الدولة الفاطمية في مصر والشام^(١) ولكنّه أصبح في دور جزر زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك^(٢) • وقد قامت الدولتان الفاطمية الشيعية في مصر والسنية الزنكية في الشام بدورهما في مكافحة الفرنجة وظهر حسن التفاهم والتعاون بين الفريقين ضدّ هذا العدو المشترك • وقد ظهر بين الفريقين أفراد قلائل من الحكام والوزراء تآمروا ضدّ وطنهم وتعاونوا مع الفرنجة ، كشاور في مصر ومعين الدين أنر في دمشق ، ولكن هؤلاء غلبوا على أمرهم وأزيلوا أخيرا من مراكز السلطة •

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢٩
(٢) مفرّج الكرب ١ : ١٩٨

وظهر في فرقة من فرق المذهب الشيعي جماعة الحشاشين وهم أتباع الحسن بن الصباح في قلعة « ألموت » وما حولها وقامت بكثير من الاغتيالات ونجحت في اغتيال الوزير نظام الملك ، نصير العلم والأدب المشهور وباني المدارس النظامية ، ولكنها لم تنجح في اغتيال صلاح الدين ، وكانت أحيانا تحارب ضدّ الفرنجة ولكنها تتآمر لحسابهم أحيانا أخرى •

وقام مقابل الحشيشة جماعة من مذاهب السنّة أطلقوا على أنفسهم اسم « النبوية » واتخذوا محاربة الحشيشية دَيْدَنًا لهم واغتالوا بعض أفرادها • (رحلة ابن جبير : ٢٨) •

وقد سعى نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس ومن بعدهم إلى نشر المذهب السنّي وشدّ أزره بفتح المدارس الكثيرة للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ، ونجحوا في ذلك^(١) • وتآمر عمارة اليميني وهو سنّي ، مع غيره من أنصار الدولة الفاطمية ضدّ صلاح الدين لإرجاع حكمها ولكن مؤامرتهم خابت وأعدموا • (ابن واصل ، ج ١ ، ٢٤٨ - ٢٤٩) •

الاحتفالات الدينية :

وكان للدين مظاهر مفرحة مشتركة الى جانب الاختلافات والمنافسات المحزنة كالاحتفالات بالأعياد في الدور والمساجد والملابس والأناشيد والتلاوة • يقول الشاعر ابن سوار يصف ليلة نصف شعبان :

ما أحسنَ الجامعَ في ليلة النصف وقد لاح عليه السرور°
وأشبهتَ زُهْرًا قناديله كاساتٍ راحٍ للنَّدَامَى تدور°
وقارنَ النسرَ الثَّريَّا به وقابلَ البدرَ هناكَ البدور°
« فوات الوفيات لابن شاعر ج ٦ : ٤٣ »

والشاعر هنا يورّي بالنسر والثريا ، وهما نجم وبرج في السماء ، عن قبة النسر وثريائها في الجامع الأموي بدمشق •

(١) الأدفوي ، الطالع السعيد ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٣٩٧ والأدب العامي في مصر للجمال ص ١٤ •

المتصوفة :

وكان للمتصوفة في هذه العهود تفوذ كبير و فرق مختلفة ولم يستطع السلاطين أن يحولوا دون تسرب العقائد الغريبة عن الإسلام والفلسفات الأجنبية المختلفة والأفكار المبتدعة إلى أفكار الصوفية الذين كان لهم في كل مكان خاناتها (أي تكايا) واسعة فخمة رصدت لها موارد كافية تجعل النازلين فيها يعيشون في بحبوحة . ولا شك في أن بعض الصوفيين كانوا يدخلونها عن إيمان بما تدعو اليه ولكن أكثرهم كان يدخلها ليعيش عالة على الأمة وليتجنب تحمّل كل مسؤولية في الحياة ولا سيما في العهود الأخيرة .

وحين أخذ نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وغيرهم يبنون الخانات ويناصرون المتصوفين كانت لهم أهداف فكرية مرسومة فقد كانوا عن طريق الصوفيين يثبون الحماسة في الناس للدفاع ضد الفرنجة ويوجهون الى كل أمير أو ملك لا يتحمس للحرب نقدا على ألسن هؤلاء الصوفية ينتشر على ألسن الناس جميعا فيحاول الأمير أن يصلح خطأه بالجهاد والعمل ، وذلك ما حدث لأحد الأمراء حين امتنع عن الجهاد مع نور الدين^(١) . وكانوا عن طريق هؤلاء الصوفية يحشدون المتطوعة إلى الحرب من جند الحلقة وغيرهم كما كانوا ينشرون المذهب السني ويدعون له . وكان بعضهم يسير في مقدمة الجيش المحارب وهذا ما كان يفعله الصوفي المسمى بالخضر أمام جيش الظاهر بيبرس . على أن سيرة الخضر هذا لم تكن مرضية . « فوات الوفيات ١ : ٢٩٩ » وكانوا ينشرون الإسلام بين التتار أنفسهم^(٢) .

وكانت هذه الخواثق (التكايا) ملاذاً للغرباء ولا سيما أهل العلم منهم أيضاً وكانت مأوى للفقراء ومغانا لذوي الحاجة وأمكنة للمخابرات ينطلق منها عيون السلاطين ويراقبون فيها الوافدين على البلاد ، ثم هي مجال لعمل الخير ، ولكنها

(١) راجع الكامل لابن الاثير ج ١١ ، ص ١٣٥

(٢) الادب في الشام : د. عمر موسى باشا : ٩١

انقلبت مع الزمن ، كما قلنا الى مأوى للعجزة وبؤرة لفاسدي الأخلاق الذين لا عمل لهم بعد أن يأكلوا ويشربوا إلا ارتكاب الموبقات • وهذا ينطبق على بعض دون بعض ، وبذلك كانت هذه التكايا تحوي المتناقضات • وكان التتار يعتقدون في الصوفية حتى قبل أن يسلموا • وحينما هاجم هولاء كو حلب لم يسلم من شره إلا الخائف الذي يقيم فيه زين الدين الصواخي أحد مشايخ الصوفية •

وقد استمدت الصوفية بعض أفكارها من المذهبين السنّي والشيوعي ، وبعضها الآخر من المسيحية أو البوذية وغيرهما^(١) ، وظهر في بعضها بدع غريبة وأزياء وتصرفات أغرب ، كحلق شعر الحواجب لدى بعض فرق الطائفة القلندرية ، أو حلق جانب من الوجه وترك جانب آخر • وأباح بعضهم لنفسه ترك الصلاة وسائر العبادات واستحل المنكرات • وقد كفر رجال الدين الجماعات المتصوفة التي تخالف الأخلاق وأوامر الشرع • (ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٤ : ٥٧٤) •

وقد استفحل أمر الصوفيين الكاذبين حين أدخلوا الحشيشة في حياتهم زيادة على الخمر^(٢) • قال العيني أحد هؤلاء الصوفية يتغنى بالحشيش :

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها لها وثبات في الحشا وثبات
تؤجج نارا في الحشا وهي جنة وتبدي مرير العيش وهي نبات

« دراسات في الحياة الاجتماعية ، عاشور : (٧) »

وكانت أفكار الصوفية ونوازعها مجالا رحبا للشعر ، وسأخذ نصوصا لبعض شعراء الصوفية الصادقين ، المحافظين على أوامر الشرع ، الرصينين في سلوكهم الخلقي كابن الفارض وابن عربي خلال دراستنا بعض موضوعات الشعر القديمة وفنونه المستحدثة •

وقد أشاعت الصوفية مع تراخي الزمن الميل للتواكل وعدم تحمل المسؤولية • قال أحد شعرائهم في التواكل :

(١) نيكلسون : الصوفية في الاسلام : ٢٢ •

(٢) المقريري ، الخطط : ٤ : ٣٢٩ •

جَرى قَلَمُ القَضَاءِ بما يَكُونُ*
فَسَيِّئَانِ التَّحَرُّكُ* والسَّكُونُ*
جَنُونٌ* مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقِهِ
وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الجَنِينِ

وهذا مخالف لنصوص القرآن الصريحة الداعية الى السعي كالأية : (واسعوا^١
في مناكبها وكلوا من رزقه) والآية (وقتل اعملوا فسيرى الله عملكم) •

ولا شك في أن بعض السلاطين لم يكن يعنى بالخوائق لرغبة في الخير ومصلحة
الأمة وإنما كان يشجع الحياة فيها وحياة التواكل ، على العموم ، ليثلي الناس عن
بؤسهم وليزهّدهم في الخير ، الذي هو حقهم وخلق لهم ، لينعم به وحده •

وقد كثرت هذه الطرق كثرة بالغة وتفرّعت فروعاً ، ومنها الرفاعية والبدوية
والجبلانية والدسوقية والقلندرية والبكتاشية وغيرها •

وقد جعل الصوفية أنفسهم درجات فعلى رأسهم الاقطاب ثم الأغواث ثم
الأبدال • فالقطب يأتي على رأس الجميع ومقرّه مكة^(١) • قال عبد العزيز بن
أحمد الدميري الصوفي (ت ٦٩٤ هـ) في أحمد الرفاعي رأس الطريقة الرفاعية :

وسيدي ابن الرفاعي
قطب الحقيقة أحمد
« السبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٧٨ »

ومن نظريّاتهم نظرية الحلول وهي الاعتقاد بأن الله يحلّ في بعض البشر
لمكاتهم الفريدة عنده ، كما يتبين من قول محمد بن عطية الإسكندري :

مَنْ كَانَ حَقّاً مع الرحمن كَانَ معه°
نَعَمْ° وَمَنْ ضَرَّ فِيهِ نَفْسُهُ نَفَعَهُ°
وَمَنْ تَذَكَّلَ لِلْمَوْتِ فَيَرْفَعُهُ
وَمَنْ تَفَرَّقَ فِيهِ شِمْلُهُ جَمَعَهُ°
« النجم الغزّي ، الكواكب السائرة ١ : ١٦ »

ومنها نظرية وحدة الوجود وهي تقول بالوحدة بين الله والكون وهي ظاهرة
في قول إبراهيم الدسوقي (ت ٦٧٦ هـ) : « الشعراني ، الطبقات الكبرى ١ : ٢٠١ » •

سقاني محبوبي بكأس المحبّة
فتيت على العشاق سكرًا بخلوتي

(١) ابن حجر العسقلاني ، الدرر ، ٢ : ٣٧٣ - ٣٧٤ •

ولاح لنا نورُ الجلالة لو أضأ
وبي قامت الاشياءُ في كل ملئة
وما شهدت ذاتي سوى عين ذاتها
لصمَّ الجبال الراسيات لدكتِ
بمختلف الآراء والكل أمّتي
وإن سواها لا يلم بفكرتي

ويذكر في تائيته هذه أنه القطب :

أنا ذلك القطب المبارك أمره
أنا شمسُ إشراق العقول ولم أمل
فإن مدارَ الكل من حول ذروتي
ولا غبت إلا عن قلوب عميئة

ومنها نظرية النور المحمدي وهي أن النور المحمدي وجد قبل آدم وانتقل
من نبي الى آخر حتى وصل الى النبي محمد عليه السلام وفي ذلك يقول الدسوقي
نفسه :

نعم نشأتي في الحب من قبل آدم
أنا كنت في العلياء مع نور أحمد
أنا القطب شيخ الوقت في كل حالة
وسري في الأكوان من قبل نشأتي
على الدرة البيضاء في خلوتي
أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة

ومنها نظرية العشق الإلهي التي تظهر في قول صلاح الدين خليل بن أحمد
المشهور بابن العرس المصري :

خليلي أبسطا لي الأتس إني
وإن تجيدا مداما أو قيانا
فخير مت في حب الغواني
خذاني للمدامة والقيان
« ابن العماد ، شذرات الذهب ٧ : ٢٤٨ »

ويظهر الحب للنبي في المدائح النبوية الكثيرة التي منها ميمية البوصيري
وهمزيتة ، ومنها لامية لشهاب الدين العزازي مطلعها :

دمي بأطلال ذات الخال مطلول
كأثما طيب رياها ونفحتها
وجيش صبري مهزوم ومغلول
بطيب ترب رسول الله مجبول
« ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ١ : ٣٤١ - ٣٤٣ »

اهل الذمة :

كان أهل الذمة قبل الدولة الزنكية يتولون مناصب هامة في شؤون الدواوين

والإدارة والمال والخراج وبلغ بعضهم مرتبة الوزارة حتى في زمن الزنكيين والأيوبيين الذين عرفوا بشدة التعصب ومنهم الأخوان المذهب بن ممّاتي وأسعد بن ممّاتي • وكان بعضهم يدخل في الاسلام ولكن كان يشك في حقيقة اسلامه •

وقد لقي أهل الذمة في العهد المملوكي أحيانا بعض التضييق عليهم بعد أن كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ، وذلك بعد أن أظهروا فرحهم بتغلب التتار والفرنجة على المسلمين وانحازوا إليهم ، فقد صرفهم السلطان قلاوون عن العمل في الدواوين سنة ٦٨٩ هـ وأمرهم بتصغير عمامتهم وبالتميز باللبستهم وشمل التفريق في الألبسة الرجال والنساء^(١) • وذلك للأسباب التالية :

١ — أن "العنصر التركي الحاكم كان أقل" تسامحا من العرب إبان حكمهم •
٢ — أن "الماليك كانوا أقل" علما بالدين وأقل "بعدا في النظر وأكثر حماسة للعاطفة •

٣ — أن "ظروف الحروب الصليبية قد استدعت حدة العاطفة الدينية وتحيز كل انسان الى أهل دينه •

٤ — أن "بعض المسيحيين تسرعوا في الانحياز إلى الصليبيين أو التتار وفي إظهار الحماسة لهم وفي تعليل انتصاراتهم بأسباب دينية • وقد عولج هذا الخطأ بالخطأ • ولما دخل هولاكو حلب نادى بالأمان لمن التجأ الى ستة أماكن أحدها كنيس اليهود ، فدل "ذلك على أن" العدو كان يعتمد على بعض الأقليات ويحاول التفرقة بينها وبين المسلمين •

ونحن نأسى على ما وقع من إساءات من كلا الجانبين ونرى أن ذلك كان خروجاً على ما أُلّف من العلاقة الطيبة المتسامحة بينهما •

وكان الجدل مستمرا بينهما • قال البوصيري يصوّر الخلاف بين المسلمين

(١) ابن الوردي : تنمة المختصر ٢ : ١٧٥ و ٢٠٦ ، والصفدي : اعيان العصر (خ)

٦ : ٢٣٥ وبدائع الزهور لابن إياس ١ : ١٤٣ ، والسيوطي : حسن

المحاضرة : ٢ : ١٧٩ •

والمسيحيين في مصر : (فوات الوفيات ٢ : ٢٠٦ ، وديوان البوصيري) •
يقول المسلمون لنا حقوق بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر وأن سواهم هم غاصبونا
وقال اليهود :

وحللت اليهود بحفظ سبت لهم مال الطوائف أجمعينا
وكان الجدل في أصول الأديان السماوية يشتد بين الفرقاء • ويظهر أن
تسبم أهل الذمة بعض أعمال الجباية وإرهاقهم الناس واستثثارهم بالوظائف والمنافع
دون الأكثرية المسلمة قد جعل بعض المثقفين المسلمين ينقمون عليهم • يقول
البوصيري حاضاً السلطان على الجباة اليهود :

وفي دار الوكالة أي نهب فليتك لو نهبت الناهينا
فقام بها يهودي خبيث يسوم المسلمين أذى وهونا
وقد شكوا الناس ظلم الكتاب والوزراء القبط وتسلبهم حتى إن الناس اتهموا
السلطان الناصر بممالاتهم وتسلبهم على الناس • قال شهاب الدين الأعرج
(ت ٧٨٥ هـ) :

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الاتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجه وأجمعته
فلترك السلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق في السدس

« السلوك للمقريزي ٢ : ١٣٥ »

وقد روت لنا كتب التاريخ والأدب أخبارا تكاد لا تصدق عن ضخامة ثروات
هؤلاء المتسلطين وصورت لنا كيف كانوا يتظاهرون أحيانا بالدخول في الإسلام :
قال أحد الشعراء في كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السيد المصري وكيل
الناصر محمد وقد صدره السلطان :

اللعب بالدينين يقبح بالفتى والرأي صدق القلب والتسليم

هذا كريم الدين لولا نصره دين النصارى مات وهو كريم

« تاريخ ابن الوردي م : ٢٧٢ »

وقد دافع ابن تيمية أمام غازان التتري عن اليهود والنصارى وأرسل رسالة في ذلك إلى سرجواز ملك قبرص^(١) .

الشعب :

كانت طبقة الشعب هي التي تتحمل الغرم وتسلب الغنم وتشقى ليسعد غيرها . وكان أغلب الشعب من الفلاحين وكان أصحاب الإقطاع من المماليك يحتقرونهم ويتوارثونهم كأنهم الملك والمتاع ، يقول المقرئ في وصفهم : « ويُسَمَّى المزارع بالبلد فلاحاً قرَّاراً ، فيصير عبداً لمن اقتطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ، ولا أن يعتق ، بل قن ما بقي ، ومن ولد له كذلك » . (المقرئ ، الخطط ج ٢ ص ١٣٨) .

وذكر أسامة بن منقذ عن والدته أنها فضلت أن تقتل أخته الكبرى ولا تراها مع الفلاحين والحلاجين (الاعتبار ص ١٢٥) .

وذكر ابن خلدون أن الفلاحة معاش المستضعفين (المقدمة ص ٢٩٤) .

وهذا كله يخالف روح الشريعة وقوانينها في الحُض على العمل واحترامه .

وقد ذكر تاج الدين السبكي (في كتابه معيد النعم ومبيد النقم ص ٣٤) أن الفلاح حر وأنه يضطهد ظلماً وعدواناً . وكان معظم الغلال يذهب إلى الحكام وموظفيهم وجباةهم . وذكر أسامة حديث أحدهم عن نفسه (في كتابه الاعتبار ص ١٤٧ ثم ١٨٣) فهو يقول : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف وتبرمت بالحياة » .

(١) بهجة البيطار : حياة شيخ الاسلام ابن تيمية : ١٩١ . وقد ترجم له ابن

تفري بردي في المنهل الصافي (خ) ١ : ٨٥ - ٨٦ ، وابن الوردي : تمة

المختصر ٢ : ٢٨٤ - ٢٨٩ .

ومن فئات الشعب التجار الذين سمّاهم أسامة البُرْجاسية نقلا عن اللفظ الفرنسي : *Bourgeoisie* ، وكانت أحسن حالا من جميع الفئات وقد صنّفها المقرّيزي في القسم الثاني أي جعلها تلي طبقة الحكام مباشرة وكانت لا تقاتل ولا تحضر القتال ولها الأرباح والثروات^(١) . وقد قرّبها السلاطين لاحتياجهم إلى أموالها ، ولكنّ بعضهم كان يصادرها ، وكانوا يقترضون منها الأموال العظيمة للحروب وغيرها ، وكان منها جماعة أجنب يسمّون الكارميّة يتاجرون بالرقيق والخمر ويعيشون في ترّف كالمملوك^(٢) . وكان الماليك يشاركون التجار في تجاراتهم^(٣) .

ويلي هذه الطبقة طبقة التجار الباعة بالفرق . وكانون يكسبون جيدا ولكنهم في الغالب ينفقون ما يكسبون ، يليها أرباب الحرف والصناعات المحترمة كالعطارين والكحّالين والأطباء والصيدلة الذين كانت لهم نقابات خاصة لها أنظمتها ومكائنها . يليهم أرباب المهن الصغيرة والأجراء والخدم الذين يكسبون قوتهم بعرق جيئهم .

ويأتي في آخر القائمة الطبقة الدنيا من المحتاجين أشباه المشردين (الحرافيش) والزعر واللصوص . وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة وقد يسألون الناس من غير حاجة . ومن الطبقة الدنيا الصوفيون القلندريون الذين تحدثنا عنهم قبل في الصوفية ، ومنها الأويراتية ، وهم التتار الذين أسكنهم كتبغا التتري الأصل في حي الحسينية بالقاهرة فتكاثر نسلهم . وكانوا مشهورين بجمالهم ذكورا وإناثا فشغف الناس بنسائهم ورجالهم ، كل بحسب ميله . ومن ذلك قول الشيخ تقي الدين السروجي أحد الشعراء الصوفيّين في العهد المملوكي الأوّل ، من أبيات :

يا ساعيّ الشوق الذي قد جرى جرت دموعي فهي أعوانه

(١) الاعتبار : ١٤١

(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٨٤

(٣) وقد تحدث عبد اللطيف البغدادي عن اغتناء كثير من التجار والمستخدمين في الحروب الصليبية (عبد اللطيف البغدادي في مصر ص ٦٨ ط المجلة الجديدة) .

خذ لي جواباً عن كتابي الذي إلى الحسنيّة عنوانه
فهي كما قد قيل وادي الحمى . وأهلها في الحسن غزلانته

« محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي (ج ١ ص ٧١ و ٢٦٢) » و
« الخطط للمقريزي ج ٢ » و « السلوك للمقريزي ٨١٢ - ٨١٣ » .

ومما زاد الشرّ على الشعب فوق انتهاب أتعابه وأرزاقه كثرة الزلازل والأوبئة
والمجاعات . قال أحد الشعراء يصف هول أحد الزلازل :

زلزلت الأرض فخاف السورى وابتهلوا إلى العزيز الحكيم
فليذكروا مع خوفهم قوله : زلزلة الساعة شيء عظيم
« السلوك للمقريزي ، ١ : ٩٤٢ - ٩٤٤ » .

وذكر المقريزي في إغاثة الأمة (ص ٣٠) في معرض الحديث عن الطواعين أيام
المجاعات : « إنه صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم حيث ألفوها ، وكان
العلاء يزداد شدة باختكار المؤن في زمن القحط » .

وقد ثار المماليك على السلطان حسن لأنه حاول استخدام الرعية في الجيش
وترقيتهم إلى أمراء ومقدمين بدلا من المماليك . « النجوم الزاهرة ١٠ : ٣١٠ » .

الأعراب :

وكان الأعراب في الشام . منتشرين في بادية الشام في شبه عزلة عن الحواضر
وكانوا إذا أجذبوا يشكّلون خطراً عليها فيقطعون الطرق ويسفكون الدماء .
ومن أشهرهم قبيلة آل الفضل التي كانت تسهم في الحروب أحيانا مع السلاطين
وصارت لها الزعامة على القبائل ولا سيما بعد مشاركتها في محاربة التتار في عين
جالوت وقد أقطع السلطان قطّز زعيمهم « مهنا » مدينة « سلمية » اعترافا بفضلهم
بعد أن انتزعها من المنصور بن المظفر صاحب حماة .

ومنهم آل مرّة ومعهم جماعات من مذكّح وعامر وزبيد وقد كانوا يتنقلون
في تلال الشام حتى لا يصطدموا بآل الفضل .

ومنهم آل عقبة ، وهم عرب البلقاء وحسبان والكرك ، وكان زعيمهم مقرّبا

لدى السلاطين • (المنهل الصافي ج ١ : ١٦٠ - ١٦١ و ج ٣ : ٣٦٩) •

وكان الأعراب كلهم يتعرّضون للمجاعات في سنيّ القحظ وقد ذكر أسامة (في الاعتبار ص ١٢) أنه شاهد رجالا من بني أبيّ ، إحدى القبائل الطائية ، « قد يبست جلودهم على عظامهم لا يأكلون إلاّ الميتة » • وذكر السبكي من قبائحهم أنهم لا يورثون البنات • (السبكي ، معيد النعم : ٥٤ و ٥٦) •

وكانت طبقة الأعراب في مصر مصدر خطر على المدن والقرى والأرباض وكانت تتعرض للحجاج ولا تقف عن الغارات في أوقات الغزو الأجنبي • وقد ثار العربان على المماليك عدة مرات في الصعيد وفي الوجه البحري وصرّح حصن الدين ثعلب الجعدي أمير الشائرين على المعزّ إيبك : « نحن أصحاب البلاد ، وإنا أحق بالملك من المماليك وقد كفى أنّا خدمنا بني أيّوب وهم خوارج خرجوا على البلاد » ، ولكن المعزّ إيبك استطاع أن يقضي على ثورته وأمن أصحابه ثم غدر بهم وشنقهم^(١) • ولم يكن كل المماليك يلجؤون إلى الشدة معهم بل كانوا في الغالب يترضّونهم • وكان السودانيون في كثير من الأحيان يساعدون الأعراب في ثوراتهم •

التجارة والزراعة والصناعة :

ازدهرت الحالة التجارية زمن صلاح الدين وعني الأيوبيون بالزراعة وعقدوا معاهدات تجارية مع الفرنجة يدخل فيها كل فريق بلد الآخر • وقد سمح الملك العادل لبعض تجار أوروبا بإقامة فنادق لهم في الإسكندرية ، ولكن كانت تحدث أحيانا مجاعات •

وكانت أسباب المجاعات في فترة الحروب الصليبية وبعدها ترجع إلى أسباب منها : ١ - انخفاض النيل أحيانا في مصر ، ٢ - عدم قدرة الحكومة على تصريف مياهه لجهلها بأصول الري ، ٣ - انصراف الفلاح عن أرضه لأنّ ثمره عمله ليست له ، ٤ - مصادرة بعض الحكام المتعسفين لأموال الناس ظلما وعدوانا ، ٥ - حلول قحط في الشام لقلّة الأمطار في بعض السنين •

(١) السلوك للمقرئزي ١ : ٣٨٦ - ٣٨٨

وشاع الظلم حتى قال ياقوت في أحد من ترجم لهم : « وعلى الجملة فعاش في زمن سوء وخليفة غشوم جائر كان إذا تنفّس خاف أن يكون على نفسه رقيب يؤدي به الى العطب » •

سوء أحوال الناس وأخلاقهم ووصول المنتهزين الى المراكز الكبيرة في الدولة : (١)

وقد كثرت السعيات وفسدت الأمور حتى نادى الخليفة : من سعى بأحد أبيض ماله ، قال ابن التعاويذي الشاعر يصف سوء الحال ووصولية المنتهزين : « الديوان : ١٣٩ » •

لحى الله بغداداً من موطنٍ
الدار لا ظلّ عيشٍ بها
نسيم الهواء بها بارد
وأخلاق سكانها كالزلال
يرى كل يوم بها سفلة
يناضل من دونه وفرة
يعجبه طيب أثوابه

ووجه الزمان به أسود
بخسة آبائه تشهد
يُرقّ لرقتها الحسد
إلى أن تراه وقّده أمه البدواة ومن خلفه المسند
ظلمت بها كارهها لا أحلّ إذا الناس حلتوا ولا أقعد

ظلم الحجاج وسببه :

وكان بعض السلاطين الأيوبيين عادلين رحماء كصلاح الدين الأيوبي ولكنهم

(١) راجع لذلك : « الأدب العامي في مصر للجمال ٢٨ - ٢٩ » و « النجوم الزاهرة ٧ : ١٣ و ٢٩ » و « المقريري ، إغاثة الأمة : ٤٥ ، و ٤٣ و ٤٤ » و « الادفوي ، الطالع السعيد : ٢٦٣ » و « ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ٨ ، تحقيق جاكوب » •

إزاء تقاعس الناس عن الجهاد اضطثروا الى الإكثار من المكوس والضرائب حتى على
الحجاج لسد ثغقات حروبهم فأرهمقوا الناس بذلك وقد وصف الرحالة ابن جبير ذلك
في أبيات خاطب فيها صلاح الدين الأيوبي شاكيا • منها :

يُعنّت حُجاج بيت الإله	ويسطى بهم سِطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم	وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا من بعد ما كوشفوا	كأنهم في يد الأسر
وليس على حرّم المسلمين	بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر "نافع" زجره	فيا ذكّة الحاضر الزاجر
ألا ناصح "مبلغ" نصحه	إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمّن مال الزكاة	لقد تعست صفة الخاسر
يُسرّ الخيانة في باطن	ويبدي النصيحة في ظاهر

« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيّد كيلاني ص ٣٧ »

وكان بعض المكّاسين يظلمون الناس ويثرون من ابتزاز أموالهم • قال ابن
التعاويذي يتحدث عن ظلم المكاسين :

ملكت رقي وأبو خالد	في واسطٍ بعد على المجر
في فم شرّيا ينفذ الحكم في	بضائع التجّار والسّفّر
يأخذ منها الرّبع والمكسّ لا	يزيد في الدنيا على العشر
محتكر للذّرّ والملح والحنه	طمة والشعير والتمر
وكلّ ما يصلح للقوت أو	تطلق فيه لفظة البّر
حتى رماه الناس من سوء ما	أتاه بالإلحاد والكفر

« ديوان ابن التعاويذي : ١٩٥ »

ظلم المستخدمين :

وكان المستخدمون يكتفون بجمع الغلال والمواشي للجيش فيسرقون منها
الكثير ، قال البوصيري يصفهم :

فكم سرقوا الغلال وما عرفنا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا
ولا ربّوا من المثرّدان مثرّدا
وقد طلعت لبعضهم ذقون^١
وأقلام الجماعة جائلات
أمولاي الوزير غفلت عما
تسّك معشر منهم وعثّوا
وقيل لهم دعاء^٢ مستجاب

بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولا شربوا خمورا الأندرينا
كأغصان يملن وينثينا
ولكن بعدما حلقوا ذقونا
كأسياف بأيدي لاعينا
يتم من اللثام الكاتينا
من الزهّاد والمتورّعينا
وقد ملّوا من السّحت البطونا

« فوات الوفيات ٢ : ٢٠٦ » ، « الأدب الأيوبي ، محمد زغلول سلام : ٢٤٦ » .

وقد حاول بعض السلاطين المماليك كالسلطان الناصر محمد إعادة توزيع الأراضي الزراعية على أصحاب الإقطاع من رجال الجيش ولكن هذه الإعادة لم تكن في مصلحة الشعب، بل في مصلحة الإقطاعيين المنتفعين والسلطان نفسه الذي كان يحاول ألاّ يترك أرضاً بوراً دون أن يزرعها ويعنى بها .

المحن :

وقد ازدادت المحن على أهل مصر والشام . ذكر المقرئ أن عدد من مات بالوباء بمصر في يوم واحد قد بلغ سبعة وعشرين ألفاً ومئة ألف إنسان ، وزاد ابن تغري بردي أن البلاء قد عظم في مصر حتى أكل بعضهم الميتة والكلاب وأكل الناس أبناءهم (المقرئ ، اغاثة الأمة ص ٢٤ ، ٢٥) . وقال أحد الشعراء يصف ما حل بمصر من الطاعون :

أسفي على سكان مصر إذ غدا
الموت أرخص ما يكون بحبّة^(١)
للطنن فيهم ذات وخز ساري
لكن هذا صار بالقنطار
« صفحات غير منشورة : ٧٣ »

وقال ابن نباتة يصف ما صنعه الطاعون بالشام :

(١) الحبّة : جزء من الدرهم وهو جزء من الأوقية .

سِرُّ بنا عن دمشق يا طالبَ العيش فما في المقيم للمرءِ رغبة°
 رخصتْ أنفُسُ الخلائقِ بالطا عون فيها فكلّ نفسٍ بحبّه°
 « النجوم الزاهرة ١٠ : ٢١٠ » و « الديوان : ٥٠ »

موقف الشعب من اختلافات الحكام :

وكانت الفتن والحروب تقع بين بعض أمراء المماليك وبعض فينصر الشعب
 أحيانا أحد الفريقين على الآخر لأنه يراه مُحِقّاً يُحسن معاملته كما فعل حين نصر
 الملك الناصر محمدا ، على بيبرس الجاشنكير والسثار ، وحين نصر الأشرف
 شعبان إذْ رآه مُحِقّاً وانقلب ضده حين رآه مُبْطِلاً °

وفي أكثر الأحيان كان يقف الشعب موقف المتفرج °

وكانت ممالة السلاطين مريجة أحيانا فقد توصل إلى أعلى المناصب ، ولكنها
 كانت مخوفة بالمكاره ، لسرعة تغير السلاطين وتقلب الأحداث ، ولذلك كثرت
 الأمثال التي تحذّر من معاشره السلطان مثل : صاحب السلطان كراكب الأسد ،
 الناس تتهيبه وهو لمركوبه أهيب ، أو : السلطان كالنار إن قربت منها احترقت ،
 وإن بعدت عنها لم تنتفع بها ، والعامل من اقتبس منها وهو على حذر ، أو :
 مَرَقَة السلطان حارّة ومن حساها بلا حساب احترقت شفتاه ° قال أحد الشعراء :

إذا ما خطوت إلى رتبةٍ فإياك والدَّرَجَ العالیه°
 ولكن بمنزلةٍ إن وقع تَقومُ ورجلاك في عافیه°

« ابن الدواداري : ٣١١ »

سخط الشعب وسخريته :

وكان وراء عدم المبالاة إحساس عميق بالسخط والتذمّر ، لذا شاعت عبارات
 التشاؤم والسخرية على الألسنة ، وقد تكون بذیئة كقول أحدهم :

زماننا هذا خرا وأهلّه كما ترى
 ومشیهم جميعهم إلى ورا إلى ورا

إلى ورا بحيث لم
تجد خير خبرا
« شرح اللامية للصفي ٢ : ١٣٠ »

وقد يسخر اللسان أحيانا والقلب يكي كقول إبراهيم المعمار في طاعون سنة ٧٤٩ هـ الذي كان يموت كل يوم فيه ما يزيد على عشرين ألف انسان ، وقد مات هذا الشاعر فيه :

يا طالباً للموت قم واغتنم هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا
« ابن إياس ، بدائع الزهور ج ١ : ١٩١ - ١٩٢ »

التقاعس عن الجهاد :

وكان الناس على دين ملوكهم فيما يتعلق بالإكباب على الملذات فقراء كانوا أم أغنياء كل بحسب طاقته ، ولم يكونوا كلهم يتحمسون للجهاد وكان بعض المتقاعسين عنه يستبدلون به كثرة الصيام والصلاة والذكر والتسبيح والدعاء ليتعدوا في زعمهم عن أضرار الحرب . ومنهم من كانوا يهاجرون إلى مكة ويجاورون فيها هرباً من الخطر في الحقيقة وتعبثاً في الظاهر . كتب أحد المجاهدين إلى صديق له من هؤلاء : « الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيّد كيلاني ص ٣٥ » :

يا عابد الحرّمين لو أبصرتنا
مَن كان يتعب خيله في باطل
أو كان يخضب خده بدموعه
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
ولقد أتانا عن مقال نبينا
لا يستوي وغبار خيل الله في
لعلمت أنك في العبادة تلعب
فخيولنا يوم الكريهة تتعب
فنحورنا بدمائنا تتخضب
رهب السنايك والغبار الأشهب
قول صحيح صادق لا يكذب
أنف امرئ ودخان نار تلهب

سوء الحالة الاجتماعية :

وقد عبّر القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين عن فساد الحالة

الاجتماعية لدى المسلمين « المملوك ينهي أن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع اليه والامتنال لأمر شريعته . والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه » .

شيوع التنجيم :

ولم تكن الصوفية هي الدعوة السلبية الوحيدة التي تؤول إلى الخمول والضعف وفقدان الطموح ، بل كان إلى جانبها ظواهر التنجيم والشعبذة بأنواعها مما يوهم الناس بالكشف عن الغيب والتنبؤ بالغد فقد استغل اضطراب الناس وخوفهم من الغد وتطلّشهم إلى معرفة ما سيحيق بهم من شرور ، استغلالا سيئا .

على أن تنبؤات المنجمين كانت ماثرا للسخرية في كثير من الأحيان وبخاصة حين تأتي الحوادث بعكسها وقد يئن ضياء الدين بن الأثير فساد الاعتقاد بالتنجيم في كتابه « الوشي المرقوم » (ص ٥٨) .

الاستسلام والقصائد المنفرجة :

وولدت كثرة المصائب في الناس روح الحزن والاستسلام والشعور بالعجز والضعف واللجوء الى الله يدعونه وإلى النبي يستشفعونه ونظموا في ذلك القصائد الطويلة . ومن ذلك القصيدة المسماة بالمنفرجة ومطلعها :

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج
« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، محمد سيّد كيلا ني ، ص ٢٤٠ »

وقد عارضها الشعراء بكثير من المنفرجات . ومن ذلك بردة البوصيري وهمزيته وما جرى مجراها من القصائد .

الشدوذ الجنسي :

واتشر في هذه الفترة الشدوذ الجنسي لأسباب منها : لجوء جماعة ممن يدعون التصوف دعوى كاذبة الى التكيا فرارا من أعباء الحياة دون أن يتزوجوا ، ومنها أن الأكراد والأتراك الذين كانوا رجال حرب كانوا يعرضون عن الزواج لعدم

استقرار حياتهم • ومنها كثرة وجود الغلمان الجميلين من ترك وأكراد وفرنجة ومغول مع ضعف الأخلاق • يقول أحد شعراء تلك الفترة وهو شرف الدين أحمد بن أبي الوفا الربيعي الموصلية المعروف بابن الحثلاوي (ت ٦٥٦ هـ) في غلام تركي :

من الترك لا يثيبه شوق إلى الحمى ولا ذكر بانات الغويث يشوقه
على خدّه جمر من الحسن مضرّم يثبّ ولكن في قوادي حريقه
إذا خفق البرق اليماني موهنا تذكرته فاعتاد قلبي خفوقه
حكى وجهه بدر السماء فلو بدا مع البدر قال الناس هذا شقيقه
على مثله يستحسن الصب هتكه وفي مثله يجفّو الصديق صديقه
« النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٦٠ »

وهذا العصر أسوأ من عصر أبي نواس في هذه الناحية فقد تغزّل فيه بالمذكر جماعة عرفوا بحسن السيرة وعلو المكانة على خلاف عصر أبي نواس الذي مارس فيه هذا الشذوذ جماعة اشتهروا بالخلاعة والمجون • وأصبح هذا الشذوذ شيئاً مألوفاً في هذا العصر حتى إن الشعراء كانوا يعتقدون أنّهم يكونون مقصرين إذا لم ينظموا فيه حتى لو كانوا لا يمارسونه • قال ابن الوردي :

أستغفر الله من شعري تقدّم لي في المرد قصدي به ترويح أشعاري
وقد تصدّى جماعة لمحاربة هذا الشذوذ منهم ابن قيّم الجوزية الذي ألّف كتابه « إغاثة اللفان في مصايد الشيطان ص ٢٩٧ وما بعدها » • ومنهم الشاعر ابن الوردي الذي ذكرناه •

الحشيشة :

واستهوت آفة الحشيشة الناس حتى بعض العلماء^(١) ، كابن الصاحب (ت ٦٨٨ هـ) الذي لم يوافق العلماء على تحريمها ، ومن قوله فيها :

في خمار الحشيش معنى مرامي يا أهيل العقول والأفهام

(١) ابن حجر ، رفع الإصر (خ) و : ٧٩ •

حرّموها من غير عقلٍ ونقلٍ وحرّامٌ تحرّيمٌ غيرِ الحرّامِ
« الشذرات ٥ : ٤٠٣ »

ويصف القاضي ابن بنت الأعزّ لهوه وسكره وتعاطيه الحشيشة فيقول :

يا نفسُ ميّلي إلى التصابي فاللهو منه الفتى يعيشُ
ولا تملّئي من سُكرِ يومٍ إنْ أعوزَ الخمرُ فالحشيشُ
« النجوم الزاهرة ، ٧ : ٣٧٨ »

وهو يجمع بين الحشيشة والخمر حتى لا يعي من السكر :

جمعتُ بين الحشيش والخمرِ فرحتُ لا أهتدي من السكرِ
يا مَنْ يثريني لبابِ مدرستي يربحُ واللهِ غايةَ الأجرِ
« ابن نباتة ، ده موسى باشا : ٦٠ »

تحرّيم الخمر والحشيشة :

ولما حرّم الملك الظاهر بيبرس على الناس شرب الخمر وتعاطي الحشيشة قال
قاضي الاسكندرية :

ليس لإبليسٍ عندنا أربُ غيرُ بلادِ الأميرِ مأواهُ
حرّمته الخمرُ والحشيشُ معاً حرّمته ماءه ومرعاهُ
« السلوك ج ١ : ٥٥٤ »

وعرّض أحد الشعراء بمراسيم بيبرس وصلبه ابن الكازروني حين قبض
عليه سكران :

لقد كان حدّ السكر من قبلِ صلبه خفيف الأذى إذْ كان في شرعنا جَلْدًا
فلما بدا المصلوبُ قلتُ لصاحبي ألا تبّ فإنّ الحدّ قد جاوز الحدا
« خطط المقرئ ١ : ٢٢١ » و « فوات الوفيات ١ : ٩٠ »

وأسي ابن دانيال لأنّ مضافه لم يقدّم اليه الخمر بعد مراسيم بيبرس • ومما
قاله في قصيدة سينية أوردها في مطلع بابة من بابات طيف الخيال التي ألفها بعنوان
« الأمير وصال » •

مات يا قوم شيخنا إبليس^{*} وخلا منه ربعه المأنوس^{*}
 أين عيناه تنظر الخمر^{*} إذ عطّـل منها الراوق والمحريس^(١)
 أين عيناه والحشائش^{*} إذ تحرق^{*} بالنار ثراع منها المجوس^{*}
 وذوو القصف ذاهلون وقد كا دت على سيلها تسيل^{*} النفوس^{*}
 وقضيب^{*} ونرجس^{*} وسعد باقيات^{*} وزينب^{*} وعروس^{*}
 وينادي قوا^{*} ادهم^{*} : شه^{*} علينا نجم^{*} ستي قد نكسته العكوس^{*}
 ارحلوا هذه بلاد^{*} عفاف وسعود^{*} الخلاع^{*} فيها نحوس^{*}

« بدائع الزهور ١ : ١٠٥ » و « مقدمة طيف الخيال لابن دانيال ص ١٠٨ »

على أن^{*} بعض الشعراء قد ذم^{*} الحشيشة . ومن ذلك قول الشاب الطريف :
 ما في الحشيشة فضل^{*} عند آكلها لكنه غير^{*} مصروف إلى رشد^{*}
 حمراء^{*} في عينه ، خضراء^{*} في يده^{*} صفراء^{*} في وجهه ، سوداء^{*} في كبده^{*}
 « ابن العماد ، الشذرات ٥ : ٤٠٥ »

حبال النساء :

ويظهر أن^{*} النسوة قد تمادين في الترف والزينة في بعض فترات من هذه الحقبة
 فصدرت مراسيم من عدة سلاطين بأن^{*} يلبسن ثيابا محتشمة . ومن ذلك مرسوم
 لعز الدين إيبك بالأ^{*} تخرج امرأة من بيتها ، وألا^{*} يخرج الرجل دون سراويل . وقد
 قال أبو الحسين الجزار في ذلك :

حنا الملك المعزيز^{*} على الرعايا وألزمهم^{*} قوانين^{*} المروء^{*}
 وصان حريمهم^{*} من كل عار^{*} وألبسهم^{*} سراويل^{*} الفتو^{*}
 « السلوك ، ١ : ٥٠٣ »

وتزيّنت النساء زمن الظاهر بيبرس بزري^{*} الرجال ووضعن العمام خلاعة
 وتهتكاً فمنع ذلك . وتغالت النساء زمن الملك الناصر في الترف والزينة
 واستجددن الطرحة وكان ثمنها يتراوح بين ٥ آلاف و ١٠ آلاف دينار ولبسن

(١) المحريس : الدن^{*} تعتق فيه الخمر . والراوق : الإبريق والوعاء تصفى به .

الفرجيات^(١) • وكان بعض النساء الفقيرات يعشن من الغزل والتطريز والزر كاش
بالفضة والذهب • وظهر نساء نوابغ اشتغلن بالعلم والتدريس^(٢) • واحترف بعض
النساء الغناء والرقص واحترف بعضهن البغاء • وقد تساهل بعض السلاطين في ذلك
ووضعوا عليهن المكوس فأفادوا من ذلك موردا للدولة ، ومنع سلاطين آخر
ذلك وحرّموه •

المتنزهات :

واشتهرت في القاهرة ودمشق بعض أماكن للمنكرات كما اشتهرت بعض
المتنزهات ، وكان ميل الناس الى المتع والملاذات يظهر في نزهاتهم • واشتهر من
متنزهاتهم في القاهرة حينئذ بركة الحبش وبركة الرطلي وأرض الطبالة وبركة الفيل ،
قال أحدهم في بركة الفيل :

أقتر الى بركة الفيل التي اكتفت
بها المناظر كالأهداب بالبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر
« خطط المقريري ج ٢ ص ١٦٠ »

واشتهر من متنزهات دمشق سطرى ومقرى وغيرهما • قال عرقلة
الدمشقي الحموي :

عرجا بي ما بين سطرى ومقرى لا بأكناف عاليج وزرود
« الديوان : ٣٢ - ٣٣ »

وكان المسلمون يشاركون في أعياد غيرهم • وكانوا كثيري الاهتمام بعيد
النيروز ويتمادون فيه باللهو والخمر ويعربدون ويتجاوزون الحد ، وكذلك كانوا
يحتفلون بعيد الميلاد • وكان يقام سباط لوفاء النيل فرحا به • « الوفيات ج
٤ : ٤١٧ » •

(١) النجوم الزاهرة ٩ : ١٧٦

(٢) الدرر الكامنة ٢ : ١٦٧ •

بعض العادات :

وقد ورثت هذه الحقبة عن الفاطميين مشاربهم ومطاعمهم المترفة • وكانت عادة
أكل الفول المدمس صباحا شائعة حينئذ • قال بدر الدين صاحب على لسان بائع
فول جَوَّال مليح :

أنا ابن الذي بالليل تَسْطع نارُه كثير رَماد القِدر للعبءِ يَحْمِلُ
يدور بأقداح العوافي على الورى ويصبح بالخير الكثير يَفْوِلُ

« مطالع البدور ١ : ٢٣ »

وكان يقوم الندب على الميَّت فتقطع الشعور في المآتم وتلبس الحبال وتحول
السروج في الركوب ويضرب على الدفوف والدراباك وتطوف بها النساء أياما
بالقاهرة • وكانوا يشعلون الشموع الكثيرة في الأفراح الكبيرة وفي استقبال
المنتصرين وفي المناسبات والمواسم •



الحياة العلمية في عهود الدول المتتابعة ما عدا الأدوار العثمانية

تمهيد :

لا شك في أن ما وصل إلينا من تأليف هذه العهود ، وهو بعض من كل ، تراث ضخم يدل على نهضة واسعة علمية وعلى اهتمام كبير بالعلم والعلماء . ونلاحظ في هذه العهود كثرة الموسوعات العلمية الضخمة وغيرها من المراجع العامة ، وكثرة الشروح الكبرى والكتب المبسطة ، كتفسير القرآن الكبير للرازي وبدائع الصنائع في الفقه الحنفي لعلاء الدين الكاساني (ت ٥٨٧ هـ) وفقه الحنابلة لابن قدامة ، والكامل لعز الدين بن الأثير في التاريخ ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، وهذه الكتب غيض من فيض .

وبغض النظر عن اهتمام العرب وسائر المسلمين منذ أيام النبي ، عليه الصلاة والسلام ، بالعلم والعلماء ، والرحلة في طلب العلم . متمثلاً بالآية الكريمة التي ذكر أنها أول ما أنزل من القرآن : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) . وبالحديثين الشريفين : « اطلبوا العلم ولو في الصين » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وما تبع ذلك من اهتمام الراشدين والأمويين والعباسيين والأندلسيين بالعلم والعلماء مما

تعدّ النهضة في هذه العهود استمرارا له ، فإنّنا نرى عدة عوامل في عهود الدول المتتابعة قد ساعدت على النهضة العلمية ونشاط حركة التأليف ، ويمكن أنْ نقسم هذه العوامل الى خارجية وداخلية •

فمن العوامل الخارجية قيام الحروب الصليبية وغزو التتار للعالم الاسلامي وما رافقهما من الاستيلاء على القدس وتدمير بغداد وقتل العلماء فيها بعد أن جمعهم التتار بحجة تزويج ابنة الخليفة العباسي ، وفيهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده الثلاثة والشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الضرير الشاعر ، ومن إحراق الكتب ونهبها وبناء جسر ببعضها على دجلة مما جعل فلول العلماء تتّجّه إلى مصر والشام • (ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٧ : ٥١) •

ومنها الهجرة من الاندلس بعد نكبتها فقد جاءت أفواج من الأندلسيين الى القاهرة ودمشق ، وكانت كل من ديار الشام ومصر ملاذاً لهم • ومنهم من نال مكانة كبيرة فيها كابن خلكان قاضي قضاة دمشق وصدر الدين البكري إمام المحدثين بمصر ، وابن المرادي من أهل إشبيلية الذي رآه ابن جبير أثناء رحلته ، يدرّس في الجامع الأموي بدمشق • ومنهم من هاجر من ديار الشام إلى مصر بعد غزو التتار وبقي فيها مثل كمال الدين بن العديم الذي فرّ من حلب إلى القاهرة في عهد الناصر قلاوون ، ووالد ابن تيمية الذي فرّ إليها من حلب ومعه ابنه •

ومنهم من هاجر من المغرب الى مصر والشام لما لقي فيهما من رعاية كابن منظور الدمشقي وابن خلدون وابن أبي حجلة •

وممن وفد على مصر والشام من الأندلس ابن مالك النحوي مؤلف الألفية المشهورة وغيرها وأثير الدين أبو حيان العالم النحوي الأديب ومنهم الطرطوشي ، وابن دحية (٦٣٤ هـ) صاحب كتاب المطرب من شعر أهل المغرب •

وممن وفد على مصر والشام من المشرق الخطيب القزويني القاضي جلال الدين وسعد الدين التفتازاني والتبريزي وصفيّ الدين الحلي • وذلك يدل على أنّ تيار

الثقافة الإسلامية أخذ في التحول التدريجي من المشرق والمغرب ليصب في مصر والشام تحت الضغط العدواني من الشرق والغرب •

وقد يستغرب كيف يزدهر العلم والأدب في عصر سادته الحروب الهائلة الصليبية والتتارية من الشرق والغرب ولكن يبدو أن الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة فيه جنبا الى جنب مع الثقافة والفن ، كما يقول « لين بول »
(Lane Poobe, Saladin, P 21)

ويرجع ذلك إلى أنه في حالة الحروب تستيقظ النفوس وتتحرك الهمم للدفاع في سائر الميادين ، عسكرية ومدنية وعلمية وأدبية كما يرجع إلى أن الحياة العامة تكون وحدة كاملة مترابطة متداخلة متفاعلة في جميع مظاهرها ونواحي فاعليتها •

وكان لاستنارة العقول بالعلم أثر كبير في النصر الحاسم الذي أحرزه المسلمون أخيراً على الصليبيين والتتار فطردوهم من بلادهم •

وكما كانت الشام ومصر وحدة سياسية عسكرية لا بد منها لإحراز النصر العسكري كذلك كانا بيئة معنوية واحدة يخضعان لنمط واحد من الفكر وكان العلماء يتنقلون بين القطرين ومن الصعب تخصيص عالم بالقطر الواحد دون الآخر • ونحن نرى أن العالم الإسلامي كله كان في ذلك العصر بيئة علمية واحدة ولكن التخصيص نال هذين القطرين لأنهما كانا قطري المواجهة مع العدو ، اللذين وحدتهما المصيبة وأشعرتهما بوحدة المصير •

وقد أثّرت الحرب خلال هذه العهود في الثقافة والعلم فجعلت العلماء يؤلفون الكتب الكثيرة في الحرب والجهاد لحض الناس عليهما^(١) ، وقد تأثرت اللغة العربية بكثير من الالفاظ اللاتينية والتركية التي دخلت إليها بنتيجة الاختلاط والاتصال بين الفرنجة والعرب • (راجع على سبيل المثال أسامة بن منقذ ولا سيّما الاعتبار) •

(١) من ذلك إبراز المؤلفين صفات الأبطال من الصحابة لتحسيس الجند « تاريخ

الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢ : ٢١٦ » . وكتابة ابن الأثير عن مقتل زكي

« Recueil II 2 — 182 »

ومن العوامل الداخلية التي ساعدت على ازدهار هذه الحركة انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وغيرهما ، وما ألحق بها من خزائن الكتب ، ووصول العلماء إلى أسمى مناصب الدولة لحاجة ذوي السلطان إليهم ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين للعلماء وإجلال الشعب وتقديره لهم . وقد قال صلاح الدين مرة لقوّاده ما معناه : إئتني لم أتصر بكم وإنما انتصرت بفضل تدير القاضي الفاضل .

ومن العوامل الداخلية التي ساعدت على نشاط الحركة العلمية في مصر والشام أن الجامع الأزهر في القاهرة والمسجد الأموي في دمشق كانا مصدرين إشعاع للمعرفة على العالم .

وقد حلّت القاهرة محلّ بغداد بعد الغزو المغولي وكانت منذ زمن طويل قد بدأت تنشر نورها الفكري ، ذكر ابن خلدون في المقدمة (ص ٤٣٢) أن مركز العلم تحول من بغداد والبصرة والكوفة بعد غزو التتار إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، إلى القاهرة ، وما يليها من المغرب ، ولكنه يعود فيذكر في المقدمة (ص ٥٤٥) أن المركز الوحيد الذي بقي في الحقيقة على الزمن هو مركز القاهرة وسمّاها « أم العمران ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم » .

وقد كثرت العناية بالعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وآدابها فأُسست دور العلم وأكثر منها بالاضافة إلى المساجد وألحق بها دور الكتب العظيمة واختير لها المدرسون القادرون من العلماء .

وانصرف العلماء إلى التأليف وكانوا ينالون التشجيع الكبير على ما يؤلّفون وعاش بعضهم في حبوحة بل عاش جماعة منهم عيش الأمراء .

وتنوّعت تأليفهم ، قيل إن ابن الجوزي ألّف ثمانمائة كتاب في جميع فروع الثقافة الإسلامية . ومنهم من ضمّ إليها ثقافات أخرى كابن الخشاب النحوي الذي كان عالماً أيضاً بالمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وكانت له يد في جميع العلوم ، وكذلك عبد اللطيف البغدادي الرحّالة الذي ألّف أيضاً في الطّب والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعة والرياضيات . « مرآة الزمان ٨ : ٤٨٩ وارشاد الأريب ٤ : ٢٨٦ وفوات الوفيات ٢ : ١٧ — ١٨ » .

وقد ظهر أعلام في الفكر في هذه العهود منهم الإمام الفخر الرازي والإمام الزمخشري (ت ٥٣٧ هـ) والإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) والجواليقي، والشهرستاني، والنسفي، والحريري والسهوردي، وابن فيرة الشاطبي، وابن رشد الفيلسوف، وابن خلدون المؤرخ، والسيوطي الموسوعة العلمية.

وكان العلماء يربطون بوحدة العلم بين أجزاء العالم الإسلامي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فكل بلد بلدهم، وكانوا يرحلون في طلب العلم وينقلونه من بلد إلى آخر. ومظاهر هذا التنقل في التراث العربي الإسلامي فريدة لا توجد في أي بلد آخر غيره فترى العالم يؤلف عدة كتب يؤلف كلا منها في بلد لا يفرق بين بلد وآخر ولا يفرق أي بلد بين عالم وآخر مهما كان موطنه.

وكانت رحلات العلماء ذات آثار كبيرة في البلدان التي يحلثونها ومن أجل ذلك بنى السلاطين والأمراء لهم الشربط والنزل والمدارس وعيّنوا لهم الرواتب والمساعدات لتتوافر لهم الراحة فلا يشغلوا بأمور معاشهم وينصرفوا إلى التأليف.

وكان أوّل ما دعا إلى ارتحال العلماء طلب الحديث النبوي ولا سيما في عصر الإحياء السني زمن الزنكيين والأيوبيين ومن أشهر الحفّاظ الرحّالين الحافظ السلفي وأصله من بلاد فارس وقد تنقل في البلدان الإسلامية حتى حط رحاله أخيراً في الاسكندرية وأمه الطلاب من كل صوب ومن طلابه صلاح الدين الأيوبي نفسه، وقد تضمن معجم السلفي ما دونه عن رحلاته وشيوخه وتلاميذه.

وكان من الرحلات العلمية رحلات الحج الموقّعة فقد كان علماء المغرب والأندلس يحجّون فيأتون بجرّاً أو برّاً إلى الاسكندرية ومنها يصعدون في النيل حتى قنوص^(١) ثم يتجهون شرقاً إلى عيذاب على شاطئ البحر الأحمر ومنها يبحرون إلى جندة ثم يذهبون إلى مكة ثم المدينة ثم يتجهون شرقاً إلى العراق ثم يعودون إلى الشام ثم يركبون البحر إلى بلادهم من الشام أو من ساحل مصر.

(١) أصبحت قنوص لذلك مركزاً من مراكز العلم (ابن جبير ٦٥).

وقد هيئاً لهم الحكام خلال هذه الرحلة وسائل الراحة فكانوا محل الاحترام والإكرام في كل مكان . وكان بعضهم يؤثرون البقاء لدى سلاطين المشرق الذين كانوا يؤثرونهم الاهتمام الكافي كما كانوا يحبون الاستزادة من العلم في المشرق . وكان بعضهم يرجعون الى بلادهم ولكن بعد أن يتزودوا بالعلم ويلقوا كثيرا من العلماء .

وقد نتج عن ذلك كله أنه صار لدى العامة شغف بالعلم وتوقير كبير للعلماء ، وظهر من هؤلاء العامة شعراء وكان بعض العلماء لا يستنكفون عن تسجيل بعض نواذر العامة في كتبهم كما فعل الحافظ السلفي حين سجل في معجمه نواذر ابن شداد (الأدب في العصر الأيوبي ، د . محمد زغلول سلام) .

وكان للحاكمين فضل على النهضة العلمية بثقافتهم وتقريبهم المثقفين وتشجيعهم العلماء وعرف ذلك عن الفاطميين : روي أن المهذب بن النقاش الطبيب قدم دمشق ولم يحصل على ما يقوم بكفايته فسافر إلى مصر لما سمع عنها فوجد فيها ما كان يرجوه ، واشتهر من وزراء الفاطميين بتشجيع العلم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وكان مغرما بجمع الكتب . وقد اضطربت الحركة العلمية في آخر الدولة الفاطمية لاضطراب الحالة السياسية ومع ذلك فقد كان الوزير ابن رزيق المؤلف الشاعر من أكبر المشجعين للحركة العلمية .

وقد اشتدت حماسة السلاجقة للمذهب السني . بعد طغيان عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام في عصر البويهيين الشيعة ، وظهر تيارات متعددة في الفكر الإسلامي صرفت الناس عن طريق السنة كحركات المعتزلة والمتكلمين والباطنية . وكانت دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في القاهرة مصدر إشعاع للمذهب الشيعي وما يرتبط به من عناصر الثقافة اليونانية وغيرها .

وقد ناهض السلاجقة العلوم العقلية التي اعتمد عليها الشيعة خصومهم المذهبيون . ومن أبرز حكامهم نظام الملك (قتل سنة ٤٨٥ هـ) وكان شديد التعصب للحديث النبوي يعقد في مجلسه حلقة لقراءته يضرها العلماء المبرزون .

وقد بنى نظام الملك المدارس الإسلامية المسماة باسمه والتي لم تكن تخلو منها عاصمة من عواصم البلاد الإسلامية الكبرى التي دخلت في حوزة السلجوقيين وبخاصة في العراق وفارس كنظامية بغداد التي كانت تشعّ في فارس والعراق وسورية ومصر ، ونظامية نيسابور ، والموصل ، وهراة ، « الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي : ٢٦ » •

وكان بناء مدرسة يوازي لدى السلجوقيين بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء قلعة وتشبّهت الأتابكيات — وهي الإمارات التي انقسمت إليها دولة السلاجقة بعد — في دمشق والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبلبك وغيرها ، بالسلاجقة ، وكانت مراكز هامة للثقافة كما تشبه بهم نور الدين وصلاح الدين •

وقد ترافق شعاع المدارس النظامية في المشرق مع شعاع الأزهر

Laine Poole, Saladin, P : 18 — 19

وكان نظام الملك عالما ألفت كتاب « سياسة نامه » في السياسة كما كان فقيها دينيا ، وكان ممن شجعهم نظام الملك العالم الفلكي الفيلسوف الشاعر المشهور عمر الخيام •

« المرجع السابق ص ١٢ »

وكان السلطان محمود السلجوقي (ت ٥٢٥ هـ) قوي المعرفة بالعربية حافظا لكثير من الشعر والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير •

وكان عصر سنجر واخوته (٤٨٥ — ٥٥٢ هـ) عصراً نبغ فيه عدد من الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، نبغ فيه من شعراء الفرس فريد الدين العطار ونظامي وعمر الخيام وسنائي ، ورشيد الدين الطواط ، وأنوري • وكان الأدباء في المشرق يدوّنون رسائلهم باللغتين العربية والفارسية • « أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ و ٢٩٩ و ٣٤٤ Browne » و « الجامع المختصر ٩ : ١٣٩ » •

وكذلك شجع العلم سلاطين الدولة الغورية وكان يفد الى بلاط شهاب الدين الغوري الإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور وكتب الأدب والإعجاز والبلاغة •

وقد بنى الزنكيون كثيرا من المساجد ودور العلم وكان نور الدين زنكي أول من بنى دارا خاصة بالحديث النبوي الشريف وكان يستقدم العلماء من البلاد الشاسعة ويجلّسهم ويقوم بكفالتهم^(١) وقد بنى مدرسة للحنفية في دمشق (كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢٩) • وكان نور الدين يكاتب العلماء بخط يده ، متبحرا بالشرع • وهو أيضا أول من عمّم المدارس على مدن الشام الكبيرة التي دخلت في حوزته •

وكان ممثّن وفد على نور الدين في الشام من مشاهير الفقهاء قطب الدين النيسابوري (ت ٥٦٨ هـ) ، ويقول أبو شامة (الروضتين ج ١ ص ١٢٤) أن نور الدين أنزل النيسابوري في حلب بمدرسة باب العراق ، وأنه بنى له مدرسة كبيرة للشافعية اعترافا بفضلته •

وكان الوزير عون الدين بن هبيرة (ت ٥٦٦ هـ) في بغداد يكرّم أهل العلم وقد ألّف هو نفسه عدة كتب منها « الايضاح في شرح الأحاديث الصحاح » • « الروضتين ١ : ٢١٤ » •

واقترى صلاح الدين بنور الدين وكان يوصي بإكرام المشايخ العلماء الذين يملكون بخيام معسكره (ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٥) • كما كان يخصّص الرواتب الكافية لأرباب العمام (خطط الشام ، محمد كرد علي ، ج ٤ ، ص ٣٩) • ويذكر عبد اللطيف البغدادي أنه حين دخل دمشق وجد فيها من أعيان بغداد وغيرها من البلاد الذين جمعهم إحسان صلاح الدين عددا كبيرا •

وقد بنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار ضريح الشافعي في القاهرة واشتهر بأنه أعظم مبيّن لدور العلم في الإسلام بعد نظام الملك (تاريخ العرب المطوّل ، فيليب حتى ، ط بيروت ج ٣ ص ٧٨٢) • وقيل إنّه كانت مكونة من أربعة أروقة (تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان ، ج ٢ ص ٢٣٥) •

(١) ابن واصل ، مفرّج الكرب ١ : ٢٨٣ - ٢٨٤ و ١٣٦ •

وقد عُدَّ عصر بني أيوب والزنكيين قبلهم عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية وللمذهب السني كما كان عصر إحياء سياسي وكانت غيرتهم على العلم جزءاً من غيرتهم على الأوطان والدين •

فحين استولى صلاح الدين على مصر لم يكن فيها علماء ذوو شأن من أهل السنة إلا جماعة قليلة تركزت في الإسكندرية وعلى رأسها الحافظ السلفي ، ولكن بتشجيعه وتشجيع خلفائه أصبحت المدن الكبرى في مصر والشام ، كالقاهرة والإسكندرية وقوص وأسيوط وبيت المقدس ودمشق وحلب وطرابلس ، مراكز لعلوم السنة والفكر السني نابضة بالحياة •

وكان من سياسة صلاح الدين مكافحة التشيع عملاً وعقيدة فاتخذ من العلماء والفقهاء وسيلة لتحقيق هدفه •

وقد شارك بنو أيوب كلهم في طلب العلم فضلاً عن تشجيعه وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب هو الملك الأيوبي الوحيد الذي قلَّ نصيبه من العلم لأنه كان يحب الأفراد وكان ذا طبيعة عسكرية بحتة ومع ذلك فإنه لم يُقَصِّر في تشييد المدارس •

وقد شارك القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين ووزيره وأمين سرّه في بناء المدارس فبنى المدرسة الفاضلية ونقل إليها مئة ألف مجلد من مكتبة القصر الفاطمي ، وبنى الحافظ السعدي مدرسة أنفق عليها من ماله واستعان بأهل الخير ووقف عليها ما كان يملكه من مال وكتب • وهذان المثالان يدلّاننا على أن العلماء قد شاركوا هم أيضاً في تشييد المدارس من مالهم الخاص •

وكان التنافس بين أصحاب المذاهب الأربعة كبيراً في هذه العهود وكان بعض البلاد يغلب عليها مذاهب بعينها فغلب في مصر المذهب الشافعي ، وفي الإسكندرية وشمال أفريقيا المذهب المالكي ، وفي العراق وسائر المشرق وجدت المذاهب الثلاثة

الحنفي والحنبلي والشافعي ووجد إلى جانبها مذاهب الشيعة التي احتفظت بمراكز قوية في حلب والعراق وبعض بلاد فارس •

وكان يحدث أحيانا صدام في الأرواح بين هذه المذاهب من ذلك ما حدث بين الشافعية والحنفية في نيسابور فقد قتل في الفتنة سبعون رجلا (أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٥) ، وكذلك حدثت فتنة زمن صلاح الدين في مصر عقب قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد ، وكان الجنود الأتراك يؤذون خلالها المصريين لاختلافهم المذهبي معهم (الروضتين ج ١ ص ١٩٧) •

كان صلاح الدين شديد الكلف بعلوم الدين يسمع من الأئمة المشهورين وكان يغتنم كما يقول ، حياة الإمام الحافظ السلفي فكان يتردد عليه للسمع منه أياما من الاسبوع ، وحياة الشيخ أبي طاهر بن عوف لسمع منه موطأ مالك برواية الطرشوشي ، والشيخ تاج الدين المسعودي الذي كان السلطان يعيّن ميقاتا لسمع الأحاديث عنه بالقاهرة (مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٥ ، ١٩٦) و (الروضتين ١ : ٢١٤ و ٢ : ١٩٩) •

وكان صلاح الدين يحفظ القرآن الكريم والتنبية في الفقه الشافعي وديوان الحماسة لأبي تمام ، وألف له محمد بن هبة الله أرجوزة في العقائد ، وكان إذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ودمعت عينه • (ابن شدّاد ، النوادر السلطانية ص ٨ ، ١٠) •

وكانت حاشيته تضم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني والقاضي بهاء الدين ابن شدّاد الذي كان يرافقه في السلم والحرب •

وروى ابن شدّاد أنّ صلاح الدين كان يستحضر بعض المحدّثين لسمع منهم فإنّ كانوا ممّن لا يحضرون مجالس السلاطين ذهب اليهم (النوادر السلطانية لابن شدّاد ص ٧) • وقد أشار عليه ابن شدّاد أنّ يسمع الحديث بين الصفيّين وهو مع صحبه على ظهور الدوابّ ليكون أسبق إلى هذه المأثرة من غيره (المصدر نفسه ص ١٥) •

وكان الأيوبيون يناقشون « شقيف أرنون »^(١) في الديانتين الإسلامية والمسيحية ويصفه ابن شدّاد بأنه كان حسن المحاورة (المصدر نفسه ص ٨٠) •

وقد قرأ صلاح الدين مختصرا في الفقه ألفتَه الإمام فخر الدين الرازي ، وكان يستفيد من العلماء والفقهاء خلال جلسات مجلس العدل في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ويظهر أن مجلس العدل هذه قد دفعت ملوك المسلمين كنور الدين وصلاح الدين وخلفائهما الى دراسة العلم ، والفقه منه ، بخاصة ليستطيعوا المشاركة في أحكام الفقهاء وتمييز صحيحها من فاسدها وكانوا حراسا على أن يعرفوا أصول الفقه ومذاهبه وقوانينه • وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين كأبيه مولعا بالعلم ، سمع الحديث بالإسكندرية على الحافظ السلفي ، والفقه على ابن عوف الزهري وسمع بمصر عن العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم •

وكان الملك العادل أخو صلاح الدين شديد الحب للعلماء ولكنه كان مشغولا بالفتن السياسية التي كان يحولها وقد طال حكم الكامل بن العادل فاستطاع أن يترك أثرا في العلم والأدب والحرب والسياسة وشبهه بعضهم بالرشيد والمأمون في دولة العباسيين وقيل بأنه حدث بالإجازة عن أبي محمد بن بري النحوي وأنه كان يناظر العلماء في مسائل كان يحضرها ليمتحنهم بها فيقدم من يحسن الإجابة وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة لأبي الخطاب بن دحية ، وكان ينام عنده جماعة من أهل العلم تنصب أسرتهم إلى جانب سريريه ليسامروه في العلم ، منهم الجلال اليمني النحوي والفقيه عبد الظاهر وابن دحية والأمير صلاح الدين الإريلي ، وكان يُطلق للعلماء الأرزاق الوافرة ، وقد قصده كثيرون ، منهم : التاج ابن الأرموي وأفضل الدين الخونجي والقاضي الشريف شمس الدين ابن الأرموي قاضي العسكر ، وهم أئمة وقتهم في المنقول والمعقول •

وجاءته أسئلة من الأبرور (الإمبراطور فريدريك) صاحب صقلية في أنواع الحكمة والرياضيات فعيّن لإجابة عليها قيصر بن أبي القاسم الأسفوني ، ويتبيّن

(١) هو أحد مفكري الصليبيين الدينيين •

من هذه الحادثة أمران : الأول ما كان لهذه المحاورات من أثر بين الفريقين المتحاربين حينئذ ، والثاني ما كان يتمتع به الكامل من مرونة عقلية سمحت له بتلك المحاورات والمناظرات • « الطالع السعيد للأدقوي : ١٥٦ » •

وعلى الرغم مما كان يتَّسم به المعظم توران شاه من طيش ، فقد كانت له مشاركة في العلم ووصف بأنه حسن المباحثة ذكي • (الطالع السعيد للأدقوي ، ص ٧٥) •

وكان الملك المعظم عيسى صاحب الشام نحويًا و فقيها لغويًا وكان حنفيًا دون سائر أهله وله كتاب في الرد على من طعن في مذهب أبي حنيفة ، وهو (السهم المصيب في الرد على الخطيب) ، وكان يحرض المتصوفة على الاشتغال بالفقه ويرغبهم في حفظ بعض كتبه بالجوائز الثمينة وفيهم لهم بوعده (شفاء القلوب ص ٧٥) ولعلّه كان يريد أن يعدّل طريقتهم المعتمدة على التأمل الباطني ويطعّمها بالفقه الذي يعتمد على النقل وعلى التفكير معا •

وقد أمر الفقهاء أن يستخلصوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه في كتاب فاستخلص له ذلك في عشر مجلدات سماها « التذكرة » فكان هذا الكتاب يرافقه في حياته وتروّ حاله • وكتب على ظهر مجلدة أنّه أنهاها حفظًا فراجعها في ذلك سبط ابن الجوزي وقال له إنّ أكبر مدرّس في الشام يحفظ (القُدوري) وأنت مع شغلك بالمثلث تحفظ عشر مجلدات ؟ فأجابه بأنّ العبرة بالمعاني لا بالألفاظ فاسألوني عن جميع مسائلها فإنّ قصّرت كان الصواب لكم أو فسلكموا لي (شفاء القلوب ص ٧٥) • وللمعظم عيسى ديوان شعر (ذيل الروضتين ص ٦٢) •

وكان الناصر داوود كآبيه المعظم عيسى ، وفي عهده راجت العلوم العقلية ونشطت دراسة الفلسفة وهو الذي استدعى عبد الحميد بن عيسى وكان من علماء المعقولات •

وكان المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة يشجّع العلماء • وممّن ورد عليه منهم سيف الدين الآمدي وكان في حاشيته مئة معمم من النحاة والفقهاء •

وبفضل الأيوبيين غنيت المكتبة العربية بإنتاج علمي ضخم متنوع في جميع نواحي العلوم العقلية والنقلية يدل على حركة علمية ناشطة .

وكان المماليك البحريون تلاميذ للأيوبيين في حرب التحرير وكثير من الأمور ، ولكنهم في الناحية العلمية اكتفوا بالتشجيع فقط على ما يظهر وبزوا في هذه الناحية أساتذتهم فشيّدوا دور العلم والمدارس والمساجد والخواق والربط والزوايا وكانوا يتوخّون أن يضمّ بعضها قبورهم إلى جانب غيرتهم على الدين الإسلامي وحبّهم التقرب من الشعب وتخليد ذكراهم .

وقد زادت قيمة القاهرة من حيث أنّها مركز علمي مشعّ بعد صيرورة الخلافة إليها وأصبحت موئل الثقافة الإسلامية وذلك بفضل الملك الظاهر بيبرس .

وكان الظاهر بيبرس يعنى عناية خاصة بالتاريخ وأهله ويحبّ سماعه ، وكان الأشرف خليل أديبا مثقفا ممتازا ينقد المراسيم التي تعرض عليه ويصحّحها ويطرح الأدباء بذهن صاف وذكاء لامع .

وقد رمى المماليك الجراكسة بالجهل والإهمال وعدم تشجيع العلم والأدب وقد يكون في هذا الحكم بعض القسوة والتعميم لأنّنا نراهم قد ثابروا على بناء المساجد والمدارس والتكايا ، وظهر من بينهم هم أنفسهم بعض من يشجّعون العلم ويخالطون الأدباء مثل السلطان برسباي بل ظهر منهم عالم أديب هو السلطان قانصوه الغوري الذي كانت له بعض المؤلفات وكان ينظم الشعر ، وألّف بعض أبنائهم المنحدرين منهم كتباً قيّمة مثل ابن تغري بردي صاحب الكتاب النفيس : « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » .

قال ابن خلدون في القرن التاسع خلال دولة المماليك البرجية : « واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام ويُنْبوع العلم والصنائع » . (المقدمة ص ٥٤٥) .



خزائن الكتب : (١)

لم تكن المدارس والمساجد مراكز التّعلّم والتّثقف الوحيدة في عهود الدول المتتابعة وإنما كان الى جانبها المكاتب العامة والخاصة فقد أغرم الحكام والعلماء والأدباء ، والناس بعامّة ، بالكتب ويعمل ذلك بعضهم بأن المسلمين لم يكن لهم وسائل للثقافة أو التسلية غير الكتب فلم يكن عندهم مسارح وتمثيلات فكانوا ينفقون أوقاتهم بالمطالعة والتّحصيل^(٢) وقد بلغ من غرامهم بالكتب أن القاضي القفطي (٥٧٠ - ٦٤٦ هـ) جمع من الكتب ما لا يوصف ورحل في سبيلها الى أقاصي الارض وان مكتبته قدرت في ذلك الوقت بخمسين ألف دينار^(٣) ، وأن ابن حمدون الكاتب عندما حطت به الايام وأقصي عن العمل اضطر الى بيع كتبه وعيناه تذرفان الدمع وكان معه ياقوت فأخذ يواسيه فقال له حسبك يا بني ، هذه نتيجة خمسين سنة من العمر وهذا الفراق بيني وبينها ليس بعده تلاق وأنشد متمثلاً :

هَبِ الدَّهْرَ أَرْضَانِي وَأَعْتَبْ صَرْفَتَهُ وَأَعْقِبْ بِالْحَسَنِ وَفَكَّ مِنْ الْأَسْرِ
فَمَنْ لِي بِأَيَّامِ الشَّبَابِ الَّتِي مَضَتْ وَمَنْ لِي بِمَا قَدِمَرْتُ فِي الْبُؤْسِ مِنْ عَمَرِي

« ارشاد الأريب ٣ : ٢١٠ »

(١) اقتبسنا هذا البحث من عدة كتب حديثة وقديمة ومن الحديثة : تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول لعبد اللطيف حمزة والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد أحمد بدوي ، والأدب في العصر الأيوبي ، وفي العصر الملوكي الأول لمحمد زغلول سـلام ، والأدب في بلاد الشام لعمر موسى باشا ، ومطالعات في الشعر الملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين ، ومن القديمة معيد النعم للسبكي والدرر الكامنة للعسقلاني والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ورحلة ابن جبير .

(٢) تاريخ العرب المطوّل : حتّى ٣ : ١٧٠ .

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٢ : ١٩٢ .

وحسبنا من اهتمام الناس بالكتب وعنايتهم بها أن مكتبة القاضي الفاضل التي أهداها لمدرسته الفاضلية كانت تضم مئة ألف مجلد ، (الخطط ، ٢ : ٢٥٥) ، وقد كانوا لا يخلون بشيء من مالهم أو من جهدهم على تحصيل الكتب وكانت للكتب أسواق قائمة في جميع البلاد العربية ويقال إن أهم سوق لها كانت قرطبة (١) ويدلنا على ضخامة هذه الأسواق وكثرة ما كانت تحويه من الكتب أن حريقا حدث في سوق دمشق سنة ٦٨١ هـ فأحرق لتاجر كتب واحد هو شمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلد ، ما عدا الكراريس ، « السلوك ، ١ : ٧٠٩ » ، فكان الحريق فاجعة ثقافية كالحريق الذي حدث في بعض خزائن الخاصة بالقلعة فذهب بكثير من ذخائر الكتب ونقائسها . وكان سوق الكتب في مصر بجانب جامع عمرو بن العاص .

وكان الفاطميون في القاهرة كثري العناية بالكتب . وأعظم المكتبات عندهم مكتبة القصر وكان الى جانبها مكتبة دار الحكمة ومكتبة الأزهر التي كان يشرف عليها سنة ٥١٧ هـ داعي الدعاة . وقد اختلف في عدد الكتب التي كانت تحتوي عليها مكتبة القصر فقال بعضهم انها كانت تزيد على مئتي ألف كتاب وأوصلها بعضهم إلى مليوني كتاب وقال ابن واصل بأنها كانت تزيد على مئة وعشرين ألف كتاب وجعلها آخرون مليوناً وستمائة ألف كتاب ، وقيل إنها كانت في أربعين خزانة من جملتها واحدة كان فيها ثمانية عشر ألف كتاب . وكانت المكتبة تضم كتباً في جميع أنواع المعارض المعروفة حينئذ . ومن المؤسف أن هذه المكتبة أصيبت بمحنتين : المحنة الأولى زمن المستنصر الفاطمي الذي عجز عن دفع الأرزاق لجنده ووزرائه فنهبوا منها ما نهبوا لقاء أرزاقهم وأحرق وأغرق أو أهمل كثير منها تعرض للعراء في العوارض الطبيعية المختلفة ثم جددت المكتبة وعاد لها ازدهارها زمن الفاطميين أنفسهم ولكن صلاح الدين كان يريد إزالة معالم الفاطميين فلم يول مكاتبهم عنايته وأوكل بمكتبة القصر قراقوش القائم على شؤون القصر وكان تركيا لا يعرف إلا

(١) تاريخ العرب الطويل : حتى ٣ : ١٧٠ .

الجنديّة ويجهل قيمة الكتب فجاءه من أقنعه بأن هذه الكتب يفسدها العث وأنّ بيعها خير" من بقائها فبيعت بأبخس الاثمان دون ترتيب ولم يكن الكتاب الواحد يباع مجتمع الأجزاء ، وقد اغتنم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني الفرصة فاشترى منها أعدادا هائلة من الكتب يظهر أن صلاح الدين سامحهما في النهاية بثمنها وقد قدر بعضهم ما أخذه القاضي الفاضل منها بمئة ألف مجلّد و لاشكّ في أن هذا العدد مبالغ فيه • (خطط المقرئزي ٢ : ٢٥٥) • (راجع المقرئزي ، الخطط ، ٢ : ٣٣٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤) و (الروضتين ١ : ٢٠٠) (١) •

ونأسف لما أصاب هذه المكتبة من نكبة على أيدي الأيوبيين بسبب الإهمال والتعصب ، فقد وجدوا بعد استقرار الأمر لهم أنّ من واجبهم أن يكوّنوا مكتبات من جديد بجهودهم ولو أنهم احتفظوا هم وغيرهم بكتب سابقهم وأضافوا اليها ما يجمعونه بجهودهم لكان لنا من الكتب ثروة هي عشرات أضعاف ما بقي لنا • فرأينا الملك الكامل ينشئ في مدرسته دارا للكتب ويجعل لها قيّما يشرف عليها ويجعل قاعة الكتب جزءا من بناء المدرسة وكذلك فعل غيره ، ولم يقتصر جمع الكتب على الخزائن العامة بل كان يتم أيضا في المساجد والجوامع والمدارس • ولم تقتصر خزائن الكتب العامة على القاهرة ودمشق بل كانت تعم مراكز العلم الأخرى كبغداد وآمد وأصبهان ، وقيل ان آمد كان فيها حين استولى عليها صلاح الدين مليون وأربعون ألف كتاب وأنّ القاضي الفاضل انتقى منها لنفسه نفائسها ، وكان في نظامية بغداد كتب ملحقة بها وكان يشرف عليها علماء فضلاء منهم أبو يوسف الأسفراييني الشاعر الأديب (ت ٤٩٨ هـ) • « ارشاد الأديب ٥ : ١٢١ » •

وكان طلاب العلم يقرؤون ما يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية واللغوية والأدبية والطبيعية والتاريخية والفلكية وكل ما يرويه متاحا لهم منها حتى إن تاج الدين السبكي نعى على الورّاقين نسخهم وترويحهم كتباً ليست نافعة في نظره كسيرة عنترة • (معيد النعم ، ص ١٨٦) •

(١) راجع أيضا اتابكيّة الموصل في

ومن الطبيعي أن تروج بعض الكتب أكثر من غيرها وكانت الكتب الأكثر رواجاً زمن المماليك « مشارق الأنوار » للصاغاني و « مصابيح السنة » للبغوي و « جامع الأصول لابن الأثير » و « علوم الحديث » لابن الصلاح ، ومختصره المسمى « التقریب » و « التفسير » للنووي ، وهي في الفقه والحديث •

ويظهر أن العلماء والطلاب أقبلوا كثيراً على تفسير الكشاف للزمخشري ذي الطابع الاعتزالي • لذلك عني جماعة من أهل السنة بالرد والحملة عليه ، ومن أشهرهم ابن المنير السكندري • وممن ردّ على السكندري مؤيد الزمخشري عبد الكريم بن علي خطيب جامع مصر المشهور بعلم الدين العراقي ، (الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٠٠) ولم يعجب ذلك تاج الدين السبكي الذي رأى ضرورة الرد على كل آثار الاعتزال في تفسير الكشاف (معيد النعم ص ١١٥) •

ولم تقتصر محاربة أهل السنة من العلماء على الاعتزال في تفسير الكشاف وإثماً تعدّت ذلك الى علوم الرأي والفلسفة والمنطق والعلم الطبيعي •

الالوان الثقافية في هذه العهود (١)

نشطت الحركة الثقافية في هذه العهود وكثر التأليف في جميع العلوم والفنون المعروفة حينئذ ولكن عصرنا لا يزال مقصّراً جداً في تحقيق دراسات كافية مجدية حول هذه العهود وعلومها وفنونها ومدى ما وصلت إليه من رقي وتنوّع ، وتسرع بعض مفكره في تعميم ما رآه من الضعف والانقسام السياسيّين الحربيّين في العالمين العربي والإسلامي في ذلك الوقت ، على العلوم والآداب فيهما ، فعدها عهود انحطاط دون أن يستند في ذلك الى دراسة كافية أو شبه كافية ، أو أن يحتاط في الحكم •

وقد ظهر التخصص في هذه العهود لتعمق العلماء في دراسة العلوم وتوسعهم

(١) تركت الكلام هنا على ما اشتهر من الكتب في الموضوعات المختلفة خلال هذه العهود ، وفي التعريف ببعض العلوم السائدة فيها التي تحتاج الى تعريف ، الى كتابي المفصل عنها ، رغبة في الإيجاز •

فيها وقد دلّنا السيوطي على ذلك حين صنّف العلماء ضمن زمر خاصة بحسب العلوم التي غلبت عليهم فأكثرُوا من التّأليف فيها فقد اشتهر في كل مذهب من المذاهب الأربعة جماعة وانصرف جماعة إلى رواية الحديث أو نقده وآخرون إلى القراءات^(١) وآخرون إلى التّأليف وجماعة إلى اللغة والنحو والصرف ، وجماعة إلى التاريخ واختصت فئة بالعلوم العقلية أو ببعض فنون الحياة الأخرى ، كالأدب والموسيقا •

وكان أكثر ما اهتم به الناس في هذه العهود علوم الثقافة الإسلامية وأهمها القرآن والحديث والفقه واللغة ومعاجمها والنحو والصرف والبلاغة والعروض والتاريخ العام والخاص وكتب الطبقات والتراجم والجغرافية ثم يأتي الاهتمام بالفلسفة والمنطق والطب والهندسة والرياضيات والموسيقا والحيوان وعلم الحيل « الميكانيك » والفلك والتنجيم ••• ولذلك يجوز لنا أن نقول بأن العلوم العقلية لم تزل حظها الكافي من العناية في هذه العهود التي تعد في هذه الناحية متخلّفة عن العهود السابقة • ونعلّل سبب انصرافهم إلى العلوم الدينية والعربية بالعاطفة الدينية التي أذكتها الحروب الصليبية والتتارية وبغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس(*) •

نظام التعليم

كان الصبية الصغار يتلقون تعليمهم في المكاتب التي أطلق عليها اسم الكتائب

(١) نظم الشاطبي في القراءات : السيوطي ، حسن المحاضرة ١ : ٢١٢ •

* على أن جورج سارتون في كتابه :

Introduction to the History of Science, VII Part1,P : 31.

يتحدث عن تقدم الكيمياء الصناعية في كثير من أجزاء الامبراطورية الاسلامية حينئذ ، ويدل على ذلك ما صنعه شاب دمقي من ادوية لإحراق الأبراج الفرنجية التي حاصرت عكا زمن صلاح الدين (شفاء القلوب : ٤١) • وذكر صاحب الروضتين (ج ٢ : ٢١٩) أنه كان مبغضا للفلاسفة والمعطلة الدهرية وأنه أمر ابنه العزيز صاحب حلب بقتل السهروردي (الذي لقب بالشهاب المقتول) متّهما إياه بمعاودة الشرائع •

(ج كَتَّاب) وكان معلمهم يبدأ بتلقينهم سور القرآن القصار وكانوا يتعلمون الخط في الوقت نفسه وكان يُفضَّل أن يقوم بتدريس هاتين المادتين معلمان مستقلان لأنَّ كلاهما يقوم به حينئذ أستاذ منصرف له فيُحسِنه ويتأتَّى للطلاب أن يكون خطُّهم جميلاً وكانوا يعلمون الخط بكتابة الأشعار ترفعا بكتاب الله عن المحو والاثبات والخطأ في كتابة الصبية^(١) ، والخطوة الثانية هي تعليمهم مبادئ الدين ثم أصول الحساب وما يحسن من المكاتبات والأشعار الرصينة التي أحسن اختيارها ، وكان أهل كل مذهب يختارون من الأشعار ما يناسب عقائدهم ويؤيدها فالشيعة كانوا يختارون من الشعر ما جاء في مدح آل البيت ، وأهل السنة زمن الأيوبيين كانوا يختارون ما هو في مدح الصحابة أو في تأييد المذهب السنِّي أو ما يوافقه وكان المعلم يكتب للصبي بيتا من الشعر يكلفهم أن يكتبوا على مثاله في بيوتهم •

وفيما يتعلق بالدين والخلق كان المؤدب يكلف من أتم من العمر سبع سنين بالصلاة ويأمرهم بطاعة الوالدين ويضربهم على ما فيه سوء أدب أو مخالفة للشرع ويشترط ألا يضرب الصبي ضربا يؤذيه فلا تكون العصا غليظة ولا الضرب على الأماكن التي يخشى عليه فيها الضرر ، وعلى المؤدب ألا يستخدم الصبية في أموره وألا يرسلهم الى داره وهي خالية ففي ذلك ما يثير التهمة حوله ومن واجباته ألا يرسل صبيا مع امرأة ليحرر لها رسالة • وكانوا يضيفون الى تلقين القرآن والكتابة ومبادئ الحساب تعلّم النحو والصرف والشعر •

وكان للمكتب مرافق يشترط فيه حسن الخلق يأخذ الصبية الى المكتب ويردّهم الى بيوتهم بعد الدوام ، وإنما يشترط حسن خلقه حتى لا يفسد أخلاقهم •

فمن كان يريد أن يرقى فوق مستوى القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومبادئ الحساب والدين والنحو والصرف والشعر فعليه أن يذهب الى إحدى المدارس وهي نوعان : منها ما هو مختص بمادة من مواد العلم كالتفسير أو الفقه أو النحو ، ومنها ما يتعلم فيه عدة مواد وكانت هذه هي مرحلة التعليم العالي الذي يقوم على تفسير

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢٢ •

القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات ، والفقه بمذاهبه ، والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافية) والحديث وعلومه • ولم يكن الطلاب يكتفون بهذا بل كان بعضهم يتخصص في علم من هذه العلوم أو أحد فروعها بعد أن يجمع بينها فيحتاج الى أستاذ متعمق في هذا العلم في مدرسته فان لم يجده ففي مدارس أخرى في بلده وقد يحتاج الى الرحلة في سبيله الى بلد آخر مهما كان بعيدا •

وقد عرف في العهدين الأيوبي والمملوكي اختصاص كل مدرسة بمادة كدور الحديث أو المدارس المخصصة للفقه • وبعض المدارس كان يعلم فيها المذاهب الأربعة كل مذهب يعلم في قاعة أو في قبة •

وهذه المدارس تعد من التعليم الراقى أو العالي ويكون فيها أستاذ رئيس هو شيخ المدرسة أو شيخ المادة المدرسة وهو الذي يعلم المادة وكان له معيد يعينه بأن يساعد الطلبة أو ضعافهم على فهم المسائل التي لا يفهمونها من الشيخ من المرة الأولى أو يكونون ضعافا فيها من قبل وأحيانا يكون للشيخ أيضا قارئ يقرأ بين يديه متن المادة التي يدرسها ويتولى هو بعد ذلك شرحها ، وكان الطلاب يحفظون هذه المتون وقد تكون المتون صعبة فيشرحها الشيخ ويحفظ الطلاب هذا الشرح أو يكتفون بفهمه ، وإذا أتم الطالب دراسته على الشيخ أجازته وهذه الإجازة إما أن تقتصر على كتاب واحد فيكتب له الشيخ بأنه قرأ عليه هذا الكتاب • وهذه الإجازة تسمى عراضة الكتب ، لأن حافظ الكتاب يعرض حفظه على مدرسه الذي يختبره في عدة أماكن من الكتاب فإذا نجح في الاختبار في عدة أماكن منه وأحسن الإجابة ولم يخطئ فيه كتب له الإجازة فيه فيقول : عرض عليّ فلان ••• أو عرض عليّ وكتبه فلان ويذكر في الإجازة اسم الطالب والشيخ المجيز ومذهبه وتاريخ الإجازة^(١) وقد تكون هذه الإجازة عامة بأن يكتب له بأنه قد أصبح ضليعا في هذه المادة وقد يجيزه الشيخ بالتدريس دون الفتوى إذا كانت المادة المدروسة هي الفقه

(١) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٦ - ٣٢٧ •

وقد يجيزه بالفتوى دون التدريس وقد يجيزه فيها معا وقد تتضمن الإجازة عدة مواد علمية درسها الطالب على الأستاذ ويشهد على الإجازة أحيانا شاهدان عالمان من تلاميذ الشيخ أو من أصدقائه ومعارفه وتكون الإجازة على الغالب قصيرة وقد يطيل فيها الشيخ ويتأثّق ، ولا يجوز للطالب أن يدرّس المادة أو يفتي الا إذا أخذ الإجازة بذلك من شيخه • ويُتبيّن ممّا أوردناه أن نظام التعليم كان دقيقا •

وكان العلماء النوابغ لا يكتفون بما يُحصّلون في بلادهم ويرحلون في طلب العلم ومنهم من كان يتنقل من أقصى المشرق الى أقصى المغرب في طلب الحديث والتفسير أو الفقه أو علوم العربية أو غيرها من العلوم •

وقد ذكر المقرئ كيف كان المماليك يُتلقون منهاجا خاصا في التعليم فقد كانوا يُسلّمون بعد جلبهم وهم صغار الى من يعلمّهم الكتابة ومبادئ الحساب ثم يتعلّمون القرآن وكان لكل جماعة فقيه يعلمّهم آداب الشريعة والقيام بالصلوات في أوقاتها ثم يُعلّمون الفقه • وفي سن البلوغ يدرّبون على رمي السهام والطعن بالرماح وكل طائفة يستلمها رئيس من الخصيان يسمى الأستاذ فاذا بلغ المملوك غاية ما يجب تعلّمه من العلم وشؤون الحرب تدرّج في المراتب ومنهم من يصبح أميرا ومن يصير فقيها أو أدبيا شاعرا أو عارفا بالحساب وكانوا يتعرّضون في حالات المخالفة لعقوبات صارمة • « الخطط ٢ : ٢٠٩ » •

وكان صغار الأسرى يتلقون من التعليم والتدريب ما يتلقاه المماليك الصغار • وكان الفرد منهم يسمى الترابّي وقد وصل بعضهم الى مراتب الأمراء •

وهناك بعض قواعد متّبعة في العلم منها ألاّ يأخذ الطالب العلم من الكتب دون مدرّس مهما كان ذكيا ، فلا بد من المدرّس ، ومن وجد أستاذه ناقصا فليأخذ ما عنده ثم يستكمل علمه عند آخر أو آخرين • وعلى الطالب أن يستظهر الكتاب الذي يدرسه بحيث يستغني عنه ويكون علمه في الصدر لا في السطر ، وعليه من أجل ذلك أن يشغل نفسه بكتاب واحد حتى يتقنه ولا تختلط عليه الكتب والمعلومات والأموار • ومن البديهي بناء على هذا أن الطالب لا يشغل نفسه بعلمين معا ، على

أن هذه القاعدة لم تكن متبّعة دائماً فكثيراً ما كان الطلاب ينتقلون من حلقة الى حلقة في المساجد على اختلاف مواد هذه الحلقات على أن نظام المساجد كما نرى هو نوع من الدراسة الحرة ولا يخضع غالباً لنظام المدارس الدقيق • وعلى من ينعلّم علماً أن يتابعه حتى يزداد علمه وذلك بتعليم المبتدئين ومناقشة الأنداد ومتابعة دروس من هم أكثر منه علماً وبالعَمَل بالتأليف • وعلى العالم ألا يغترّ بنفسه وأنّ يعرض ثمرات قرائحه على إخوانه وأنّ يترىث في الأحكام حتى يتثبت منها •

وكان العلماء المجربون ينصحون بأن يبدأ مع الطالب بالسهل وأنّ يطالع بالتدريج الى ما هو أصعب^(١) منه حتى يعالج العويص والمشكل من مسائل العلم ، ولذلك نصّحوا الطالب بمعرفة القواعد والأصول أولاً حق المعرفة قبل أن يطالع الكتب التي تعرض آراء المتشككين وأرباب الجدل وقد رأوا أن التدرج من السهل الى الصعب يشوّق النفس الى الاستزادة من العلم ولا يكدرها فينفّرُها • وينصح للطلاب بأن يبدأ في كل فن بكتب مؤلفيه الأوائل أو ما روي من كلامهم وألا يتعصب لكلام انسان قبل التثبت من صحته ورجحانه على غيره •

وكان لكل مدرسة مدرّسوها ومعيدوها أو معيدوها وإمامها ومؤذّنوها وناظر وقتها وخادمتها وقيّمها وطلابها الذين كانوا يسمون المتفقهة وكان لها أوقافها ومخصصاتها كما كان لكل من المدرّسين والمعيدين وسائر الموظفين ولكل متفقّه راتب معيّن يكفيه وكان بعض المدرّسين الميسورين يترفعون عن أخذ مخصصات جزاء تعليمهم ويكتفون بمواردهم الخاصة • وإذا انت الفقيه أو المعيد أو المدرّس ، وله زوجة وأولاد ، فيعطون من معلوم تلك الوظيفة التي كانت له ما تقوم به كفايتهم ، ثم ان فضل من المعلوم شيء ، عن قدر الكفاية فلا بأس باعطائه لمن يقوم بالكفاية • وقد وجد أحياناً نائب للمدرّس يثيبه هذا عنه مراعياء كفاءته • وكثيراً ما كان يجمع المدرّس بين التدريس والقضاء • وقد يتولى التدريس قاضي القضاة •

(١) السبكي ، معيد النعم ص ١٠٥ •

وقد يَمزج بين التدريس والقضاء والخطابة^(١) .

وكان عدد الطلاب محدودا وكانوا على مراتب من حيث مستواهم العلمي أي صفوفًا بحسب اصطلاحنا اليوم . فمنهم الطالب المبتدئ ، ومنهم الطالب المفيد الذي عليه أن يحصل فائدة زائدة على الآخرين ، ومنهم الطالب المنتهي الذي يكتف بالبحث والمناظرة لأنه بلغ مرحلة من التضج تؤهله لذلك . والثاني يقابل طالب الماجستير اليوم والثالث يقابل طالب الدكتوراه .

وكان التعليم في جامع كبير كالجامع الأموي في دمشق يجري في حلقات ، يدرّس في كل حلقة شيخ محدّث أو فقيه أو واعظ أو مدرّس لمادة من مواد العلم الآخر ، وهذه الدروس منها ما هو عام ، الغاية منه الموعظة ، أو تعليم بعض ضرورات الدين للعامة أو أنصاف المتعلّمين ، وقد يحضرها الخاصة . ومنها ما هو خاص بمادة من المواد يتعمق فيها المدرّس مع طلابه على أن الحلقة تبقى مفتوحة لمن شاء حضورها من الناس .

وهذه الطريقة في التعليم طريقة حرة تجعل الطالب يحصل على المادة العلمية التي تستهويه ولا يكتف التعلّم شيئاً وهي بالإضافة إلى حريتها جذابة ، ثم هي تتيح للطلاب المشغول بكسب رزقه وبعمله اليومي طول النهار أن يثقف نفسه الثقافة التي يريدّها صباحاً أو ليلاً أو في وقت العصر بحسب الاوقات التي يختارها الشيوخ لتدريسهم وبحسب فراغه هو ، وبهذا يستطيع أن يحصل العلم الفقير والغني والمتفرغ على حدّ سواء ثم هي لا ترهق الآباء بالإتفاق على أولادهم حتى سن متأخرة كما هي الحالة اليوم ثم هي لا تؤخر زواج هؤلاء الشبان إلى ما بعد تخرّجهم وتوفيقهم في أعمالهم توفيقاً يساعدهم على كفاية أنفسهم والاستقلال بها ، وهي تقابل

(١) وقد جمع بعضهم بين التدريس وقيادة الجيش وكان تولي التدريس والاعادة يتطلب أحياناً مرسوماً ملكياً وربما اقتصر ذلك على المدارس التي تحت إشراف السلطان .

الجامعات الليلية بنظامها اليوم غير أنها أكثر حرية وأقل كلفة وتدل على مدى عشق العرب للعلم ومدى تمهيدهم الصعوبات لتحصيله •

وكان القرآن يُتلى كل يوم في الجامع الأموي بدمشق عقب صلاة الصبح ، وكان يُتلى بعد العصر السور القصار من سورة الكوثر حتى الخاتمة وكان يحضر قراءة هذه السور من لا يجيد حفظها فيتلقنها • وقد شاهد ابن جبير في رحلته (ص ٢٧٢ و ٢٢٢) أن المقرئين حين انتهائهم من القراءة يجلسون كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد فيلقن صبيًا القرآن ، ولاحظ أن الخط يتعلسه الصبي بكتابة الأشعار ، وقد استحسن هذه الطريقة •

وكان بعض المدارس مستقلا وبعضها ملحقا بالمساجد ، وكان بها أجنحة لإقامة الطلاب الغرباء يجدون فيها جميع ما يحتاجون اليه وتجرى عليهم الرواتب الكافية • وذكر أن صلاح الدين كان ينفق على فقهاء دمشق وكانوا ستمائة زهاء ثلاثمائة ألف دينار • وكان لجامع عمرو وحده راتب يومي مقداره ثلاثون ديناراً • وربما وقف على طلبه العلم بالمدرسة من لم يينها رغبة في خدمة العلم واستجلابا للشواب •

وكان الأستاذ يجلس على كرسيه أو على مكان مرتفع وأمامه حلقة من الطلاب هو في طرف منها فيلقي درسه مشافهة أو من كتاب أمامه قد يكون من تأليفه أو لغيره ويناقشهم فيه ويشرح مشاكله أو قد يعرض مسألة من مسائل ذلك العلم ويشرحها ويناقش فيها •

وكان بعض الأساتذة يلمشون بعدة لغات في هذه العهود وكانت دروس بعضهم موسوعات يتعرضون فيها لكل فن من فنون العلم فيجمعون في درس الحديث مثلاً بين النحو واللغة والتاريخ والشعر والنوادر والخبار والجدل الديني مما يتطلبه البحث أو يأتون به للترويح عن أذهان طلابهم • واشتهر بعض المدرسين بحسن الإفهام والحدق بإلقاء الدروس وتفهم بعض الطلاب غير العرب ما يستغلق عليهم من شؤون العلم بلغاتهم الخاصة ، كابن الدهان العالم الموصل الجليل الذي تحدثنا عنه قبل بين علماء العراق في العصر الأيوبي • (إرشاد الأريب ، ٦ : ٢٣٢) •

وقد وصف ابن جبير درس التفسير في المدرسة النظامية ببغداد فقال : إنَّ الإمام يكون على المنبر فيقرأ القرآن بين يديه ويأخذ هو في تفسير الآية بعد الآية مستشهدا بالحديث وكان هذا الدرس يلقي بعد صلاة العصر من كل يوم ، وكان يقوم بتسجيل دروس الشيخ « كاتب الغيبة » (الرحلة : ٢٢١) •

وكان بعض النظار يطلون المدرسين أحيانا فلا يعطونهم مرتباتهم إلاَّ بشقِّ الأُنفس وبوساطة ذوي المناصب العالية وهذا ما دفع أبا شامة صاحب كتاب الروضتين إلى الانقطاع عن المدرسة والاشتغال بزراعة أرضه فلما عوتب في ذلك نظم قصيدة يشكو فيها من هذه الحال منها :

لا تلمني على الفلاحة واعلمْ أُنْهَـا مِن أَجْلِ كَسْبِ وَأَثَرِ
اتَّخِذْ حِرْفَةً تَعِيشُ بِهَا يَا طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّ لِّلْعِلْمِ ذِكْرًا
أَنَا تَحْصِلُ الْوَقُوفَ لِشَرِّيرٍ وَتَذُلُّ مِنَ الْعُلُومِ مُبَرَّرًا
صَدَقَاتُ الْوَقُوفِ يَنْفِرُ مِنْهَا كُلُّ حَرٍّ تَأْتِيهِ صَفْوًا وَيُسْرًا
كَيْفَ حَالِ الَّذِي يَذُلُّ لَهَا بِالْقَوْلِ كَيْ يَحْصُلَ نَزْرًا
« الحياة العلمية ، أحمد أحمد بدوي ، في بحث مرتبات العلماء ... »

وكان قد استحدث في أيام المعظم عيسى ديوان للمدارس ليتولى إدارة الاوقاف على المدارس كلَّها ولكنه لم يكتب له التوفيق والبقاء •

ويشترط تاج الدين السبكي (معيد النعم ص ١٦٣) على القارئ الذي يقرأ للناس ما يفيدهم في أمور دينهم أن يختار لهم البسيط المفهوم مثل إحياء علوم الدين للغزالي ، ورياض الصالحين ، والأذكار للنووي ، وسلاح المؤمن في الأدعية للسبكي ، وكتب ابن الجوزي في الوعظ •

ويطلب تاج الدين السبكي من العالم أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقي إلى جوار الملائكة الأعلى ويعجب من العالم الذي يطلب بعلمه حطام الدنيا لأن هذا العالم يرى أن كثيرا من الجاهل قد وصلوا من الدنيا الى ما لا يصل هو اليه بعلمه ،

فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل فلم نحاول أن نشترىها بأنفس الأشياء وهو العلم ؟
(معيد النعم ص ٩٦) •

ونحب أن تنبه الى كثرة النساء العالمات في هذه العهود وفي رواية الحديث
بخاصة • وكان كبار الحفاظ والعلماء يأخذون عنهن (الصفدي أعيان العصر (خ)
في عدة أماكن منها ج ٣ ، ق ١ و ٢٢٧ ، والمنهل الصافي (خ) ٢ و : ١٠٦ — ١٠٧)^(١)
و (الأدب الأيوبي لزغلول سلام ص ١٦٢) •



(١) ومن مراجع البحث ايضا : تاريخ العرب المطول لفيليب حتى ، الجزء
الثالث حوالي ص ٦٦٨ و ٦٦٩ •

نماذج من المؤلفين والكتب والعلماء :

أ - العهد الفاطمي - الزنكي :

١ - نص في تربية النفس من كتاب « إحياء علوم الدين » ، للغزالي (١) :

قال الامام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في ضرورة محاسبة النفس بعد العمل متحدثا عن فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها (إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٤٥) :

أ - في فضيلة المحاسبة :

« أما الفضيلة فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واتقوا أنفسكم ما قدمت لغد) * وهذه إشارة الى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال أمستوص أنت ، فقال : نعم ، قال : اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن كان رشدا فأمضه ، وإن كان غييا فاته عنه * وفي الخبر : وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه * وقال تعالى (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأستغفر الله تعالى وأتوب اليه في اليوم مئة مرة ، وقال الله تعالى : (إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) * وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرّة اذا جنّه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم ؟ ، وعن ميمون ابن مهران أنه قال : لا يكون العبد من

(١) دراسة هذا النص والنصوص بعده هي في الوقت نفسه دراسة لاساليب

الاداء المتبعة في التأليف .

المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان
بعد العمل ... »

ب - في حقيقة المحاسبة :

« اعلم أنَّ العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل
التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها
على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة
أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت
الخيرة لهم في فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب
العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ، ما هذه المساهلة إلا
عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين
له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من
خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذاك رأس مال العبد في دينه
الفرائض وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة جملة
النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء ... »

كلمة في المؤلف :

أبو حامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . فقيه شافعي ولد في طوس
ونشأ فيها . تكاثر الفلاسفة في عصره وناهضوا رجال الدين فتصدى أبو حامد
لردّهم ، وكان بصيرا عاقلا مع ميل الى التديّش فاطلع على أقوال الفلاسفة وأمعن
فيما يخالف ظاهره منها قواعد الدين ، فوقع في حيرة وتردد وعمد الى التحقيق بنفسه
فقضى في ذلك أعواما وهو يطالع ويفكر ويلقي دروسه في المدرسة النظامية . ثم
انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ هـ وسلك طريق الزهد . وقضى عشرة أعوام في
الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية وهو يطالع ويبحث

وينظر فتبين له أن الفلاسفة على ضلال وثبت عنده الدفاع عن الدين فحمل عليهم حملة صادقة بالمناظرة والتأليف • وكان يجادلهم ببراهينهم فسمي لذلك حجة الإسلام وخلف ما يزيد على سبعين مؤلفا أكثرها في الجدل والمناظرة •

« عن آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٩٧ » •

آثاره :

ذكر جرجي زيدان من كتبه : « البسيط » في الفروع ، و « الوسيط المحيط بأقطار البسيط » في الفقه الشافعي و « الوجيز » في الفروع و « تهافت الفلاسفة » و « مقاصد الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » و « المصنوع به على غير أهله » و « إحياء علوم الدين » و « بداية الهداية » و « سر العالمين وكشف ما في الدارين » و « جواهر القرآن » و « فضائح الباطنية » و « غرائب الاثول في عجائب الدول » و « تنزيه القرآن عن المطاعن » •

كلمة في « إحياء علوم الدين » :

هو في المواعظ طبع بمصر سنة ١٢٨٩ و ١٣٠٦ هـ ومنه نسخ خطية في مكاتب فيينا وبرلين وليدن والمتحف البريطاني واكسفورد ، وعليه شروح عديدة ، منها منهاج القاصدين لابن الجوزي ، وروح الأحياء لابن يونس • (عن آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٩٨) •

وقد جعل الغزالي « إحياء علوم الدين » أرباعا : الربع الأول للمعتقدات والعبادات ، والثاني للعادات ، والثالث للمهلكات ، والرابع للمنجات • ويتبين من عناوين هذه الأرباع اتجاه الكتاب الديني •

كلمة في النص :

اجتزأنا القسم الأخير من كل من جزأي النص : فضيلة المحاسبة ، وحقيقتها وذلك رغبة في الاختصار :

يلاحظ على الغزالي في جميع أبحاثه في كتاب إحياء علوم الدين أنه يذكر فضيلة

الشيء الحسن ثم يذكر حقيقته ، ومذمة الشيء السيئ ، ثم طريقة تلافيه ، وهو يقصد بفضيلة الشيء ، ما ذكر من فضائله في القرآن أو الحديث أو الأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين أو الحكماء ، ويقصد بحقيقته الخطوات العملية التي يقوم بها الإنسان لتحقيق الفعل الحسن ، وتجنب السيئ . وهو غالبا يستنتج الحقيقة من الاقوال التي أوردتها في فضيلة الشيء ويضم إليها تجاربه وأفكاره الخاصة .

❖ ولا شك في أن محاسبة النفس أمر يجب أن يقوم به كل عاقل في وقت فراغه ليكون في يومه خيرا منه في أمسه وفي غده خيرا منه في يومه ومن دون هذه المحاسبة يكون ضائعا . وغرضه منه تربية الفرد تربية فاضلة ليتكون من مجموع الأفراد الفاضلين المجتمع الافضل . وواضح أنه يعتمد على أسس نفسية معقولة بالاضافة الى نصوص الشرع .

ان كتاب الغزالي هذا من كتب التصوف الاسلامي التي تستمد التصوف من الشرع قرآنا وحديثا وسنة ولا تخالف الشرع في شيء كما هو الحال لدى بعض الفرق الصوفية .

ولا يزال العمل بمضمون هذا النص ضروريا في مجتمعنا الحاضر وحبذا لو نعوّد أطفالنا كتابة المذكرات الشخصية كل يوم قبل أن يناموا ، كما يفعل الغريون فإنهم يستفيدون من ذلك : ١ - محاسبة النفس وتهذيبها ، ٢ - القدرة على الكتابة وتحليل المشاعر ووصف الأحوال النفسية والخواطر الدقيقة .

أسلوب النص سهل واضح خال من الغريب ومن السجع وغيره من أنواع الصناعة وهو يمثل إسهام الغزالي العفوي في التوجيه المعنوي حين بدء الحروب الصليبية وذلك بتأليفه كتابه « إحياء علوم الدين » وغيره من الكتب المماثلة ، لأن من حاسب نفسه وخاف عقاب ربه قانه لن يتقاعس عن الجهاد ولن يخاف من الموت في الحرب .

ب - نص من « النوادر السلطانية » لابن شداد وهو في موضوع « حب صلاح الدين للجهاد » .
« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ، وسائر جوانحه

استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا لمن يذكره به ويحبه عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله ، وأولاده ، ووطنه ، وسكنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحته على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً ، جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي في فضله . وكان — رحمه الله — كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الأفضل ، عزّ نصره » (١) .

وذكر ابن شداد في موضع آخر من الكتاب أنه سار مع السلطان على الساحل في طلب عكا ، وكان الزمان شتاءً ، والبحر هائجاً ، وموجه كالجبال ، قال :

« فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيّل إليّ أنه لو قال السلطان لي : ان جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا ، لما كنت أفعل . هذا كله خطر لي ، لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر . فبينما أنا في ذلك اذ التفت إليّ — رحمه الله — وقال : أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؟ انه متى ما يسّر الله تعالى لي فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره ، واتبعتهم (أي الفرنجة) فيها ، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله ، أو أموت . فعظم وقع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان خطر لي . وقلت : ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ، ولا أقوى منه نية في نصره دين الله . واستأذنت في أن أحكي له ما كان خطر لي ، فحكيت له . » (٢) .

كلمة في المؤلف :

بهاء الدين بن شداد (ت سنة ٦٣٢ هـ)

-
- (١) وفيات الأعيان ٦ : ٨٥ ، بالإضافة الى النص المباشر عن ابن شداد في النوادر السلطانية . ج ١ ص ١٦ .
- (٢) النوادر السلطانية أيضاً .

هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد ، قاضي حلب •
ولد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ فلما أتم علمه رحل الى بغداد وتعيّن معيدا في المدرسة
النظامية • ثم صار أستاذا في مدرسة الموصل الكبرى ، وعاد من حجّه سنة ٥٨٤ ،
الى دمشق فولاه صلاح الدين قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس • ولما توفي
صلاح الدين رحل الى حلب وعيّن قاضيا فيها ، ثم اعتزل الاعمال حتى مات • وله
أخبار كثيرة أطال ابن خلكان في ذكرها ، وأشهر مؤلفاته :

١ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - وهي سيرة صلاح الدين الايوبي
طبعت في لندن سنة ١٧٣٣ م مع منتخبات عن صلاح الدين من تاريخ أبي الفداء
وعماد الدين الاصفهاني وغيرها مع ترجمة ذلك كله ، باللغة اللاتينية ، وقد ترجمت
أيضا الى الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٨٨٤ م وطبعت في لندن سنة ١٨٩٧ م
مع تعليقات بالانجليزية • وطبعت بمصر سنة ١٣١٧ هـ •

٢ - تاريخ حلب : منه نسخة في بطرسبرغ •

٣ - دلائل الاحكام في الفقه • باريس •

٤ - ملجأ الاحكام عند التباس الأحكام : في دار الكتب المصرية •

(ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ، ص ٣٥٤) ، (عن آداب اللغة العربية

لجرجي زيدان ج ٣ ص ٦٣) •

كلمة في النص :

يظهر في هذا النص ما يلي :

١ - شدة اعجاب ابن شداد بصلاح الدين ولا عجب فقد أعجب به الأعداء فكيف
الاصدقاء ولو لم يكن معجبا به لما أرّخ سيرته •

٢ - مدى التفاوت بين شخصي الرجلين فأحدهما عالم أديب ولكنه يخشى ركوب
الاخطار • والآخر قائد طموح له مثل أعلى خطّط له وسعى الى تحقيقه وهو
يبيد تنازله من أجله عن الدنيا التي يمتلكها فعلا •

٣ - أحسن الكاتب اختيار الحوادث التي يصوّر بها حب صلاح الدين للجهاد

فاستطاع إثارة إعجابنا ، فصلاح الدين ينأى عن أهله ووطنه ، ويعاني شدة البرد والرياح ، وتسقط عليه الخيمة حتى تكاد تقتله فيزداد رغبة في الجهاد ، والمؤرخ يسير معه على شاطئ البحر نحو عكا في غاية التعب والرغبة من الأمواج وتحديثه نفسه بأنه لن يركب البحر ولو أعطي ملك الدنيا ، فإذا صلاح الدين يخبره بأنه يريد تتبع الأعداء في جزائر البحر فلا يبقى في الدنيا كافرا صيانة للمسلمين وبلادهم وإعلاء لكلمة الله •

وقد استطاع المؤرخ بحسن اختيار هذه الحوادث البسيطة ، وبأسلوبه الطلي البسيط الخالي من التكلف أن يصور لنا عظمة صلاح الدين النفسية وقوة عزمه وعلو همته ، وأن يثير إعجابنا به • وهذا يرتبط بحبه الصادق له وإعجابه الشديد به ، فالكلام خارج من قلبه •

والكتاب بما فيه من طلاوة وتعبير عن المشاعر وبأسلوبه يعدّ كتاب أدب الى جانب أنه كتاب تاريخي علمي •

٤ — يدلنا النص على متابعة صلاح الدين المطالعة في كل ما يتعلق بالجهاد ، فقد ذكر المؤرخ كيف ألّف له كتابا فيمن ألّف في ذلك الموضوع ، وأنه كان يقرأ فيه حتى أخذه منه ابنه الأفضل • وما ذكرناه عن ابن شداد هنا هو جانب من ثقافة صلاح الدين فقد كان يتابع دراسة الحديث والفقه والتفسير والأدب على كبار العلماء وقد يّنا قبل أنه كان يحفظ ديوان الحماسة فيما يحفظ •

٥ — نلاحظ أن أسلوب الكاتب في تصوير عظمة صلاح الدين يعتمد الحوادث الجزئية البسيطة ، وهو يثير الاهتمام والإعجاب ببساطتها • ويمكن أن يتألف من مجموع حوادثه قصة شائعة عن صلاح الدين •

٦ — النص مثال لما كتب من السير في صلاح الدين وغيره من الأبطال ، وهو بالتالي لبنة من اللبنة التي قام عليها صرح التوجيه المعنوي زمن الحروب الصليبية •

ج - نصّان من العهد المملوكي التركي :

١ - نص من مسالك الابصار - في ممالك الامصار لابن فضل الله العمري ،
موضوعه « معرفة العرب نظريا بوجود أمريكا » :

قال شيخنا فريد الدهر ، أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الاصفهاني ، امتع
الله به : « لا أمتنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الارض من جهتنا ، منكشفاً من
الجهة الاخرى • واذا لم أمتنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمتنع أن يكون به
من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى ، والذي
ظهر لنا من ذلك عقلاً ونقلًا ذكرناه وبالله التوفيق » • (ج ١ ص ٣١) •

المؤلف والكتاب :

ابن فضل الله العمري هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل
الله العمري (ت ٧٤٨ هـ) • ولد بدمشق وتوفي فيها وتلقى تحصيله فيها وفي القاهرة
والاسكندرية والحجاز ، وتولى القضاء وغيره في القاهرة وكان إماماً في الأدب
والتاريخ والانشاء • وله مشاركة في جميع العلوم المعروفة في زمنه واشتهر بذكائه
وقوة حافظته وبلاغته وسعة اطلاعه على تواريخ المغول والأترار والهند والممالك
والمسالك وخطوط الاقاليم وطبائعها وعلم الهيئة •

آثاره :

أشهر كتبه « مسالك الابصار في ممالك الامصار » وهو موسوعة جغرافية
تاريخية أدبية تناولت التاريخ الطبيعي أيضاً فيما تناولته ، ألفه في بضعة وعشرين
مجلداً • وهذا الكتاب قسمان : الاول في الجغرافية وما يتعلق بها ، والثاني في
سكان الارض بين حيوان ناطق وغير ناطق ، وهو يتحدث في القسم الجغرافي عن
البر والبحر وعجائبهما ومسالك الممالك ومواقع مشاهير البلاد ولا سيما مصر والشام
والحجاز وترتيبها ونظامها ، ومنازل العرب كما عرفها زمانه • وقد قسم سكان
الارض الى سكان الغرب وسكان الشرق ، وفاضل بين الفريقين وهو يترجم لرجالهم •
وترجم للإطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والادارة ثم بحث في

العلوم الطبيعية والحيوان والنبات وتوسع في وصف الطيور وسائر الحيوان ، وقسم التاريخ بحسب الأمم والبلدان والأزمان والأصقاع وانتهى به الى سنة ٦٤٤ هـ ، وتحدث في تاريخ الهنود والأترالك والأكراد وغيرهم من الأمم •

ولابن فضل الله العمري كتب أخرى منها « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وهو مجموع رسائل في مراسم الملك وقد أفاد منها القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » وله « ممالك عبّاد الصليب » ، وصف فيه ملوك الافرنج في عصره وممالكهم مستعينا برواية « بليان الجنوي » أحد ممالك بهادر المعزّي •

كلمة في النص :

يطلعنا هذا النص على مدى تقدم علم الجغرافية لدى أجدادنا لا من حيث الرحلات في البلاد ولا من حيث وصف العالمين الارضي والسمائي بل من حيث التفكير المنطقي الجغرافي ، فابن فضل الله العمري يقرر أن الأرض كروية وأن في مقابل اليابسة التي نعيش عليها من هذه الأرض يابسة أخرى (هي التي تسمى اليوم أمريكا) وهو يهتدي الى ذلك بعقله ونقله • ونراه ينقل عن شيخه محمود الاصفهاني ما اهتدى اليه بعقله ، وما يحتمل أن يكون قد رآه في كتب غيره ، من وجود يابسة مثل يابستنا على الجانب المقابل من الأرض الكروية المغمورة أكثرها بالبحار وأن يكون بها من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا من أنواع وأجناس أخرى •

وهذا النص يجعلنا تترث في الحكم على هذا العهد المملوكي الاول بأنه عصر انحطاط أو انحدار لأنه يدل على فكر راق بعيد الغور ومنه يتبين أن المؤلف يقول بكروية الأرض ويقول بأن البحار كانت تغمرها كلها وهي نظرية حديثة صحيحة • وقد يقال بأنه ليس مبتكر هاتين النظريتين وأنه متابع فيهما لمن قبله • وهذا صحيح ولكن مجرد القول بهاتين النظريتين يدل على رقي أو على ثبات على مستوى من الفكر ، لا انحطاط •

٢ - نص آخر من كتاب « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، وهو في قبة النسر في الجامع الاموي وفي ساعته (ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨) :

« فأما القبة فمما لا يجول في مثلها ظن ، ولا يدور في فكر ، قد تعلق رفرقها بالعمام عابثا ، وحلّق طائرها الى أخويه النسر ين يبغي أن يكون لهما ثالثا ، قد بنيت على قناطر ، ممتدة على قناطر ، بعقود محكمة ، وقطع صخور منظمة ، الى سقوف مذهبة ، ومحاسن موجزة مسهبة . وعلى رأس القبة هلال عال في أنبوبة ، طول الريح . قد غلفت هي وكل الاسطحة بالرصاص ، وحكمت ميازيه ، وجمع فيه من كل حسن غريبه . قال أبو محمد بن زير القاضي : سمي باب الساعة لأنه عمل هناك ببيكار^(١) الساعات ، يعلم بها كل ساعة تمضي ، عليها عصافير من نحاس وحية من نحاس وغراب من نحاس ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة في الطست » .

كلمة في هذا النص :

يصف لنا هذا النص في القسم الاول منه عظمة قبة النسر في مسجد دمشق الاموي ارتفاعا وحسن بناء وهو يصفها من باطن الجامع ومن السطح ولا ينسى وصف بنائها على قناطر بنيت فوق قناطر ، كما لا ينسى تذهيبها ومحاسنها جملة وتفصيلا .

ويصف ثانيا ساعتها العجيبة التي وصفها ابن جبير قبله ، بما فيها من عصافير وحية وغراب تصوت كلها مشيرة الى تمام الساعة مع سقوط حصاة منها في طست .

وهذا النص يطلعنا على مدى تقدم أجدادنا في علم الميكانيك خلال تلك الحقبة فوجود تلك الساعة صحيح بتواتر الاخبار ، وصنعها على تلك الصفة ليس بالامر القليل في ذلك العصر الذي سمي عصر الانحطاط .

ووجود هذه الساعة حقيقة لا ريب فيها وهو يستدعي وجود ميكانيكيين بارعين وتأليف في علم الميكانيك وفنونه العملية ويبرهن على رقي الميكانيك والصناعة النسبي في ذلك الوقت .

(١) هكذا في الاصل ، وصوابه بنكام وهي الساعة المائية التي وصفها ابن جبير في رحلته .

وقد يقال بأن هذه الساعة ليست من ابتكار العصر ، فقد حدثنا التاريخ عن أن الرشيد قد أهدى مثل هذه الساعة لشارلمان ملك فرنسا وظنت حاشيته حينذاك أن بها شياطين تحركها • ونحن كذلك لا نقول بأنها ابتكرت فيه ولكننا نقول ان وجودها فيه والقدرة على صيانتها وتصليحها دليل على أن هذا العهد ونعني به العهد المملوكي الاول قد حافظ في هذه الناحية على المستوى العلمي الفني الذي كان فيما سبقه من عهود •

د - العهد المملوكي الثاني :

نصوص من مقدمة ابن خلدون في موضوعات مختلفة :

١٠ - قال ابن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته يبين حقيقة التاريخ في رأيه :

« حقيقة التاريخ أنه خبر من الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأشس ، والعصيات ، وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما يتحمّله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » • (ص ٣٥) •

كلمة في الكاتب :

ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ولقب بولي الدين حين تولى قضاء المالكية في مصر • ولد في تونس ، وهو ينتمي الى أسرة يمانية حضرية عريقة في المجد والعلم ، وجدّه وائل بن حجر صحابي معروف من أقبال كندة • استقرت أسرته في إشبيلية في مطلع القرن الثالث الهجري وكانوا بين رئاسة علمية ورئاسة سلطانية ، واضطرت أسرته الى الجلاء عن إشبيلية حين سقطت في يد فرديناند الثالث الإسباني فاستقر بها المقام في تونس وأصبحت ذات نفوذ وجاه وتولى جدّه الوزارة عدة مرات وقتل الوالد منهما في إحدى الثورات ، وانصرف أبوه الى العلم • ورث ابن خلدون عن آبائه الميلىن معا السياسي والعلمي وتفقه بعلوم عصره العربية والاسلامية والعقلية • فقد ابن خلدون والديه في الطائرون الذي

حدث بتونس وهو في السابعة عشرة من عمره وأراد اللحاق بمدرّسيه في المغرب الأقصى بصحبة سلطان مراكش أبي الحسن المريني فمنعه أخوه • جعله طموحه السياسي قليل التعلّق بأسرته شديد المراس واسع الحيلة والدهاء •

كانت البلاد العربية الإسلامية في زمنه في حالة انحلال وفوضى وكانت المغامرة هي ذريعة الوصول الى القمة مهما كانت الوسائل اليها فاشترك في كثير من المؤامرات التي حيكت في شمال إفريقيا حينئذ •

شغل منصب كاتب العلامة في تونس ولم يعجبه • وبعد استلامه عدة مناصب كبيرة في عدة ممالك مغربية سئم السياسة فعرج حين خروجه من تلمسان على قلعة ابن سلامة وتسمى اليوم « تاوغزوت » ونزل ضيفا على بني عريف وبقي في هذه القلعة أربع سنوات كتب فيها مقدمته وجزءا من كتابه في التاريخ العام ، على أنه أصلح المقدمة بعد ذلك بالزيادة والحذف والتنقيح والتبديل عدة مرات ، بعد تجارب جديدة ومطالعات كثيرة في المشرق والمغرب • استأذن ابن خلدون من سلطان تونس في العودة الى مسقط رأسه ليتم كتابه في تاريخ العرب والبربر لأنّه بحاجة الى مكتبة غنية وحين أنهى تاريخ البربر وزناته وقدم نسخة الى السلطان دبّ الحسد الى صدر رفيقه محمد بن عرفة فأخذ يشي به فخاف العاقبة واستأذن السلطان في الحجّ فأذن له على أن تبقى أسرته في تونس ضمانا لعودته •

وحين وصل الى القاهرة كانت شهرته قد سبقت اليها فالتفّ حوله طلاب الازهر ثم عيّن مدرسا للفقهاء المالكي ثم ولّي منصب القضاء المالكي فاستاء منه أصحاب النفوذ لاستقامته فعزل من القضاء وبقي مدرّسا فاستقدم أسرته من تونس ولكنها غرقت في طريقها اليه فتألم غير أنه تجلّد وسافر الى الحجّ • وبعد خمس سنوات أعاده السلطان برقوق الى القضاء المالكي ، ثم عزل بعد موت السلطان • وحين غزا تيمور بلاد الشام وسار السلطان قرج بن برقوق الى حربه استصحبه معه ضمن حاشيته من العلماء والقضاة ، وجاء السلطان وهو في دمشق خبر مؤامرة ضده فأسرع بالرجوع الى مصر تاركا دمشق لرحمة التتار : وكان ابن خلدون في وفد العلماء

الذي ذهب لمفاوضة تيمور ، وعلى الرغم من خيبة الوفد في مهمته فإنّ تيمور قد أعجب كثيرا بابن خلدون وكتّفه بوضع مخطط لبلاد المغرب لغرض مفهوم فاضطر للبقاء عنده خمسة وثلاثين يوما ثم احتال عليه حتى غادره ورجع الى مصر ، وتناوب هو والفقيه البساطي منافسه منصب القضاء المالكي حتى توفي وهو في هذا المنصب .

كان ابن خلدون شديد المراس كثير الدهاء طموحا في السياسة وفي العلم ذكيا قوي الإرادة قوي الشخصية محبا للظهور ويدلنا على اعتزازه بنفسه أنه أول كاتب عربي فيما نعلم ، (باستثناء صاحب كتاب الاعتبار أسامة بن منقذ) كتب تاريخ حياته بنفسه في كتابه « التعريف » وسجل فيه مراسلاته وخطبه وقصائده . وقد اتهمه بعضهم في دينه وخلقه الوطني لما لجأ اليه في السياسة من مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة . وهو في الحقيقة لم يستطع السمو على عصره في هذه الناحية ولم تكن الغلبة في عصره للمبدأ الوطني المحلي أو القومي العام وانما كانت الغلبة للسيف والدهاء والمؤامرة .

كلمة في الكتاب :

أهم آثار ابن خلدون مقدمته لكتابه المشهور : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » جعل ابن خلدون كتابه في ثلاثة أجزاء ومقدمة . والمقدمة هي أعظم ما في الكتاب ، يتكلم فيها عن فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه وأخطاء المؤرخين ، ويعرّف علم التاريخ ويذكر فائده ، ويتكلم في الكتاب الاول على العمران ويذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما الى ذلك من العلل والاسباب وهذا الكتاب مع المقدمة هو المشهور بمقدمة ابن خلدون . ويتحدث في الكتاب الثاني عن أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة الى عهده ويتطرق لبعض من عاصرهم من الأمم المشهورة ودولها مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والفرنجة . ويورد في الكتاب الثالث أخبار البربر ومواليهم من زناتة ويذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار

المغرب بخاصة من الملك والدول ويلحق بالكتاب ترجمة حياته بقلمه هو نفسه وهي التي أسماها « التعريف بابن خلدون » •

طبع الكتاب أكثر من مرة ، ولم يطبق ابن خلدون دائما قواعد النقد التاريخي التي وضعها للمؤرخين ولكن كتابه يُعَدُّ المرجع الوحيد في تاريخ البربر والدول الإسلامية في شمال إفريقيا ، ولولاه لما عرف شيء عنها ، أما كلامه في تاريخ المشرق فليس إلا مجموعة معلومات اقتبسها من كتب سابقة •

أما المقدمة فقد كان فيها نابغة بين نوابغ الإنسانية فقد سبق فيها الى فهم التاريخ على أنه تاريخ حضارة إنسانية عامة وليس تاريخ رجال السياسة فقط وما قاموا به من حروب وانتصارات وكان فيها واضعا لعلم جديد هو علم الاجتماع في عرفنا اليوم وقد سمّاه هو علم العمران وكان يعرف أنه وضع علما جديدا وينتظر أن يستكمّله الباحثون بعده • وكان ابن خلدون أيضا مؤسسًا لما يسمى « فلسفة التاريخ » فقد كانت غايته من تأليف المقدمة وضع قواعد للتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب في الأخبار التاريخية فعدّها بعضهم كتابا في فلسفة التاريخ وآخرون من قبيل « علم المدخل الى التاريخ » بحسب مفهوم القرن التاسع عشر • فقد أراد ابن خلدون أن يبرهن على حوادث التاريخ الماضية بمقارنتها بأحوال المجتمع الحاضر فألهمه ذلك أن يتناول الحوادث الاجتماعية ولذلك عدّه بعضهم المقدمة مؤلفا في الفلسفة الاجتماعية •

كلمة في النص :

يلاحظ أن المؤلف ينظر الى التاريخ على أنه تاريخ الحضارة في جميع صورها ونواحيها وليس تاريخ رجال السياسة أو الملوك أو القواد العظام فقط ، لذلك يطالب المؤرخ أن ينظر في شؤون العمران أي في نواحي الحياة الاجتماعية من حيث الكسب والمعاش والعلم والصنائع والفنون وغيرها •

ويلاحظ عليه من حيث الأسلوب سهولته ووضوحه وخلوّه من السجع وسائر ألوان الدعاية البديعية •

٢- نص في ضرورة تعليل الحوادث التاريخية :

« إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشهد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوق والغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال . وتطرف بها الأندية اذا غصّها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحن منهم الزوال . » وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخلق . (ص ٣ الى ٤) .

كلمة في النص :

يبين المؤلف في هذا النص أهمية علم التاريخ لدى الامم من الملوك والعلماء حتى السوق وأن التاريخ ليس مجرد رواية للاخبار واعتبار بتقلبات الاحوال . فانه يتطلب النظر والتحقيق وبحث الاسباب والعلل والتتائج ، وبذلك يدخل في الحكمة . فابن خلدون في هذا النص يسعى الى فلسفة التاريخ وعدم الاقتصار به على الاخبار ، ويرى أن المؤلف يكثر في أسلوبه من السجع بخلاف النص الاول وذلك لأن هذا النص قد ورد في مقدمة المقدمة وكان من عادة المؤلفين حينئذ أن يجعلوها مسجوعة .

أما النص الاول فمثال لكتابة ابن خلدون فيما عدا المقدمة وفيها يترك نفسه على سجيتها . ولم يكن ابن خلدون المؤلف الوحيد الذي يتغير أسلوبه بين مقدمة الكتاب وباقيه .

٣- نص لابن خلدون يبين أثر الضغط الاجتماعي على حياة الافراد :

« فإن من أدرك أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ، ويتحطون بالذهب في السلاح والمرائب ، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات ، فلا

يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزيّ والاختلاط بالناس ،
اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه • ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس
في الخروج عن العوائد دفعة ، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه « •
(ص ٢٩٤) •

كلمة في النص :

يتبيّن من النص السابق أن ابن خلدون قد أدرك أثر الضغط الاجتماعي على
حياة الأفراد في المجتمع وأنه قد سبق بذلك دور كهائم أحد علماء أوروبا الحديثين •
فهو يظهر هنا كيف لا يستطيع الابن أن يخالف ما نشأ عليه في كنف أبيه اذا عاش
في الفخفة والديباج ، وأن يؤثر عليهما حياة الخشونة فان العادة تضغط عليه من
داخل نفسه والمجتمع يضغط عليه من خارجها ويرميه بالجنون فيعود عليه ذلك
بأسوأ العواقب •

أسلوب المؤلف في هذا النص بسيط سهل خال من السجع وسائر ألوان
التكلف • ونراه يستعمل جمع التكسير « العوائد » مكان العادات ج عادة
والعوائد : ج عائدة وهي ما يعود على الانسان من خير أو شر • وقد استعمل
الكاتب نفسه مفرد اللفظة صحيحا في آخر النص حين قال : « وخشي عليه عائدة
ذلك وعاقبته » •

وقد أراد بعضهم أن يبريء ابن خلدون من هذا الخطأ اللغوي فقال بأنه استعمل
العوائد بمعنى النتائج التي تترتب على مخالفة عادات العصر وهو رأي وجيه
وليس مسلما •

٤ - نص يبيّن أثر كل من القسر الاجتماعي والتقليد في المجتمع :

« اذا صار المصر الذي كان كرسيا للملك ، في ملكة هذه الدولة المتجددة
ونقصت أحوال الترف فيها ، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل مصر ، لأن
الرعايا تبع للدولة ، فيرجعون الى خلق الدولة ، إما طوعا - لما في طباع البشر من

تقليد متبوعهم — أو كثرها — لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترفه في جميع الاحوال ... » (ص ٣٧٤) •

كلمة في النص :

يجمع ابن خلدون في النص السابق بين أثر القسر الاجتماعي وأثر التقليد في المجتمع ، أي يجمع بين نظريتي كل من دوركهايم في الضغط الاجتماعي و « تارد » في التقليد ، اللتين ظهرتتا في العصر الحديث ، وكان لكل منهما أنصارها • وابن خلدون أسبق الى كل منهما وأسبق الى الجمع بينهما • وقد انتهى بعض العلماء الحديثين بعد وجود النظريتين ، الى الجمع بينهما ، فقالوا بأن كلا من القسر الاجتماعي والتقليد يفعل فعله في المجتمع ، وهما موجودان معا لا ينفي أحدهما الآخر • فالرعايا في هذا النص يقلدون الدولة في الترف أو في نقصه أو يضطرون الى مسايرتها لما لها من ضغط وتأثير عليهم يصبحون مثلها إما طوعا بالتقليد أو قهرا بالأمر والطاعة •

أسلوب النص سهل واضح ليس فيه سجع أو صناعة •

٥ — نص يتحدث فيه ابن خلدون عن البلاغة (ص ٥٦٢) :

« ملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن التركيب المتوافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم • ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ، ولا وافقه عليه لسانه ، لأنه يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده ، واذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجته • وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يفعل أهل القوانين النحوية والبيانة » •

كلمة في النص :

يبين ابن خلدون هنا أثر العادة والممارسة في خلق ملكة البلاغة عند البليغ بحيث أنه يهتدي الى وجوب تركيب الكلام وفق الاساليب العربية ولا يستطيع أن

يحيذ عنها ، وبحث أنه يستطيع كشف الأساليب التي تخرج عليها بملكته دون أن يستطيع الاتيان بحجج على ذلك كعلماء النحو والبلاغة الذين تعلموها وفق قوانين وقواعد .

ويريد ابن خلدون فضلا عن ذلك أن يبين أن تعلم اللغة والبلاغة والنحو بممارسة الأمثلة البليغة الصحيحة وبالحفظ أفيد وأسلم من التعلم عن طريق القواعد النظرية .

وهو يرى في مكان آخر أن الجمع بين القواعد والأمثلة الكثيرة خير الطرق ، ونظريته صحيحة ، وحديثه في البلاغة في مقدمته يدل على أنه ينظر الى التاريخ على أنه تاريخ حضارة وليس تاريخ الملوك والقواد فقط .

الأسلوب خالٍ من السجع ومن أي تكلف آخر .

ونحب أن نلفت النظر أخيرا الى أن المؤلفين في عهد ابن خلدون ليسوا في مستواه تفكيراً أو ابتكاراً فإنه إشراقة من إشراقات الفكر الانساني لا تظهر في كل زمان ومكان ، بل تطل أمثالها على العالم بين الفينة والفينة .

خاتمة في علماء افذاذ آخرين لهم مميزات علمية خلقية شخصية نادرة :

بالاضافة الى القلقشندي احد علماء العهد المملوكي الثاني الذي سندرس له كتابه الرائع « صبح الأعشى في صناعة الانشا » .

١ - عز الدين بن عبد السلام الشجاع في الحق المنافع عن مصالح الشعب .

وهو مخضرم بين المهديين الأيوبي والمملوكي الأول .

عز الدين بن عبد السلام : « عن كتاب الحركة الفكرية في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٢٠٤ وهو بدوره عن الطبقات الكبرى للسبكي ج ٥ ص ٨٢-٨٤ » .

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مذهب السلمي . ولد بدمشق سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة للهجرة . وقدم مصر وأقام بها ، وانهت اليه معرفة المذهب (أي المذهب الشافعي) ، مع الزهد والورع ،

وبلغ مرتبة الاجتهاد . وزادت اقامته بمصر على عشرين سنة . وهناك تنحى له العلماء عن أماكنهم ، وتأدب معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري ، وامتنع عن الافتاء من أجله . ولبس الشيخ عز الدين خرقة التصوف من الشهاب السهروردي ، وأخذ قصه منذ يومئذ بطريقة المتصوفة ، وحضر دروس الشيخ أبي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية ، وكان هذا الشيخ معجبا به كل الاعجاب . وهكذا بنيت شخصية عز الدين :

أولا — على تفوقه في الفقه الى درجة الاجتهاد وقد قال عن أصحاب المذاهب الاربعة :
« لم يكونوا رستلا لا تجوز مخالفتهم » . (المرجع نفسه)

وثانيا — على اثاره مستلك المتصوفة .

وثالثا — على قوة أخلاقه وصلابته .

ومن أهم هذه الاخلاق — بالنسبة لزعيم ديني كبير كالشيخ عز الدين — شجاعته الادبية التي لا حد لها . وله في هذه الشجاعة الادبية نواذر كثيرة . منها ما وقع له مع ملوك بني أيوب . ومنها ما وقع له مع المماليك .

فما وقع له مع بني أيوب أنه طلع مرة الى السلطان بالقلعة في يوم عيد « فشاهد العسكر مصطفىين بين يديه ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، والأمراء تقبل الأرض بين يديه ، فالتفت الشيخ اليه وناداه :

يا أيوب — ما حجّتك عند الله اذا قال لك : ألم أبوئىء لك مصر ، ثم تبيع الخمر ؟ فقال السلطان : هل جرى هذا ؟

قال : نعم ، الحانة الفلانية تباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة !

وظل الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون . فقال :

يا سيدي : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي .

فقال : أنت من الذين يقولون : « انما وجدنا آباءنا على أمة » ؟
فرسم السلطان بابطال هذه الحانة .

وسئل الشيخ بعد ذلك : أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هبة الله تعالى ، فصار السلطان قدّامي كالقط • (الطبقات الكبرى للسبكي ج ٥ : ٨٢) •
ومما وقع للشيخ عز الدين مع المماليك :

انه نظر في أمر هؤلاء المماليك ، فوجد أنهم ليسوا أحرارا بوجه من الوجوه ، وأن الرق ينسحب عليهم ويشملهم • واذن فمن حق المسلمين ألا يصححوا لهم بيعا ، ولا شراء ، ولا زواجا حتى يصبحوا أحرارا • ونادى الشيخ بهذا الرأي • وكادت تتعطل به مصالح القوم ، بل تعرضت للتعطل بالفعل • وكبر ذلك على المماليك ، وهم أمراء الدولة ووجوهها ، فأرسلوا اليه يقولون : ماذا تريد منا ؟ فقال لهم : أريد أن نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم في الاسواق ، ويحصل عتقكم بطريقة شرعية ! وأذهل المماليك هذا الامر ، وذهبوا الى السلطان يشكون هذا الشيخ ، فحاول السلطان أن يقنع الشيخ بالعدول عن رأيه ، ولكن بدون جدوى ، ولما ألح السلطان عليه في ذلك غضب عز الدين ، وذهب الى داره ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب أهله على حمير أخرى ، ومشى خلفهم خارجا من مصر • فلم يكذب عنها ، حتى هرعت اليه جماعات العلماء ، والصلحاء ، والتجار ، والخاصة ، والعامة • وعلم السلطان بذلك ، فلم ير بدا من الركوب اليه بنفسه ، ففعل ، واسترضاه ، ووعدته بما أراد •

غير أن المماليك عزت عليهم قفوسهم ، وعظم الخطب عليهم ، وذهب الغضب ببعضهم الى التفكير في قتل الرجل ، فحمل السيف الى دار الشيخ ، وقرع الباب ، ففتح له ولد عز الدين ، فرجع الولد الى أبيه مذعورا ، يخبره الخبر • فما وهن الشيخ ولا تزعر وأخذ يقول لولده في ثبات غريب :

يا ولدي : أبوك أقلّ من أن يقتل في سبيل الله !

ثم خرج الشيخ بنفسه ليلقى القاتل ، وكان يومئذ نائب السلطنة ، فلم يكذب يراه هذا حتى جمد السيف في يده ، وقال للشيخ في ضراعة :

يا سيدي : خبرّ أي شيء تعمل ؟

قال الشيخ : أنادي عليكم في الأسواق !
 قال الرجل : فقيم تصرف الثمن ؟
 قال الشيخ : في مصالح المسلمين •
 قال الرجل : فمن يقبض الثمن ؟
 قال الشيخ : أنا •

فصدع الممالك بالامر ، ونادى الشيخ عليهم في الأسواق ، وغالى في ثمنهم ،
 وقبضه كله ، وصرفه في وجوه الخير •

ومات الشيخ عز الدين ، وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٦٦٠ هـ ، وسارت
 الجنازة به تحت القلعة ، وشهدها السلطان بيبرس ، فقال يومئذ لبعض بطاقته :
 « اليوم استقرّ أمري في الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان قال للناس اخرجوا عليه
 لاتزع مني الملك » ! (طبقات الشافعية ، ٥ : ٨٤) •

وكما كان الشيخ شديدا في الحق على غيره ، فقد كان شديدا أيضا على نفسه :
 حكى أنه أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه أخطأ • فنادى في مصر والقاهرة على نفسه :
 من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به ، فانه أخطأ (١) •

ولم يكن الشيخ عز الدين غريبا بهذه الاخلاق وأمثالها على عصره « فقد كان
 ذلك من خلق الصفوة المهدبة من فقهاء هذا العصر » :

« حكى أن قاضيا اسمه ابن عين الدولة لم يقبل شهادة لملك عظيم من ملوك
 بني أيوب ، هو الملك الكامل نفسه ، وذلك لما علم من ولعه بمغنية كانت بمصر ،
 اسمها (عجبية) كانت تجزر اليه ، وتغنيه بالجنك على الدف ، في مجلس يحضره
 ابن شيخ الشيوخ » •

(١) راجع لزيادة الاطلاع : ابن حجر ، رفع الإصر (خ) و ١٦٨ - ١٦٩ ، وابن
 تفرى برري ، المنهل الصافي (خ ج ٢) و ٣٣٦ - ٣٣٨ ، وابن الوردي
 تنمة المختصر ٢ : ١٧١ ، والسبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٨٠ - ٨٤ ،
 وابن شاکر الكتبي ، فوات الوفيات ١ : ٣٦٦ و السيوطي ، حسن
 المحاضرة ٢ : ٨٨ •

٢ - ابن تيمية الصالح الديني المصلح المجتهد المنطقي الذي لا يتزعزع من معتقده (١) :

من علماء العهد المملوكي الاول الذين قللوا بالاجتهاد .

هو ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم الحرّالي إمام الحنابلة في عصره وكان أعظم معاصريه في العلوم الاسلاميه ، ولد في حرّان ، وحين سقطت بغداد انتقل به أبوه حتى جاء دمشق وهي مزدهرة بالعلم والعلماء فتلقى العلوم على شيوخها وغيرهم وبلغ عدد أساتذته مئتين فوعى الحديث والفقه والخط والحساب والتفسير وهو يافع فقد كان قوي الحافظة ذكيا وكان منذ صغره زاهدا متقشفا قوي الحجة شديد العارضة . كان في السابعة عشر من عمره حين أفتى وناظر وخاض في علم الكلام وبدأ يؤلف وتولى بعض المناصب وهو في الواحدة والعشرين فطار صيته في تفسير القرآن . وحين رجع من الحج سنة ٦٩١ هـ وهو في الثلاثين من عمره كانت قد انتهت اليه الامامة في العلم والعمل والزهد والورع مع قدرة في التأليف وجرأة نادرة في المجاهرة بالرأي وتأيد الحق غير مبال بالموت فسمي محيي السنة وآخر المجتهدين واتخذ سبيل التوفيق بين المعقول والمنقول وألّف في ذلك فاشتد تأثيره في الناس وكثر مناصروه وكانت له قدرة على تحريض الناس على الجهاد حين الحاجة كما فعل في جهاد التتار . وقد كثر حسّاده فأخذوا عليه أمورا خالفهم فيها وأبلغوا أمره الى السلطان في مصر فأخذ اليها وحوكم وسجن مع أخويه ثم أطلق وفاز على خصومه ثم سجن ثم أطلق وفاز على خصومه فعفا عنهم وأقام في القاهرة سبع سنوات ينشر العلم فعادت الفتنة وعاد هو الى دمشق بعد هذه الغيبة الطويلة فانصرف الى التعليم والتأليف والافتاء .

ثم حرّك عليه خصومه قضية الافتاء في الحلف بالطلاق بالثلاثة وهو يعتبرها

(١) ترجمته في كتيب الاستاذ محمد كرد علي، وفي كتاب للشيخ بهجة البيطار .

وفي فوات الوفيات ١/ ٥٧٠ ، والسلوك ١ : ٣٩٦ ، والنجوم الزاهرة ٧ :

٣٦٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ : ١٣٥ - ١٤١ وتاريخ ابن الوردي

٢ : ٢٨٥ - ٢٨٩ ، وشذرات الذهب ٦/ ٨١ والدرر الكامنة ١ : ١٤٤

كالحلف بالواحد وأصرَّ على رأيه مخالفاً أمر السلطان فسجن ستة أشهر في القلعة ثم أطلق فأثاروا عليه قضية زيارة قبور الانبياء والصالحين فقد كان لا يرى تلك الزيارة واجبة بحسب الدين فوضع في القلعة في قاعة خاصة ومعه أخوه يخدمه وهو منصرف الى التأليف والعبادة ثم منعه من التأليف والكتابة وأخرجوا ما عنده من الكتب والورق والحبر فعظم عليه ذلك فمات سنة ٧٢٨ هـ وكان لنعيه وقع عظيم على الناس فتسابقوا الى اقتناء آثاره وبعض ثيابه . وبلغت مصنفاته ثلاثمائة أكثرها في التفسير والفقه وأصوله بينها كثير من الردود والاجوبة والفتاوى والقواعد الدينية والجدلية مثل تعارض العقل والتقليد في أربعة مجلدات ، والرد على الفلاسفة في أربعة مجلدات و « اثبات المعاد » و « الرد على ابن سينا » و « الرد على الاتحادية والحلولية وعلى القدرية والجبرية والرافضة والإمامية وعلي بن مطهر ، وفي فضائل أبي بكر وعمر وفي الاجتهاد والتقليد وتفضيل الامام أحمد » .

ومن مؤلفاته : « فتاوى ابن تيمية » في خمسة مجلدات ، طبع سنة ١٣٢٦ هـ ، ومنها « منتقى الاخبار » شرحه الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) شرحاً سماه « نيل الاوطار » ، طبع بمصر سنة ١٢٩٧ هـ . ومنها « الايمان » طبع في الهند سنة ١٣١٠ هـ و « الجمع بين العقل والنقل » و « منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة والقدرية » ، و « الوساطة بين الحق والخلق » .

٣ - أبو الفداء صاحب حماه وهو مثال الملك العالم المثقف الأديب الشاعر : (١)
وهو من رجال العهد المملوكي الاول .

هو أبو الفداء (ت ٧٣٣ هـ) الملك المؤيد اسماعيل بن علي الايوبي صاحب حماة ، أطلق الملك الناصر يده فيها دون مراقبة ، وكان الناصر يبالغ في تكريمه ورفع قدره وكان هو يتوجه بهدايا من الخيل والرقيق والجوهر الى مصر كل سنة ، وكان

(١) ترجمته في فوات الوفيات ١ : ٣١ ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٢ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٢٩٥ ، وشذرات الذهب ٦ : ٨٩ والبدر الساطع ١ : ١٥١ ، للشوكاني .

محباً للعلم متمكناً في الفقه والطب والفلسفة ، قرَّب أهل العلم ورتَّب لهم الارزاق وألَّف كتباً نفيسة أصبحت مراجع في التاريخ والجغرافية ، أشهر كتبه « المختصر في أخبار البشر » وهو تاريخ عام في قسمين الاول في الجاهلية والثاني في الاسلام حتى سنة ٧٢٩ هـ وقدم له بمقابلة بين التواريخ (التقاويم) المعروفة في عصره قابل فيها بين التوراة العبرانية والسامرية واليونانية ووضع في ذلك جدولاً لطيفاً وتحدث في قسم الجاهلية عن تواريخ الانبياء ، والفرس القدماء ، وأفاض في العرب الجاهليين ، العرب البائدة منهم والباقية . وقد أفاد في كتابه من نيف وعشرين كتاباً منها كتاب الكامل لابن الاثير ، ويمتاز هو عنه بما تضمنه كتابه من الاخبار الادبية والعلمية والاجتماعية ، ولكتاباه قيمة كبرى لدى علماء أوروبا . وله كتاب « تقويم البلدان » وهو جغرافياً عامة . اهتم فيه بتصحيح المعلومات الخاطئة قبله . وجعله في شكل جداول وقدم ما تجب معرفته من ذكر الارض والاقاليم ثم ذكر البلاد التي بلغت ٦٢٣ بلد مرتبة على الاقاليم ، وقد اهتم به الافرنج قبل اهتمامهم بتاريخه وترجموه الى اللاتينية والفرنسية .

* * *

الأدب في العهود الأربعة الأولى

تمهيد :

في الاهتمام بالأدب في عهود الدول المتتابعة حتى آخر العهد المملوكي الجركسي :

كانت هذه العهود جديرة بأن تقوم فيها نهضة أدبية • فالعدو رابض في البلاد والمجاهدون من الحكام وغيرهم يحاولون دفعه وطرده ، وكانت دولة تسقط واخرى تقوم وبلاد تتمزق ثم تتحد وعقائد دينية تسيطر ثم تحل محلها عقائد اخرى فيحزن جماعة ويفرح آخرون •

وكان بعض الحكام يحبون الأدب ويكافئون عليه وينقدونه ويشفقون به ، وبعضهم ينظم ويكون له دواوين ويشجع على النظم والتأليف • وكان بعض السلاطين يقومون ببطولات جعلت الشعراء يلتفون حولهم •

وكان الاهتمام بالشعر اكثر منه بالنثر لانه كان اكثر شعبية وتعبيرا عن عواطف الجماهير حينئذ • أما الرسائل الديوانية فكانت تعبيرا رسميا عن شؤون الحكومات في تلك المصور • كان الشعر حينئذ يقوم مقام الصحافة السياسية • وكان موجها يحض على استرداد القدس وغيرها من البلاد المغتصبة أو يشر به ، وكان اقرب في أسلوبه الى عامة الشعب من النثر واقل جهدا في الصياغة •

وقد عني بعض الادب العربي على اختلاف ألوانه حينئذ من شعر ، ورسائل ديوانية واخوانية ، وخطب حماسية ، وكتب في الجهاد والفروسية ، او في فضائل البلاد العربية ، بالنواحي النفسية الثلاث وهي الادراك والوجدان والارادة وهي التي تعد الرجل العربي لخوض تلك الحروب ، فضلا عن الغريزة التي فطر عليها العربي من حيث الذب عن حياضه ضد العدو الخارجي •

واعتمدت تأليف العلماء الاحاديث النبوية في فضائل البلاد ، وفيها قوة وتحريك واثارة ، واقتبس الشعر وكتب الجهاد والفروسية الآيات والاحاديث والسير التاريخية التي تحت على الشهادة وتعد بالجنة •

ومن امثلة اهتمام الفاطميين بالادب ان الخليفة الفاطمي الامر باحكام الله بنى منظر من خشب فيها طاقات مطلة على بركة الحبش وصور للشعراء المجيدون وجعل عند رأس كل شاعر مختارا جيدا من شعره فكان يدخل ويقرأ الاشعار ويضع على كل رف صرة فيها خمسون دينارا • وكان كل شاعر يدخل ويأخذ صرته بيده • ولا شك في ان الاجازة على الشعر تدعو الى اجادته • « الحياة الأدبية ، بدوي : ٢٣ عن خطط المقرئ ٢ : ٣٢٩ » •

• يروي عمارة اليميني كيف قدم على الفأتر ووزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما انشدهما في قاعة الذهب : « النكت العصرية ص ٣٢ » •

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
أفيضت عليه خلع الخلافة واعطاء طلائع خمسمائة دينار وارسلت اليه زوجة الخليفة بنت الامام الحافظ خمسمائة دينار واکرمه الامراء •

وقد أجرى الفاطميون الارزاق على الشعراء فجعلوها عشرين وعشرة دنانير وقد طلبوا الى الشاعر أبي عبد الله مسلم ان ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر • « خطط المقرئ ٢ : ٢٤٣ » و « الحياة الأدبية : بدوي : ٢٤ » •

وفعل الوزراء والولاة فعل الخلفاء ولا سيما ان الوزراء كانوا هم الحكام الحقيقيين • حدث المقرئ عن دار الملك التي انشأها الافضل بن بدر الجمالي وعن مجلس العطاء بها وتفصيل ظروف من الديباج الاطلس مجموع ما فيها خمسة وثلاثون الف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، وذلك لتكون الجائزة حاضرة بين يديه لمن يجيد من الشعراء • « خطط المقرئ ٢ : ٢٤٣ » •

وكان مكين الدولة احد ولاة الاسكندرية يقتدي بالبرامكة في اغداقهم على الشعراء • وقرض الشعر كثير من حكام تلك العهود •

روى المقرئى للامر الفاطمي حين عزم على السير الى بغداد ليعيد للدين وحدته
تحت الراية الفاطمية :

دع اللوم عني لست عني بموثق
وأسقي جيادي من فترات ودجلة
فلا بد لي من صدقه المتحقق
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

« الخطط ، ج ٤ : ٧٨ »

وكان طلائع بن رزيك شاعرا • وسرى ميميته التي بعث بها الى أسامة بن
منقذ يدعو فيها الى التعاون مع نور الدين زنكي ، ومطلعها :

لا هكذا في الله تمضي العزائم
وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم
« ديوان أسامة بن منقذ ٢٧٢ »

وكان الفاطميون يستمعون الى الشعر في بعض المحافل والمناسبات كمناسبة
وفاء النيل وكان ينشد فيها شعر مرتجل ويجري فيها بعض النقد الادبي • من ذلك ان
ابن جبر أنشد الخليفة الفاطمي في وفاء النيل قصيدة منها :

ففتح الخليج فسال منه الماء
فصفت موارده لنا فكأنها
وعلت عليه الراية البيضاء
كف الامام فعرفها الإعطاء

فأخذ عليه قوله ، وسال منه الماء ، وقالوا أي شيء يسيل منه غير الماء ؟

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير فأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه
حتى اذا برز الإمام بوجهه
فجري كأن قد ديف فيه عنبر
يعلوه كافور بطيب المنديل
إذن الخليفة بالنوال المرسل
وسطا عليه كل حامل معول

فأخذوا عليه سوء صياغة البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الخليفة بالمعاول ،
وان كان يريد فتح السد بها •

ثم تقدم كافي الدولة ابو العباس احمد فأنشد قصيدة على البداة مطلعها :
ليمن اجتماع الخلق في ذا المشهد
للنيل ام لك يا ابن بنت محمد ؟

أمّ لاجتماعكما معاً في موطن
وافيتما فيه لأصدق موعد
« بدائع البدائيه ص ٢٢٤ »

وكان الزنكيون يدركون اثر الشعر في تحريك النفوس : طلب نور الدين
زنكي من العماد الأصفهاني ان ينظم دوبيتات على لسانه في معنى الجهاد فحقّق له
مطلبه ، ومنها هذا الدوبيت :

اقسمتُ سوى الجهادِ مالي أربّ
والراحة في سواه عندي تعب
إلاّ بالجيد لا يُنال الطلب
والعيش بلاّ جدّ جهادٍ لعب
« أبو شامة ، الروضتين ١ : ٢٠٧ »

وطلب مرة أخرى من العماد ان يصف معركة حضرها معه ضد الفرنجة ليثبت
قلوب المؤمنين ويثير حماسهم ، وطلب مرة ثالثة منه ان يبعث على لسانه رسالة الى
ال خليفة في بغداد تصف جهاده العدو وما أنزله به من هزيمة وخذلان . وذلك يدل
على مدى اهتمامه بالشعر وادراكه مدى فائدته في الدعاوة والتوجيه المعنوي ، وبث
الحماسة في الجند والشعب والاعداد للجهاد . وقد لبّاه العماد بقصيدة منها هذه
الايات :

مَنْ ذا الذي سار سيري في ولائكم
قد نال عبداً محموداً بها ظفراً
غداة قال العدا : لا سيرة بعد عصا
ما زال يرقبه من قبل مَرَبِصاً
أمّ الثغور على أعقابهِ نكصاً
من خوف سطوته أن العدو اذا
« الروضتين ، ١ : ٢١٨ »

وطلب نور الدين من أسامة بن منقذ (١) ان ينظم على لسانه قصيدة يتحدث فيها
عن معاركه ويفخر بامتصاراته فنظم قصيدة في زهاء تسعين بيتاً مطلعها :

(١) فارس ، من أبطال العرب خلال الحروب الصليبية ، شاعر كاتب مؤلف
من كتبه « الاعتبار » وهو في سيرته الشخصية وحوادث عصره وتجاربهِ ،
طال عمره حتى زاد على التسعين ومات زمن صلاح الدين . (٨٨) —
٥٨٤ هـ .

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر
وبعد ذلك يقول :

وتخذ منا الأيام فيما نرومها
وتخضع أعناق الملوك لعزنا
وما في ملوك المسلمين مجاهد
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا
وثير حشايانا السروج وقمصنا الدروع ومنسوب الخيام لنا قصر
وهم الملوك البيض والسم كالدسمي
نسير إلى الأعداء والطير فوقنا
وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم
تري كل شهم في الوغى مثل سهمه
بنا أيّد الإسلام وازداد عزه
قتلنا البرنس حين سار بجهله
وفي سجننا ابن الفتنس خير ملوكهم
أسرناه من حصن العريمة راغماً
وسل عنهم الوادي بإقليس إته
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن
وكان يظن الغر أننا نبيعه
فلما استبحنا ملكه وبلاده
كحلناه نبغي الأجر في فعلنا به

لِتجيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
وينقاد طوعاً في أزممتنا الدهر
ويثر هبها منا على بُعدنا الذكر
سوانا ، فما يثنيه حر ولا قتر
ولم يثلها عنه السماع ولا الخمر
وهمتنا البيض الصوارم والسم
لها القوت من أعدائنا ولنا النصر
أسود الشرى عننت لها الأدم والعفر
تقودا فما يثنيه خوف ولا كثر
وذل لنا من بعد عزته الكبر
تحف به الفرسان والعسكر المجر
وان لم يكن خير لديهم ولا ير
وقد قتلت فرسائه فهم جزر
إلى اليوم فيه من دمائهم غدر
ليخشى من الأيام نائبة تعرو
بمال وكم ظن به يهلك الغر
ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر

« الديوان ٢٠١ - ٢٠٢ ، أو ٢٤٧ »

كان العصر إذا مواتيا للادب ، الفاطميون جعلوه من مظاهر الأبهة ووسيلة

للدعاة ونشر المبادئ ومتنفسا لأمانهم وآمالهم ، والزّكيون اتخذوه وسيلة لتثبيت ملكهم وبث الحماسة للجهاد .

وقد حدث تطور في الادب الرسمي تحت تأثير الحروب الصليبية ، فقد كان الادب الفاطمي قبل الحروب الصليبية ادبا سياسيا لنصرة المذهب الفاطمي والاحتجاج له شعرا وثرا بحيث كان يغلب عليه الطابع العقلي ، ولكن الادب في ظلال الحروب الصليبية تأجج بالعواطف .

وكان امراء الاتراك لا يحفلون كثيرا بالادب العربي فأصبحوا يهتمون به لانه يبعث الحماسة في الجيش والشعب ويسجل انتصاراتهم ويشيد بأعمالهم (١) .

ولا شك في ان هذه الحروب كانت بالنسبة الى المسلمين مسألة حياة أو موت فكان من المنتظر ان يتأثر الادب العربي بها كثيرا ، وان تطفئ عليه عاطفة دينية جبارة ، وهكذا كان ادبا عاطفيا قويا حماسيا تغذيه عاطفة الدين والجنس واللغة .

وقد غزر انتاج الادب شعره وثره في هذه العصور واذا كان قد ضاع قسم كبير منه ، ومن الشعر بخاصة ، بما تتابع على البلاد من احداث ، فقد حفظت لنا مجموعات الشعر التي وصلت اليها ، كما حفظت لنا دواوين الشعراء التي سلمت لنا ، كثيرا من الشعر الذي يعطينا صورة كافية واضحة عن خصائصه في هذا العهد وما طرأ عليه من اطوار وتغيرات . ولكن هذه الآثار لم تلق العناية الكافية ولم تأخذ قسطها الواجب من الدراسة بعد .

وكان من جملة الاسباب التي صرفت الباحثين عن هذه الدراسة ، وعن دراسة دور مصر والشام بخاصة ، في حفظ التراث الادبي والاسلامي ان الناس في بداية النهضة العلمية اهتموا بالعصور الاولى منذ الجاهلية حتى نهاية الدور العباسي الثالث في اواسط القرن الخامس الهجري وذلك طلبا للنماذج القوية التي تعتبر مثالا وقدوة وحوافز للشعور بالذات والنهضة ، ومنها ان الاستعمار الذي كان مسيطرا علينا لم يكن ليرضى بتوجيه العناية لبلدين يستعمرهما فيظهر دورهما النضالي في

(١) لقد سبقنا الى هذه الآراء الدكتور بدوي في « الحياة الادبية ص ٣٦ » .

الماضي وما في الامكان ان يفعلاه في الحاضر والمستقبل . ومنها ان المستشرقين اهتموا بافراد معدودين من العلماء والادباء مثل الغزالي وابن رشد والزمخشري والفخر الرازي من رجال الفكر ، ومثل الحريري والطبرائي وابن الفارض من رجال الادب ، ولم يعنوا بابرار دور هذين البلدين المتماسك المتكامل في حفظ التراث وفي النضال والتحرير (١) .

وفضلا عن ذلك فانهم لم يهتموا بمن كانت لهم روح قومية من الادباء والشعراء والمفكرين او من كان لهم دور في حركة التحرير وفي النهضة العربية الاسلامية في عصر نور الدين زنكي ومن بعده ، ولم يظهروا الحاح ابطال التحرير على فكرة الوحدة بين هذه الاقطار وقيمتها في حياة اهلها وما يرافقها من قوة وازدهار فلم ينحشوا في ابن الاثير والقاضي الفاضل والأيوردي وعماد الدين الأصفهاني وابن التعاويذي وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وابن الساعاتي وابن سناء الملك الذين صوروا نضال نور الدين وصلاح الدين ضد المغتصبين ، وربما فعل بعض المستشرقين ذلك عن عمد لان لهم ارتباطاتهم الوثيقة بدولهم الاستعمارية .

وقد وصف المستشرق جب . (Cib, Arabic Littérature. P. 82 — 84) هذه العهود بأنها العصر الفضيّ على حين كان العصر قبلها العصر الذهبي ، وذلك لانها في رأيه لم تمتاز بالابداع والعبقرية ، بل ببراعة الصناعة والمهارة الفنية . وهذا الكلام فيه نصيب من الحقيقة ونصيب من المبالغة . ولاشك في ان بعض ادبها ادب مترف في موضوعاته واساليبه يتجه الى الحكام او الى التسلية وقطع الوقت بما فيه من عناية بالالفاظ وتلاعب بالمعاني الجزئية المحدودة من الغاز وتعمية وميل الى الدعابة والى التوقيع الموسيقي في الشعر والنثر لرهافة الذوق والميل الى اللهو وسماع الغناء والاستمتاع بالرقص على انغام الموسيقى ، تلك الرهافة التي جعلته يتجنب الخشونة ويألف الرقة ، ولكنه جزء من ادب هذه العهود وليس ادبها كله ،

(١) يشاركنا في هذا الرأي بل سبق اليه الدكتور زغلول سلام : الادب في العصر

الأيوبي ص ١٦٨ .

فسائر هذا الادب كان يمثل النضال ضد المحتلين الغزاة والفرج بالنصر والتحرير
وكان أدب قوة وبناء .

وقد بقي في العهد الفاطمي — الزنكي بعض شعراء يتكسبون بشعرهم
ويتقربون به الى الحكام الذين كانوا يقبلون عليه فينقطعون اليهم . وقد نجد لدى
بعضهم نغمة استجداء كما نرى في قول ابن التعاويذي الآتي يخاطب به أهل بغداد :

أترضون يا أهل بغدادَ لي	وعنكم حديث الندى يُسند
بأنّي أرحل عن أرضكم	أجوبُ البلادَ وأسترفِدُ
ألا رجل منكم واحد	يحرّكه المجد والسؤدد
أما لي فيكم سوى « شعره	رقيق » ، وخاطرُه جيّد
يترككم أن يتغنّى به	ويطربكم أنه ينشد
وأقسم أن رغيّفا لديّ	من قولكم « جيّدا » أجود

« الديوان : ١٣٩ »

على ان نغمة الاستجداء هذه تدل على ان هذا الشاعر لم يحظ بالاقبال المنشود
على شعره ممن يبدعهم ان يغنوه بالجوائز اذا شأوا فهو لذلك ينوي الرحيل عن
بغداد الى بلدة اخرى .

ونهج الأيوبيون نهج الفاطميين والزنكيين في الاهتمام بالادب : فقد عقد صلاح
الدين مجلسا لسماع الشعراء بعد فتح القدس « الروضتين ج ٢ ص ٩٦ » . ويروي
ابن خلكان أنّه أنشده شاعر قصيدة مطلعها :

الله اكبر ، جاء القدس باريها ورأى اسهم دين الله باريها
فأعطاه ألف دينار ، وانه منح سعادة الاعمى على قصيدة الف دينار . وطلب
القاضي الفاضل من صلاح الدين بأن يجعل الجائزة للمهذب بن اسعد حين مدحه
بقصيدة مطلعها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى الا ليطرقه الخيال اذا سرى

مشيرا الى قوله من قصيدة قيّمح فيها الصالح بن رزّيك :

مَنْ أرتجى يا كريمَ الدهر يُنعشني جدواه إنْ خاب رأيي في رجائكا
أمدحُ التركَ أرجو الفضل عندهمُ والشعرُ ما زال عند الشرك متروكا

« الروضتين ١ : ٢٤٠ »

وقظم كثير من ملوك الأيوبيين الشعر • منهم الافضل بن صلاح الدين قان
يشكو سوء حظه :

أما آن للسعد الذي أنا طالب لإدراكه يوما يثرى وهو طالبي
ثرى هل يريني الدهرُ ايديّ شيعة تمكّنُ يوما من نواصي النواصب

« السلوك للمقرئزي ج ١ : ٢١٧ »

ولحنفد غازي بن صلاح الدين ، يوسف بن محمد بن غازي شعر حين مرت به
التار في حلب فهدموها :

يعزّ علينا أن نرى ربّكم يَبلى وكانت به آيات حنينكم تتلى
« النجوم الزاهرة ٧ : ٢٠٤ »

وكان بهرام شاه احد امراء الأيوبيين له ديوان شعر مشهور بين ايدي الناس
ومنه هذا الدوييت :

كم يذهب هذا العمر في الخسران ياغفلتي فيه وما أنساني
ضيعتُ زمانني كلّهُ في لعب يا عثُرُ ، فهل بعدكُ عمرٌ ثان
« النجوم الزاهرة ٦ : ٢٧٦ »

وللناصر داود بن المعظم عيسى ديوان من الشعر بقي الى يومنا هذا في دار
الكتب المصرية ومنه شعر جيد كقوله :

عيونٌ من السحر المبين تبينُ لها عند تحريك القلوب سكونُ
إذا ما رأت قلبا خليّا من الهوى تقول له : كن مغرما فيكون

« المختصر ج ٣ ص ١٩٠ »

وللملك الكامل يستحث أخاة الاشرف موسى لمساعدته على حرب الفرنجة في
دمياط :

يا مسعدي ان كنت حقا مسعفي
إن تأت عبدك عن قليل تلقه
أو تبطر عن انجاده فلقاؤه
فانهض بغير تلبث وتوقف
ما بين كل مهتد ومثقف
بك في القيامة ، في عراض الموقف
« خطط المقريري ٤ : ٢١٢ »

وله في الغزل :

اذا تحققتُم ما عند صاحبكم
انتم سكنتم فؤادي وهو منزلكم
من الغرام فذاك القدر يكفي
وصاحب البيت أدري بالذي فيه
« الحياة الأدبية ، بدوي ٢٩ »

ومن اثر الشعر في نفوس الأيوبيين ماروي عن عز الدين فروخ شاه ابن اخي
صلاح الدين حين ابلى مع عمه بلاء حسنا في معركة بانياس سنة ٥٧٥ هـ فقد قال انه
ابلى ذلك البلاء متأثرا بيتين للمتنبي هما :

فان تكن الدولات قسما فانها
ومن هوّن الدنيا على النفس ساعة
لن يرد الموت الزؤام تؤول
وللبيض في هام الكثامة صليل
« الكامل لابن الأثير ١١ : ٢٠٦ »

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي اليه •

وكان صلاح الدين يستفتح ببعض رسائله بالشعر ومنها كتاب ضمنه البيت
التالي :

ما كنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع
« بدائع البدائه ١٧٨ »

وكانوا يستعينون بالشعر في رسائلهم ليصفوا بعض احوالهم من ذلك ما كتبه
شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين الى أخيه من اليمن • وقد حن الى
الوطن والاصحاب ، والشعر لابن المنجم المصري :

وإلى صلاح الدين أشكو أنني
جزءاً لبعد الدار منه ، ولم أكن
فلأركبَنَ إليه متن عزائي
ولأقطنَ من النهار هواجراً
ولأسرى الليل لا يسرى به
وأقد من إليه قلبي مخبراً
حتى أشاهد منه أسعد طلعة

من بعده مثنى الجوانح مولع
لولا هواه لبعد دار أجزع
ويخب بي ركب الغرام ويوضع
قلب النهار بحر ها يتقطع
طيف الخيال ولا البروق التلمع
أنى بجسمي من قريب أتبع
من أفقها صبح السعادة يطلع

« الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٩٦ »

وكانوا يخصصون المجالس بعد الحوادث الهامة ليستمعوا الى الشعراء في
المحافل العامة من ذلك ما رأيناه من استماع صلاح الدين للقصائد التي قيلت حين
استيلائه على دمشق وحلب وبيت المقدس وسرى نماذج منها •

وكانوا يعقدون مجالس أدبية يتشيدون فيها الشعر ويستجيزون من حضر من
الشعراء • انشد الملك الكامل في مجلس :

ترحل من حياتي في يديه فيا أسفي ويا شوقي اليه
واستجاز الحاضرين فقال احدهم :
ومن هذا يكون عليه مثلي وهذي الريح أخشاها عليه
وقال آخر :

ألا ياليت ان كان يأتي حياتي ، ثم موتي في يديه
« بدائع البدائه ص ٩٦ »

وقد يسمعون شعرا بالاعجمية فيطلبون من احد الشعراء ان ينظمه في العربية
من ذلك ان الملك العزيز سمع دويتا بالاعجمية معناه انه جعل الليل برد دارا للحبيب
(أي حامل البريد أو المسك بخيل البريد) فطلب من وزيره يوسف بن المجاور
ان ينظم في هذا المعنى فأرسل اليه :

قال له الليل انصرف راشداً فأنه استخدمني برد دار
« بدائع البدائه ص ١٥٠ »

وطلب الملك من وزيره ان ينظم غزلا في جارية رست على خدها بالمسك صورة
حية وعقرب فقال على البداهة :

فأيتهم من غادة	مخلوقة من طرب
سألتها في قبلة	في خدها المذهب
فجاوبت معجبة	بكفها المخضب
وأبأبي وأبأبي	من عظم هذا الطلب
وليس هذا ممكنا	على ممر الحقب
روضة خدي حترست	بحيّة وعقرب
مَن رام ان يلثمها	فليرقها بالذهب
وليشرب الدرياق من	رُضاب ثغري الشنب

« الحياة الأدبية ، بدوي ٣٥ » عن « بدائع البدائيه ص ١٥١ »

واتخذ الأيوبيون الشعر وسيلة لتثبيت عروشهم وغرس الحب لهم في قلوب
رعيّتهم ووسيلة للدعوة للجهاد واثارة الحمية في النفوس واشعارا بأنهم يتذوقون
هذا الفن كالعرب ، فقد كان في اعماقهم أمنية ان لو كانوا من العرب حتى حاول
بعضهم ان يرجع نسبهم الى بني أمية ، فأحاطوا انفسهم بالشعر كالأمويين ويجب
ألا ننسى اثر البيئة العربية التي كانوا يعيشون فيها عليهم . « النجوم الزاهرة ج ٦
ص ٣ ومقدمة الفرائد الدرية » .

ولم يقتصر الشعر على المحترفين وانما اسهم فيه كثير من الناس ابناء الشعب
الذين اتخذوه هواية لهم يعبرون به عن ذوات نفوسهم او يملؤون به اسماهم تسلية
ومتعة او يتراسلون به وكان بين من قالوا الشعر فقهاء وعلماء وأطباء وقواد وجنود
ومهندسون وجزارون واصحاب حرف اخرى من عامة الشعب ، كما نلاحظ في تراجم
العلماء والشعراء في هذه العهود . وبذلك مثل هذا الشعر حياة الشعب الواقعية
الحقيقة في سموها وانحدارها وجميع أحوالها . ومن الطبيعي أن أكثر هؤلاء
الشعراء ، لم يرتفع الى مستوى المحترفين . ويرى ياقوت ان تاج الدين الكندي

سمع شعرا للحافظ بن عساكر فقال : « هذا شعر اضاع فيه صاحبه شيطانه » .
« ارشاد الأريب ج ٥ : ١٤٥ » .

ويلاحظ ان الشعراء لم يرثوا الدولة الأيوبية حين زالت وحلت محلها دولة المماليك البحرية وذلك لان الناس عدوا دولة المماليك استمرارا لها وذيلا ، ولان المماليك انفسهم كانوا يقتدون في اعمالهم بالسلطين الأيوبيين ويجرون على سياستهم في السلم والحرب والعمران وكل شيء ، ولان الدولة الأيوبية لم تنقرض دفعة واحدة ، بل استمرت حكم بعض ملوكها في بعض المدن كحماة . وجرى الأمر نفسه للدولة المملوكية البحرية حين زالت وحلت محلها دولة المماليك البرجية .

وظهرت في العهد الايوبي طبقة من العلماء واشباههم تقول الشعر عن قيض عاطفي وعقيدة دينية لها طابعها الخاص وهي طبقة الشعراء الصوفيين . وكان شعرهم ينشد في حلقاتهم وقد يرقصون عليه . ومن مشهورهم ابن الفارض وله ديوان شعر أهمه التائية واليائية واللامية ، وهي قصائد مشهورة .

وقد صور الشعر عصره بما فيه من احوال سياسية واجتماعية وحرية ومن أمثلة ذلك ما نرى في تصوير الأيوبي المتوفى سنة ٤٩٢ هـ لما حل بالقدس حين استولى عليها الفرنجة .

واذا كان الشعراء قد اشادوا بإبطال الجهاد من سلاطين وامراء وقواد ، فانهم لم يظهر بينهم شاعر رسم صورة نور الدين او صلاح الدين كما رسم المتنبى صورة سيف الدولة في سيفياته ، وقد يكون من اسباب ذلك اهتمام هؤلاء الشعراء بالصناعة اهتماما مفرطا احيانا ، وشعورهم ، كالشعب ، بالضياح تحت حكم اجانب مستبدين يشترون بمال الشعب ثم يستبدون به ويرهقونه ويذلونه ويسلبون ماله ويقتلون أبناءه . وقد يرضى عن بعضهم شعورا منه باخلاصه للجهاد ضد المحتلين ، وقد يقبل بابعاده عن حقه في الحكم والادارة والجيش ، ولكنه لا يرضى بذلك الا مكرها عارفا بأنه يزداد عن حقه ويبقى في قلبه حسرة من تحكم الغرياء به . وفي هذه الحال يشعر هو نفسه بالغرابة ، فلا تأخذ قريحة الشاعر ، ابن الشعب المعبر عنه ، ابعد مداها في مدحهم ويبقى في نفسه شيء يجبر انطلاقته الشعرية الى الورا .

وكان الأيوبيون يشجِّعون على التأليف في الادب : طلب الكامل من ابن دحية ان يجمع له شيئاً من شعر اهل المغرب ، فألف له كتاب « المطرب » الذي حققه الدكتور احمد احمد بدوي مع آخرين • « مقدّمة كتاب المطرب تحقيق د • أحمد أحمد بدوي وزميليّه » •

وفي العهد المملوكي الاول كان الاشرف خليل بن قلاوون يعقد المجالس الادبية ويطارح الادباء فيها بذهن صاف وذكاء مفرط • « السلوك ١ : ٧٩١ » •

وألف بعض ملوك هذا العهد وامرائه في الادب ومنهم الملك المنصور الايوبي صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر فقد ألف كتاباً في طبقات الشعراء • « المختصر ٣ : ١٢٥ » •

وقد حفز المماليك الاتراك على العناية بالشعر ما حفز أسلافهم الفاطميين والزنكيين والايوبيين ، بالاضافة الى أنهم كانوا يريدون ان يرفعوا من قدر انفسهم لما كانوا عليه من رقّ حتى يشيد الشعراء بمآثرهم وينسوا الناس ماضيهم فظهر امثال الشرف الانصاري والشهاب محمود في بداية عهدهم حتى وفاة الملك الاشرف خليل • ثم نلاحظ بعده في هذا العهد ، وفي عهد المماليك الجراكسة الذي يليه بصورة خاصة ، سوء اثر الحياة العامة واحداثها في الادب شعره ونثره فكان من صفاته :

١ — الضعف الموضوعي الذي يظهر في اختيار المقطوعات غالباً للتعبير عن فكرة قصيرة •

٢ — هلهلة البناء والصياغة التي نشأت عن توخي السهولة وعدم الرغبة في التنقيح وبذل الجهد ولوحظت في مصر منذ اواخر العهد الايوبي (١) •

(١) يفخر البهاء زهير وهو من شعراء اواخر العهد الايوبي بأن شعره ابن ليلته لا ألن سنته كزهير بن ابي سلمى فيقول :

هذا زهيرك لا زهير منزّنة
وافاك لا هريما على علاتيه
دعه وحوليائه ثم استمع
لزهير عصره حسن ليلياته

٣ - قلة الابتكار والميل الى التضمين والاقتباس (١) .

٤ - الإيغال في العامية شيئا فشيئا وقد فتح بابها في القرن السابع في آخر زمن الأيوبيين البهاء زهير وصديقه ابن مطروح بأن استعملوا بعض تعابيرها .

وهذا الاتجاه الى العامية جعل الشعر شعبيا ينحدر عن أرسطوقراطية التي كان يتجه بها الى الحكام دون غيرهم ، وربما كان من اسباب ذلك ان بعض المماليك الاتراك وكثيرا من المماليك الجراكسة كانوا لا يفهمون الشعر الفصيح جيدا ولا يهتمون به ويرعونه ، وربما كانوا أميل الى الشعر العامي لانهم كانوا اقدر على فهمه ، ولهذا قربوا الزجالين وشعراء العامية . وقد اقتدى عليه القوم بالسلطين في هجر العربية والحديث بالتركية احيانا ، وربما بدأ ذلك منذ بدء النصف الثاني من العهد المملوكي الاول فقد كان علاء الدين بن الاثير كاتب سر الناصر محمد لا يتحدث الا بالتركية في مقرر عمله .

وقد زهد الادباء المقتدرون في الشعر، الا ما كان منه للتملح او للدعابة او المراسلات الاخوانية ولعل ذلك بدأ في العهد المملوكي الاول ايضا . وذلك حين انتهت الحروب الصليبية وخفت وطأة الغارات التتارية وضعف الحافز على الشعر .

يقول ابن دقيق العيد :

وزهدني في الشعر أن سيجتي بما يستجيد الناس ليس تجود
ويأبى لي الختم الشريف رديته فأطرده عن خاطري وأذود
« الأدب في العصر المملوكي ج ٢ : ١٠٦ »

ومع ان الشعراء لم يهملوا حق السلطين الاتراك حين انتصاراتهم في النصف الاول من هذا العهد الا انهم كما قلنا قبل كانوا يحسون بالغرابة والضياع وهم في

(١) وهذا ما جعل مجير الدين بن تميم يقول :

اطالع كل ديوان اراه ولم ازجر عن التضمين طيري
أضمين كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري
« الادب المملوكي ج ٢ ص ١٩١ »

اوطانهم وبين اهلهم وأمتهم • ولعل الشعور بالعربة هو الذي دفع الى التصوف والشعر الذي نظم فيه ومنه الغزل الصوفي والى المديح النبوي والى الابتغال والحنين والشكوى • وهذا ما يفسر لنا قول الشاب الظريف خلال مدحة نبوية سنأخذ بعض اياتها حين تناول المديح النبوي :

قومٌ همُ العَرَبُ المحميُّ جانبهمُ فلا رعى اللهُ الا أوجهُ العَرَبِ
أعزُّ عندي مِن سميٍّ ومِن بصريٍّ ومِن فؤادي ومِن اهلي ومِن نسبي
« ديوان الشاب الظريف ص ٥ - ٦ »

وهذا يفسر لنا المدلول النفسي للآيات التالية التي يرويها ابن خلكان والتي تشعرنا بأن الشاعر العربي كان يحن الى مرابع الحجاز لنزعته العربية المكبوتة ورغبته في ان يكون العرب اصحاب الدولة :

وما ذاتُ طوقٍ في فروعِ أراكةٍ لها رثّةٌ تحت الدجى وصدوحُ
ترامت بها أيدي النوى وتمكّنتُ بها فرقةٌ من أهلها وثرزوح
فحلّت بزوّراء العراق وزغبتها بسَعَفانٍ ثاورٍ منهمٍ وطليحُ
تحنُ إليهمُ كلّما ذرّ شارق وتسجعُ في جئح الدجى وتنوح
إذا ذكرتهمُ هيجت ذا بلابل وكادت بمكتوم الغرام تبوح
بأبرحٍ مِن وجدي لذكراكمُ متى تألّق برقٌ أو تنسّم ريح
« ملوكي ٢ : سلام : ١٠٧ »

وهو إحساس يكاد يكون عاما لدى الشعراء •

وقد بينا قبل سبب الشعور بالاغتراب ، وهو تناقض احوال الحياة : فمالك يأتون عبيدا ثم يحكمون ويستبدون ، وصراع بين الغزاة الصليبيين والتتار وبين الوجود العربي والاسلامي ، وبؤس في كثير من الاحيان وانهيار في الحياة الاجتماعية ، وضياح في النزاع والخصومات بين السلاطين والامراء والقواد ، وروح سلبية سيطرت على الناس فهم لا يبالون بشيء ثم اهمال للقيم الدينية والخلقية فلا يحافظ عليها اكثر الناس •

وكان يرافق الاحساس بالضياء والشعور بالاغتراب حين نفسي الى الماضي في عهد الرسالة الاول حين كان الايمان ينقذ المؤمن من وهدة الانحلال . ومن ذلك كان الاكثار من الحج والاهتمام به وكانت المدائح النبوية .

وقد قلّ الشعراء المحترفون وكثر الهواة في العهد المملوكي وكان كل منهم يصنع شعره بصبغته الثقافية الخاصة فيستعمل فيه اصطلاحاتها العلمية ، وقد بدأ ذلك منذ الدور الثالث العباسي على لسان المتنبي ، ولكنه لم يكن عاما ولم يبالغ فيه ، ومن امثله قول المتنبي :

اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل ان تلتقى عليه الجوازم
« ديوان المتنبي ، شرح العكبري ، ميمته في قلعة الحدث »

غير ان المتنبي لم يكن نحويا وإنما كان النحو من بعض ثقافته .

وكان من اثر الروح الدينية في هذا العهد الاكثار من اقتباس الآيات القرآنية في الشعر والنثر .

وكان كثير من الشعراء غير متكسبين بمدحهم او ذمهم للسلطين او القواد وانما كانوا يعبرون عن مشاعرهم الصادقة : فحين تولى السلطان المؤيد شيخ الحمودي (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) رجب الناس بتوليّه وقال ناصر الدين بن كميل المتوفى سنة ٨٤٧ هـ :

سلطنّ الشيخ وزال العنا والناس في بشرٍ وتيهٍ وفيّخ^(١)
فلا تقاتلٍ بصبيٍّ ولا تلتقَ به جيشاً وقاتلٍ بشيخٍ

« ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢ »

وحين بنى جامعه فظلم الناس بمصادرة الدور قال لمحد الشعراء :
بنى جامعا لله من غير حِلّه فجاء بحمد الله غير موفّق

(١) الفيخ من الفيخة وهي السكرجة (القاموس ، المأذة فاخت) .

كَمْطَعِمَةُ الْإِيْتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا رُوَيْدُكَ،^(١) لَا تَزْنِي وَلَا تَتَصَدَّقِي
« المصدر السابق ج ٢ ص ٧ »

وقال احد الشعراء حين تولى الملك الاشرف علاء الدين كجك السلطنة صغيرا
فاضطربت احوال البلاد :

سلطاننا اليومَ طفل والاكابرُ في خَلْفٍ وبينهمُ الشيطانُ قد نزعا
فكيف يطمع مَنْ مَسَّتْهُ مَظْلَمَةٌ انْ يَلْتَمِسَ السَّؤْلَ والسلطانُ ما بَلَّغا
« المصدر السابق ج ١ : ١٧٨ »

وقالَ أحد الشعراء في الطاغية تيمورلنك الذي فتك في الناس وهو يدعي
الاسلام والحمية له :

قد بئينا بأمير ظلّم الناسَ وسبّح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وقال احد الشعراء ينقد السلطان حسن ، من سلاطين العهد المملوكي التركي
الذي اولع بالنساء واللهو والطرب والخمر :

لَمَّا أَتَى لِلْعَادِيَاتِ وَزُلْزِلَتْ حَفْظُ النِّسَاءِ وَمَا قَرَأَ لِلْوَاقِعَةِ
فَلَأْجَلَ هَذَا ، الْمَثَلُكَ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ وَأَتَى الْقِتَالُ وَفُصِّلَتْ بِالْقَارِعَةِ
لَوْ عَامَلَ الرَّحْمَنُ فَازَ بِكَبْهَفِهِ وَبَنَصْرِهِ فِي عَصْرِهِ لِلْسَّابِقَةِ
« المرجع نفسه ، ج ١ : ٢٠٩ »

وكان لهذا النقد الشعبي أثر احيانا في اقضاء السلطان عن العرش *
ومن الانصاف ان نقول ان المماليك الاتراك قد نظموا الشعر * ومنهم قطلوبك
المنصوري الذي قتل سنة ٧١٦ هـ ، وكان من مماليك المنصور قلاوون ومؤاخيا
لسلار ، وولي عدة اعمال كبيرة منها ولاية صفد وكان ظالما مبذرا * ومن شعره في
الشيب والغزل والفخر :

(١) رويدك : جاءت في الاصل فليتك ويكون على ذلك في الفعل بعدها خطأ
نحوي وكان يجب ان يقول لا تزني وقد اصلحناه اعتمادا على حفظنا
القديم للبيتين .

لا تنكري شيب رأسي يا مُعَذِّبتي ما الشيب عارٌ إذا فعلي غدا حسنا
وسائلي من شباب الحي حين لَقُوا فوارس المغل ما^(١) كانوا وكنت أنا
« الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ »

ومنهم لاجين بن عبد الله الذهبي (ولد سنة ٦٥٩ هـ) ومن شعره وقد رواه
عنه البدر النابلسي وهو في الزهد والحكمة :

مِيلُوا عَنِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا فأنها ليست بمحمودة
اتَّبِعُوا الْحَقَّ كَمَا يَنْبَغِي فأنما الأتقاس معدودة
وَأَطِيبِ الْمَأْكُولَ مِنْ نَحْلَةٍ وأفخر الملبوس من دُودَةٍ
« الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٧١ »

ومنهم اسماعيل بن سودكين بن عبد الله السوري المصري الحنفي ابو عبد الله
ابن ابي الطاهر الجندي (٦٤٤ - ٧٢٧ هـ) ومن شعره وقد أنشده ابنه محمد
للسبكي عن أبيه :

وهو في طيف الخيال :

أَتَانِي مَنْ أَحَبَّ وَقَدْ قَضِينَا مِنْ الْهَجْرَانِ عَامَا ثُمَّ عَامَا
وَحَلَّ لثَامَهُ فَرَأَيْتُ بِدْرَا تَبَدَّى عِنْدَ مَا شَقَّ الْعَمَامَا
وَقَالَ تَمَنَّيْ بِي يَا مَنْ تَعَنَّى وَذَاقَ لَهْجَرِي الْمَوْتَ الزُّثُومَا
فَلَمَّا انْ مَدَدْتُ إِلَيْهِ كَفِّي لَوْ عَنِي وَأَظْهَرَ لِي احْتِشَامَا
وَوَلَّى وَهُوَ يَمْجُنُّ مِنْ دَلَالِ فَأَرْجَفْنِي وَأَعْدَمْنِي الْمَنَامَا
« الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٧ »

فهذه المقاطع تدلنا على ان هؤلاء الامراء كانوا يهتمون بالشعر العربي
ويثقِّقون انفسهم به حتى يستطيعوا نظمه .

(١) كان في الاصل كيف مكان ما وينكسر البيت بها فأصلحناه باجتهادنا .

ومن الانصاف كذلك ان نذكر ان السلطان قانصوه الغوري (٨٥٠ - ٩٢٢هـ)
الذي قتل في معركة ضد السلطان سليم العثماني في مرج راهط كان عالماً شاعراً .
ومن شعره قصيدة مدح بها العالم الشاعر احمد الفرغوري جواباً على قصيدة مدحه
بها ، ومطلع الفرغوري :

لك المثلك بالفتح المين مخكده لأنك بالنصر العزيز مؤيد
ومطلع الغوري :

أجاد لنا القاضي ابن قرفور أحمد مديحاً به أثني عليه وأحمد

« الكواكب السائرة ج ١ ص ١٤١ - ١٤٥ »

وكان بين السلطان قايتباي وجد الغزي مؤلف « الكواكب السائرة في أعيان
الجنة العاشرة » مطارحات شعرية ، ولكنها كانت باللغة العامية . « الكواكب السائرة
ج ١ : ٢٩٨ » .

ويظهر ان سلاطين المماليك الجراكمة ومن عاصرهم من سلاطين الدول المناهضة
لهم في عصرهم كانوا يهتمون بالشعر في مراسلاتهم الموجزة . من ذلك أن الشاه
اسماعيل قتل صاحب هراة وولده قبرخان فبعث برأس الاب الى ملك الروم (١)
السلطان سليم وبرأس الابن الى السلطان قانصوه الغوري وكتب الى الاول رسالة
مطلعها :

نحن أناس قد غدا شائنا حب علي بن أبي طالب
يعيشنا الناس على حبه فلعلنا الله على العائب
وكتب الى الثاني رسالة مطلعها :

السيف والخنجر رباحنا أف علي النرجس والأسر
وشربنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الرأس

فرد عليه السلطان سليم بهذين البيتين :

(١) يقصد بالروم في هذا العهد الترك العثمانيون .

ما عيبتكم هذا ولكنّه بغض الذي لثبّ بالصاحب
وكذبكم عنه وعن بته فلعلّنة الله على الكاذب
وكتب الغوري اليه بمقاطع منها قول شيخ الاسلام البرهان بن ابي شريف :
السيف والخنجر قد قصرا عن عزمنا في شدة الباس
لو لم ينازع حلمنا بأسنا أفنت سلتاً سائر الناس
« الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٩٦ »

وكذلك يدل على اهتمام ملوك العصر بالشعر العربي ان السلطان سليم بن ابي
يزيد (٨٧٢ - ٩٢٦ هـ) الذي استولى على مصر والشام من ايدي المماليك
الجراسية له نظم بالفارسية والرومية والعربية . منه ما ذكر القطب الهندي المكي
انه رآه بخطه في الكوشك الذي بني له بروضة المقياس بمصر ونصّه :
الملك لله من يظفر بنيل غنى يسلبه قسرا ومن ذا يضمن الدراكا
لو كان لي او لغيري قدر أنملة فوق التراب لكان الامر مشتركا
« الكواكب السائرة للغزي ج ١ ، ٢٠٩ »

وهنا نذكر حقيقة في هذا العهد وهي اهتمام الادباء باللغات الثلاث العربية
والفارسية والتركية لا العربية وحدها . وهذا أضعف من شأن العربية ويمكن ان
يتخذ حسين بن حسن البيري مثالا على ادباء عصره في ذلك فقد ولد ببيرة الفرات ثم
انتقل الى حلب وجاور بجامع الطواشي ، وولي النظر واشيخة بمقام ابراهيم بن
ادهم .

ووصفه والد نجم الدين الغزي بالامام الكبير العلامة المفتي العارف بالله تعالى
وذكر انه كان له ذوق ونظم وثر بالعربية والفارسية والتركية وله رسالة في القطب
والامام ، وعرب شيئا من المثوي عن الفارسية وشيئا من منطق الطير عن التركية
ومنه :

اسمعوا ياسادتي صوت اليراع كيف يحكي عن شكايته الوّ داع

ومنه :

ما ترى قطّ حريصاً قد شِبعُ ما حوى الدرّ الصدفُ حتى قنعُ
وقد نظم الشعر بالعربية ومن شعره في استحكام الطبائع :
بقايا حظوظِ النفس في الطبع أحكمتُ كذلك أوصافُ الأمورِ الذميمةِ
تخيّرت في هذينِ والعمرُ قد مضى إلهي فعاملنا بحسن المشيئةِ
« الكواكب السائرة للغزي ج ١ ، ١٨٥ »

ونلاحظ ركابة التركيب في البيت الثاني المترجم واضطرار الشاعر الى تسكين
(الصدف) ليستقيم له الوزن ، كما نلاحظ جفاف الشعر الذي قلمه في العربية
وخلّوه من مقومات الشعر ما عدا الوزن والقافية • وذلك يظهر ضعفه في مستوى
الأداء الفني •

* * *

أ - الشعر

مذاهب الشعر وموضوعاته وفنونه في عهود الدول المتتابعة (١) :

عرفت مذاهب أدبية مختلفة في هذه العهود تتأرجح بين التقليد في المعاني والاساليب والتجديد فيها على تفاوت بين الشعراء ، وتفاوت بين الموضوعات بالنسبة الى الشاعر نفسه . وبين الفريقين المقلد والمجدد جماعة أخذوا من القديم معانيه ومن الجديد اساليبه فبقوا ينظمون في الموضوعات التقليدية ولكنهم اضافوا اليها النظم في الفنون (أو القوالب) الجديدة .

وثمة فنون كانت معروفة من قبل ولكنها زادت نموا وشيوعا ، فقد أدت الحروب الصليبية ثم المغولية ، مثلا ، الى الاكثار من ادب الجهاد والحض عليه ووصف الجيوش وآلات الحرب والحصون وابرار فضائل الشجاعة والنخوة والبطولة والتضحية ، وهي فنون شارك فيها الشعراء والكتاب معا ، وكانت معروفة من قبل ولكن العناية بها ازدادت في هذه الحقبة .

وأدت هذه الحروب ضمن عوامل اخرى ، الى انتشار التصوف وازدهار الادب الصوفي شعرا ونثرا .

وقد بقي الشعر العربي غنائيا برغم ان الشاهنامة قد لفتت نظر العرب في هذه الحقبة وتحدثت عنها ابن الأثير في معرض حديثه عن الاطالة في الشعر العربي وأثنى عليها وعدها بمثابة قرآن للفرس ، وكان ابو علي بن سينا قبله قد تحدث عن الاليادة

(١) لنا عودة الى هذا الموضوع حين ننتهي من الفنون التقليدية والمحدثّة التي قررنا دراستها .

في فصل الخطابة والشعر من كتابه « الشفاء » . وقد استغرب ابن الاثير خلو الشعر العربي من الملاحم الطويلة ، ولكن العرب لم يتزحزحوا في زمانه عن اعجابهم بأدبهم الى اقتباس غيره الا في حنود القوالب والاوزان .

على ان كاتبنا حديثا عالما هو عبد الله بن كتنون من علماء المغرب نشر مقالة بعنوان « أدب الفقهاء » في مجمع اللغة العربية بدمشق (ج ٤ مجلد ٤٢ ، ص ٦٧٨) رأى فيه ان الشعر العربي لم يخل من الملاحم وان قصائد المديح النبوي الطويلة احق بوصف الملاحم من المعلقات وبعض القصص الشعبية كسيرة بني هلال وسيف ابن ذي يزن وضرب امثلة على ذلك ميمية البوصيري وهمزية وقصيدة الوترية للبغدادى ، وذكر ان الاجيال المتعاقبة لا تزال تتناشد هذه الملاحم التي هي اطول نفسا واكثر حوادث واغنى بصور البطولة والكفاح في إثبات الوجود العربي من تلك . ونحن نراه محقا في ذلك كل الحق .

لقد استمرت المدرسة التقليدية في سيرها ووجدت لها انصارا حافظوا على هيكل القصيدة العام ونظامها كما حافظوا على عمود الشعر المألوف ، وذلك في المشرق . اما في المغرب والاندلس فقد حاول الشعراء التخلص من القيود والاعلال في الوزن والقافية ، واهمال الاعراب ، واستخدام الالفاظ الدخيلة والعامية .

على ان المدرسة التقليدية في المشرق اذا حافظت على اصولها فانها لم تجمد على معانيها ، بل جاءت بكثير من المعاني الجديدة ، الى جانب القديمة ، متأثرة بتطور الزمن وتبدل الاحوال وطروق الاحداث من حروب وغزوات ونكبات طبيعية .

وتباين الشعراء في استخدام فنون التعبير فمال بعضهم إلى الإكثار من التورية ومراعاة الانسجام بين اجزاء الكلام ومال آخرون الى الاكثار من الطباق والجناس ، وآثر آخرون ان يولوا عنايتهم الفنون الجديدة المستحدثة ، وجمع آخرون بينها وبين الفنون التقليدية .

فأما التورية والانسجام فقد أدت الى العناية بهما اسباب عديدة فنية ودينية فمن الفنية الرغبة في الإغراب والإطراف ومن الدواعي الدينية اضطرار المسلمين

احيانا الى تأويل المشتبهات في القرآن والحديث واقوال الصحابة . وكان رجال المذاهب المختلفة يؤولون هذه المشتبهات وغيرها من الكلام بما يتلاءم مع مذاهبهم : نقل ابن حجة عن الزمخشري خلال حديثه عن التورية قوله : « ولا نرى بابا في البيان أدق والطف من هذا الباب ، ولا أنفع ، ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات » .

وكانت التورية تأتي عند القدماء عفواً، وقد استخدمها شعراء العصور الغنابية وتكلفوها ولكنهم لم يتخذوا منها مذهباً خاصاً .

اما في عصور الدول المتتابعة فقد تطورت التورية لولع بعضهم بها ، واصبحت مذهباً شعرياً خاصاً اسماء بعض النقاد الاقدمين السحر الحلال ، وجعل من لا يأخذ به مقصراً .

وقد ظهر في مذهب التورية ثلاثة اتجاهات في أزمنة متتابعة : اتجاه القاضي الفاضل ثم اتجاه الشرف الانصاري في الشام ثم اتجاه ابن نباتة . وسنتحدث عن هذه الاتجاهات الثلاثة في كلامنا على الاساليب بعد ان ننتهي من دراسة بعض النصوص والموضوعات . وقد اكثر الشعراء من التورية واصبحت لهم غرضاً في ذاتها يجهدون فيها ، عقولهم ويكسونها بثوب جميل من الرمز ويمزجونها بالعاطفة .

واما مذهب التطبيق والتجنيس فانه قد اشتد عوده لدى ادباء القرن السادس شعراء وكتاباً فقد اكثروا من الطباق والجناس البديعيين متعمدين ان يكون ذلك مذهباً لهم .

ولا شك في ان هذه الفنون البديعية قد وجدت لدى العرب منذ القديم وقبل ان يترجم حنين ابن اسحاق كتب أرسطو ، وربما ترجم العرب عن اليونان ما يقابل التسميات عندهم في العربية ولكنهم لم يقتبسوا عنهم الفنون نفسها وانما اخذها ابن المعتز ، وهو أول المؤلفين فيها ، من الشعر العربي منذ اقدم عصوره وقد استجد بعض هذه الفنون اثناء تطور الشعر العربي ووصوله الى طور التائق في العصر العباسي .

لقد اتخذ بعض الشعراء الاكثار من الطباق والجناس والاستعارة مذهباً لهم

ولكن جماعة منهم اقتصروا على الاكثار من الطباق والجناس وحدهما ، وكان العماد الكاتب احد شعراء هذا الاتجاه وقد اشار اليه في خريدته كما اشار الى كتاب « ملح الملح » لابي علي سعد الحظيري الوراق والى التجنيس في قصائد ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي .

ومن أشهر الشعراء التقليديين الطغرائي وحيص بيص وابن التعاويذي والأبيوردي الشاعر العربي وابن المقرَّب الاحسائي .

ومن اشهر البديعيين عماد الدين الاصبهاني وابو بكر الأُرْجاني (ت ٥٤٤ هـ) وابن سناء الملك .

وأما مذهب الفنون الشعرية المستحدثة ففيه اتجاهان :

الاول : يتجه الى الاوزان والثاني : الى الفنون الشعرية المستحدثة وقوالبها .

فأما التجديد في الاوزان فقد كان في محاولة المتأخرين في العصر العباسي والمولَّدين استنباط بحور جديدة من تفعيلات البحور الستة عشر المعروفة في العصر العباسي باستقصاء ما يتولد من دوائر هذه البحور وقد وصلوا في هذه المحاولة الى استنباط ستة بحور جديدة وهي المستطيل وهو عكس الطويل ، والممتد وهو عكس المديد ، والمتمد والمنسرد، والمتوافر والمطرَّد . ووجد الى جانبها بحر سابع هو بحر السلسلة .

وأما الاتجاه الثاني فقد شمل التغيير في اللغة والاعراب والوزن والقافية مع تفاوت في الدرجة والمقدار لدى الشعراء وكان ثمرة هذا التغيير تشعب فنون النظم الى سبعة وقد ذكر صفي الدين الحلي انه لا اختلاف بين أهل البلاد من مشاركة ومغاربة الا في فنين منها .

والفنون السبعة لدى أهل المغرب ومصر والشام هي : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والموالي ، والكان وكان ، والحمّاق .

وأهل ديار بكر والعراق ومن يليهم من سكان المشرق يبدلون بالزجل والحمّاق ، الحجازي والقوما ، وهما فنان اخترعهما أهل بغداد للغناء بهما في سحور رمضان زمن العباسيين .

وفرق صفي الدين الحلي بين الفنون المعربة والملحونة من هذه الفنون ، فثلاثة منها ، في رأيه ، معربة لا يجوز فيها اللحن مطلقا هي : الشعر القريض ، والموشح ، والدوييت ، وثلاثة منها لا تكون إلا ملحونة وهي الزجل ، والكان وكان ، والقوما ومنها واحد يحتمل الاعراب واللحن ، على ان اللحن يستحسن فيه وهو المواليا (العاطل الحالي للحلي ص ٧ ، و ٨) ولم يتحدث الحلي عن لغة الحمّاق والحجازي وقد ذكر ابن تغري بردي بعض هذه الفنون اثناء ترجمته لابن الخباز العامري فذكر من فنونه المواليا والكان وكان والدوييت والبلاليق •

وكان لشيوع هذه الفنون وخاصة ما هو في اللغة العامية الصرفة او تغلب عليه العامية اثر سيء على الشعر العربي وعلى الروح العربي العام في جميع البلاد اذ ساعد على نماء اللهجات الاقليمية وأدى بالشعر الفصيح الى شيء من الكساد والضعف خلال خمسة قرون • ولا شك في ان ازدهار هذه الفنون كان على حساب الادب الفصيح •

اغراض الشعر وفنونه في تلك العهود :

عالج الشعراء في هذه العهود اغراض الشعر العربي المعروفة واخترعوا بعض الفنون وتناولوا كثيرا من المعاني المولدة في العصر العباسي وقد دعت طبيعة العصر والاحداث وتلاقي التيارات المشرقية والمغربية الى ظهور آثار في المعاني الشعرية وطوابع عامة تطبع هذه العهود بمياسمها وهي تتكون من تجمع المميزات الذاتية لمختلف الشعراء وتكوينها اطارا عاما مشتركا بينهم يعبرون فيه عن عهدهم بصدق •

وسأتحدث عن بعض هذه الاغراض والفنون لأن هذا الكتاب الموجز لا يتسع لها جميعها :

وقد كان من اثر الحياة العامة في الادب ولا سيما في العهدين المملوكيين ما يلي :

- أ — زيادة العناية بالصناعة البديعية : التورية والجناس والطباق الخ ••
- ب — الافراط في الرقة والسهولة في العاطفة والمعاني والبحر •

ج - إثار الرقة والسهولة في الالفاظ حتى تقارب العامة •
 د - وصف الحشيشة لانتشارها على يد الصوفيين منذ أوائل القرن
 السابع الهجري •

هـ - السخرية لدى المصريين ووصف الطبيعة لدى الشاميين •
 و - المبالغة في المعاني والصور والإكثار من استعمال القسم •
 ز - التلاعب بالالفاظ. وبالمعاني لدى المصريين حتى أصبح سمة لهم وإن كانوا
 قد سبقوا اليه •

غير أن من الواجب عليّ قبل أن اتحدث في الموضوعات المختارة للتناول في هذا
 الكتاب الموجز ألا أدع الأحكام والآراء الواردة هنا ضباية تعمّ جميع العهود في
 غير دقة على حين أنها لا تنطبق الا على بعضها ، وذلك توخيا لسلامة المنهج وصحة
 الأحكام •

ففيما يتعلق بالاساليب نجد أن ثلاثتها التقليدي والبديعي واسلوب القوالب
 الحديثة قد وجدت حقا في العهد الزنكي وكان التقليدي منها استمرارا للأسلوب العربي
 الأصيل الذي سمّي بعمود الشعر وكان البديعي منها معبرا عن روح العصر المتكلفة ولكن
 العناية فيه بالطباق والجناس كانت أكثر منها بالتورية التي ظهرت في آخره على لسان
 القاضي الفاضل وأما اسلوب القوالب الحديثة فلم يكن قد شاع كثيرا في المشرق
 العربي فقد وجدت دويّات نظمها العماد الإصفهاني على لسان نور الدين زنكي
 ودويّات لابن قسيم الحموي (ت ٥٤٢ هـ) ولعزلة الدمشقي (٥٦٧ هـ) وللعدل
 ابن بختيار • ووجدت موشعا للتاج البكطي الموصلّي الذي كان حيا سنة ٥٧٢ هـ
 مدح به القاضي الفاضل • وهذا يدل على أن الموشح قد عرف في العراق في وقت
 مبكر ، ووجدت أن طلائع بن رزّيك المقتول سنة ٥٥٦ هـ قد اطلع على بيتين في
 الكان وكان لأحد عوام بغداد فانشأ في معناهما شعرا تقليديا ويدل ذلك على أن هذا
 الفن قد عرف في العراق خلال العهد الفاطمي الزنكي ولكنه لا يدل على أنه استعمل
 في غيره من البلاد العربية •

وقد وجدت كذلك مسمطة لأبي المعالي بن مسلم الشروقي احد شعراء العراق في الخريدة ، ووجدت أسامة بن منقذ من الشام يسمّط بعض القصائد القديمة وبعض قصائده ، ولكنني لم اجد اثراً لبقية الفنون المستحدثة لدى شعراء هذا العهد في المشرق العربي . وقد رأيت ان بعض شعراء مصر في هذا العهد يميلون الى السهولة في الاسلوب والالفاظ ويتبين ذلك في شعر طلائع ابن رزّيك .

أما في العهد الايوبي فان هذا التقسيم يحتاج الى شيء من التعديل لان الاسلوب التقليدي لم يعد ظاهراً كل الظهور كما كان الحال في العهد السابق فقد مال اكثر الشعراء الى الاسلوب البديعي على تفاوت فيما بينهم فيه من حيث الاكثر والاقلال ومن حيث قوة الاسلوب ولينه ومن حيث جزالة الالفاظ وسهولتها فالشعراء المقلون اتاجا كالشريف الجواني مثلاً كانوا اقل صنعة والشعراء في مصر كانوا بصورة عامة اسهل الفاظاً واسلوباً من شعراء الشام وتزداد السهولة في شعرهم كلما قرب الشاعر من آخر هذا العهد فابن سناء الملك المصري اسهل اسلوباً من العماد الاصفهاني وابن الساعاتي وابن عثّين ولكن ابن مطروح والبهاء زهير اسهل شعراً منه .

وقد اكثر شعراء مصر في هذا العهد من استعمال التورية على طريقة القاضي الفاضل الذي سهّل لهم طريقها ، كما يقول ابن حجة الحموي ، ومن اشهر من سار على طريقته الاسعد ابن ممّاتي وابن سناء الملك وابن النبيه ، ومزج شعراء الشام في هذا العهد بين طريقة العماد الاصفهاني وابن منير الطرابلسي وابن القيسراني في التطبيق والتجنيس وبين طريقة القاضي الفاضل في التورية وحققوا الانسجام بين الطريقتين .

وكان اكثر الفنون المستحدثة ظهوراً في هذا العهد الموشح فقد حمل لواءه في مصر ابن سناء الملك وفي الشام محيي الدين بن عربي . ويتلوه الدوبيت الذي نظم فيه بعض الشعراء . وظهر شيء من الزجل في شعر محيي الدين بن عربي الصوفي ولكن

لم نر غيره ينظم فيه الا معاصره وقرينه في الصوفية ابن الفارض في بيتين يتيمين من الزجل • اما بقية الفنون المستحدثة فلم اجد لها أثرا بعد •

وفي اول العصر المملوكي التركي نجد الفارق كبيرا بين شعراء الشام ومصر فقد ازدادت السهولة في اسلوب الشعر المصري والفاظه حتى قرب من العمامة وشاعت فيه السخرية كما هي الحال في شعر الجزار والوراق والحمّامي على حين نجد الشعر في الشام اكثر جزالة ومحافظة على اصالة الشعر العربي كما هي الحال في شعر الشرف الانصاري والشهاب محمود ، على اننا نجد شعراء في الشام قد مالوا الى سهولة الاسلوب والالفاظ كالشباب الظريف في أول هذا العهد ، وزاد ذلك في آخره • ونلاحظ ان الشرف الانصاري يختط لنفسه طريقة في التورية تقوم على السهولة والانسجام يسايره بها معاصروه ومن جاء بعدهم في الشام وسنشرحها عند الكلام على الاسلوب بعد كلامنا على ما سنورده من موضوعات الشعر وفنونه •

ونستطيع ان نقول بأن اسلوب الفنون المستحدثة قد شاع كثيرا في هذا العهد وظم الشعراء في جميع انواعه كالموالي والزجل والقوما والكان وكان والحجازي بالاضافة الى الموشح والبوييت اللذين شاعا قبل في العهد الايوبي •

وفي العهد المملوكي الجركسي نرى الاسلوب التقليدي يقل استعماله كثيرا فتجانب الشعر القوة والجزالة ويكثر الشعراء من الفنون البديعية في شعرهم ومن ظم المقطعات ويكثر من استعمال العمامة في الفنون المستحدثة بدءا من الموشحات ، والزجل الذي تطور عنها ، وانتهاء بالقوما والكان وكان والحجازي والخوراني •••

وهناك ظاهرة مشتركة بين هذه العهود وهو وجود أدباء جمعوا بين الكتابة والشعر نجد منهم في العهد الزنكي الفاطمي ابن قادوس وحسن بن زيد الانصاري وابن قلاقس في مصر ، والخطيب الحصكفي وأسامة بن منقذ وابراهيم الطنزي في الشام ، والحريري وسعد الوراق الحظيري والحيص بيص في العراق • وعمارة اليمني في اليمن ، وان كان نبوغه قد ظهر في مصر بخاصة •

وفي العصر الايوبي نجد منهم القاضي الفاضل والاسعد بن مماتي وابن سناء الملك في مصر والعماد الاصفهاني في الشام وهو مخضرم بين العهدين الزنكي والايوبي ، وشرف الدين الانصاري ، وهو مخضرم بين العهدين الايوبي والمملوكي التركي .

وفي العهد المملوكي التركي نجد الشهاب محمود .

وفي العهد المملوكي الجركسي نجد ابن مكاس وابن حجة الحموي وبدر الدين محمد بن علي ابن فضل الله العمري وسراج الدين عمر البلقيني وتاج الدين بن عرَبْشاه وقنصوة الغوري ، ولكن هؤلاء الشعراء لم يكونوا في مستوى سابقينهم شعرا وكتابة .



من موضوعات النضال

أ - شعر النضال

تمهيد :

هذا الشعر الذي يمثل أبهى صورة في حياة أمتنا منذ بدء الاحتلال الفرنسي لبعض بلادنا في أواخر القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن التاسع ، هو قسيم النثر في فن الأدب النضالي . وقد أجلنا الحديث عن قسيمه النثري حتى يأتي دوره في كلامنا على النثر جملة .

وانتبا يدأنا به قبل غيره لانه يصور كفاح أمتنا ، ورد فعلها البطولي ، أمام عدوانين كاسحين مدمرين : العدوان الفرنسي الذي سمى نفسه « الصليبي » افتئاتا على المسيح الكريم عليه السلام ودينه ، والعدوان المغولي الوحشي الذي لم يعرف معنى من معاني الانسانية . وهذا الشعر يبين مشاعر امتنا المعتدى عليها ، تجاه هذين العدوانين ، واتجاهها نحو التحرير ، وتصميمها عليه ، والسبل المتنوعة التي سلكتها لذلك ، ومنها الوحدة والعلم والخلق والجهد ، والتوجيه المعنوي عن طريق الادب والفن ، والتسليح الواضح للمستقبل ، وأخذ الشاعر والكاتب دور الملتزم والمناضل الموجه المتفاعل مع آمال امته وآلامها .

وقد زادت رغبة في تقديمه ما رأيناه من اهمال برامجنا التعليمية إيّاه في جميع مراحلها الا ما كان من بعض الاهتمام به في زمن الوحدة بين مصر وسورية وما بعده ، والعهد بهذا البدء قريب ، ولا يزال غير متلائم مع قيمة هذا اللون من الأدب في حياتنا ، فإنا لم نستفد بعد من جهد أجدادنا في سبيل التحرير ، ولم نستلهم روحهم ، ولم نطلع على الذي فعلوه لتحقيق أهدافهم .

وهذا الاهمال كان مقصودا في نظرنا ، خطط له المستعمر ، ليخفي بل ليمحو صفحة مشرقة مشرفة من صفحات نضالنا ، فلا يرى مثقفونا هذا المثل من النضال ليحتذوه ، سلوكا في الحياة ، وأدبا في الدرس .

وهو منا ، بعد أن حصلنا على استقلالنا ، تقصير أو كسل يحمل عليه ترك الامور تجري على ما كانت عليه قبل ، إثارة للراحة من التفكير والتخطيط والبناء للحاضر والمستقبل ، أو مسامرة لحكم العادة فيما نشأنا عليه زمن الاستعمار ، ولمن أنشؤنا عليه . وقد آن لنا أن نستيقظ ، وأن نستلهم الماضي ، ولكن لا لنجمد عليه ، بل لبنني على أساسه وتقدم ، لنجاري حضارات الامم المتقدمة ، ولنسهم معها في بناء الانسانية . ولنا من سلوكنا السابق الروحي والعلمي والتاريخي ما يشفع لنا بتحقيق أملنا في المستقبل .

ومن أمثلة هذا الاهمال التي يدركها كل من نال حظا من التعليم في أي بلد عربي أن أي مثقف منا ، إلا من رحم ربك ، لا يحفظ نصا واحدا مما قيل في فقد القدس وغيرها من المدن العربية زمن الحروب الفرنجية ، والتتارية ، أو مما قيل في تحريرها ، وقليل منا جدا من يحفظ شيئا قليلا في نكبة بغداد ودمشق وغيرها على أيدي التتار ، أو بعض ما قيل في صمودنا أمامهم وتصميمنا على الخلاص منهم . وهذا من أكبر العيب والعار علينا .

وكذلك من العار علينا ألا نسترشد بما حققوه في ميادين التوجيه المعنوي ، والحفاظ على التراث العلمي والأدبي في ذلك الحين ، والنهضة بالتأليف في العلوم والآداب والفنون ، وفي افتتاح المدارس والمكتبات ، فإن الحرب حينئذ بيننا وبين المغيرين لم تكن حربا عسكرية فقط ، وإنما كانت حربا من أسلحتها العلم والأدب والفن والصناعة ، وكانت في جزء منها حرب دعاوة وهدم لأعصاب العدو ، ورفع لمعنويات المواطنين . هذا الى جانب أنها كانت حرب تفوق في الأسلحة فكثيرا ما كان العدو الفرنسي أو التتاري يباغتنا بأسلحة جديدة فيجيب عليه بعض علمائنا وصنّاعنا بما يبطل خطته وأسلحته .

وفضلاً عما للاستلھام الروحي والاسترشاد الخلقي النضالي بتاريخنا وتاريخ
أدبنا ، من قيمة في بعث هممنا ، فإننا من وجهة أدبيّة صرفة يجب أن نعرف إذا كان
هذا الشعر قد قام بواجبه نحو أمّته في الظروف العصيبة ، أو تلكاً ؟ وهل كان على
مستوى المسؤولية حينئذ أو كان دونها ؟ وما هو تعليل ذلك في كلا الحالين ؟

ونحن نقف من هذا الأدب موقفاً سليماً دون دراسة وتمحيص ، فنقول انه
أدب منحط ، ظلماً وعدواناً ، ومجاعة لأقوال أعدائنا فيه ، ولنظرتهم إليه •

ونرى أنّه لا يجوز لنا أن تهمّه بالقصور والانحطاط مادام أهله قد استطاعوا
أن يحرّروا بلادهم من عدوان الغزوين الكاسحين المتتابعي الموجات ، وما دما نحن
لم نستطع أن نحرّر بلادنا من العدوان الصهيوني ومن وراءه من مؤيديه ، وما دما
في حيز التوجيه المعنوي لم نقيم بما قام به أجدادنا من الجهد الرائع المشرف ، برغم
ما وصف به من قلة الابتكار • وليس هنا الآن مجال مناقشة هذا الوصف والاثام •
وإذا كنا نسمي عهود هؤلاء الأجداد عهود انحطاط فماذا نسمي عهدنا وقد كتبت
علينا الذلّة والمسكنة ما دامت أراضينا محتلة ؟!

على أننا يجب أن نتوخّى الحقيقة في دراسة هذا اللون من الشعر ، وفي دراسة
غيره ، فلا نغضّ النظر عن نقائصه وعيوبه الى جانب ما نكشف من فضائله ومزاياه
فليس كل ما جاء منه وفيه رائعا كما أنه ليس كلّ شيء ساقطاً •

ويجب أن نعرف ما هو خط السير في هذا الشعر ، فنرصد مراحلته ونرى كيف
ساير الاحداث من مرحلة الضعف والمباغلة والهزيمة التي مثني بها العالم العربي
الاسلامي ، الى مرحلة الوجود التي جاءت بعدها ، الى حال اليقظة والتخطيط
والتنكر للاحتلال والاعداد للتحرير في جميع مناحي الحياة العامة • وفي طليعة ذلك
السعي الى توحيد البلاد ، والاهتمام بالجيش والاسطول وعُدّة الحرب ، والتعاون
مع الشعب والتعاطف معه ليسهم في المعارك بقلبه ودمه وماله وأبنائه ، وبالتخفيف
عن كاهله من اعباء وضع غريب في الحكم والجيش والسياسة : فانّ الحكام والقوّاد
كانوا من الاعاجم ، اتراكاً ، أو أكرادا ، أو جراكسة ، أو تتارا ، أو منحدرين من

أصل أوربي ، وكانوا اما مغامرين سياسيين عسكريين ، أو من المماليك المشتريين
بمال الأمة ، المنتقلين بقوة سيوفهم من حال الرقّ الى حال السيادة والسلطان ، مما
يصعب على الشعب ان يتقبله ، الا على مضض وكره • وهو الشعب المقهور على أمره
الذي أبعد عن ميادين السياسة والجيش بالقوة ، ولكنه استطاع بفضل حضارته
الراقية وتعاليمه السامية ، أن يصهر هذا الاجنبي الحاكم في ثقافته وأن يحوّلّه على
مدى الزمن الى واحد منه ، منسجم معه ، له ما له وعليه ما عليه ، وأن يجعله يحسّ
احساسا صادقا أنه عربي في مشاعره وآلامه وآماله وسلوكه وبنائه العقلي الروحي
الخلقي • وذلك برهان على أصالة الحضارة في هذه الامّة العظيمة المنكوبة •

ثم تأتي مرحلة التفوّق على العدو نتيجة لأمرين : تحوّلّه الى الضعف وملله من
طول الحرب ، وزيادة استعداد الأمة لكفاحه وتصميمها على طرده وتحرير البلاد منه •
ثم تأتي مرحلة النوم بعد طول اليقظة والاسترخاء بعد طول التوتر التي عاد بها
الحاكم الظالم الى ظلمه والشعب المظلوم الى اجترار بؤسه وألمه وحقده واستسلامه
للقضاء •

وعلينا إذا أن نستعرض بعضا من نصوص اللوحات التاريخية يمثل مختلف
هذه المراحل من حياة أمتنا ، في لياليها العابسة الكالحة ، وفي أيامها الزاهية المشرقة ،
تلك النصوص التي أوردناها قبل بحسب تسلسلها التاريخي ، والتي نرجو أن يرجع
اليها القارئ ليتذكر ويتابع ما نحاول جلاءه من أطوار الأدب ومميّزاته خلال النصر
والهزيمة ، ومن تفاعل الشعر مع الأحداث ودوره في التوجيه •

ونحبّ أن ننبّه الى أنّنا لا يمكن أن نتذوق هذه النصوص النضالية القومية
الدينية السياسية التي قيلت في عهود سالفة، ونحكم عليها أحكاما صحيحة، إلا إذا بعثنا
في أذهاننا ومخيلاتنا ومشاعرنا أجواء تلك العهود ، وعشنا مع أهلها ، وتنفسنا
هواءهم وعرفنا ما يحبّون وما يكرهون ، وما كان يهددهم من أخطار وما كان يثير
مشاعرهم من أمور • وذلك لأنّ هذه النصوص مرهونة في العادة بأوقاتها وظروفها
ومفاهيمها وأذواقها التي تختلف قليلا أو كثيرا عن أوقاتنا وظروفنا ومفاهيمنا
وأذواقنا • فإذا عرفنا حقيقتها بعقلنا وعشنا هذه الحقيقة بروحنا وخيالنا ومشاعرنا

سهل علينا أن نعذر الشاعر على أمور كنا نلومه عليها لو أنه كان من شعراء عصرنا ، بل ربّما لمناه لو لم يقل ذلك الذي قاله .

وقد أحينا أن نقدم للقارئ دراسة أدبية للنص الأول منها ، لنلفت نظره الى ضرورة القراءة الواعية المتأمّلة المتذوقة ، الهادفة الى الحقائق ، الباحثة عن الدوافع القادرة على بعث الأجواء الماضية الاجتماعية والنفسية ، وعلى تحليل الظواهر تعليلا علميا بعيدا عن العصبية والهوى ، مهما كان لون القارئ المذهبي أو السياسي ، ولندكره بأن هذا اللون الفني الأدبي قيل في كفاح أمّة في سبيل تحريرها من مغيرين عليها ، وبأنّ من أحبّ الحرية حق الحب احترام المناضلين في سبيلها ولو كان مباينا لهم في المذهب أو العقيدة أو الجنس .

أمّا النصوص الأخرى من شعر النضال فنستعرض بعضها استعراضا سريعا موجزا نستنج منه بعض الخصائص والأحكام الأدبية العامة ، ساعين الى اعطاء صورة كافية واضحة عن هذا الشعر الجدير بالبحث والاهتمام ، وذلك خلال كلمتنا العامة فيه .

١ - النص الاول الذي نتقدم الان بدراسته لشاعر مجهول ويبدأ بقوله :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النحيب (١)
موضوع هذا النص الأسى على ما أصاب بلاد الشام واهلها من نكبة على ايدي الصليبيين الذين جاؤوا راغبين في استعمار هذه البلاد مستترين وراء الدين، والدين منهم براء ، ثم الدعوة الى الكفاح لطردهم وتحرير البلاد المحتلة منهم .

ولا عجب في ان تنطبع الايات بطابع الأسى ، فكأنما فقدت البلاد حين هاجمها الفرنجة ضعيفة مقسمة بين أمراء يسعون وراء مصالحهم الخاصة وكان سكانها العرب مبعدين عن مجالي الحرب والسياسة ليس لهم طول ليدفعوا عنهم أذى الاعداء وكانوا يشعرون بالغربة في بلادهم فلم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا امام الاعتداء على مقدساتهم وانفسهم ونسائهم واولادهم واموالهم ولم يكن امامهم الا ان يبكوا على مصيرهم ولكن الشاعر لم يستسلم للمصيبة وانما نراه يحاول بعث

(١) ارجع اليه في مكانه من اللوحات التاريخية ص ٣٢ .

الهمم واحياء النخوة لتتجه النفوس المستيقظة الى الجهاد وتحرر ائمتها وبلادها .
والشاعر حين ينظم في هذا الموضوع يمثل في حزنه جميع المسلمين ويمثل في
دعوته الى الجهاد الجماعة الواعية الموجهة من الناس كالعلماء والمخلصين من
الامراء ورجال السياسة وليس ذلك غريبا فمن طبيعة الشعر ان يكون له دور الموجه
في مثل هذه الظروف . ومن المؤسف اننا لم نعرف من هو الشاعر ولم نعرف تبعا لذلك
الطوابع التي طبعت نفسه وحياته على اننا نستطيع ان ندرك امرين بسهولة اولهما ان
الشاعر يمثل في هذه الايات ضمير أمة والآخر انه انسان متحسر بالمصيبة التي
اصابتها لعظم خطر الاحتلال على الأمة في المستقبل .

وقد رأينا الطابع الديني يسيطر على الأبيات ولعل بعضنا ينقد الشاعر بأنه
يستثير التعصب الديني وذلك مالم يقل به الاسلام الذي دعا الى التسامح وقال في
الآية الكريمة : (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) ، ولكننا اذا رجعنا
الى الظروف التي احاطت بالشاعر عند قلمها ادركنا ان الفرنجة كانوا هم البادئين
باعطاء هذه الحروب طابعا دينيا فقد اسموها هم دون غيرهم الحروب الصليبية
وجعلوا شعارهم الصليب وهدفهم القضاء على الاسلام والمسلمين وابعثوا لانفسهم
قتل النفوس وهتك الاعراض دون وازع ديني او خلقي واستولوا على المساجد فحولوها
الى أديرة ونصبوا على محاريبها الصلبان كما ذكر الشاعر في قصيدته فلا عجب ان
يستثير ذلك الروح الديني في نفوس المسلمين وان يتحمسوا لدينهم حماسة اعدائهم
وان يعدوا هذا الحرب حربا دينية . هذا بالاضافة الى اننا لا يجوز ان نحكم على
الأبيات بروح عصرنا ، بل بروح العصر الذي قيلت فيه وروح العصر حينئذ كانت
دينية والحضارة فيه كانت قائمة على الدين مطبوعة بطابعه .

وقد كان الشاعر ابن عصره وبيئته فكان مسلما غيورا على دينه ومقدساته
وقومه واعراضهم وعلى بلاده وخيراتها ومصالحها العاجلة والآجلة .
واذا كانت الأبيات وليدة البيئة والعصر وظروف الحرب المحيطة بالأمة
وبالشاعر فاننا نرى فيها أثر البيئة واضحا فالشاعر يتحدث عن الكفر وبطشه
والاسلام ومصيبته والناس وما أصابهم نساء ورجالا والمقدسات وما اعتراها من
تغير وما اعتراها من اشياء يعتبرها المسلمون تدنيسا وكفرا واستهتارا .

واذا كان الشاعر قد نظمها مستجيبا لروح الامة حوله فانه قد طبعها بطابعه فلم يكتف يذكر ما أصابها بل اضاف الى ذلك توجيه هذه الامة الى الجهاد والتحرر •

واذا نظرنا الى الأبيات نظرة كلية وجدناها ذات طبيعة خطابية فالشاعر فيها كالخطيب يحاول ان يؤثر على نفوس السامعين في النواحي الشعورية ليجعلهم يتحسسون الموضوع الذي يتكلم فيه وينفعلون به وان يؤثر على عقولهم ليجعلهم يقتنعون بضرورة الثورة والجهاد وذلك حين بين لهم حق الاسلام عليهم ، ثم ان يؤثر اخيرا على ارادتهم فيجعلهم يتحركون الى الهدف الذي يريده وهو طرد الغاصب وتحرير البلد وأهليه •

ووجدنا للأبيات كذلك طابعا شعبيا يظهر في اسلوبها السهل وألفاظها المألوفة بحيث يفهمها كل فرد عادي بأقصى السهولة لان هدف الشاعر هو استثارة النخوة الشعبية ودفع الشعب الى الثورة والعمل على التحرر • ومن شروط الشعر الشعبي العام السهولة والبساطة بحيث يكون قريبا من الفهم •

واذا نظرنا الى الأبيات نظرة تفصيلية وجدنا انها تنقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية: القسم الاول يشمل الأبيات الخمسة الأولى والشاعر فيها يصف ما حل بالاسلام وبالبلاد وبأهلها وصفا القرض منه اثاره المشاعر اعدادا لغرض الرأي الموجّه ، والقسم الثاني يشمل الأبيات الثلاثة التالية وفيها يدعو الشاعر الى التأمل في عظم المصائب والى استنكار الرضى به والسكوت عليه ، والقسم الثالث ليس فيه الا البيت الاخير وهو قمة الأبيات وفيه الهدف الذي يريد الشاعر توجيه نفوس المستمعين اليه وهو الاستجابة لداعي الله في الجهاد •

والاقسام الثلاثة مترابطة بصلة منطقية ظاهرة بينها وكل قسم منها يستدعي القسم الآخر ولو ان الشاعر ترك احدها لعدت خطته ناقصة •

يقول في القسم الاول بان الكفر بقوة جيروته وعظم استعداده قد انزل بالاسلام ذلا عظيما يستحق بكاء طويلا شديدا من الاسلام نفسه ومن أهله فحقوق المسلمين الفردية والجماعية ضائعة ودمائهم مباحة وسيوف الفرنجة الاقوياء باطشة

يهددون بها دماء المسلمين المسفوكة وهذا هو نصيب الضعفاء المتقاعسين فما أكثر المسلمين الذين سلبت ارواحهم واموالهم واكثر المسلمات اللاتي سلبت اعراضهن وليس من منقذ او منتقم ، وما أكثر المساجد التي تحولت الى أديرة والمحارب التي غطيت بالصلبان وقد اصبحت دماء الخنازير تُلطّخ المساجد ، والمصاحف تحرق فيها ، وكأنّ كلاهما طيب يتطيب به المغيرون تشفيا وانتقاما واستهتارا وتحقيرا •

والعاطفة في هذا القسم عاطفة أسي وحسرة وغيرة وحقد وغضب على الاعداء وتلهف للخلاص من شرهم •

ولم يمن الشاعر كثيرا بالصور البيانية فيه وانما عني بالتصوير الواقعي لانه مثير في حد ذاته ولا يحتاج الى ما يقويه من الصور الخيالية او البيانية والشاعر يعرض علينا المشاهد المؤثرة ~~واحد~~ ~~بعد الآخر~~ ولكنه يحسن انتقاءها لانه شاعر عارف بأصول فنّه حقا ، بل هو اكثر من ذلك شاعر يتكلم بقلبه فيعني باظهار ما يؤلمه • وقد استعمل التشخيص في البيت الاول وذلك حين جعل الكفر يحلّ الضيم بالاسلام كأنه شخص وجعل الاسلام ينتحب مما أصابه ، واطلق الكفر والاسلام وأراد بهما اهلهما على طريق المجاز المرسل •

والضورتان البيانيتان فيه اللتان جاءتا في البيت الخامس وهما تشبيه دم الخنزير بالطيب لأنس الفرنجة به وحبهم اياه ، وتشبيه رائحة حرق المصاحف برائحة البخور لهما طابع واقعي ظاهر فهما من اطيب الطيب في نفوس الفرنجة حينئذ • وقد أحسن الشاعر الموازنة بين صور الماضي والحاضر في المسجد والحراب وما يلحق بهما ليستثير النفوس •

ونلاحظ من حيث الاسلوب ان الشاعر لم يصرّح البيت الاول مع اعتقادنا بأنه استهلّ به الأبيات وذلك لأنّ العاطفة المتأججة شغلته عن الكلفة ، وان الشاعر في البيت الثاني استعمل التقسيم المعنوي الموسيقي ، وأيد بموسيقاه الداخلية موازنته بين حالي المسلمين والكافرين من الضعف والقوة ، وانه لجأ في البيتين الثالث والرابع

الى استعمال كم الحبرية للتكثير وانه قد فرّع الشطر الثاني في البيت الرابع من الاول ، واستعمل التشبيه البليغ في كل من شطري البيت الخامس فضلا عن ان الشطر الثاني منه تفريع عن الاول ، ووازن ما أصاب المسلم والمسلمة في البيت الثالث وجانس بين سليب وسليب في شطري البيت الثالث وردّ فيهما العجز على الصدر وكنّى عن العرض بكلمة حرم •

ويلاحظ فيها سهولة الالفاظ وبساطة الاسلوب وقرب المعاني وعدم تكلف الصور البيانية والفنون البديعية وقرب الأبيات من الكلام العادي مع شدة التأثير والقدرة على الايحاء وذلك لاعتماد الشاعر على الايجاز وحسن اختيار اللمحات الفنية الموحية المؤثرة واختيار الالفاظ العاطفية المثيرة •

ويقول في القسم الثاني بان هذه المصائب لو فكر فيهن طفل متديرا عواقبهن لشابت جوانب رأسه من الهول فكيف تسبى النساء المسلمات في العواصم على الحدود ويبقى أي مسلم يشعر بطيب العيش واستمراء الحياة الا انني اقسم بالله ان للدين الاسلامي حقا عليكم ايها المسلمون بان تدافعوا عنه جميعا شيئا وشباناً • وقد صور عظم المصيبة « بشيب الطفل » ليحرك المشاعر ويوجه الى القيام بالواجب • وكرر معنى سبي النساء في هذا القسم بعد ان ذكره في السابق لانه اكثر ما يثير الناس •

لا نلاحظ في هذه الابيات أي صورة بيانية ولكن الشاعر يحسن اختيار معانيه ويحسن التعبير عنها بقوة وجمال وسهولة وينتقل من الخبر الى الانشاء ويستعمل الاستفهام الانكاري الذي يهدف الى التفريع ويقابل في المعنى بين سبي المسلمات وطيب عيش المتقاعسين ويجانس بين طفل وتطفل ويؤكد كلامه بالقسم وأما ويطابق بين شبان وشيب ولكنك تشعر بأنه لا يتكلف هذه الفنون وبأنها لم تسيء الى جمال المعاني وقوة العواطف بل تراها قد زادت حُسنا وشاركت في ابراز المتناقضات والمتقابلات فيها •

ومشاعر الشاعر في هذا القسم هي الاستنكار والحسرة والغضب والحماسة
والرغبة في الخلاص من الحال السيئة •

والالفاظ فيه مثلها في سابقه سهلة مأنوسة موحية مؤثرة والتراكيب ليس فيها
غموض والمعاني واضحة •

اما القسم الثالث فيقتصر على بيت واحد يطلب فيه من ذوي العقول في أي
مكان كانوا ان يعرفوا واجبههم فيستجيبوا لداعي الله الذي هو الجهاد ونراه يؤكد
على طلب الاستجابة لأن طلب الجهاد يلحّ على نفسه وهو المخلص الوحيد من
المأزق • وهو انما يخاطب ذوي البصائر ليجعل من لا يستجيب بمثابة البهيمة الممثلة
التي لا عقل لها ولا احساس • ويستعمل لفظة التقريع (ويحكم) ليشعر السامعين
بمبلغ العار الذي يلحق بالمتقاعسين •

ونراه في هذا البيت لا يستخدم صورة بيانية ولكنه يتصور المسلمين امامه
يخاطبهم ويقرّعهم ويحثهم ونراه يستعمل جمل الأمر الانشائية ويستعمل التأكيد
بتكرار أجيئوا •

لقد استعمل الشاعر لأبياته البحر الوافر الذي يصلح للحماسة والحرب وأداء
العواطف القوية الثائرة ، واستعمل رويّ الباء ، والباء من الحروف الصالحة للروي ،
وجعلها مضمومة ليكون فيها فخامة وكانت موسيقاه الداخلية المتكونة من تآلف
الكلمات فخمة قوية النبرة مناسبة للموضوع والمعاني والمشاعر المعبر عنها • و اضاف
الى هذه الموسيقى الاصيلية ما رأيناه من التقسيم الموسيقي في البيت الثاني ومن تكرار
اجيئوا في البيت التاسع وذلك كله زاد الموسيقى حسنا وتوفيقا •

ولهذه القصيدة كما رأيت طابعان: الرثاء والحماسة وقد امتزجا امتزاجاً طبيعياً بفضل
ما لدى الشاعر من تفاؤل وقدرة على التوجيه بالاضافة الى قوة احساسه بالمصاب
واذا قارناها بمثيلاتها من القصائد التي قلت في هذا العصر كقصيدة للأبيوردي
ميمية في الموضوع نفسه مثلاً ، وجدناها تمتاز عليها بشيئين الايجاز الجميل غير
المخل بالمعنى ، وقوة الإيحاء ، وجدناها تشترك معها في قوة التهاب العواطف

واستيفاء المعاني الضرورية والتعبير عن المراد ببساطة وعدم تعقيد الصناعة الشعرية .
 وإذا قارناها بسابقاتها من قصائد الحماسة كقصيدة أبي تمام في عمورية وقصيدة
 المتنبي في قلعة الحدث ، او من قصائد الرثاء كرثاء ابن الرومي لمدينة البصرة او رثاء
 مسلم بن الوليد لآل البيت أو رثاء النكميت لهم وجدنا ان القصائد الاخرى الموازن
 بها اطول نفسا واكثر استيفاء للموضوع ولكن الأبيات التي بين ايدينا اوجز تعبيرا
 ووجدناها على قصرها مثلها إيجاء ، ثم وجدنا انها اكثر منها شعبية فهي ببساطة
 الفاظها وسهولة تراكيبها وقرب فهمها وقوة ايحائها اقرب الى ان تفهمها العامة وتتأثر
 بها من تلك . ولذلك نستطيع ان نعتبها بهذه الميزة الفريدة وهي انها شعبية
 موجّهة .

وختلاصة رأينا فيها انها استطاعت بما فيها من شحنة عاطفية دافقة ومن معاني
 جيدة والفاظ مؤثرة وموسيقا موفقة ان تؤدي غرض الشاعر من التأثير في نفوسنا
 وان تجعلنا نحكم عليها بأنها جيدة .

ب - والآن نتقدم بكلمتنا العامة في شعر النضال . .

لقد استطاع هذا الشعر أن يصوّر الاحداث العامة في هذه الفترة وان يثل
 عواطف الجماهير العامة وعواطف الشعراء الخاصة ، وان يعبر عن آلام الناس
 وآمالهم وتطلعاتهم ومخاوفهم وقوتهم وضعفهم تعبيرا قويا يقارب بعضه شعر الفحول
 في العصرين العباسيين الثاني والثالث كأبي تمام والمتنبي وأبي فراس والشريف
 الرضي والمعري ، الا انه لم يظهر شاعر فحل في مستوى هؤلاء يغطي على غيره من
 الشعراء لشعور الشاعر بالغربة في وطنه لان الحاكم وجنده كانوا غريبين عن الوطن
 الذي يستبدون بحكمه ويضطهدون غالبا ابناءه ، فكان الشاعر يحس بفاصل بينه
 وبين الحاكم وجنده ويشعر في نفسه بالازدواجية ، فهو يريد ان يؤيد الحاكم لانه
 يحارب الفرنجة أو التتار المغيرين الذين يشعر هو بضرورة الكفاح ضدّهم ، ثم هو
 يريد الخلاص من الحاكم نفسه لانه غريب عنه ظالم يستبدّ غالبا بالخيرات دونه
 ويذلّه ويسيء اليه .

وهذه الازدواجية كانت تزول بعض الزوال حين يوجد الحاكم المحبوب الموثوق به كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وبيبرس والاشرف خليل .

ولذلك كان الشعب يشارك هؤلاء وامثالهم في معاركهم طواعية ، وكان الشعراء يعبرون عن هذه المشاعر من الحب والاعجاب والثقة ، وحين كانت توجد الثقة كنا نرى الشاعر يقوم بدور الموجه المخطط فيدعو الى تحرير مدن جديدة او الى مهاجمة الخصم في عقر داره .

ان اعتياد الشعب العربي ترك المشاركة في شئوؤن الحروب والسياسة جعل الشعراء انفسهم لا يقتربون كثيرا من السلاطين والحكام ومعاركهم وشؤونهم الا من كانت له علاقة رسمية بهم . وقليلون من الشعراء من حضروا المعارك لسياسة الإبعاد هذه ولذلك لم يكونوا مشاهدي عيان ومشاركين في المعارك التي يتحدثون عنها الا قليلا منهم وفي احيان قليلة . لذلك كان اكثرهم لا يعيشون الحوادث كما كان يعيشها ابو تمام ، والمتنبي بخاصة ، وهو الذي كان يشترك مع سيف الدولة في معاركه .

وكان الشعراء قسمين : اما علماء مثقفين غلب عليهم طابع الدراسة والتفكير فكانوا غالبا يقلدون النماذج التي يحفظونها ويغلب في شعرهم الجانب الفكري على الجانب العاطفي والخيالي كالعماد الأصفهاني ، واما شعراء مثقفين كابن القيسراني وابن سناء الملك والشهاب محمود . ومنهم شعراء مقلدون لا نعرف عنهم شيئا غير أبيات قالوها في احداث هامة .

وكان المفروض ان تثير الاحداث العامة ، من حروب ونكبات ، ضمير الامة العام وتخرج شاعرا فذا او شعراء وكتابا نادرين ، ولكن اعتياد البعد عن الحياة العامة قد اضعف القرائح . وقد ظهرت بعض الومضات القوية في شعر ابن القيسراني وغيره ممن عددنا اسماءهم قبل وعرضنا بعض نماذج لهم ، غير ان النكبات توالى واشتدت حتى هدمت اعصاب الناس وجعلتهم يلجؤون الى الدعاء والاستغاثة والرضا اكثر منهم الى الثورة والتمرد ، الا ما كان احيانا من ثورة بعض الاعراب . وقد

شاركت الصوفية والحشيثة في زيادة ميلهم الى الاستسلام ولا سيما في العهدين المملوكيين الاول والثاني ، ومع ذلك فقد كان شعر النضال حتى آخر العهد المملوكي الاول في مستوى جيد وقارب بعضه ، كما اسلفنا ، شعر ابي تمام والمتنبي اللذين كانا مثلهم المنشود في كثير من الاحيان . ومن هذا الشعر القوي دالية ابن القيسراني في مدح عماد الدين زنكي حين انتصر في الرها ، وبائية الشهاب محمود في فتح عكا على يد الاشرف خليل . وباقي هذا الشعر ليس سيئا فهو يقارب شعر ابي فراس والشريف الرضي من حيث الجودة الفنية .

وقد ظهرت طوائف شخصية قوية لدى كثير من هؤلاء الشعراء وظهرت لهم ابتكارات فنية في المعاني والصور والاسلوب حين تعرضوا لتجارب جديدة كابن القيسراني الذي تعرض لخروجه من بلده مرتين والذي ادهشه جمال جديد في الثغور هو جمال الصليبيات الأشقر السافر ، فصور الحروب في حماسياته وتغزل بالصليبيات في ثغرياته .

ويلاحظ ان الشعر في العهد الأيوبي كان استمرارا للعهد الزنكي وان العصر المملوكي الاول كان استمرار للعهد الأيوبي في مستواه ومعانيه ، وان شعراء هذه العهود الثلاثة كانوا يمزجون بين تقليد ابي تمام والمتنبي وامثالهما في الاسلوب والمعاني وبين بعض التجديد في المعاني والأخيلة ، وانهم كانوا يرددون بعض المعاني العامة نفسها ولا يختلفون الا في بعض تفصيلاتها او في زيادة شاعر بعض مانسيه الآخر .

وكان هذا الشعر غنيا بالمشاعر عبر عن الحزن والبكاء والتلهف والغضب والسخط والبغض والفرح والرضا والتفاؤل والتشاؤم والشماتة والسخرية والاعجاب والتقدير والخوف والشجاعة والانهيار ورباطة الجأش والضعف والقوة .

وتفاوت هذا الشعر في اسلوبه من حيث استعمال الفنون البديعية والصور البيانية بين الاكثار البالغ كما في شعر العماد الاصفهاني وابن القيسراني احيانا ، وبين الاقلال الذي يكاد ينعدم فيه التكلف ، كما هي الحال لدى الشعراء الذين رثوا

القدس ووقفوا في التعبير عن عواطفهم ، ولكن الصناعة البديعية الكثيرة لم تسيء
الى شعر المشهورين ، كابن القيسراني ، وابن سناء الملك ، والشهاب محمود ، بل
زادته حسنا ، لان قوة العواطف والافكار والأخيلة والأداء اللفظي قد غلبت على
الصناعة ، كما كانت الحال في بائية أبي تمام قبلهم . ومن هذا الشعر الذي لم تسيء
اليه الصناعة قصيدة ابن القيسراني الدالية في فتح الرها :

هو السيف لا يغنيك الا جلاده وهل طوق الاملاك الا نجاده

وقصيدته الرائية في فتح بعين :

حذارِ منا وأتّى ينفع الحذرُ وهي الصوارم لا تبقي ولا تذرُ

ومنه بائية ابن سناء الملك في حلب حين دخلت في حكم صلاح الدين :
يدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت دولة الصلب
ومنه قصيدته في استرداد القدس على رويّ النون :

لست أدري بأيّ فتحٍ تهنا يا منيل الاسلام ما قد تمنى
ومنه قصائد الشهاب محمود الثلاث الآتية ، ولا سيما الثالثة منها :

الاولى في انتصار الظاهر بيبرس على الفرات ، ومطلعها :
سرّ حيث شئت لك المهيمن جار واحكم فطوعٌ مرادك الأقدارُ
والثانية في انتصار بيبرس على نهر سيحان ، ومطلعها :
كذا فلتكن في الله تمضي العزائم والا فلا تجفوا الجفون الصوارم

والثالثة في استرداد عكا آخر معقل للفرنجة على يد الأشرف خليل ، ومطلعها :
الحمد لله زالت دولة الصلب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

أما الشعراء المقلّون من الصناعة الذين رثوا المدن فلم يكن لهم غرض تفعي من
جائزة على المدح او مكانة لدى السلاطين وانما عبروا عن عواطفهم وعواطف الجمهور
حولهم تعبيراً طبيعياً جعل شعرهم مؤثراً . وقد شمل شعر النضال الانواع التالية :

أ - مدح القادة المنتصرين والاشادة بانتصاراتهم •

ب - رثاء الابطال الذين يموتون قتلا او على فرشهم وبيان عظم الخسارة بفقدهم وذلك في قصائد مستقلة كاملة •

ج - رثاء المدن التي نكبت باستيلاء الاعداء عليها وارتكاب الفظائع فيها كالقدس ، او تدميرها وارتكاب الفظائع فيها كبغداد ودمشق اللتين ارتكب فيهما التار ما ارتكبوا • ويلحق به رثاء الممالك الزائلة وقصور الملوك المهدامة •

د - وصف المعارك والقلاع المحاصرة والمدن التي يستولون عليها حربا او صلحا ، وهذا الوصف يأتي ضمن قصائد المدح والاشادة ، لا مستقلا بقصائد خاصة به •

وكل نوع من هذه الانواع جزء من موضوع أدبي عام ، فالاشادة بالابطال المنتصرين جزء من المدح ، ووصف المعارك جزء من الوصف ، ورثاء الابطال والمدن جزء من الرثاء •

وحديثنا عن كل نوع منها هنا يرجع الى انها جزء من شعر الاحداث العامة الذي هو شعر النضال في هذه العهود ، ولكننا يجب ألا ننسى انها اجزاء من موضوعاتها العامة واننا يجب ان نردها الى موضعها الاساسي هناك حين ندرس هذه الموضوعات بالرجوع اليها هنا لنضمها اليها في ذهننا فنستوفي اجزاء كل موضوع منها •

أ - مدح الابطال والاشادة بالانتصارات

١ - في العهد الفاطمي - الزنكي ••

رأينا في هذا الموضوع :

أ - قصيدة ابن القيسراني في فتح الرها (هو السيف لا يغنيك الا جلاده)^(١)

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٤٠ •

وهي تمتاز بتأثر الشاعر بأبي تمام وبفخامة المعاني والصور والاسلوب وبالروح الدينية السائدة فيها .

ب - بائية ابن القيسراني حين استولى نور الدين زنكي على حصن إائب ومطلعها (هذي العزائم . .) (١) ويظهر فيها تأثره بالشاعرين المتنبي وأبي تمام معا ومطلعها مقتبس من مطلعيهما . ويظهر تأثره بمعاني أبي تمام في أكثر من مكان منها فالبيت الثاني على سبيل المثال وهو :

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب
مقتبس من قول أبي تمام :

فتج الفتوح تعالى ان يحيط به
قظم من الشعر او ثر من الخطب
ج - قصيدة طلائع بن رزيك الى أسامة بن منقذ ونور الدين وهي تمتاز من حيث الاسلوب بواقعية الوصف والحوادث وتفصيله وسهولة التعبير حتى لكأنه يتحدث في أكثرها حديثا عاديا ثم تمتاز بالدعوة الى تعاون مصر مع الشام على اختلاف الدولتين مذهباً وذلك لمحاربة العدو المشترك ، وبالحديث عن أعداد الاسطول للحرب وبتعزيز نور الدين عن هزيمته في يفرأ ، وبيان مكانته في حرب الأعداء ، وانهاض همته لاستئناف الحرب . ومطلعها : (ألا هكذا في الله تمضي العزائم . .) (٢) .

٢ - في العهد الأيوبي رأينا :

أ - قصيدة ابن سناء الملك في دخول حلب تحت حكم صلاح الدين وفيها يشيد بمزايا صلاح الدين وبمكانة حلب وعظم موقعها وشوق أهلها الى وحدة البلاد تحت حكمه وستتکلم عليها أيضا حين الحديث عن قصائد الوصف النضالية ، ومطلعها : (بدولة الترك عزت دولة العرب) . . (٣) .

(١) راجع ص ٤٥ .

(٢) راجع ص ٤٧ .

(٣) راجع ص ٥٤ .

ب - قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس ومطلعها (لست أدري بأي
فتح تهنأ ...) (١) .

والقصيدة من البحر الخفيف ورويها النون وهي جيدة الموسيقى سهلة الأسلوب
والعرض واضحة الألفاظ والتراكيب تذكرنا بأسلوب البحري وموسيقاه . وهو
يشيد فيها بالفتح ومكاته في الدين الإسلامي وفي السماء . ويأتي بمعنى لطيف في
البيت التالي يقرر فيه أن صلاح الدين هو صاحب البيت الذي يطرد منه مفتصيه :
تخرج الساكنين منه ورب الـ بيت في يته أحق بسكنى
وقد اقتبسه من ابن القيسراني في داليته التي درسناها :

فقل للملوك الكفر تسلم بعده ممالكها ان البلاد بلاد
وبيت ابن سناء الملك أعذب موسيقا ولكن بيت ابن القيسراني أفخم أداء .
ويبين ابن سناء الملك فيها مقام صلاح الدين في حرب الفرنجة ويصف قوة
جيوشهم ليعظم من النصر عليهم . ويشير الى أن أثوابهم من الحديد المجلل لهم من
الرأس الى أخمص القدم .

ويجمع بين الفخامة والسخرية بالاعداء في عدة أبيات منها :
وتصيّدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغصا
ويسخر فيها بملوكهم الذين ظنوا أنهم لن يقهروا فكذب ظنهم :
كم تمنى اللقاء حتي رآه فتمنى لو أنه ما تمنى
ج - أبيات قاضي غزة هبة الله بن محاسن في نصر الكامل بدمياط ومطلعها :
هنيئاً فإن السعد جاء مخلداً وقد أتجز الرحمن بالنصر موعداً (٢)
وقد أوجز الشاعر في أبياته ولكنه استوفى موضوعه فهناً بالفتح وأبدى فرحته

(١) راجع ص ٥٨ .

(٢) راجع اللحات التاريخية ص ٦٤ .

وفرحة الناس والارض به ووصف كثرة المواكب التي جاء الفرنجة فيها ودفاع المسلمين وقتكهم بأعدائهم واتخاذهم الاسرى • وفيها عاطفة دينية وتورية لطيفة في الاسماء موسى وعيسى ومحمد التي يريد بها الاخوة الثلاثة الكامل محمد والمعظم عيسى والاشرف موسى ابناء الملك العادل الذين اتحدوا معا على حرب الفرنجة ، وفيها جناس بين عيسى المسيح وعيسى اخي الملك الكامل •

د - ابيات شاعر مجهول في فرحة النصر بالمنصورة وهي سهلة العبارة والأداء مألوفة الالفاظ يقرب أسلوبها الفصيح من العامية وهي من حيث المضمون سهلة المعاني تصف الحوادث وصفا بسيطاً واقعياً وفيها روح سخرية تعبر عن روح الشعب العربي في مصر في طريقة تناول الامور والاشياء وتعتبر خطوة تقارب بين لغة المثقفين واللغة العامية واتجاهها نحو الادب العامي الذي تفهمه العامة وتتذوقه ، وقمة السخرية فيها الايات الثلاثة الاخيرة من قوله (أعاده الله من قريب الى قوله : من كل عليج وكل كافر) (١) •

هـ - أبيات للشاعر جمال الدين بن مطروح قالها يهدد ملك الفرنسيين حين سمع الناس بأنه ينوي العودة الى غزو مصر ، ومطلعها : (قل للفرنسيين اذا جئته ••) (٢) •

وهذه الايات لها خصائص الايات السابقة نفسها التي تشترك معها في الموضوع وسكون الروي دون الوزن وحرف الروي نفسه ولكنها امعن منها في السخرية واشد ايلاما للاعداء • وقمة السخرية فيها البيتان الاخيران : (وقل لهم ان أضمرُوا •••) و (دار ابن لقمان على عهدِها •••) ودار ابن لقمان هي التي سجن فيها ملك الفرنسيين حين أسر •

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٦٩ •

(٢) راجع ص ٧١ •

٣ - وفي العهد المملوكي التركي راينا :

أ - شينية الشرف الانصاري في عين جالوت وقد مدح بها ملك حماة الأيوبي المنصور ومطلعها (رعت العدا فضمنت ثلّ عروشها ...)^(١) وقد غاب فيها ذكر قطز وبيبرس . ولم تكن هذه القصيدة في مستوى قصائد النضال السابقة ولا في مستوى قصائد الشهاب محمود اللاحقة في جميع عناصر الشعر من معنى وعاطفة وخيال واسلوب كما انها ليست مستوفية الخطة الضرورية لها . وغياب ذكر قطز فيها يدل على ان الشاعر كان يداري بيبرس او يخافه ولا يعطي لكل ذي حق حقه ولا يقول كل ما يعرف في وقت كان الحكم فيه للسيف . وهكذا غبنت هذه المعركة الحاسمة وغبن بطلها حقهما . وليس المسؤول عن ذلك الشرف الانصاري وحده بل جميع الشعراء الذين عاصروا المعركة . وهذا يدل على مدى تأثير اشخاص الحكام في مسيرة الادب حينئذ ولاسيما النضالي منه .

ب - ومن المؤسف انه لم يبق لنا مما قيل في بطل عين جالوت الا بعض ابيات ، وذلك على جلال هذه المعركة وكونها لا تقل عن كبار المعارك في تاريخنا كحطين واليرموك والقادسية بل لعلها كانت اعظم شأننا لانها اوقفت استمرار اكبر كارثة في التاريخ العربي . منها الابيات الاربعة التي قالها شاعر دمشق مجهول حين دخل قطز دمشق ولكنها لا توفيه حتى بعض حقه وهي تبدأ بالبيت (هلك الكفر في الشام جميعا ...)^(٢) ومنها بيتا المؤرخ أبي شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه

وعلى الرغم من اشادة البيتين بقطز وازهارهما الاعجاب به فان الشطر الاخير فيه الشيء الكثير من الحفيظة على الترك والشعور باستبدادهم في البلاد فقد جعلهم الشاعر آفة من جنس آفة التتار وذلك يدل على ألم ممرض عميق في نفسه منهم لا

(١) راجع ص ٧٤ .

(٢) راجع ص ٧٥ .

يخففه الا انهم يدافعون عن البلاد امام من هو اسوأ منهم . وهذا هو معنى
الازدواجية في نفوس شعراء هذا العصر الذي اشرنا اليه في المقدمة .

جـ - قصيدة الشهاب محمود في نصر بيبس على نهر جيحان ومطلعها (كذا
فلتكن في الله تمضي العزائم ٠٠٠) (١) وقد تأثر في هذا المطلع بمطلع المتنبي في قلعة
الحدث (على قدر أهل العزم ٠٠٠) وبمطلع طلائع بن رزّيك المتأثر بدوره بمطلع
المتنبي (ألا هكذا في الله تمضي العزائم ٠٠٠) .

وفي قصيدة الشهاب معان وصور جديدة منها قوله :
عزائم حاذتها الرياح فأصبحت منخلمة تبكي عليها الغبائم
وقد اعجب بهذه الصورة فكررها في البائية التي قالها في فتح عكا والتي
سندكر بها قريبا . ومن هذه الصور الجديدة :
بجيشٍ تظلّ الارض منه كأنها على سعة الارجاء في الضيق خاتم
ومنها :

جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى ثغورا بكى الشيطان وهي بواسم
ويشيد بالترك في حالتي السلم والحرب :
من الترك أما في المعاني فانهم شمس وأما في الوغى فضراغم
ولم تخل من صور ساخرة ولكنها قاسية تتناول العدو من عل وتأتي في
اسلوب فخيم :
فأهَوُوا الى لثم الأسنة في الوغى كأنهم العشاق وهي المباسم
وصافحت البيض الصّفّاح رقابهم وعانقت السمر القدود النواعم
وقد اقتبسها من المتنبي استاذة ومثله الأعلى الذي يقول في سيف الدولة :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر تصافحت فيه يضر الهند واللمم
وهذه الصورة المقتبسة مثل لكثير من الصور الحريمة التي اقتبسها الشهاب
محمود عن المتنبي في هذه القصيدة .

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٧٩ .

د - قصيدة الشهاب محمود في المنصور قلاوون حين فتح حصن المرقب
ومطلعها (الله اكبر هذا النصر والظفر ...) (١) .

المطلع موفق لم يتأثر فيه بأحد ولكن اكثر معانيه في الايات مقتبس من شعراء
قدماء أو قريبي العهد من الشاعر ومثال ذلك البيت الثالث :

فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحت شوقا منابرها وارتاحت السرر

فقد اقتبس معناه من ابن القيسراني في قوله :

فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

واقتبس صورته من قول البحري :

ولو ان مهتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

وقد رأينا أنه جاء باحتراس جميل خلالها في قوله :

وكيف يسمو اليها من تأخر عن اسعاده منجداك القدر والقدر

فقد ضم فيه المقدرة والمكانة الى القدر ولو اكتفى بالقدر وحده لصار المعنى

هجاء .

ومن صوره اللطيفة في الايات قوله يعبر عن اخلاق المدوح التي فيها
النقيضان القوة واللف :

لها وان اشبهت لطف النسيم سري معنى الله يصف لا تبقي ولا تذر

ه - ولعل اروع قصائد شهاب الدين محمود بأئسته في مدح الملك الاشرف حين
نصره في عكا ومطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي (٢)

وهذا المطلع مقتبس من مطلع ابن سناء الملك في ضم صلاح الدين مدينة حلب
إليه وهو :

بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت دولة الصلب

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٨٥ .

(٢) راجع ص ٨٦ .

وقصيدة الشهاب محمود هذه أكمل قصائد النضال خطّة ومعاني وصوراً ، فقد استوعبت ما يمكن أن يقال في هذا الفتح ولم تهمل أيّ معنى رئيسي •

وقد اختار لها وزن أبي تمام ورويّه في بائته ووصف فيها استعصاء عكا على الفاتحين قبل الأشرف خليل ووصف قوّة الدفاع عنها بالسيوف والرماح والدروع والمجانيق بخاصة وصفاً فيه روح أبي تمام والمتنبّي معاً واستمد من معانيهما وصوّرهما كثيراً ، ولكنّه أضاف الى ذلك شيئاً من روحه وروح عصره ، وذلك بذكره النبيّ الذي بارك الأشرف خليل وبذكر الكعبة :

وأشرف المصطفى الهادي البشير على ما أسلف الأشرف السلطان من قُرب
فقرّ عيناً بهذا الفتح وابتهجت بفتحه الكعبة الغراء في الحجب

ففي هذين البيتين روح البوصيري التي تمثل روح عصره الدينية •

وجاء بصور جديدة ممزوجة بصور قديمة في انسجام وتناغم جميلين ، منها :
وخاضت البيض في بحر الدماء وما أبدت من البيض الا ساق مختضب
وخاض زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن تهوي الى قلب
توقدت وهي تروي في نصورهم فزادها الريّ في الاشرار والهب
أجرت الى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح اذ غرقاه كالحبب

فالصور في الايات الاربعة جديدة ما عدا صورتين : الشطن الهاوية الى القلب والبحر من دماء الاعداء ، فهما قديمتان وقد اخذ الاولى من قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنّها أشطان بثر في لبان الأدهم

وتكررت الثانية لدى شعراء كثيرين ، منهم في العهود التي ندرمها ابن سناء الملك في قوله :

وجرت منهم الدماء بحارا فجرت فوقها الجزائر سفنا

ثم وصف استجابة عكا للممدوح مشبهاً لها بغادة لانت عريكتها له وحته على فتح الدنيا كلها فائه لن يقف امامه شيء بعد هذا الفتح ووصف حرب المجانيق بين الفريقين وأتى بصورة ساخرة منها غناء السيوف في الاعناق وتطبيب الاسوار بدم

الاعداء واعتقال معاقل الاعداء لهم ، وما حل بالمدينة من حريق وختم القصيدة بالدعاء للممدوح ولم يفخر بشعره هنا كما فعل في بعض قصائد اخرى •

ويلاحظ على قصائد الاشادة بالابطال في الادوار الثلاثة الاولى : الزنكي - الفاطمي ، والايوبي والملوكي انها تشترك في مزج المعاني القديمة التقليدية والصور المألوفة بمعاني وصور جديدة وفي محاكاتها لقصائد الفحول السابقين كأبي تمام والمتنبي ، على تفاوت في مستوى الاجادة بين الشعراء من جهة وبين قصائد الشاعر نفسه ، من جهة اخرى •

ولم يكن التفاوت بين الشعراء بنسب تقدم بعضهم زما وتأخر الآخرين منهم فان تأخر العصر الملوكي الأول عن العهد الزنكي لم يجعل شعر الشهاب محمود دون شعر ابن القيسراني وكل ما في الأمر انه اقتبس ممن اقتبس منهم ابن القيسراني وزاد فاقبس منه ومن الشعراء الذين جاؤوا حتى زمنه •

ومع ذلك فافتنا نرى ان تكلف الصناعة البديعية كان اكثر ظهورا لدى ابن القيسراني ومعاصريه منه لدى شعراء العصر الايوبي كابن سناء الملك وابن مطروح ولدى شعراء العهد الملوكي كالشهاب محمود والشرف الانصاري •

ونرى ان شعر النضال لدى شعراء الشام كان اكثر فخامة منه لدى شعراء مصر ولكن شعراء مصر كانوا ألين اسلوبا واجمل موسيقا بحيث قاربت موسيقا ابن سناء الملك احدهم موسيقا البحري • كذلك نلاحظ ان اللهام المصريين وتراكيبهم اقرب الى السهولة والوضوح وانهم اقل تكلفا للمعاني والصرر البعيدة وقد رأينا ان نص ابن منطروح ، والنص الآخر قبله ، في الملك لويس التاسع كانا من السهولة بحيث قاربا العامة واصبحا من الشعر الجماهيري الشعبي •

ونرى ان الروح المصرية الساخرة قد ظهرت في هذين النصين وقد أخذت فيهما السخرية طابع النكتة ولم يخل الشعر الشامي من السخرية ولكنها كانت قاسية ، روح الجد فيها تغلب على روح النكتة والاضحاك ، وقد يكون هذان النصان

ارهاصا بما سيتلوها بعد في مصر من الاتجاه الى الشعر العامي ذي الطابع السهل في جميع عناصره .

ونلاحظ اخيرا اننا لم نجد في الدور المملوكي الثاني قصائد تشيد بالابطال المنتصرين وذلك راجع الى عدم وجود هؤلاء الابطال فيه فقد رأينا أن تيمور لنك قد هاجم فيه الشام وارتكب فيه الفظائع ولم يجد من يقف امامه . وقد جاء جيش المماليك من مصر بقيادة السلطان فرج بن برقوق ولكنه انهزم أمامه هزيمة منكرة وفرّ فرج الى مصر ليجمع جيشا جديدا ولم ينقذه من تيمور الا اضطرار هذا الى الرجوع الى بغداد لقيام فتن وراءه . وما وجدناه من الشعر ضمن رسالة جوابية على تيمور هو تهديد لا اشادة .

وقد نال برسباني احد سلاطين هذا العهد انتصارات في بعض جزر البحر الابيض كقبرص ورودرس ولكننا لم نر شعرا يشيد به حتى الآن ولم نستوف البحث بعد في جميع مراجع هذا الدور استيفاء يقطع بعدم وجود مثل هذا الشعر . وذلك تقصير نعتف به ونعد بتلافيه . وقد يكون فقدان هذا الشعر اذا كان واقعا حقا راجعا الى ان العالم العربي قد ادركه التعب بعد الغزوين الكبيرين غزو الفرنجة وغزو التتار فخمدت فيه قرائح الشعراء في جملة أشياء قد خمدت فيه من حياته العامة على اننا نعتبر هذا القول ظنيا لا مسلما قاطعا . لا سيما حين تشمل أماننا مقدمة ابن خلدون التي كان فيها عبقريا مجددا في العلم حق التجديد .

خطة قصائد البطولة :

ويلاحظ على قصائد العهود الثلاثة الاولى التي تشيد بالابطال ان القصائد الطويلة منها بخاصة تشترك في خطتها العامة ، وهذه الخطة تشمل العناصر التالية :

١ - الاشادة بالفتح وبالفاتح وبيان مكاتهما في حياة الامة والاسلام وان الفاتح يعمل لله لا لنفسه وبأن له عزيمة ماضية لا تضارعها اية عزيمة اخرى .

٢ - تهنئة المسلمين بالنصر الذي رفع عنهم الذل وأعزهم وأذل أعداءهم الكافرين ويرافقها الروح الدينية المتحمسة التي أذكنتها هذه الحروب .

- ٣ - تصوير حالة المدينة حين كانت خاضعة للعدو وكيف كانت تنتظر الخلاص ، وتصور المعركة امامها او حولها ، ومدى شدتها ، وصدود المدينة او القلعة ثم استجابتها ، واحيانا ذكر قيمة الخدعة في الحرب الى جانب القوة .
 - ٤ - وصف القلعة إذا كانت هي المهاجمة ووصف الحرب حولها بالفرسان والسيوف والرماح ووصف حرب المجانيق بين الفريقين .
 - ٥ - وصف استعصاء المدينة على الفاتحين من قبل واستجابتها للقائد الظافر ، لجعل الملك الممدوح خيرا من سابقه .
 - ٦ - وصف فرح الناس بالنصر وتعميم ذلك على الجمادات بتشخيصها واسباغ المشاعر عليها .
 - ٧ - بيان ان الاعداء لم يعد لهم مفرّ او انهم قد قضى عليهم قضاء مبرما وبادوا عن آخرهم .
 - ٨ - التفاؤل بانتصارات قادمة والتوجيه الى خطة العمل المستقبلية .
 - ٩ - ختام القصيدة بالدعاء او بالاشادة بالفتح والفتح .
 - ١٠ - قد يضيف الشاعر الى ذلك فخره بشعره وان الشعر مهما سما مقصر عن تأدية الفتح والفتح حقهما من الشكر .
- وليست خطط جميع قصائد النضال كاملة كهذه الخطة ، واكثر القصائد استكمالا لها قيلت في العهد المملوكي الاول وهي قصيدة الشهاب محمود في فتح عكا ويليها في الكمال قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس ونصر حطين وهي من العهد الايوبي ، ويمكن ان تقاس خطة كل قصيدة من قصائد النضال السابقة بهذه الخطة الكاملة لتبيان ما فيها من نقص .

رثاء الأبطال :

رأينا في هذا الموضوع عدّة قصائد :

١ - منها في العهد الزنكي الايوبي :

أ - أبيات الحكيم المغربي في رثاء عماد الدين زنكي ومطلعها (عين لا تذخري المدامع

وابكي (٠٠٠) (١) • وهي ايات صادقة العاطفة موفقة يستبكي بها عينه ويشيد بشجاعة المتوفى ومكاته ويكره الدنيا التي لا أمان لها ويتمنى الموت ويستهن بكل خطب بعد الشهيد ويأسى على أنه لم يستكمل خطته في استعادة البلاد وتوحيدها •

ب — رثاء أبي يعلى التميمي في عماد الدين (٢) ولم يكن موفقا كله لان بعض معانيه تناول العبرة بما أصابه وتحوّل حاله من القوة والغنى والمال والعزّة الى الموت ، وكان تركيز الشاعر على ذلك أكثر من تركيزه على بيان حزنه وخسارة الامة بفقده وكأنه شامت يفرح بأنّه لم يكن ملكا فيهلك كما هلك عماد الدين :

فاياك لا تغبط مليكا بملكه ودعه فان الدهر لا شك قاصمه
وقل للذي يني الحصون لحفظه رويدك ما تبني فدهرك هادمه

فما أبقى بعد هذا الكلام للشامتين ، وكلامه ليس صحيحا لأن من لم يكن ملكاً فانه لا ينجو من الموت أيضا • والفرق بين الفريقين أن عماد الدين وأمثاله يموتون شجعاناً أعزّة على حين يموت غيرهم جبناءً أذلة • وأبو يعلى في هذه الأيات إما أنّه حزين على المتوفى أراد أن يكيه فخانه التوفيق ، أو حاسد شامت ييدي الاعتبار بموت انسان يكرهه ، ونرجح الاحتمال الاول •

ج — مرثية العماد الأصفهاني لنور الدين زنكي (٣) وفيها عاطفة قوية ، شخصية من جهة ، لعلاقته بالمتوفى ، وعامة من جهة أخرى ، لمشاركته جماهير الناس فيها • وهي مستوفية للمعاني مستقصية لها لا تكاد تترك معنى من معاني الرثاء الا جاءت به وقد ذكرت مآثر المتوفى وجلائل أعماله وسيرته مع الناس ، وفي الجهاد لنصرة الاسلام ورفع شأنه ، ومطلعها (الدين في ظلم لغيبة نوره •••) •

ونراه يأتي فيها بسلسلة من الايات يصدرها بمن ومن ومن على طريقة زهير :

من للمساجد والمدارس بائياً لله طوعاً من خلوص ضميره

-
- (١) راجع اللمحات التاريخية ص ٤٢ •
(٢) راجع ص ٤٢ •
(٣) راجع ص ٥٠ •

ويستغل أكثر من مرة لقب نور الدين فيستهل مطلعته بأنه نور الدين حقاً وكأنه لا نور له سواء بياناً لعظم المصيبة بفقدته ، ثم يعيد المعنى بقوله : (ما كنت أحسب نور دين محمد يخبو ...) .

وقد يتن خلو مكانه باستعراض ما كان يقوم به من أعمال جليلة يرعى بها مصالح الناس ومنها استعراض الجيش وإقامة العدل ، ويدي أسفه على أنه مات قبل أن يحقق أمنيته في فتح القدس وكأنه آثر لقاء ربه على لقاء الناس الذين ليس لهم مثل همته في تحرير البلاد .

والقصيدة فخمة المعاني والصور والمشاعر والأسلوب ولكن غلب عليها التقليد والاقتراس من نصوص الأدب السابقة ونعتقد أن اطالته البالغة فيها قد أضعفت من نفحتها العاطفية الصادقة وأنه لو أوجز واختار اللوحات الموحية دون غيرها لكان أكثر اجادة وقدرة فنية .

ولا شك في أن موهبة العماد في الشعر أضعف منها في التأليف والنثر ، كما لا شك في أن طابع الاستقصاء العلمي قد غلب عليه وحذا لو غلب عليه طابع حسن الالتقاء الفني .

٢ - وراينا في العصر الأيوبي :

مرثية العماد الاصفهاني في صلاح الدين الأيوبي^(١) . وهي تمتاز بما امتازت به مرثيته في نور الدين زنكي من طول النفس واستقصاء المعاني والصور التقليدية التي قيلت قبله وفي ترتيب المعاني والصور وفق خطة مدروسة ترتيباً يدل على عقل علمي .

وهو يستبدل بالتساؤل بمن في المرثية السابقة التساؤل بأين في هذه المرثية كقوله :
أين الذي شرف الزمان بفضلته وسمت على الفضلاء تشريفاته

غير أنه لا يستغني عن من فهو يكرر التساؤل بها عن معاني متنوعة .

وتدور معانيه فيها حول الاشادة بصلاح الدين وأعماله العظيمة في كل الميادين ونراه يبالغ في بعض المعاني والصور كقوله :

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٦٥ .

ما كنت اعلم ان طودا شامخا يهوي ولا تهوي بنا مهواته
وهو ينظر الى قول المتنبي راثيا :

خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى حين ذلك الطور

ولكن عاطفته فيها صادقة فنية برغم ضعف تفحته الشعرية وقدرته على الايحاء
لتفكيره العلمي وعدم قدرته على الابتكار .

ولعله كان على صلاح الدين أكثر منه لوعة على نور الدين ولكننا رأيناه يتمنى
الموت حين رثى نور الدين ولا نراه يتمناه حين رثى صلاح الدين . ونجد أنه يكرر
في رثائه معنى جاء به في رثاء نور الدين ولعله جديد عنده وهو أن المتوفى قد ضجر
من الأحياء ورغب في لقاء ربه وذلك في قوله :

أضجرت منا أم أثقت فلم تكن ممن تصاب لشدة ضجراته

وربما ترك لنا أن ندرك ضجره من الحياة بعد صلاح الدين من قوله بأنه يعز
عليه ألا يرى وجهه بعد ذلك .

ومن مميزاته في هذه المروية أنه أحس بعدم الوفاق بين أبناء صلاح الدين من
بعده فوجه اليهم في آخر القصيدة نصيحته اليهم بالتزام خطة أبيهم في كل شيء :
لا تقعدوا الا بسنة فضله لتطيب في مهد النعيم سناته

لقد ذكرنا الآن بمراثي درسناها من العهدين الزنكي - الفاطمي والأيوبي ،
ونلاحظ أننا لم نجد مراثي تستحق الذكر في أبطال العهدين المملوكيين الأول
والثاني^(١) ، إما لعدم استيفائنا المراجع وتقصيرنا ، وإما لأن السلطان كان يخلفه
سلطان جديد يعتصب الملك منه أو من ابنه فليس من المعقول في ذلك العهد الذي
يقوم الحكم فيه على السيف أن يرثي الشاعر السلطان السابق فيغضب السلطان
اللاحق لا سيما وأنه لم يكن يربطه به مبدأ أو جهاد في سبيل مثل أعلى ، بل وظيفة
كتابية يُقلدها .

(١) كل ما وجدناه مقطوعتان في رثاء الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر ولكمال
الدين ابن العطار وبيتان للأول ، ثم بعض أبيات في رثاء الناصر محمد بن
قلاوون رجحنا أنها قديمة في رثاء أخ ل أخيه .

وقد يكون لذلك سبب آخر هو ضعف المودة بين الشعب والحكام في هذين العهدين أكثر منه في العهدين السابقين : الزنكي - الفاطمي ، والأيوبي .

ولنا ملاحظة أخرى هي أن المراثي التي قيلت في الإبطال كانت متقاربة في المستوى الفني ما عدا مرثية أبي يعلى في عماد الدين التي كانت سيئة ولا عجب فمن جهة كان راثي نور الدين وصالح الدين واحداً وهو عماد الدين زنكي ومن جهة ثانية كان العهد الأيوبي استمراراً للعهد الزنكي - الفاطمي .

ج - رثاء المدن :

رأينا في هذا الموضوع قصائد كثيرة :

١ - منها في العهد الفاطمي - الزنكي :

قصيدة أحد الشعراء المجهولين حين استولى الفرنجة على المدن العربية وقتلوا ونهبوا. وحولوا المساجد إلى كنائس ، وهي تعبر عن الحزن وتدعو إلى الدفاع والتحرير ومطلعها (أحل الكفر بالاسلام ضيماً) . وقد درسناها دراسة وافية (راجع ص ٣٢ ثم ص ٢٠٦) .

٢ - ومنها في العهد الأيوبي :

أ - قصيدة شهاب الدين بن المجاور في رثاء القدس حين أسلمها الملك الكامل والأشرف موسى إلى الفرنجة متآمرين على ابن أخيها الناصر داود معهم ، ومطلعها : (أعيني لا ترقى من العبرات)^(١) . وفيها لوحة صادقة وشعور بوحدة البلاد المقدسة وتشخيص لها وإشراك للنبي في قبره بالأسى على تسليم المدينة وعلى خيانة الكامل لأهلها وتمجيد للقدس وبيان لمكاتها الدينية العظيمة وأسى على تشتيت أهلها ، وتقريع شديد للمتآمرين وتذكير لهم بأن مجدهم جاء بفضل مساعي صلاح الدين المجيدة التي يكادون يهدمونها . ويضمن في آخر الأبيات بيت دعبل الخزاعي : (مدارس آيات خلت من تلاوة) تضميناً موفقاً جميلاً يخلع على قصيدته الجلال .

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٦٥ .

ب - أبيات لشاعر مجهول في رثاء القدس حين زارها خلال هدنة مع الصليبيين بعد استيلائهم عليها في المرة الثانية : مررت على القدس الشريف مسلماً ... (١)

وفيهما يأسى على ما أصاب عمرانها من تغير وبلى ويأسى على ذكرياته فيما ويدي حزنه الشديد حين رأى أحد الفرنجة يهدم بعض أبنيتها - وكأن التاريخ اليوم يعيد نفسه في هذه الناحية أيضاً - ويفديها بنفسه مظهراً عاطفة دينية صادقة يتوخى أن يشاركه فيها جميع المسلمين .

٣ - ومنها في العهد المملوكي الاول رثاء بغداد حين نكبتها المغول للشيخ تقي الدين اسماعيل التنوخي ومطلعها (لسائل لدمع عن بغداد أخبار ...) (٢)

ويمتاز هذا الرثاء بحرارة العاطفة وقوة التأثير لصدوره من القلب ، وبروعة التصوير الذي شارك في الإيحاء بهول المصيبة ومثلها للسامعين . وهو يلحن فيه مواقع الأتفة والغيرة من نفوس الناس فيتحدث عن هتك الأعراض وقتل بني العباس ويرز عظم المصيبة بهلاكهم وبتدمير بغداد ويجعل ذلك من علامات يوم القيامة ، ويشير المشاعر الدينية والنخوة بوصفه نساء آل البيت وقد أخذن سبايا ويتمنى لو أنه هلك مع الهالكين ، ولكن القدر أبقاه ليتألم ، والأبيات دمة قلب وحرقة كبِد .

٤ - ومنها أبيات في وصف هجوم القراصنة الفرنجة على نهر الإسكندرية (٣) .

٥ - ومنها في العهد المملوكي الثاني مرثية بهاء الدين البهائي في دمشق حين نكبتها التتار بقيادة غازان سنة ٨٠٣ هـ ومطلعها : (لهفي على تلك البروج وحسنها ... الحدثن) (٤)

وهذه المرثية ليست في مستوى المراثي السابقة جودة ، ولا نستطيع أن نعمم ما نراه فيها على شعر الأحداث في العهد الذي وجدت فيه لأننا لم ندرس منه غيرها ، ولذلك نكتفي بملاحظاتنا العامة عليها .

(١) راجع ص ٦٦ .

(٢) راجع ص ٧١ .

(٣) راجع ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) راجع ص ٩٠ - ٩١ .

فالشاعر يبكي المدن الثلاث دمشق وحماة وحلب لما أصابها على أيدي التتار ويعدد ما أصاب هذه المدن محاولا استثارة العواطف دون نجاح ، لفقدانه النفحة الشعرية ولوضعه بعض الصور في غير مكانها دون مبرر فني وهو لا يثير الحزن على الرغم من عظم المصيبة ولا يثير الإعجاب بشعره .

ومن صور الضعيفة التي تجعلنا نبسم ولا تتأثر قوله : وتبدل الغزلان بالثيران، وقوله : أعرو سنا لك أسوة بحماتنا ، وقوله : حزني على الشقراء قبل حماتنا واقتباسه شطر المتنبي (هو أول وهي المحل الثاني) وقوله : لا تدعي الأحزان يا شقراءنا . . . فالموقف موقف حزن وليس موقف غزل لتستعمل فيه الالفاظ والمعاني الغزلية وليس موقف شماتة بعدوٍ لتحمل هذه الالفاظ على السخرية والتهكم .

وفي القصيدة تعابير ركيكة كما في البيت الثالث (وشكا الحريق فؤادها . . .) وكاستعماله اللولو بالتخفيف كما تستعمله العامة مكان اللؤلؤ بالهمز وقوله (فقلوبهم في الفتك صخر لا أبو سفيان) .

وبين الأبيات والجمال في القصيدة ضعف ارتباط .

ونحن لا نشك في صدق عاطفته فهو يرثي مدينة دمشق العزيزة عليه وبعض بلاده ولكننا نؤمن بعجزه عن التعبير عما في نفسه لأن موهبته الشعرية ضعيفة حاول أن يعوّض عنها بثقافته ومحفوظاته فخاب .

ولعل ازدياد بعد الشعب عن الحياة العامة من حرب وسياسة وانفصاله عن حكامه الغرباء وشعوره بالغربة في وطنه للظلم والقهر المحيقتين به وكثرة المصائب التي ألمت به ، قد أضعفت ملكات الشعراء وجعلتهم ينصرفون عن الجد الى اللهو وعن الرفيع من الأمور الى التافه . ولكن هذا الحكم لا نلقي به على أنه قاطع وإنما نقوله على سبيل الظن والاحتمال لقلة ما اطلعنا عليه وما درسناه من الشعر النضالي في هذا العهد .

ونلاحظ مما أسلفنا أن رثاء المدن في العهد المملوكي الثاني قد انحدر عن المستوى الذي كان عليه في العهود الثلاثة السابقة . هذا إذا جاز لنا أن نحكم عليه

بالشاهد الوحيد الذي درسناه • ويلاحظ على هذا الشاهد أنه واقعي في أفكاره ومشاعره وصوره ولغته وأسلوبه وأنه يقرب جداً من المستوى العامي في أسلوبه وألفاظه ، ولكن الألفاظ لا تؤدي فيه أحياناً المضمون الذي يريده صاحبه لضعفه في الأداء •

ونرجو أن يتاح لنا حكم أحسن على هذا الشعر حين تتوافر لنا نماذج كثيرة منه في مختلف أنواع الأحداث العامة •

وأما رثاء المدن في العهود الثلاثة السابقة فهي متقاربة المستوى من حيث أداء العواطف والأفكار والأخيلة ومن حيث الأسلوب اللفظي والخطبة ، ولكننا نلاحظ ظهور الخطأ النحوي في رثاء بغداد (سبيوا) وهو في مستهل العهد المملوكي الأول ، غير أن مثل هذا الخطأ قد وقع في رثاء القدس لشهاب الدين بن المجاور في العهد الأيوبي (العالي ، نواح ينحن) فلا نستطيع أن نقول بأنه سمة من سمات العهد المملوكي الأول • وقد يكون هذا الخطأ لسهو من الشاعر نفسه أو لضعفه في النحو أو التحريف من النسخ •

ويلحق برثاء المدن رثاء الممالك والدول أو رثاء بعض آثارها أو آثار ملوكها ومن ذلك : رثاء عمارة اليمنى للدولة الفاطمية ورثاء القاضي الفاضل لقصر العزيز ابن صلاح الدين •

د- وصف المعارك :

رأينا في هذا الموضوع قصائد كثيرة :

١ - منها في العهد الفاطمي الزنكي :

وصف سير الجيش من مصر الى فلسطين ووصف معركته مع الفرنجة في ميمية طلائع بن رزيك التي مطلعها : (ألا هكذا في الله تمضي العزائم ...) وذلك في قوله :

تذرتا مسير الجيش في صفر فما اذ شنى نصفه حتى اتثنى وهو غانم^(١)

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٤٨ •

الى قصوله :

نقتلهم بالرأي طوراً وتارة يدوسهم منّا المذاكي الصلادم
وهذا الوصف يمتاز بالواقعية والبساطة كقوله في سير الجيش في الحرّ :
يهجر والعصفور في قعر وكره ويسري الى الأعداء والليل نائم

ب - ومنها في العهد الأيوبي :

أ - قصيدة ابن سناء الملك في وصف حلب حين دانت لصالح الدين صلحاً
ومطلعها : (بدولة الترك عزت دولة العرب ... الضلب) (١) .

وهو يبين فيها مكانة حلب في أرض الشام من حيث الموقع والاستعداد لنزال
الخصم ، وميلها الى صلاح الدين وسوء حالتها السياسية قبله من حيث حكمها
بالخصيان والصبيّة الصغار ، ويصف رفعة الممدوح ورفعة المدينة ويجعل ضمها اليه
فتح الفتوح ويجعله مغنياً منجداً لها ولدولة الخلافة .

وفي القصيدة تفحة شعرية جيدة ومشاعر صادقة وأداء قوي ومعان مستوفاة
مناسبة للموضوع وصور قوية شخّص بها المدينة وجعلها كالعاشق لصالح الدين .

وقد أشاد فيها بالترك ولم ينس قومه العرب ، وأشار الى ضعف هؤلاء الحربي
السياسي حينئذ إشارة لطيفة . ولغله أراد بدولتهم دولة الخلافة في بغداد أو دولتهم
التي يتوق الى وجودها . والاحتمال الأول أقرب وأقوى .

وقد جعل قصيدته على وزن بائية أبي تمام وفي رويّه نفسه وفي حركة الروي .
ب - قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس وفيها يصف شدة الأعداء وشدة
الحملة عليهم والفتك بهم : وذلك من قوله :

حملوا كالجبال عظماً ولكن جعلتها حملات خيلك عنها (١)

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٥٤ .

(٢) راجع ص : ٥٨ .

هذا المعنى مقتبس من القرآن الكريم (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ،
الى قوله الساخر بالأعداء :

صنعت فيهم وليمة عرس رقص المشرفي فيها وغنى

ج - ومنها في العهد المملوكي الاول :

بائية الشهاب محمود في استيلاء الأشرف خليل على عكا (٢) . وفي هذه البائية
جاء أكمل وصف للمعارك رأيناها في قصائد الاشادة بالابطال التي رأيناها . وقد
جاء موزعاً في عدة أماكن منها .

فقد وصف موقع عكا الحصين ووسائل الدفاع عنها وما أحاط بها من فرسان
يدافعون عنها بسيوفهم ورماحهم وما كانت تلقيه مجانيق أسوارها من حجارة ،
ووصف مفاجأة الأشرف خليل لها وذلك من قوله (سوران بر وبحر حول ساحتها)
الى قوله الى قوله (لم ترض همته ...) .

ثم وصف المعركة حولها قبل أن ترمى بالمنجنيات وذلك من قوله (وخاضت
البيض في بحر الدماء حتى قوله - فراح كالراح اذ غرقاه كالجب) . ثم وصف
حصارها بجيوش كالسيول لاشتراك الشعب مع الجيش في الحصار ، والتراشق
بالمجانيق بين المهاجمين والمحاصرين . وذلك من قوله : (وجثتها بجيوش كالسيول ...)
الى قوله (فاستغفلتهم ولم تطلق ، ولم تهب) .

وقد وردت في بعض صورهِ سخرية لاذعة قاسية بالأعداء كغناء البيض في
الأعناق وارتقااص الأبراج تحت حجارة المجانيق وتطييب الأسوار بدم الأعداء ،
واعتقال المعادل للأعداء الذين احتلوا بها .

ويلاحظ أن قصائد العهود الثلاثة في وصف المعارك متقاربة جودة وفخامة
ولكن خيرها في نظرنا بائية الشهاب محمود في عكا فهي أسهبها وصفاً وأحسنها أداء
على الرغم من تأخر عهدها .

(١) راجع ص ٨١ - ٨٢ .

د - ولم نجد حتى الآن وصفا للمعارك في العهد المملوكي الثاني ، إما لعدم وجوده فعلا وعدم اهتمام شعراء ذلك العهد به لعدم وجود أبطال منتصرين في هذا العهد ، إلا ما فعله من استيلاء برسباي على بعض جزر البحر المتوسط التي كانت تهدد سواحل الشام ومصر ، وإما لتقصيرنا نحن عن استيفاء المراجع .

عناصر الشعر الأساسية في شعر النضال .

معروف أن عناصر الشعر الأساسية أربعة : التأثير والتفكير والتصوير والتعبير
فلنحاول الكلام على كل عنصر منها مكتفين بقبسات :

أ - التأثير :

سادت العاطفة الدينية في هذا الشعر كله بجميع أنواعه وكانت هي الموجّه العام لجميع المشاعر من حب و إعجاب وكره وسخرية واشفاق وحزن ويكفي أن نأخذ قصيدة كدالية ابن القيسراني أو بائية الشهاب محمود لنجد أمثلة عليها ونكتفي من ذلك بمثالين الأول في الاعتزاز بنصر عماد الدين زنكي لأنه شد من أزر الاسلام وأعزه وهو من الدالية :

سمت قبة الاسلام فخراً بطّوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده

والثاني في الاشادة بنصر صلاح الدين في حطين واسترداد القدس و اظهار الاعجاب به والفرحة بالفتح ومشاركة الناس جميعهم في الفرحة وهو هذان البيتان من أبيات محمد بن أسعد الحلبي المشهور بالجواني المصري : (١)

قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسيبّحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له وماذا يذكر ؟

ب - التفكير :

ذكرنا أن المعاني القديمة غلبت على الجديدة في قصائد الاحداث العامة ولا حاجة لتعدادها أو ذكر بعضها ويكفي الرجوع الى احدى القصائد التي أوردناها

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٥٧ .

للاستشهاد عليها. أما الجديدة فمنها على سبيل المثال هذا المعنى الطريف لابن القيسراني:

فقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها ان البلاد بلاد

وهذا المعنى القديم الجديد لابن القيسراني كذلك وفيه يشبه القلوب التي شكتها الرماح ، فعلقت بها ، وشربت منها بالآبار التي ينتزح منها الماء وقد استعمله قبل عنترة لصدر حصانه في المعركة وحده ولكن الشاعر هنا جعل الصورة جماعية فخمة مرعبة للعدو * وجعل القلوب نفسها آباراً للدم *

وللأسنة عما في صدورهم مصادر أقلوب تلك أم قلب

وهذا المعنى أيضاً وفيه يشبه الدماء بالثياب الموضوعة عن الثياب المسلوكة :

أجسادهم في ثياب من دمائهم مسلوكة وكأن القوم ما سلبوا

وهذا المعنى الذي يوجّه فيه الى فتح القدس :

فانهض الى المسجد الأقصى بذلي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

وقد اقتبسه بعض الشعراء بعده عنه *

ومن المعاني المستجدة في وصف المعارك خلال العصر الأيوبي قول الجوّاني المصري في فتح القدس وقد استمدّه من قسمي الشعر والنثر في ثقافته وهو :

نشر ونظم طعنه وضاربه فالرمح ينظم والمهند ينشر

ومن المعاني المستجدة في العصر المملوكي ما أشرنا اليه قبل من قول الشهاب محمود في بانيته متحدثاً عن الفتك بالفرنجة :

وخاض زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن تهوي الى قلب

توقدت وهي تروى في نحورهم فزادها الري في الإشراق واللهب

أجرت الى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح اذ غرقاه كالحبب

ومنها للشهاب محمود في وصف أخلاق السلطان قلاوون بالقوة واللفظ معا :

لها وإن أشبهت لطف النسيم شري معنى العواصف لا تيقني ولا تذّر

ومن معاني هذه العهود ما استمد من البيئة والحياة الدينية الاجتماعية كهذا البيت لأبي حكيم المغربي :

فاسكبوا فوق قبره ماء ورد . وانضحوه بزعفران ومنك

ومن المعاني التي تداولها هذا العهد معنى سبق إليه أبو تمام في بآيته وهو تشبيه المدينة المفتحة بالفتاة البكر التي كانت تستعصي على الرجال قبل ثم لانت لأحدهم وهو في وصف عمورية :

بكر فما افترعتها كف حادثة . ولا ترق اليها همة النوب

وقد جاء به ابن القيسراني في نصر بارين :

والسيف مفترع أبكار أنفسهم . ومن هنالك قيل الصارم الذكر

وكان هذا المعنى حينئذ مستساغاً ولا نستسيغه اليوم .

ج - التصوير :

غلبت الصور القديمة على الجديدة في شعر النضال ومن هذه الصور القديمة على سبيل المثال قول ابن القيسراني في رأس الأبرنس المقتول التي حملت على رمح الى حلب :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة . برأسه ان إثمار القنا عجب

وهي مقتبسة من خطبة الحجاج : « اني لأرى رؤوساً قد أينعت ، وحن قطافها » ، غير أن ابن القيسراني قد عدل في الصورة .

ومن الصور الفخمة التي اقتبست من القديم العهد الزنكي الفاطمي وأدخل عليها بعض التجديد قول ابن القيسراني في وصف المعركة :

والنبل كالوبل هطال وليس له . سوى القسي وأيدٍ فوقها سحب

والجديد فيها هو جعل القسي والأيدي التي تطلق السهام كالسحب . ومما جمع بين القديم في الصورة البيانية وأضاف إليها جديداً من الصناعة البديعية قول ابن القيسراني في نور الدين زنكي :

ضربت كبشهم منها بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
 فاستعمال الكبش للقائد مقتبس من الجاهلية ومنه قول عمرو بن معدى كرب :
 نازلت كبشهم ولم
 أر من نزال الكبش بثدا
 والجناس بين الصلب (أسفل الظهر والصلب ج صليب) من أثر الصناعة
 البديعية في عصره ثم هو من أثر العداوة بين المتقاتلين المختلفين في الدين مما جعله
 يجعل الصلبان رمزاً للصليبيين المهاجمين .

ومن الصور المستجدة في العهد الأيوبي قول محمد بن أسعد الحلبي الجواني
 المصري في خيل صلاح الدين التي كانت تتعثر في المعركة برؤوس الأعداء مع احتراس
 الشاعر من أصابتها بالعرج :

تمشي على جثث العدا عرجاً ولا عرج بها لكنها تتعثر
 ومن الصور الجديدة البديعة فيه قول ابن سناء الملك في فتح القدس
 ونصر حطين :

وتصيدتهم بحلقة صيد	تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحارا	فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت فيهم وليمة عرس	رقص المشرقي فيها وغنى

ومنها قول الجواني المصري مستمدا صورته من ثقافته الدينية العربية :

غاراته جمع فان خطبت له فيها السيوف فكل هام منبر
 ومن الصور الجديدة في العهد المملوكي الاول قول الشريف الانصاري في
 عين جالوت :

بمين جالوت خضت بحر وغى يخال فلكا بالأسد مشحونا
 والجديد هو ما جاء في الشطر الثاني أما ما جاء في الشطر الاول فانه قديم :
 ومنه قول الشريف الأنصاري أيضا في واقعة عين جالوت ومدح المنصور الأيوبي :
 أقدمت مقتحماً على نشابها تكسو الجياد رياشها من ريشها (١)

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٧٤ .

فكأنها بالنبل من شابها أهدت إليك لآلئاً من كيشها
فقد جعل الجياد تكتسي من ريش السهام التي تنغرز فيها رياشاً وجعل المنصور
يقدم مقتحماً النبل وكأن هذا النبل لآلئاً مهداة من كنانات الأعداء •

ومن أروع الصور الجديدة الواقعية في هذا العهد قول محمد بن يوسف
المهمندار في معركة الفرات يصور سرعة اجتياز بيبس الفرات مع جنده الى الأعداء :

لما سبقنا أسهما طاشت لنا منهم الينا بالخيول الضمّر (١)
لم يفتحوا للرمي منهم أعينا حتى كحلن بكل لدنٍ أسمر

فقد جعل فرسان بيبس يسبقون سهام الأعداء اليهم فلم يكدهؤلاء يسددون
سهامهم اليهم حتى سبقوهم فعبروا الفرات وكحلوا أعينهم برماحهم قبل أن يفتحوها
لإطلاق السهام وهذا ينظر الى قول أحدهم في الاعتبار والتأسي :

ما بين طرفة عين واتباهتها يغير الله من حال الى حال
والصورة خيالية ظاهرة المبالغة ولكنها حسنة الدلالة على السرعة الشديدة
المباغتة •

ومن صور هذا الشاعر الجديدة قوله في وصف سيف بيبس :

ذهب العجاج مع النجيع بصقله فكأنه في غمسه لم يشهر

ومن الصور الجميلة التي قيلت في معركة الفرات قول الموفق عبد الله بن عمر
الأنصاري في الملك الظاهر بيبس :

الملك الظاهر سلطاننا تشديه بالأموال والأهل
اقتحم المساء ليطفي به حرارة القلب من المغل

ومن الصور الجميلة التي فيها جزئيات متكاملة قول الشهاب محمود في
معركة الفرات :

لما تراقصت الرؤوس وحسرت من مطربات قسيك الأوتار

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٧٧ •

خضت الفراتَ بسابحٍ أقصى منى هوج الصَّبَا من نعله آثار
حملتكَ أمواج الفرات ومن رأى بحراً سواك ثَقَلَّه الأنهار
رشت دماؤهم الصَّعيدَ فلم يَطِرْ منهم على الجيش السعيد غبار

فهذه الصورة العامة قد ربط الشاعر بين جزئياتها حتى جعلها منسجمة متناغمة
فحين غنت أوتار الأقواس تراقصت على نعماتها رؤوس الأعداء وحينئذ خاض
المدوح الفرات بفرس جريه كالسباحة • وهو لسرعته تتمنى الرياح الشرقية الهائجة
لو تلحق بآثار نعله لقد حملتك أمواج الفرات وأنت تخوضها ومن أعجب العجب أن
يحملك النهر وأنت البحر ولم يسمع من قبل ببحر تحمله الأنهار • لقد رشت دماء
الأعداء تراب المعركة فلم يتصاعد شيء من الغبار على جيشك المظفر السعيد •

ويلاحظ في هذا التصوير العام للمعركة ان الشاعر مزج فيه بين الصور الواقعية
والصور البيانية الخيالية ووفق في هذا المزج •

وقد يأتي في صور الشاعر بعض ما نستقيحه فقد جاء في شنية الشرف
الانصاري هذا البيت في خطاب الملك المنصور الايوبي :

فرشت حماة لوطء نعلك خدعها فوطئت عين الشمس من مفروشها
فنحن نستحسن الشطر الثاني منه الذي يشبه فيه مدينة حماة بعين الشمس
رفعة وعزّة ، ولكننا لا نستحسن الشطر الاول الذي يجعل حماة تفرش خدعها ليطأه
المنصور بنعله •

وفي العهد المملوكي الثاني نجد الصور في القصيدة النضالية الوحيدة التي
درسناها فيه وهي مرثية البهائي في دمشق وحماة وحلب فقد وضعها الشاعر في غير
امكنتها ولم يوفق بها ومثالها قوله :

أعروسانا لك أسوة بحماننا في ذا المصاب فأتما أختان
وقوله :

لأت عيونك بالدموع ملونا دمعاً حكى اللولو مع المرجان

الأسلوب اللفظي :

تأثر هذا الشعر بالذوق العام الذي كان يميل الى الصناعة البديعية في هذه العهود ولكن العاطفة وأداء المعاني والصور لم تسمح للشاعر بأن يجري وراء التكلف الى الغاية التي وصل اليها كتاب الدواوين في المراسلات الرسمية وكثيرا ما كانت الصناعة تقل حتى لتكاد تختفي او يوفق الشاعر فيها فتظهر طبيعية لا تجور على المعنى .

ومما جاء من الصناعة خلال العهد الزنكي - الفاطمي في شعر النضال على سبيل المثال لا الحصر ، الجناس في قول ابن القيسراني :

مدينة افك منذ خمسين حجة يفل حديد الهند عنها حداده
والمقابلة في قوله :

الى أين يا أسرى الضلالة بعده لقد ذل غاويكم وعز رشاده
والتقسيم الموسيقي في قول الشاعر المجهول صاحب البائية في القدس :
فحق ضائع ودم مباح وسيف قاطع ودم صبيب
ويلاحظ في هذا البيت الترصيع الى جانب التقسيم وذلك في قوله ضائع وقاطع .

ومما جاء من الصناعة البديعية في شعر النضال خلال العهد الأيوبي :
الاقتباس في قول محمد بن اسعد الحلبي الجواني المصري :

قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
يا يوسف الصديق انت لفتحها فاروقها عمر الامام الأطهر
وذلك من الآية : (اذا جاء نصر الله والفتح) ومن جزء من آية : (يوسف ، ايها الصديق) .

ومن الطباق السهل قول ابن سناء الملك في فتح القدس :

قد ملكت البلاد شرقا وغربا وحويت الآفاق سهلا وحزنا
واغتدى الوصف في علاك حسيرا اي لفظ يقال او اي معنى

ومن الصناعة البديعة في العهد المملوكي الأول :

الجناس الجميل في قول ناصر الدين حسن بن النقيب الكنائي الذي كان
حاضرا معركة الفرات مع يبرس :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيسار عن جريانه الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

وقد تركز هذا الجناس غير التام في كل من البيتين بين القافية والكلمة التي
قبلها . ويلاحظ في البيتين ايضا لزوم مالا يلزم .

ومن اقتباس الشهاب محمود الجيد في وصف امواج الفرات :

وتقطعت هرقا ولم يك طودها اذ ذاك الا جيشك الجرار (١)

فهو من الآية : (فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانشق فكان كل
فرق كالطود العظيم) .

ومن اجمل الجمع والتفريق (الف والنش) قول الشهاب محمود في نصر
يبرس على الفرات :

شكرت مساعيك المعقل والورى والترب والاساد والأطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك وعم ذاك الإيسار

ومن التقسيم الجميل قول محمد بن يوسف المهندي في معركة الفرات :

وقد اطرخم الأمر واحتدم الوغى ووهى الجبان وساء ظن المجتري

ولكن كلمة اطرخم الغريبة عنا قد أساءت الى البيت ، وان كانت من حيث
موسيقاها جيدة للدلالة على اختلاط الأمر وشدته .

وقد لاحظنا خلال دراستنا لقصائد النضال أن الصناعة البيانية لم تكن تتعقد
مع تقدم الزمن بل كان بعضها من بعض بدءاً من العهد الزنكي الفاطمي وانتهاء
بالعهد المملوكي الاول ولكننا في العهد المملوكي الثاني لاحظنا أن الشاعر بهاء الدين

(١) راجع اللوحات التاريخية ص ٧٧ .

البهائي لم يضع فنونه الصناعية في المواضع المناسبة لها جواً وعاطفة ومعنى فقد
استعمل مراعاة النظر مثلاً في بيته :

أعروسانا لك أسوة بحماننا في ذا المصاب فأتما أختان
وهذه الاستعارة في تشبيه المدينة المصابة بالعروس مع التورية باسم الحماية
أم الزوج قاصداً بها مدينة حماة ليست خفيفة الظل في مثل هذه الكارثة التي ألمت
بالبلاذ وليست مما يستحسن • وقس على ذلك كثيراً من فنون الصناعة البديعية
التي أوردها •

الأوزان والقوافي :

رأينا تأثر كثير من شعراء النضال ببائية أبي تمام وميمية المتنبي ولا سيما البائية
فقد جاروها وزناً وروياً • وبعضهم احتفظ بحركة رويها كابن سناء الملك والشهاب
معصود • وبعضهم حرك الروي بحركة أخرى كابن القيسراني •

ومن التأثر بالقدماء في هذه الناحية أبيات لابن منير الطرابلسي مطلعها :

فدتك الملوك وأيامها ودام لنقضك ابرامها

فقد تأثر فيها بوزن أبي العتاهية في بيتين على روي اللام له وهما في الخليفة

المهدي :

أنته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وقد رأينا من عيوب القافية ما يسمى بالايطاء وهو تكرار القافية في بيتين بينهما
أقل من سبعة أبيات وذلك في أبيات أبي حكيم المغربي التي يرثي بها عماد الدين زنكي
فقد كرر كلمة زنكي كما رأينا في بيتين ليس بينهما الا ثلاثة أبيات ، على أننا نحكم
على الأبيات كما وصلت إلينا ولا ندري اذا كانت في الأصل على غير ذلك •

وقد استعمل الشعراء وزن الدوييت في الشعر النضالي ومن ذلك ما نظم
العماد الأصفهاني على لسان نور الدين زنكي^(١) •

(١) من هذه الدوبيتات قوله :

للفزو نشاطي وإليه طربي بالجد وبالجهد نجح الطلب
ما لي في العيش غير من أرب والراحة مستودعة في التعب

الفاظ شعر النضال وتراكيبه :

جاءت ألفاظ بعض هذا الشعر سهلة مأنوسة وكذلك تراكيبه بحيث يفهمها أبناء الشعب غير المثقفين بسهولة ومن ذلك الأبيات البائية في رثاء القدس والأبيات الرائية والحائية التي قيلت في تهديد لويس التاسع ملك فرنسا والسخرية به وجاءت ألفاظ بعضه الآخر وتراكيبه رصينة تحتاج الى ثقافة لغوية نحوية في فهمها وتوجه الشاعر بها الى الملك الذي يمدحه والى جماعة المثقفين وذلك في مثل دالية ابن القيسراني وقصيدة ابن سناء الملك على النون وبائية الشهاب محمود في عكا . وكلا النوعين يعد موقفاً في لغته لأن الشاعر جعلها ملائمة للجماعة التي يريد أن يكلمها فوافق بها مقتضى الحال .

ومن ملاحظاتنا على الألفاظ أن الشعراء كانوا يستعملون أحياناً ألفاظاً قاسية في الحديث عن الأعداء ومنها على سبيل المثال ما جاء في البيت التاليين لابن قسيم الحموي :

ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنسك الملك الرحيم
وكذلك :

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي أزحت به ماني الجناحين من نبل
وما جاء في بيت ابن القيسراني :

لقد كان في فتح الرهاء دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده

فالعلوج : ج علج وهي تطلق على غير العربي في حالة العداء والحرب والتحقير، ومعناها عبد القن من الأعاجم ، وجاءت هذه الألفاظ في رائية المنصورة :

ويستريح المسيح منهم من كل علج وكل كافر

ومن ملاحظاتنا على الألفاظ كذلك استعمال بعض الشعراء مصطلحات فقهية كما في البيت التالي لابن القيسراني :

وأصبح الذين لا عيناً ولا أئماً يخاف والكفر لا عين ولا أئراً

ومما لاحظناه وقوع بعض الشعراء في أخطاء نحوية ، من ذلك ما رأيناه في بيت شهاب الدين بن المجاور في العصر الأيوبي :

فمن لي بنواح ينحن على الذي شجاني بأصوات لهنّ شجاة
وما رأيناه في بيت الشاعر المجهول الذي يسخر بملك الفرنسيين :

فذلك البحر تصرفوه . والسيف ماض منه وحاضر

وما رأيناه في بيت لتقي الدين التتوخي من رثائه بغداد :

آل النبي وأهل العلم قد سيوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ؟

ولم نجد خطأ نحوياً في شعر النضال خلال العهد الزنكي الفاطمي وإنما وجدناه في العهد الأيوبي ثم المملوكي . . وقد لاحظنا استعمال بعض الشعراء ألفاظاً أعجمية شاع استعمالها لدى المماليك في شؤون السلم والحرب . ومن ذلك ما جاء في شنية الشرف الأنصاري في عين جالوت مثل الجاليش بمعنى الراية ، والشاويش بمعنى عريف الجند ، والأكديش وهو حصان الحمولة ، ويكون من أصل غير عربي أو مولداً بين أصلين ، والكيش بمعنى الكيس أو الكنانة وربما كانت هذه الكلمة هي كلمة خيش. نفسها المستعملة في عامية الشام . وقد بدأنا نرى الألفاظ الأعجمية في شعر النضال في بدء العهد المملوكي .

شعراء النضال في العهد الزنكي - الفاطمي :

عرف منهم في مصر ظافر الجنداد المتوفى سنة ٥٢٨ هـ الذي مدح طلائع بن رزّيك حين قتل أرناط قائد الفرنجة ، والمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ الذي مدح طلائع بن رزّيك بالشجاعة والإقدام في حرب الصليبيين . وعرف منهم في العراق الأمير مجدد العرب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ الذي مدح أبا سعيد تمرتاش لظفره على الفرنجة سنة ٥٣٤ هـ . وصلاح الدين الأيوبردي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ صاحب المروثة في القدس التي مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراحم
وعرف منهم في اليمن عمارة اليمني الذي عاش زمناً طويلاً في مصر وقتل فيها سنة ٥٦٩ هـ ومدح ابن رزّيك حين اقتصر على الفرنجة كما مدح صلاح الدين وأخاه توران شاه ، ولكنه تأمر مع جماعة على صلاح الدين فقتله .

وعرف منهم في الشام ابن قسيم الحموي المتوفى سنة ٥٦٢ هـ الذي مدح نور الدين زنكي • وابن القيسراني وتوفي سنة ٥٤٨ هـ وكان أكثر منه صناعة في شعره ، وعرقلة المشتقي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ الذي مدح الصالح بن رزّيك ثم صلاح الدين ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ وكان بطلا في الحروب وشاعراً كاتباً •

ويلاحظ من هذا التعداد أن الشام في هذا العهد كان أخصب في عدد الشعراء وفي مقدار إنتاجهم في هذا الموضوع وبهذا كان هذا العهد في الشام عهد أحياء لشعر الحماسة الذي كان قد كسدت سوقه في القرن الخامس الهجري بعض الكساد في الشام وقد يكون عهد أحياء في الشام للشعر بجميع موضوعاته إذا رأينا بقية الموضوعات بعد تسير مسيرة شعر النضال •

ثم نرى أن مصر تلي الشام في الخصب وتلاحظ أن مصر في هذا العهد قد أنتجت شعراء مصريين وكان العهد بها قبل هذا العهد أن يأتيها الشعراء من خارج مصر فيمدحون أمراءها وينظمون الشعر في الموضوعات المختلفة ولذلك نعد هذا العهد عهد نهضة لشعر النضال في مصر وقد يكون عهد نهضة للشعر في جميع موضوعاته إذا سارت هذه الموضوعات مسيرة شعر النضال •

ويلي مصر العراق بشاعريه مجيد الدين العامري وصلاح الدين الأيوودي • ويلي العراق اليمن بشاعره عمارة اليمني •

ويلاحظ أن أكثر هؤلاء الشعراء عرب أقحاح معروفة أنسابهم في القبائل العربية وسبب ذلك أن العرب حين صرفوا عن شؤون السياسة والملك انصرفوا إلى الشعر والسلم والتأليف •

شعراء النضال في العهد الأيوبي :

ان الذين عرفناهم من شعراء مصر الشريف الجواني (ت ٥٨٨ هـ) والأسعد بن ممّاتي (ت ٦٠٦ هـ) وابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) وابن النبيه (ت ٦١٩ هـ) وأيدمر المحيوي (ت ٦٤٧ هـ) وابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ) والبهاء زهير (ت ٦٥٦ هـ) •

ومن شعراء الشام سعادة الأعمى وقد كان حياً في أول حكم صلاح الدين وابن ، واحة الحموي (ت ٥٨٥ هـ) وابن الفرّاش الذي مدح صلاح الدين • •

حصار حلب والعماد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ) ووحيش الأسدي وكان حياً سنة ٥٧٠ هـ
ونشوء الدولة بن المبارك (ت ٦٠١ هـ) وابن الساعاتي (ت ٦٠٤ هـ) وابن عنين
(ت ٦٣٠ هـ) .

ويلاحظ أن الشام ومصر كانا فرسي رهان في هذا الموضوع خلال العصر
الأيوبي من حيث عدد الشعراء ومن حيث انتاجهم ويرجع ذلك في نظرنا لسيين
الأول أن أقاليم الشام ومصر وما يليهما من الجزيرة والعراق وليبيا والحجاز واليمن
كانت تؤلف وحدة تحت حكم الأيوبيين ، بالإضافة الى وحدة الشاعر حينئذ في العالم
الإسلامي ، والثاني أن الفرنجة قد ~~جاءوا غزو مصر في الاسكندرية وفي دمياط~~
فزاد ذلك في اندفاع المصريين في نظم شعر النضال .

وقد شارك في شعر النضال خلال هذا العهد شعراء وفدوا من شرق البلاد
العربية كالعماد الأصفهاني الذي وفد من أصفهان وذكر بعضهم أن أصله عربي ،
ومن شعراء النضال من أصله غير عربي كأيدمر المحيوي وهو من الماليك ، وابن
الساعاتي وأصله فارسي ، ولكن يلاحظ أن أكثرهم عرب أقحاح .

شعراء النضال في العهد المملوكي الاول :

أكثر من تولى عبء شعر النضال في هذا العهد شرف الدين الأنصاري والشهاب
محمود في الشام وكان الى جانبهما شعراء آخرون ولكن كان لهما الصدارة ولا
سيما الشهاب محمود .

وأشهر الشعراء في مصر خلال هذا العهد ابن نباتة الذي كان ينتقل بين مصر
والشام . وكان أشهر شعراء العراق صفى الدين الحلبي الذي تنقل بين العراق والشام
ومصر وكان ينافس ابن نباتة في المنزلة ولكن كلا الشاعرين لم يعرف بأنه شاعر نضالي
على الرغم من أنهما عاصرا الملك الناصر محمد الذي كانت له معارك مع التتار في
الشام ولا سيما غازان ، على أن لصفى الدين بعض الشعر يحرض به الملوك الأرتقيين
في ماردن على حرب التتار ومنرى بعض شعره النضالي في ذلك حين ندرس شعره .
وتساءل هنا عن قلة عدد شعراء النضال في هذا العهد اذا قيس بالعهود السابقة
مع كثرة الشعراء الذين قالوا في الموضوعات الأخرى ولا سيما غير الجدية . أترى

كان ذلك لبعد الحاكم عن الشعب المحكوم ومنه الشعراء أم كان لانصراف الناس الى اللهو أو التصوف أم للأميرين معاً .

شعراء النضال في العهد المملوكي الثاني :

لم نعرف من شعراء النضال في هذا العهد الا بهاء الدين البهائي صاحب المراثية في دمشق وحماة وحب حين نكبتها التتار وقد بينا رأينا في مستوى هذه القصيدة قبل وأكثرنا من التساؤل عن قلة عدد شعراء النضال في هذا العهد أولاً ثم عن ضعف ما رأيناه من شعر النضال ثانياً وحاولنا تعليل ذلك في أكثر من مكان فلا حاجة لاعادته هنا . ثم عرفنا بدر الدين بن علي . ابن فضل الله العمري بما أورده من شعره خلال رسالته الجوابية على تيمور التي كتبها بلسان سلطانه الملك الظاهر برقوق ، وهو في أبياته مثل البهائي لا يرفع كثيراً من نظرتنا الى مستوى شعر النضال في هذا العهد .

موضوع المديح :

المديح في هذه العهود ثلاثة أنواع : أ - المديح النبوي ب - المديح الذاتي أو التقليدي للعظماء والأصحاب والأقرباء ج - مدح الأبطال في المعارك وقد درسناه خلال شعر النضال .

أ - المديح النبوي :

عوامل ازدهاره في هذه العهود :

أصبح المديح النبوي غرضاً رئيسياً منذ العصر الأيوبي ، وهو قديم منذ عصر النبي ولكن الاكثار منه هو الجديد . ولم أجد حتى الآن مدحاً نبوياً في العهد الفاطمي - الزنكي . ولكنني وجدت مدحاً في آل النبي .

كانت عوامل ازدهاره كثيرة : منها النزاع بين السلاطين ، وفساد الحياة الاجتماعية ، وانهيار الأوضاع الاقتصادية ، واستفحال خطر الأعداء على البلاد من الشرق والغرب ، صليبين وتتارا ، واتخاذ الحروب الصليبية والتتارية طابعاً دينياً - فكان من الطبيعي أن يدافع الشعراء المسلمون عن الاسلام ومقدساته وأن يمدحوا رسوله على نحو ما نرى في ميمية البوصيري وهمزته ، وأن يقوم علماء أصول الدين بالبرهنة على عقائد الاسلام ومناقشة عقيدة الفرنج . وقد رأينا من قبل في قصائد

المبارك الصليبية كيف كان الشعراء يدافعون عن الاسلام ويهاجمون عقائد
خصومهم (١) .

دفعت هذه العوامل الناس الى الاستشفاع بالنبي شعوراً منهم بالضعف .
وبعض هذه العوامل كان موجوداً من قبل ، لكنها لم تكن بهذه الدرجة ولم تجتمع
كلها في وقت واحد كما هو الحال في هذه العهود ، لأن العرب كانوا قبل القرن الرابع
الهجري لا يزال لهم بقية مكانة في الحرب والسياسة . أما في هذه العهود فقد
فقدوها إلا لثاماً .

بدأ الناس يستشفعون بالنبي ويتوسلون اليه ليذهب عنهم الكرب وتنكشف
الغمة منذ العهد الفاطمي — الزنكي فقد استسلموا الى ما تأتي به المقادير بتوكل
متواكل لا يرافقه علو همة أو محاولة مناضلة لتغيير الواقع .

وقد شجع الفاطميون ، ومن بعدهم الأيوبيون والمماليك ، هذا الاتجاه وعنوا
بالتصوف وزادوا من الاهتمام بالحج وملكوا اليه طريقاً جديداً يمر بالنيل وصعيد
مصر الى ثغر عيذاب على البحر الأحمر وذلك ادّراء لخطر المسلمين الذين
وصلوا الى خليج العقبة وبرزخ سيناء ، وخطر الأعراب . . .

وقد جدد المماليك في مظاهر الانطلاق والسير الى الحج فصنعوا المحامل التي
بقيت الى بداية القرن العشرين وكان يرافقها احتفالات دينية فخمة في الذهاب
والإياب . وكان ذلك كله يثير عواطف الشعراء وأحاسيسهم الوجدانية الصادقة
فينظمون المدائح في النبي . وقد ذكر الشرف الأنصاري في مدحة نبوية له أنه أنشدها
داخل الحجرة النبوية رانها أول مدحة له في النبي (عن الأدب في الشام للدكتور
موسى باشا ص ٤٠٩) .

ومن العوامل المساعدة على ازدهار النبويات شيوع التصوف وما كان له من

(١) يمكن الرجوع الى عدة قصائد . منها على سبيل المثال بائية الشهاب
محمود في عكا التي مطلعها :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي
وقد درسمناها من قبل في شعر النضال . ص ٨٦ .

أثر في الناس ، وما دار حول البردة النبوية من حكايات وأحاديث ، ثم ما قام به أحد وزراء الظاهريين وهو بهاء الدين بن يوحنا سنة ٦٥٩ هـ من خطة مدروسة لإثارة حماسة الناس للنبي وللديار المقدسة أو الاستفادة منها ، فقد اشترى مكاناً للآثار النبوية على النيل وأودع فيه الآثار النبوية ومنها البردة فتوافد الناس أفواجا على المكان (بدائع الزهور لابن اياس ج ١ ، ص ٩٩) .

ازدهرت المدائح النبوية نتيجة لذلك كله ، والبوصيري وهو من شعراء العهد المملوكي أوضح مثال لازدهارها لدى شعراء مصر والشام وغيرهم ، وقد تطورت هذه المدائح حين سخر الشعراء الفنون البديعية لهذا الغرض فظهرت البدائع النبوية وكانت ثمرة لازدهار المدائح النبوية في عصر ازدهار البديع ، ومن الشعراء من ألقوا دواوين خاصة بمدح النبي ومن ذلك ديوان « بشري اللبيب بذكرى الحبيب » لابن سيد الناس اليعمري و « أهنا المنائح في أسنى المدائح » للشهاب محمود بن سليمان . وهما من العهد المملوكي التركي .

وقد بقي لنا كثير من هذه المدائح بحيث يصعب حصره ، وممن نظم في مدح الرسول علماء مثل الرحالة ابن جبير في العهد الأيوبي ، وابن بنت الأعز ، وابن دقيق العيد ، وابن الزمكاني ، والحسن بن صافي الشاعر ، العالم النحوي في العهد المملوكي التركي .

وساعد عامل جديد ظهر في آخر العهد الأيوبي على ازدهار المدائح النبوية وهو ظهور نار عظيمة في المدينة كانت تضيء بالليل من مسافة بعيدة دون أن يكون لها حر ، وقد دامت أياماً وتواترت الأخبار عنها فنظمت عند ظهورها مدائح نبوية (ابن الوردي تسمية المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ ، ١٩٥) وقد وصف سيف الدين علي بن قزعل^(١) هذه النار^(٢) بقوله :

- (١) واضح أنه مخضرم بين العهدين الأيوبي والمملوكي التركي .
- (٢) يتبين من وصف هذه النار التي ظهرت قرب المدينة المنورة في الحجاز سنة ٦٥٤ هـ ، في النجوم الزاهرة (ج ٧ ، ص ١٦ - ١٨) ، أنها انفجار بركاني رافقه زلزلة عظيمة وكانت المقدوفات البركانية النارية فيه تبرد فتتحول إلى حجارة سوداء . وقد استفاد الناس منها بقبر النبي وأقلعوا عن المعاصي وتقرّبوا إلى الله بالطاعات .

ولما تهي عني الكرى خبر التي
ولاح سناها من جبال قرظة
وأخبرت عنها في زمانك منذرا
ستظهر نار بالحجاز مضيئة
فكانت ، كما قد قلت ، حقا بلا مرا
لها شرر كالبرق لكن شهيقها
وأصبح وجه الأرض كالليل كاسفا
وأبدت من الأيام كل عجيبة

أضأت بأحد ثم رضوى ويذبل
لسكان تيماء فاللوى فالحقنقل
يسوم عبوس قمطير مطوّل
لأعناق عيس نحو بصرى لمجتل
صدقت ، وكم كذبت كل معطل^(١)
فكالرعد عند السامع المتأمل
وبدر الدجى في ظلمة ليس ينجلي
وزلزلت الأرضون أي تزلزل

« ابن الوردي تمة المختصر ج ٢ : ١٩٥ »

استفاد الشعراء من نار الحرّة هذه معنى جديداً أضافوه الى المعاني التقليدية التي تدور حول المدينة المنورة والحجرة الشريفة وأخبار النبي ومعجزاته ، ومنها الإسرء والمعراج • وكانوا يجعلون ذلك وسيلة للتكفير عن ذنوبهم ولرضى الله وكشف الغمة أو المرض عنهم • وربما اتخذ الشعراء العرب المدائح النبوية وسيلة للتغني بالعرب أمام طغيان الأعاجم على شؤون السياسة والحرب ، مثال ذلك قول الشاب الظريف (٦٦١ - ٦٨٨ هـ) في نبوة له مطلعها :

أرض الأحبة من سفع ومن كئيب
سقالق منهمر الأنواء من كئيب

والآيات المعنيّة منها هي :

أعثر عندي من سمعي ومن بصري
لهم عليّ حقوق منذ عرفتهم
إن كان أحسن ما في الشعر أكذب
يا ساكني طيبة الفيحاء هل زمن
أرض مع الله عين الشمس تحرسها

ومن فؤادي ومن أهلي ومن نسبي
كأنتي بين أم منهم وأب
فحسن شعري فيهم غير ذي كذب
يدني المحب لنيل الحب والأرب
فإن تغيب حرسها أعين الشهب

« ديوان الشاب الظريف ص ٥ - ٦ »

(١) المعطل : المنكر لصفات الله ، وهم الطائفة المعروفة بالجهمية اتباع
جهم بن صفوان •

وفي الأبيات اعتزاز عربي. وثورة على النفوذ الأعجمي ولم يقف الشاعر هنا فقط هذا الموقف ، بل كان يشبب بالنساء العرييات خلافا لأهل عصره الذين أكثروا من التشبيب بالأعجميات والتتريات والتركيات •

١ - مدح النبي في العهد الأيوبي :

كان الشعراء يمدحون الخلفاء وأشرف الشيعة بصلة نسبهم بالنبي ويضيفون عليهم بعض النعوت النبوية كعظم الهبة ونور النبوة وغض بصر الناس احتراماً لهم •
(ومن ذلك قصيدة لابن الساعاتي مدح بها المواقف الشريفة الإمامية الناصرة لدين الله أمير المؤمنين)^(١) مطلعها :

لقد خلف المبعوث خير خليفة قوّل " لما يرضي الإله فمؤل
ومنها :

ومن كان نور الوحي فوق جبينه ثنى كل طرف عنه وهو كليل
فروع الى العباس تنمى أصولها وما خير فرع أسلته أصول
ترى اليوم طلقاً حين يذكر جعفر ويسمى إليه حمزة وعقيل
له شرف البيت العتيق وزمزم وما ساقه حادٍ إليه عجول

« ديوان ابن الساعاتي ١ : ٥٢ - ٥٣ »

وكان آل النبي في نظر شعراء السنة يمثلون العباسيين أبناء علي من فاطمة •
وكان لقصيدة بانت سعاد أثرها في هذا العصر فقد حاول شعراء كثيرون معارضتها ومنهم ابن الساعاتي (٥٣ هـ - ٦٠٤ هـ) الذي بقيت لنا قصيدته كاملة •
بدأها بالحديث عن كثير من مشاعر الحب دون أن يستعمل الغريب ككعب ، ووصف الفراق في نفسه وبكاءه على الأطلال التي فارقها سكانها وشكا من قسوة الحبيبة ومن الفراق :

جَدّ الغرام ، وزال البقال والقيّل وذو الصبابة معذور ومعذول

(١) الخليفة العباسي في بغداد •

يا دمية الحي ، ما حزني لفرقتكم °
أبكي وأندب رسميها بكازمة
دعوى، ولا وجدي العذري منحول
وفيها لعليل الشوق تعليل

وينتقل ابن الساعاتي من الغزل السهل اللفظ غير المترابط الى المدح مثل كعب
غير أن كعباً شغل بإهدار النبي دمه وطلب الصفح منه على حين شغل ابن الساعاتي
بأن مدحه للنبي سيذيع صيته ويعلي مكانته وانطلق يمجد هداية الرسول وصفاته :

ومن عجائب ما تحدى الركاب به
وكيف أحمّل في دنيا وآخرة
صيت يطير بفضلتي وهو محمول
ومنطقي ورسول الله مأمول
وللشهادة تجريح وتعديل
هو البشير النذير العدل شاهد

وتؤثر الخروب الصليبية في معاني ابن الساعاتي فيأخذ بالنظرية المحمدية (١)
ويذكر أن العالم انما وجد إكراماً لرسول الله وانه سيد الرسل وان التوراة والانجيل
قد شهدا برسالته وهذه المعاني لا توجد عند كعب .

لولا له لم تك لا شمس ولا قمر °
ولم يجب آدم في حال دعوته
ولا القرات وجاراه ولا النيل
نعم ولم يك قايل وهايل
وشافع في جميع الناس مقبول
فحدثت عنه تورا وانجيل
وهو يمدح مع الرسول صحابته :

أسد، إذا نازلوا، شهب إذا سفروا
فلا مفاريح إن نالت رماحهم °
لشد إذا جادلوا سحّب إذا سيلوا
ولا مجازيع في البأساء إن نيلوا

« ديوان ابن الساعاتي ١ : ٤٨ - ٤٩ »

✽ وقد تأثر في هذا بكعب حين يقول :

في عصبة من قريش قال قائلهم °
بيطن مكة لما أسلموا زولوا

(١) تحدثنا عن هذه النظرية حين تحدثنا عن التصوف خلال كلامنا على الحياة الاجتماعية .

✽ راجع الموازنة بين « بانت سعاد » وقصيدة ابن الساعاتي في « الحياة الأدبية » بدوي ٥١٨ - ٥٢٠ .

وقد رأينا أحد الشعراء المخضرمين بين العهدين الأيوبي والمملوكي ، وهو نجم الدين بن إسرائيل ، يمدح الله بقصيدة (١) :

ب - في العهد المملوكي التركي :

عارض البوصيري أيضا « بانت سعاد » ولكنه لم يبدأها بالغزل بل بالدعوة الى التوبة فقال :

إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ماقدمت مسؤول
ومضى في إنذاره وتحذيره ، وظهر تأثير الحروب الصليبية عليه فقد هاجم الاعتقاد بالوهية المسيح :

فأخسر الخلق مَنْ كانت عقيدته	في طيها لنشور الخلق تعطيل
وأمة زعمت أن المسيح لها	رب غدا وهو مصلوب ومقتول
فلننت واحداً فرداً نوحده	وللبصائر ، كالأبصار تخيل
تبارك الله عما قال جاحده	وجاحد الحق عند النصر مخذول

ثم يتحدث في هذه القصيدة عن فضل النبي ومعجزاته وظهر مرة أخرى عنده أثر الحروب الصليبية إذ يصف النصاري بالظلم لأنهم لا يقرّون برسالة النبي :

قل للنصاري الألى ساءت مقالاتهم	فما لها ، غير محض الجهل ، تعليل
من اليهود استفدتهم ذا الجحود كما	من الغراب استفاد الدفن قاييل

ويعدّد بعد ذلك غزوات النبي وما ظهر فيها من بينات على صدق رسالته وتحدث عما قاساه المسلمون الأقلّون من أذى المشركين وما قاموا به من جهاد وصبر .

قوم لهم في الوغى من خوف ربهم	حسن ابتلاء وفي الطاعات تبثيل
كأنهم في محاريب ملائكة	وفي حروب أعاديهم رأييل

ويختم بالإشارة الى معارضته كعباً وأنه يرجو لنفسه الغفران كما غفر النبي لكعب إساءته اليه :

(١) بدأها بقوله : « فوات الوفيات ٢ : ٣٧ » وهي تبلغ اثنين وستين بيتاً .

يا ناساق ما دون الأثيل منفرّس	جدّي فسبحك قد بدا يتنفّس
واستصحبني عزماً يبلّغك المنى	لتُفأل تفبّطك الجوّاري الكنّس

لما غفرت له ذنباً وصنت دماً لولا ذمامك أضحي وهو مظلوم
رجوت غفران ذنب موجب تلقى به إلى النفس إملاء وتسويل

« الحياة الأدبية لبديوي ٥٢٠ - ٥٢٢ »

وأجمل قصيدتين في مدح الرسول وصلتا إلينا عن هذا العهد ميمية البوصيري وهزيتة، فأما ميميته فقد نظمها إثر فالج أصابه ويروى أن الرسول جاءه في منامه بعد أن أنشدها هو مراراً فمسح يده على وجهه وألقى عليه برדתه فاتبه وهو معافى .

وهو يبدأ القصيدة بالغزل ليتناسب مطلعها مع حب النبي ويهيئ بذلك الجو لحنه العظيم أو يرمز له به ويقربه من الأذهان وهو يجعل غزله يدور في مواطن الرسالة بين مكة والمدينة في ديار بني سلم :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقله بدم
ويصف الحب الشديد الذي لا يكتبه الدمع ويعلته كما يعلل أسباب بكائه وأرقه :

أيحسب الصائب أن الحب منكس ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم تشرق دمعاً على طلك ولا أرقى لذكر البان والعلم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقني والحب يعترض اللذات بالآلم

ويفتنم الفرصة هنا ليطلب ترك هوى النفس ، والعدول عن اللذات :

والنفس كالطفل إن تهلك شب على حب الرضاع وإن تظمت ينظم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم في الدسم

ثم يشيد بمكارم النبي ويذكر أنه خير العرب والله أعلم . وتؤثر الحروب الصليبية فيه أيضاً فينكر ما ادّعتة النصارى من ألوهية المسيح :

محمد سيد الكونين والثقلين والفرق بين من شرب ومن عجم منزّه عن شرك في محاسنه
فجوه الحسن فيه غير منقسم دع ما ادّعتة النصارى في لبيتهم
واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم فبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم

« الحياة الأدبية لبديوي ٥٢٢ - ٥٢٥ »

ويتحدث فيها عن الإسراء والمراج ويمدح الصحابة ويغتم القصيدة مستغفراً
عن ذنوبه مستشفعاً بالنبي

وأما القصيدة الهزمية فقد انطلق فيها الشاعر حتى بلغت ستة وخمسين وأربعمائة
بيت حافظ فيها على جمال الأسلوب وقوة العبارة وتأثر فيها بعصره وحوادثه أيضاً
فبدأها بتفضيل النبي على جميع البشر دون استثناء :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
أثما مثّلوا صفاتك للناس كما مثّل النجوم المساء
ثم يشيد بأمجاد النبي وطهارة سلالة منذ كان في حلب آدم :

من لعواء أنها حملت أحمد دأ أو أنها به تقساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء

ويتحدث فيها عن مراحل حياة النبي منذ ولد حتى أرسل ويتحدث عن مكارمه
ومعجزاته ويناقش اليهود والمسيحيين في إنكارهم رسالة النبي ظلماً ، وهنا يظهر في
شعره أيضاً أثر العصر من حروب ومجادلات دينية ومن قوله في ذلك :

قوم موسى عاملتم قوم عيسى بالذي عاملتكم الحنفاء (١)
صدّقوا كتبكم ، وكذّبتم كتبهم ان ذا لبّس البسواء
ما لكم إخوة الكتاب أناساً ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الآخر وما زال كذا المحدثون والقدماء
إليه مركب ما سمعنا ياله لذاته أجزاء
قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٥٢٥ - ٥٢٧ »

ويمدح في القصيدة صحابة النبي ولا سيما الخفاء الراشدين ، ثم يناجي

(١) في الشطر الثاني اضطراب في التعبير لا يعطى المعنى المقصود .

الرسول ويصف زيارته قبره ، ولعلّه نظم هذه القصيدة أثناء الزيارة أو بمناسبة ،
ويستشفع به ويسأل الله غفران ذنوبه .

ج - في العهد المملوكي الجركسي :

لابن ملك الحموي (٨٤٠ - ٩١٧) في النبي هذه القصيدة يعارض بها
تأية ابن الفارض ويستمد معانيه من نظرية الحقيقة المحمدية التي قال بها ابن عربي :

<p>فأنت الذي لولاه ما كان آدم له المعجزات الباهرات وكم لنا وفي ليلة الإسرا من الله قد دنا وداس بنعليه البساط تكشراً ولو أنّ عشب الأرض أقلامٌ كاتب فلا تحسبوا ما قلته حقّ قدره أيا ابن كريم وابن خيرٍ كريمه وأرجوك في الحشر الصراط تجيزني فإنّ تمّ لي هذا فقد تمّ لي الهنا فدونك يا ذا البرّ مني مدائحاً</p>	<p>ولا كان نوح قد نجا في السفينة بها ظهرت من آية بعد آية وخاطبه في الحضرة القدسية ومن نال هذا غيرّه في البسيطة ؟ لها البحر حبر عنه في الوصف كلّت فما ذاك إلا حسب قدرٍ وقدرتي بك اليوم أرجو كشف ضرّ كريمتي جواز جزاءٍ عن اجازة مدحتي وحزت نعيماً وانقلبت بنعمة لعلّ يكون البرّ فيها لعلّتي</p>
---	---

« الديوان ، ص ٢٤ »

ويلاحظ على هذه النبوية ما يلي :

- ١ - أن الشاعر يجاري بها تأية ابن الفارض التي تنافس كثير من الصوفيين
ومادحي النبي في مجاراتها .
- ٢ - أن الشاعر يستمد معانيه من نظرية الحقيقة المحمدية لابن عربي القائلة بأنه
لولا النبي لما كان آدم ولا كان العالم . وذلك ما لا يقوله الشرع وما نهى
عنه النبي أيضاً .
- ٣ - أنه يرى كل ما قاله في النبي ، على مبالغته في المدح ، هو في الحقيقة دون
قدر النبي .
- ٤ - أنه يتوسل بهذه المدحة الى النبي ليكشف عنه بشفاعته لدى الله ضرّ كريمته

وليشفى من علته وذلك قياساً على ما حصل للبوصيري من الشفاء حين
مدح النبي •

٥ - أن الشاعر صادق الإيمان قوي العاطفة حسن التخیل قوي النسيج جزل
الاسلوب سهل العبارة ينقاد له النظم والقافية بسهولة ، وأنه كان موفقاً في
هذه الايات من الوجهة الفنية • الا أن في بعضها تقدماً وتأخيراً جعلها دون
الايات الأخرى في قوة النسيج • (البيت : وأرجوك ••) •

٦ - أنه في هذه الايات لا يساوي البوصيري ولكنه يقاربه حرارة عاطفة وصدق
لهجة وسهولة تعبير وجودة معنى وجسن صور •

ب - المدح التقليدي :

١ - في العهد الفاطمي - الزنكي :

كان المدح في جميع العهود ضرورة للشعراء المحترفين يعيشون منها ، وكان
كل من الشاعر وممدوحه ضرورياً للآخر •

وكان أهم أغراض الشعر في تلك الحقبة • وقد تلون زمن الفاطميين بالعقائد
الفاطمية نصرته للمذهب أو مصانعة للحكام الفاطميين •

ومعظم الشعر الذي قيل في الفاطميين وفيه عقائدهم قد باد ، وفيه مدح المغالاة •
وكان من عمل المحتسب زمن الأيوبيين مراقبة تعليم الصبيان حتى لا يحفظوا شيئاً
من ذلك • ولم يبق مخضرمو الدولتين الفاطمية والأيوبية شيئاً مما مدحوا به
الفاطميين •

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٧٠ » عن « نهاية الرتبة ١٠٤ »

فالقاضي الفاضل لم يبق من مدحه لأحدهم غير الغزل في مطلع القصيدة وببيت
التخلص الى المدح :

ثرى لحيني أو حنين الحمائم جرت فحكت دمعي دموع الحمائم
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري يعاد بالفاظ الدموع السواجم

فإن فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

« معاهد التنصيص : ٦٣٧ »

ونرى أن نعرض نماذج قصيرة مما مدح به الحكام في تلك الحقبة تأييدا لقولنا :
صعد الخليفة الحافظ لدين الله المنبر يوم عيد فوقف الشريف ابن أنس الدولة بإزائه
وقال مشيرا الى الحاضرين :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهذا الذي في كل وقت بروزه
وهماً فهذا وحيه وكلامه
تحياته من ربنا وسلامه

« خطط المقرئ : ٢ : ٣٣ »

وقال علي بن محمد الأخفش من قصيدة يمدح بها الأمر :
الى ذروة النور العلاءي انه الى ذروة النور الإلهي ينسب
وقال من قصيدة أخرى يمدح الخليفة الحافظ :

صرف جريال يرى تحريمها من يرى الحافظ فرداً صمداً
بشيرة في العين إلا أنه من طريق العقل نور وهدي
جل أن تدركه أعيننا وتمالي أن تراه جسداً

« الخريدة ، ٢ : ٢٢٥ قسم مصر »

وقال عمارة اليمني الشاعر السني يمدحهم :
ولاؤك ديين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين

« النكت العصرية : ٣٦٢ »

ويقول من قصيدة يعزّي فيها بالفائز ويهنئ بالعاقد :

لئن عرضت للفائز الطهر ثقله فأت ، أمير المؤمنين ، مقيم
وإن حسدتنا جنة الخلد قريبه فقربك منا جنة ونعيم
ورثت الهدى بالنص منه وقوله أخي وابن عمي ، إن عدمت يقوم

وقد سن ذاك المصطفى في ابن عمّه
حكّت بَيْعَةَ الرضوانِ بِيَعْتِكَ التي
فمِنْ شرفيكم ° . حادثٌ وقديم
يصحّ بها الإيمانُ وهو سقيم
« النكت العصرية : ٣٤٦ »

ويقول مادحاً العاضد في شهر رمضان :

جلّت الخلافةُ منك فوق سريها
وبقيّة الله التي ببقائها
بالعاضد المهدي قدّس ذكره
كنز الهدى وذخيرة الإسلام
تجري الأمور على أتمّ نظام
صحّت لنا الأيام بعد سقام
« النكت العصرية : ٣٤٣ »

ويقول :

كذلك وصّى المصطفى في ابن عمّه
الى منجد يوم الغدير ومثّهم
« النكت العصرية : ٣٤٣ »

ويقول مهنئاً العاضد يوم كسر الخليج :

سجوداً فهذا صاحب الركن والحجر
ووارث علم النمل والنحل والحجر
« النكت العصرية : ص ٢٣٥ »

وقال عمارة في قصة الأبصار والبصائر ، في رؤية هلال رمضان والعيد : (١)

ولما تراءت للهِلال بضائر
وقفنا فهنأنا الصيامَ بمعادل
يغطّي الهوى أبصارها بضباب
سكّاه مدى الأيام ليس بخاب
« النكت العصرية ١٦٨ »

(١) كان يرى الفاطميون صوم رمضان ثلاثين يوماً ، وكان شعبان عندهم تسعة وعشرين يوماً وقد اعتمدوا في ذلك على علم النجوم ، فما كانوا يعنون برؤية الهلال بعيونهم ، مكتفين برؤيته ببصائرهم التي اعتمدت على علم الفلك . وكان له في دولتهم أعظم حظ من العناية والرعاية . (الحياة الادبية ، بدوي ، ص ٦٨) .

وقد حظي وزراء الفاطميين بنصيب موفور من المدح وكثر مادحو الأفضل وزير المستعلي والآمر ، ومادحو طلائع بن رزّيك الوزير المثقّف . وذلك لقوة نفوذ الشعراء وسلطانهم حينئذ .

ومن أمثلة مدح الوزراء قول ابن الزيد يمدح الأفضل وزير المستعلي والآمر :
 لولا وجودك في الزمان وجودك الـ محيي المكارم بعد بُعد وفاتها
 لم يُعرَفِ المعروف في الدنيا ولو طفنا عليه في جميع جهاتها
 « الخريدة ، مصر ورقة ١٢١ ب »

وقول أبي الصلت بن أميّة يمدحه :

الله زان بك الأيام من ملك الله زان بك الأيام من ملك
 الله بأسك ، والأيام طائشة هي السماحة إلا انها شرف
 الله في الدين والدنيا فمالهما ملكك تبوأ فوق النجم مقعده
 لك الحُجُول من الأيام والغرر والخيل توري ونار الحرب تستعير
 هي الشجاعة إلا انها غرر سواك كهف ولا ركن ولا وزر
 فكيف تطمع في غاياته البشر
 « طبقات الأطباء ٢ : ٥٦ »

وكذلك كثرت الأماديج في طلائع بن رزّيك .
 قال المذهب ابن الزبير فيه :

وتلقى الدهر منه بليث غاب تخال سيوفه إمّا اتضاها
 وتحسب خيله عتبان دجن إذا قدحت بجنح الليل أورت
 وإن صبحت مع الإصباح عدوا غدت سمر الرماح له عرنا
 جداول الرماح لها غصونا يرحن مع الظلام ويعتدينا
 سنى يغشى عيون الناظرينا أثارت للعجاج بنا دجوننا
 « الحياة الأدبية ، بدوي : ٧٢ »

وقد جمعوا بين الوزير والخليفة في مدح واحد أحياناً على قدم سواء ،
 كقول المذهب بن الزبير :

يا واحد الدهر لا ردّ عليّ إذا
ما كان بعد أمير المؤمنين فتى
فالفعل منه ومنك اليوم متفق
يدعى بصالح أهل الدين كلهم
ما قلت ذلك في قولي ولا درك
فيه الشجاعة إلا أنت والنسك
والنعت منه ومنك اليوم مشترك
وأنت صالح من بالدين يمتسك
« خريدة القصر (ط) ١ : ٢١٣ »

ويقول عمارة اليمني في الجمع بينهما :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
اللابس الفخر لم تنسج غائلته
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
قد ملكته العوالي رقّ مملكة
خليفة ووزير مدّ عدلها
زيادة النيل نقص عند فيضها
فوز النجاة وأجر البرّ في القسم
وزيره الصالح الفراج للغمم
إلا يدّ الصنّعين السيف والقلم
وجوده أعدم الشاكين للعدم
تعرّ أثف الثريا عزّة الشمم
ظلالاً على مفرق الإسلام والأمم
فما عسى يتعاطى منّة الديّسم

« الروضتين ١ : ٢٢٣ » و « النكت العصرية ٢ : ٧ »

وقد اهتمّ الفاطميون بالمدح فأطالوا الوقت المخصّص لأماديح الشعراء وقد
قصره الخليفة الحافظ مرّة فقال أحمد بن مفرّج يخاطبه :

أمرت أن نصوغ المدح مختصراً
والله لا بدّ أن تجري سوابقنا
هلاًّ أمرت ندى كفك يختصر
حتى يبين لها في مدحك الأثر

« خريدة القصر ، ٢ : ١٧٣ »

ويشترك المدح الفاطمي في مصر والمدح في الشام للسلاجقة والزنكيين في
الاهتمام بالصناعة اللفظية واستعمال الألفاظ المألوفة حتى لتقرب أحياناً من العامية ،
وفي استعمال الصناعة البديعية وفي الإكثار من تشبيه الممدوحين بالشمس والقمر
وغيرهم بالنجوم تقليداً للأقدمين .

قال ابن قسيم الحموي في معين الدين أنر :

ومستصغرم في الله كل عزيمة
كان الملوك الغرّ حول سريره
فإن تلقه تلق ابن هيجاء دهره
سخي جريء لو ذعي كأنسه
ولو أنه منها على الموت مشرف
يريك عنان الدهر كيف تُصرّف
نجوم على شمس الظهيرة عكف
إذا ما بدا غيث وليث ومرهف

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ١٠٤ »

وقال ابن القيسراني في مجير الدين آبق :

فكنت كالشمس سمت اذ سمت
وأين ينأى في قلوب السورى
ونورهما في أفقهما مائل
من حبشه في كلهما مائل

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ١٠٤ - ١٠٥ »

وأكثر ما من وصف أقلام المدوحين من الوزراء وكبار الكتاب تقليداً لأبي تمام
في مدح بعض مثقفي عصره المتأثرين ، ومن ساروا على قراره :

قال عمارة اليمني يمدح طلائع بن رزيك مع الخليفة الفائز :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
إلا يد الصنعين : السيف والقلم
فوز النجاة وأجر البر في القسم
وزير الصالح الفراج للغمم

« النكت المصرية : ٣٧٣ »

فهنا يمدح عمارة الوزير بأن الذي ألبسه رداء المجد شيئاً : سيفه وقلمه .
ومن هذا القبيل ما يرد في الإخوانيات من مدح بلاغة الكتب وحسنها . قال ابن
تسيم الحموي في كتاب وصل إليه من صديق :

حي كتاباً فضضت خاتمته
يا كرم الله وجهه كاتبه
عن مثل وشي الرياض أو أملح
عرض لي بالجفباء أو صرح

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ٤٤٠ »

وقال في كتاب آخر :

وَصَلَ الْكِتَابُ فَمَا فَضُضَتْ خَتَامُهُ
كَالرَّوْضِ إِلَّا أَنَّ وَشِيَّ سَطُورَهُ
فَازَرْتُ مِنْهُ الطَّرْفَ أَحْسَنَ مَا أَرَى
حَتَّى تَارَّ جُ طَيْبُهُ وَتَضَوَّعَا
أَسْنَى لَدَى عُنْدِي وَأَحْسَنُ مَوْقِعَا
مَنْشُورُهُ وَالسَّمْعُ أَطْيَبُ مَا وَعَى

« العماد الكاتب ، المهرينة ١ : ٤٥٥ »

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَدَّ بِهِ ابْنُ قَسِيمٍ عَلَى كِتَابٍ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ابْنِ مَنِيرٍ الطَّرَابِلِيِّ :
هَتَّ الْكِتَابُ فَأَهْلًا بِهِ
لَنْ أَخْجِلَ الرُّوْضَ مَوْشِيَّهُ
سَرِيبُ الصَّنَاعَةِ تَجْنِيسُهُ
وَأَمْلَنِي بَعْدَ طَوْلِ الْجَفَا
يَسْخَرُ النُّوَاطِظُ تَتِيقُّهُ
لَقَدْ فَضَحَ الْبَدْرُ مَشْرُوقَهُ
تَقِيْسُ الْبُضْيَاعَةِ تَطْيِيقُهُ
كَمَا وَاصَلَ الصَّبَّ مَعْشُوقَهُ

« العماد الكاتب ١ : ٤٥٩ — ٤٦٠ »

١٠ - المهد الأيوبي :

كَانَ أَبْطَالُ الْجِهَادِ يَعْظُونَ بِأَكْبَرِ نَصِيبٍ مِنَ الْمَدْحِ ، وَلا سِيَّامَا صَلَاحُ الدِّينِ مِنْهُمْ
فَتَمَدَّحُهُ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ شَاعِرًا ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْمَدْحَ الْخُلَاءُ فِي أَدَبِ النُّضَالِ •
وَكَانَ الشُّعْرَاءُ فِي هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْمَدْحِ يَمْدَحُونَ بَطْلَ الْجِهَادِ سِوَاهُ أَنْجَحِ
أَمَّا خَلْقُ ، وَسِوَاهُ أَحَارِبٍ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، وَكَانَ سُلْطَانًا أَوْ أَمِيرًا أَوْ وَزِيرًا •
وَكَانَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يَفْخَرُونَ بِشُعْرِهِمْ فِي نَهَايَةِ أَمَادِيهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ
ابْنِ السَّاعَاتِيِّ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

مَدَحَ تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَتَهْنَى وَتَحْشُرُ الْبَقَاءَ وَالتَّخْلِيدَا

« الديوان ١ : ٥٢ »

وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى شُعُورِهِمْ بِشَخْصِهِمْ إِلَى جَانِبِ الْمَدْحِ وَهُمْ يَأْتِسُونَ فِي ذَلِكَ
بِشُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْفَحُولِ كَأَبِي تَمَّامٍ وَالْمُتَنَبِّئِيِّ •

وقد يمدح الشاعر السلطان في المدح التقليدي فيشيد بما يُقام في قصره من مجالس المتعة واللهو :

قال ابن الساعاتي (٥٥٣ - ٦٠٤ هـ) يمدح الملك العزيز عثمان الذي استقل بملك مصر بعد وفاة أبيه صلاح الدين :

وكم عاطل من لذة زان جیده	ندی ملک ضنّ الحیا وهو جائد
فتی بعوالي سمره وسيوفه	تعزّ المعالي أو تهون الشدائد
شربنا لديه التبر ، والتبر ذائب ،	على صفحات التبر ، والتبر جامد
وما هي إلاّ قبلة من ملاحه	لها بقلوب الزائرین مشاهد
بحيث تمايل الرياحين عكف	لها وأباريق المدام سواجد
فأقسم أمّا الحسن منك فباهر	وأما ضجيع الخود منك فماعد

« ديوان ابن الساعاتي ج ١ : ١٠٣ »

ويلاحظ أن الشاعر لا يكتفي بوصف مجلس المتعة لدى السلطان بل ينوّه بالحرص على اللذة ويذللها ويصف الملك بأنه ضجيع للخود ومع ذلك فهو ماجد وذلك حرصاً من الشاعر على اللذة وتصويراً لما يحرص عليه الملك منها .

والأبيات جميلة من حيث الأداء الفني ولكنها تصوّر انحلال القصر وعدم جدّيته وعدم سير الابن على خطة الأب .

وقد مدح شعراء هذه الحقبة العلماء ومن ذلك قول ابن عنيّن أحد شعراء العهد الأيوبي (ت ٥٩٧ هـ) ، وهو في نيسابور ، يمدح الفخر الرازي ويشيد بأصله العربي وعلمه متأثراً في أحد معانيه بأبي العلاء المعري :

ريح الشمال عساك أن تتحملي	خدمي إلى صدر الإمام الأفضل
من دوحه فخرية عمرية	طابت مغارس مجدها المتأثّل
مكيّة الأنساب زالك أصلها	وفروعها فوق السماك الأعزل
لو أن رستاليس يسمع لفظة	من لفظه لعرتة هزّة أفكل
ولحار بطليموس لو لاقاه من	برهانه في كل شكل مشكل

فلو انهم جتمعوا لديه تيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأول

« الديوان ٥٣ - ٥٤ » و « معجم الأدباء ٧ : ١٢٣ »

فقد حاكى الشاعر أبا العلاء في معناه الذي رأى فيه أنه قد سبق الأوائل
كما حاكى المتنبي في ذكر بعض فلاسفة اليونان وعلمائها كرسطاليس وبطليموس *

وقد رأى ابن عنيّن حمّامة لجأت الى مجلس هذا العالم هرباً من جراح لحق
بها فمدّحه بقصيدة مشهورة جيّدة مطلقها :

مَنْ نَبَأَ الْوَرَقَاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَلْجَأٌ لِلْخَائِفِ

« الديوان : ٩٥ »

وقد يمدح شاعر شاعراً آخر ومن ذلك قول شهاب العازي يمدح شهاب
الدين التلعفري من موشح ، وهما شاعران مخضرمان بين العهدين الأيوبي والملوكي
التركي ، ونلاحظ أن فنّ الموشح قد استعمل في المدح استعمال القصيد منذ أواخر
العهد الفاطمي الزنكي وأوائل الأيوبي ، يقول العازي :

بات طرقي يتشكى الأرقا	وتوالت أدمشي لا ترتقا
شاعر فاق فحول الشعرا	بقوافٍ مثل إطراق الكرى
باسمات تجتلي منها الورى	ثغراً يسهم أو زهراً يثرى
كلّما لاح سناها مشرقاً	سجد الغرب لنور المشرق

« فوات الوفيات ٣ : ٣٤٥ »

ونكون بهذا الجزء من الموشح قد دخلنا في العصر الملوكي التركي *

ج - العهد الملوكي التركي :

كان سلاطين هذه الحقبة كلّهم يرغبون في المدح حتى قلاوون الألفي الذي
كان لا يفصح بالعربية ، نرى الشهاب محمود يمدحه *

وكان الشعراء يقلّدون من سبقهم في معانيهم ولا يجدون عيباً في أن يأخذوا
المعاني عن غيرهم إذا أخرجوها في قالب حسن *

يقول أحدهم وهو مجير الدين بن تميم :

أطالع كل ديسوان أراه ولم أزجر عن التضمن طيري
وآخذ كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

« ابن تغري بردي المنهل الصافي (خ) ٣ : ٣١٤ »

وكانوا أحيانا يأخذون المعاني القديمة فيوردونها كما هي ، مثال ذلك قول
لحلي يمدح المنصور بن أرتق ، من قصيدة ، بعد الغزل :

وأظلم في جـول البلاد كأنني سيف ابن أرتق لا يقشـر بـغمده
الصالح الملك الذي صـلحت به رتب العلاء ولاح طالع سـعده
ملك حوى رتب الفخار بسـعيه والمثلـك إرتـأ عن أبيه وجده
متسهل في دست رتبة ملكه متعصب من فوق صهوة جـرده
واذا بدا ملأ العيون مهابة واذا سخا ملأ الأكف برفده
كالغيث يولي الناس جثودا بعدما بهر العقول يبرقه وبرعه
فالدهر يقسم أنه من رقه والموت يحلف أنه من جنده
والوحش تعلن أنها من رهطه والطير تدعو أنها من وفده
نشوان من خمر السماح وسكره ما إن يغيب رأيه عن رشده

« الديوان ، قسم المدائح ، المنصريات »

فواضح أن الشاعر لا يجدد في الصور القديمة وانما يأتي بها كما وردت عند
الأقدمين ولكنه يكثر من حشدها بحيث تتوالى وتزدحم وتدل على غزارة ثقافته الأدبية.
وكانوا أحيانا يوردون المعاني القديمة ولكنهم يجددون في قالبها ويضيفون
إليها بعض تكملات فتخرج في صورة جديدة . مثال ذلك قول صفي الدين في إحدى
قصائده يمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بن أرتق وهي من غير
الارتقيات قال بعد أن تغزل :

فخل تذكر زوراء العراق اذا جاءت نسيم الصبا بالمندل العبق
فهذه شهب الشهباء ساطعة وهذه نسمة الفردوس فانتشق
فتلك أفلاك سعد لا يلوذ بها من مارد الخفي السمع مسترق

سَمَاءٌ مَجْدٌ بَدَأَ فِيهَا فَرِيَّتُهَا
مَلِكٌ غَدَا الْجُودُ جُزْءاً مِنْ أُنَامِلِهِ
أَعَادَ لَيْلَ الْوَرَى صَبْحاً وَكَمْ رَكُضَتْ
مَشَتْتُ الْغَرَمَ وَالْأَمْوَالَ مَا تَرَكْتُ
إِذَا رَأَى مَالَهُ قَالَتْ خَزَائِنُهُ
مَلِّكَ بِهِ أَكْتَسَتْ الْأَيَّامُ ثَوْبَ بَهَا
تَهْوَى الْحُرُوبَ مَوَاضِيَهُ فَإِنْ ذُكِرَتْ
حَتَّى إِذَا جُرِّدَتْ فِي الرَّعْوَعِ أَغْمَدَهَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ طَائِرُهُ
أَحْيَيْتَ بِالْجُودِ آثَارَ الْكِرَامِ وَقَدْ
لَوْ أَشْبَهْتَكَ بِحَارِ الرُّومِ فِي كَرَمٍ
لَوْ أَشْبَهَ الْغَيْثَ جُوداً مِنْكَ مِنْهُمَا

نَجْمٌ تَخَرَّ لَدَيْهِ أَنْجَمُ الْأَفْقِ
فَلَوْ تَكَلَّفَ تَرَكَ الْجُودَ لَمْ يَطْطِقْ
جِيَادُهُ فَأَرَيْنَا الصَّبْحَ كَالْفَسَقِ
يَدَاهُ لِلْمَالِ شَمْلًا غَيْرَ مَفْتَرِقِ
أَقْدِيكَ مِنْ وَلَدٍ بِالشَّكْلِ مُلْتَحِقِ
مِثْلَ اكْتِسَاءِ غُصُونِ الْبَنَانِ بِالْوَرَقِ
جُنْتُ فَلَمْ تَرِ مِنْهَا غَيْرَ مَنْدَلِقِ
فِي كُلِّ سَابِقَةٍ مَسْرُودَةِ الْحَلَقِ
وَمَنْ أَيْادِيهِ كَالْأَطْوَاقِ فِي عُنُقِي
كَانَ النَّدَى بَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الرَّمَقِ
لَأَصْبَحَ الدَّرُّ مَطْرُوحاً عَلَى الطَّرَقِ
لَمْ يَنْجُ فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقٌ مِنَ الْغَرَقِ

« الديوان ، المدائح ، الارتقيات المنصوريات »

ويلاحظ أن الشاعر في هذه القصيدة يتناول بعض المعاني القديمة المعروفة في المدح فيجدد عرضها وصياغتها ويضيف إليها بعض تكملات فتبدو وكأنها جديدة مثال ذلك البيتان الأخيران فقد عرف منذ القديم تشبيه الإنسان الكريم بالبحر وبالغيث ولكن أضاف إلى معنى البحر كون البحر الحقيقي لو ساوى ممدوحه في الكرم لأصبح الدر مطروحاً في الطرق وأضاف إلى معنى الغيث أنه لو ساوى الممدوح لغرق كل من في الأرض ، وفي كليهما مبالغة ظاهرة .

د - العهد المملوكي الجركسي :

لم نجد في العهد المملوكي الثاني مدائح في مستوى المدائح الجيدة في العهود السابقة ، وكذلك لم نجد حتى الآن مدائح في الخليفة العباسي في القاهرة وذلك ، في رأينا ، لضعف مكاتته حينئذ فيها . ورأينا بعض السلاطين يمدحون بشعر عامي في قالب الزجل . وبقيت أنواع الممدوحين هي نفسها ويظهر أن قلة قليلة من الشعراء كانت على صلة بالسلاطين أو المتنفذين الكبار الذين لم يشجعوا الأدب تشجيع سابقهم ، الاثراً منهم كالسلطان قانصوه الخوري ، ولذا لم يتسابق الشعراء إلى

مدحهم فيما يظهر ، وخمدت قرائحهم في هذه الناحية • هذا بحسب ما وصل اليه علمنا حتى الآن •

ومن المدائح التي قيلت في السلاطين ما قاله بدر الدين بن محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري ^(١) في السلطان برقوق بعد أن فاز على خصميه الأمير يلغا الناصري والأمير منطاش وكان بدر الدين قد انحاز الى خصمه منطاش ثم تحول اليه بعد فوزه واحتال في الخروج من دمشق اليه وسيّر اليه مطالعة ، فيها من شعره :

« المواعظ والاعتبار ، للمقرئزي ، ج ٢ ، ص ٥٧ »

يقبّل الأرضَ عبدٌ بعد خدمتكم°	قد مسه ضررٌ ما مثله ضرر
حصر وحبس وترسيم أقام به	وفرقه الأهل والولدان ، والفكر°
لكنه ، والورى مستبشرون بكم ،	يرجو بكم فرجاً يأتي ، وينتظر
والشغل يقضي ، لأن الناس قد ندموا	اذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر
جورا كما فرطوا في حقكم° ورأوا	ظلماً عظيماً به الأكباد تنفطر
والله إن جاءهم من بابكم° أحد	قاموا لكم معه بالروح واتصروا
الله° ينصركم طول المدى أبداً	يا من زمانهم من دهرنا غرر

فهذه الأبيات ليس فيها نفس طويل ولعل ذلك لأنها وردت ضمن كتاب ثري • وفيها الى جانب المدح لون من الاعتذار من الشاعر عن نفسه وعن الناس في انحيازهم لخصوم برقوق ، وشيء من هجاء خصومه ووصفهم بالظلم ، وفيها من صفات الشعر الوزن والقافية ومن صفات السياسة المكر والانحياز الى الأقوى والنفاق ، وينقصها الخيال وعمق المعاني وفخامة التعبير • وبعض تعابير ^(١) عامي مثل : « الشغل يقضي » •

(١) توفي الكاتب صاحب السر هذا بدمشق سنة ٧٩٦هـ وبوفاته ووفاة أخيه حمزة انقطع بيتهما الذي تولى أمور الكتابة زمناً في مصر والشام •

الرثاء في فترة الدول المتتابعة

تمهيد :

البكاء على عزيز أمر غريزي في الانسان وقد عبّر عنه الشعراء منذ أقدم العصور الأدبية بالمرائي • ويمكن أن نقسم مرائي هذه الحقبة التي ندرسها الى نوعين:

أ - المرائي الخاصة التي قالها الشعراء في البكاء على عزيزين عليهم أو على أناس لهم صلات شخصية بهم ، وهي المرائي التقليدية التي عرفناها في جميع العصور ويدخل فيها مرائي العظماء الذين يرثيهم الشعراء في الأحوال العادية • ويلحق بها التعازي التي تقال لأهل الميت وذويه •

ب - المرائي التي قيلت في ملاحم وأحداث عامة أو في أبطال اشتركت الأمة كلها في تقديرهم ، أو في ممالك ودول زالت ، أو في مدن دمرت ، أو سقطت في أيدي الأعداء •

وهذا التقسيم اصطلاحى لجأنا اليه لبيان أثر الحروب الصليبية والتترية في الأدب وفي باب الرثاء منه بخاصة ، وقد اقتضته طبيعة البحث •

ولما كنّا قد أوردنا مرائي الملاحم والأحداث والمدن والأبطال في شعر النضال فإننا نكتفي هنا بالحديث عن المرائي الخاصة :

أ - المرائي الخاصة في العهد الفاطمي - الزنكي :

أكثر شعراء هذا العهد من رثاء العلماء الذين نالوا فيه مكانة سامية لدى الحاكمين زنكيين وفاطمين ولدى الشعب •

ومنه رثاء نجم الدين اللبودي في شمس الدين الخروشاوي المتوفى سنة ٥٦٢ هـ . قال :

أيا ناعيا عبد الحميد تصبّرا
مضى مفرداً في فضيله وعلومه
فيا عين سحّتي بالدموع لفقدته
تلقتّه أصناف الملائك بهجة
تقول له : أهلاً وسهلاً ومرحباً
عليّ فإنّ العلم أدرج في كفن
وعدتُ فريد الهمّ والوجد والحزن
فما حسن صبري بعدك اليوم بالحسن
بمقلمة الأسنى على ذلك السنن
بخير فتى وافى إلى ذلك الوطن

« عيون الأنباء ٢ : ١٧٣ »

والشاعر في هذه الأبيات حاراً العاطفة صادقاً ، حسن التصوير ، الإيمان ، جميل المناجاة ، غلب الألفاظ ، سهل الأداء ، أحسن اختيار اللفظ الساكن الذي يقيّد النفس ويصور اللوعة باللفظ والنغمة المختنقة .

ولم يقف الرثاء في هذه المهدود على عليّة القوم ، بل اتخذ اتجاهاً شعبيّاً أحياناً ، فنرى الشعراء ومنهم قتيبة وذوو مكانة اجتماعية ، يرثون أصحاب الحرف الصغيرة من الناس لمودة بين الطرفين :

ومن ذلك رثاء القاضي النفس حيدرة بن الحسين الذي كان يقيم بقرص حوالي سنة ٥٣٣ هـ ملاحاً من أهلها . يقول :

من لجرّ اللبان في الثقلين
واعتقال المدري وقد سكن الريح برغم السفار في تشرين
والمجاذيف من بها مستقل
بعدها قد أتاك رب المنون
من يلاّلي لصحبه كل وقت
بنشيد جزل وصوت حزين
يهتدي في الظلام بالقطب والجدوي
وفي الصبح بالضياء المبين
فتشق البحار في الليل شقاً
حركات تولدت من سكون
كانت المركب التي أنت فيها
حرماً آمناً كحصن حصين
فهي اليوم بعد فقدك عطل
بل حطام ملقى ليوم الدين

« الطالع السعيد للأدقوي : ١٢٤ »

ولا شك في أن هذا الرثاء صادق العاطفة خال من الغرض ، جدّي النظرة إلى الحياة ، قريب من ذوقنا الحاضر الشعبي ، ظاهر الواقعية في أمرين : أولهما اللغة ، فقد استعمل بعض العامية ، وثانيهما وصف الأعمال العادية التي يقوم بها الملاح . وهذا الرثاء على بساطته جيّد .

وقد رأينا بعض الشعراء يخرجون عن المألوف في الرثاء فيبدؤون مراثيهم بالغزل وربما كان ذلك لفقدانهم العاطفة الصادقة فيها نحو المراثي .

ومن ذلك مطلع القاضي الفاضل في رثاء بني رزّيك :

أستودع الله في أظعانهم قمراً إليه لو ضلّت الأقمار تحتكم

« مختار شعر القاضي الفاضل ص ٨ »

ب - العهد الايوبي :

من رثاء كبار القوم فيه قول ابن النبيه يرثي عليّ ابن الخليفة العباسي من قصيدة هي المراثية الوحيدة في ديوانه :

الناس للموت كخيل الطراد	فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره	إلاّ من استصلح من ذي العباد
والموت نقّاد على كفه	جواهر يختار منها الجياد

« الحياة الأدبية ٢١٠ ، د . بدوي »

وقد اكتفينا بهذه الأبيات الثلاثة من المراثية . ويتّضح منها أن الشاعر يجري على غرار أسلافه الشعراء منذ الجاهلية في إيراد الحكم للتعزية في الميّت وكأنّ الشاعر قد وضع المتنبيّ نصب عينيه على أنّه ليس له عمقه فمعنى الأبيات معروف مشهور تقوله العامة منذ أقدم العصور وقد كرّره في الأبيات الثلاثة ، على أنّ الصورة في البيت الثالث جيّدة صوّر فيها الشاعر الموت بجواهري خبير يعرف كيف ينتقي أحسن الجواهر ويضمّها إليه .

ومن المراثي الخاصة في هذا العهد قول ابن سناء الملك يرثي أمّه بهذا الموشح :

ما زال لي مـذ دهاني الزمان
أنس شجاع واصطبار جبان
وعبـرة خالعة للعنـبان
لا تقبل الصون وترضى الهوان
وناظري قد غاب عنه كـراه
تري شراه
أو يفسح الدهر في شراره
صبراً جميلاً أين صبر جميل
ذاك سـيـل ما إليه سـيـل
وقتي قصير وحديثي طويل
حبـبك من راحتـه في العـويل
وجل ما يبغيه لقا الوفاه
وهي شفاه
تبري خطوباً خاطبتـه شـفاه
حزني على أمي حزن شديد
تبلى الليالي وهو غضّ جديد
فقل لنار القلب هل من مزيد
وقل لصرف الدهر هل من مجيد
غلطت دع دهري وما قد نواه
فهل عساه
يأتي إلاّ دون ما قد أتاه
لهفي على من شطّ منها المزار
وأظلمت من بعدها كل دار
وصار للمقدار فيها الخيار
وقد بكى الليل لها والنهار
هذا لفقد العرف ما قد شجاه
وللصلاه
هذا أطال الوجد فيها بشكاه

يا ليتني سابقها للممات
ولا أرى نفسي بشراً الصفات
منتزع الصبر عديم الثبات
فكم ثكالي قلن مستعجلات

هذا المسيكين ما بقي له حياه
واها عليه ثم واها وواه

« الحياة الأدبية ص ٢٠٢ : د بدوي »

ويلاحظ هنا أن الموشح قد استعمل في العصر الأيوبي للثناء ، وأن هذا الموشح يمتاز بقوة العاطفة وصدق اللهجة وجمال الأداء وسهولة المعاني والألفاظ والتراكيب وحلاوة الموسيقى وخدمة الصور للمعنى والعاطفة مع قربها وكونها تقليدية معروفة وهو في مجمله يشبه شعر المهجريين الإبداعيين في عصرنا الحديث .

ج - العهد المملوكي التركي :

من المراثي الخاصة ما قيل في الأقارب ومثاله قول صفي الدين الحلبي يرثي خاله وجماعة من أقربائه قتلوا في واقعة لهم مع آل أبي الفضل الذين قتلوا خاله صفي الدين بن محاسن بمسجده غدرا وكانت بين الفريقين ثارات :

جبال بأرياح المنية تُسَفّ	غدت وهي قاع في الوقائع صُفّ
مَحْتَهَا رياح للمنون عواصف	على أنها لا تُتَقَى حين تعصف
أفي كل يوم للمنية غارة	تُغِير على سرب النفوس فيُخَطَف
كأن جبال الساحرين نفوسنا	وتلك عصا موسى لها تُتَلَقَف
أغارَت على الأقيال من آل سِنْبِس	فأصبح فيهم صرّوها يتصرف
رجال لو أن الأسدَ تَغشى ديارهم	لكنت عليها منهم أتخوف
شموس أرانا الموت في التراب كسفها	وما خلت أن الشمس في التراب تُكسَف
أتاها فلم تدفع من السيف وقعة	ولم يُغن منه السامري المضعّف
ولا الخيل تجرى بين آذانها القنا	تُقرط من خُرصانه وتُشَنَف

ولا الجيش من أمواجه الأرض ترجف
مضاربته في الرعوع بالدم ترعف
عزيمة شهيم منه بالضرب أعرف
ثمار الأمان من أياديه تثقف
توصل حتى قال في الجود مشرف
أست تراه خافضاً حين يخطف
على فقدته حتى اغتدى وهو أكلف
وكان به طرف النوائب يطرف
حذار العدا واليوم باسمك نحلف
يلاذ بها فالיום ذكرك مصحف
بجود ولا شمل العلاء متألف
وكنتم به بين الوري أتصرف
وأى دم أبقيت في فينزف
ينمق روضاً برده ويفوقف
ينثم على أرجائه فيعرف

ولا رد عن نفس ابن حمزة^(١) جأشها
ولا صارم ماضي الفرار بكفّسه
عروف بأحوال الضراب تؤمّشه
ألا في سبيل المجد مصرع ماجد
إذا ما أراد الضد غاية ذمّه
تصدع قلب البرق يوم مصابه
وما زال بدر التّم يلطم وجهه
فيا هالكا قد أطمع الخطب هلكه
لقد كنت حصنا مانعاً بك نلتجي
فإن كنت في أيام عيشك كعبة
فبعدك لا شمل الشهي متفرق
سأبكيك بالعز الذي كنت ملبسي
وأنزف من حزني دمي لا مدامعي
سقى الله ثرباً ضم جسمك وابلاء
إذا أنكرت أيدي البلى عرصاته

« ديوان صفي الدين ، قسم المراثي »

يعظم صفي الدين من شأن قومه المقتولين ويرى أن الموت عادة فيهم وهم
رجال أفك من الأسود وأعظم من الشمس ولم يمنع عنهم المنية حسن استعدادهم
للقتال بالدروع السامرية والخيال المطهمة والرماح المقومة والجيش الكثير والسيوف
المرهفة .

ثم يخص بالذكر خاله فيصفه بقوة العزيمة وشدة الضراب وعلو المجد وكثرة
الكرم والكمال حتى لا يجد أعداؤه ما يذموه به إلا الاسراف في الجود . وهو
يبالغ في المعنى والخيال فيرى أن البرق قد تصدع لمهلكه ، وأن البدر قد لطم وجهه

(١) ابن حمزة خاله المقتول غيلة .

عليه حتى أصابه الكلف ، وأن الخطب قد طمع فيهم بعد موته ، على حين كانت عينه تطرف به في حياته ، وكان لهم في حياته حصناً وكعبة فأصبح لهم الآن قسماً ، وذكره مصحفاً ، فلا عطايا بعده للسائلين ولا أمجاد مثل أمجاده تجتمع لأنسان ، وسيبكيه بدمه لأنه سبب عزه على حين لم يبق فيه دم بعد موته ، ثم يدعو لقبره بالسقيا حتى يصبح روضة تنم عن فيها بطيب عرفها وإن درست معاملة بعوامل البلى .

ويلاحظ أن الرثاء الذي يأتي به الحلبي في قومه كغيره من الرثاء لا يختلف عن المدح إلا في أنه يقال في أموات ، بصيغة كان ، على حين أن المدح يقال في

الأحياء بصيغة الحاضر . ويرى أن المعاني التي يأتي بها هي المعاني التقليدية التي كان يقولها العرب منذ الجاهلية والتي هي الفضائل العامة التي يفخر بها العربي . وفيها خصوصية عامة تنطبق على بعض المرثيين وهي أنهم عظماء لهم جيش ضخم ، وهي مطبوعة بطابع المبالغة وتشتمل على رثاء جماعة ثم اختصاص فرد من بينهم . وهي فخمة التأليف والنغمة تظهر فيها قدرة الشاعر على النظم وموهبته ونفحة شعرية طبيعية فيه . وهو متأثر بأبي العلاء في قوله ألا في سبيل المجد . وتأثر بعصره من حيث الصناعة البديعية التي غطت عليها قوة العاطفة . ومن الصناعة البديعية ما يسمى بحسن التعليل وقد رأيناه في تعليل كلف البدر بأنه لبكائه على الموتى ، وفي تصدع قلب البرق ، وفيها الجناس وهو كثير عنده مثل (صرفها ويتصرف) .

ومن المراثي الخاصة رثاء الاصدقاء أو من يلوذ بهم ومنها ما قاله صفي الدين يرثي ولد صديق له :

يا قضييأ ذوى وكان نصيرا	ما رأينا له العداة ظيرا
أظلمت بعده الديار وقد كا	ن سراجا بها وبدرأ منيرا
غيبته الأرضون عنا وما خلت	أديم التراب يحوي البدورا
لا ، ولا خلت ان شهب الدراري	بعد أوج العلا تحل القبورا
يا حبيبا فراقه أخرب القلب	ب وقد كان منزلا معمورا
جاء بالنذب أصوات نواعيب	كوكادت قلوبنا أن تطيرا

فنفينا الرقاد عن كل عين
ما رأى الناس قبل مثواك يوما
ولقد خفت من فراقك يوما
فبرغمي ألا أرى منك وجهها
كنت ريحانة القلوب فقد وا
كنت شهما مع الحداثة في السن
وحملت الأثقال عني فأمسى
فجزاك الآله عن ذلك الصب
وأراك الآله في جنّة الخلد

فجّرتها دموعها تفجيرا
كان بالبين شره مستطيرا
باكيا بالثبور ينعي ثبيرا
يرجع الطرف من سناه حسيرا
رى بك الترب عنبراً وعبيرا
وجلداً على البلاء صبورا
بك طرقي بين الأنام قريرا
سر على الهول جنة وحريرا
نعيماً بها ومثلها كسيرا

« الديوان - قسم المراثي »

يلاحظ أن صفي الدين يرثي الولد هنا على لسان أبيه :

(وحملت الأثقال عني فأمسى ...) ويرى أنه يجعل الرثاء مناسباً للمقام فالمرثي طفل صغير لذلك وصفه بأنه كان مناط الأمل لوالده وأنه سراج ونور له ، ووصف لوعة القلب عليه • ويظهر أنه كان مريضاً يتوقع أهله موته لأن الوالد كان يخاف موته من قبل : (ولقد خفت من فراقك يوما) •

وكان ريحانة القلب وكانت فيه مخايل من الشهامة والصبر والمساعدة تدل على أنه لو عاش لكان ولداً موفقاً عظيماً •

ويدعو الشاعر أخيراً على لسان الأب لابن بالجنة وسعادتها الدائمة • وعلى الرغم من أن المعاني ملائمة للمقام كما قلنا قبل فإنها لا تخلو من المبالغة مثال ذلك قوله :

لا ولا خلت أن شهب الدراري بعد أوج العلا تحل القبورا

وقوله :

ما رأي الناس قبل مثواك يوما كان بالبين شره مستطيرا

وهي في مجموعها تذكر بأبيات أبي تمام في رثاء ولدي ابن طاهر غير أن أبيات أبي تمام أجمل .

وتلاحظ كثرة الاقتباس من القرآن في هذه الأبيات : جنّة وحريرا ، نعيماً بها وملكاً كبيراً .

ومن المراثي الخاصة رثاء الأتباع من خدم وممالك وجواري . قال الحلّي يرثي مملوكاً كان ربّاه صغيراً حتى صار كاتباً فطناً وسيداً :

هجرت بعدك القلوبُ الجسوما	حين أمست منك الربوعُ رُسوما
وخلتُ من سناك زُهرُ المغاني	فاستحال النهار ليلاً بهيما
يا هلالاً أودى به الخسفُ لكاً	صار عند الكمال بدرا وسيما
وقضينا دنا لذيذُ جناه	فذوى حين صار بدرا قويما
ما ظننا المنونَ ترقى الى البد	ر وان الحِمَام يغشى النجوما
هدّ قلبي من كان يؤنس قلبي	اذ نبذناه بالهراء سقيما
ونأى يوسفى فقد ذهبت عينا	ي من حزنه وكنت كظيما
يا صغيراً حوى عظيم صفات	أوجبت في قلوبنا التعظيما
خلقاً طاهراً وكفّاً صنّاعا	ولسانا طلقاً وطبعاً سليما
كنت رقيّ فصرت مالِك رقيّ	بحجى منك يستخشف الحُلوما
ويد قد ثنت عِنانَ يراع	أنبتت في الطشروس دُرا تظيما
ومقال اذا دعاه لبيب	ظنّ أني منك استفدت العلوما
واذا ما تلوت نظمي وثري	خالني منك أطلب التعليما
يا خليلاً ما زال خصما لخصمي	كيف صيرت لي الغرام غريما
كيف جرّعتني الحميم من الحز	ن وقد كنت لي صديقا حميما
نمت عن حاجتي فأحدثت عندي	لتنائيك متّعدا ومقيما
وترحلت عن فِئائي رحيلاً	صير الحزن في الفؤاد مقيما
لست أنساك والمنية تخفي	منك نطقاً عذبا وصوتا رخيما

ومسحتُ الجبين منك بكفي
كنتُ أملتُ أن تشيِّعَ نعشي
وتوقعتُ أن أردَّ بك الخط
قد تبوأْتَ قاطنا جنة الخلد
وتفردت بالنعيم من العي
فسقى عهدك العهدُ فقد فر
وعليك السلامَ حيًّا وميتًا

فأعاد المسيحُ قلبي كليما
وتواري في الترب عظمي الرميما
ب فأمسى نواك خطبا جسيما
سد فأورثت في فؤادي الجحيما
ش وأبقيت لي العذاب الأليما
تَ بزُلْفى الجنان فوزا عظيما
ورضيعا ويافعلا وفطيميا

« الديوان - قسم المراثي »

بيدي صفي لدين لوعته لفقد غلامه ونشعر من هذه اللوعة عليه أن الغلام
ليس رقاً عنده بل هو ولد كريم عزيز عليه ، بل لعنه عنده أعز من الولد وأعلى
من الصديق . ويظهر من شعره أنه كان يعتقد الآمال عليه وأنه هلك حين اكتمل وأن
مخايل ذكائه قد أصبحت شمائل ونشعر أن علاقته به ليست علاقة لذة ومتعة بل هي
علاقة بنوة وصداقة وثقة وأن ما امتاز به هذا الغلام من صفات فريدة جعل له في
قلبه مقاما فريدا ، فهو أنس للقلب ، حزن عليه حزن يعقوب على يوسف ، وهو ذو
خلق طاهر ومهارة في الصناعة ولسان طلق وطبع سليم وعقل وافر وقدرة على الكتابة
عجيبة حتى لكان ما يكتبه در ، وهو واسع المعرفة ، حسن الأداء للشعر والنثر
ذو صداقة وفية حتى أصبح بهذه الصفات ، على رفته ، سيداً لسيدته . لقد جرعه
بموته العذاب وأقعده عن الحركة والسفر وأسكن فؤاده الحزن . ثم صورّه في
حال الموت وقد عرق جبينه فمسح هو بكفه عرقه فجرح هذا العرق قلبه ، وكان
يأمل أن يسبقه الى الموت وأن يردّ به المصيبة فسكن في جنة الخلد وأبقاه في جحيم
الدنيا ويختم أياته بالدعاء بالسقيا لمعهده ، وبتحيته حياً وميتاً وفي كل مرحلة من سنّة .
ونلاحظ أن الصناعة البديعية لا تفارقه كأهل عصره وأنه يكثر من الجناس كالحميم
والحميم ، والطباق كالجنة والجحيم ، والتورية كالمسيح والكليم ، والاقتباس من
القرآن مثل نأى يوسفى وقد ذهبت عيناى من حزنه وكنت كظيما . على أن هذه

الصناعة البديعية لم تفسد الشعر لسهولة وقرب معناه وقوة عاطفته وصدقها •
ومطابقتها لواقع الغلام وواقعه هو في حبه وتقديره له ولحالة البيئة والعصر •
ومن المراثي الخاصة رثاء السلاطين والعظماء الذين تكون للشعراء علاقات بهم
ومن ذلك قول الحلبي يرثي السلطان الملك المنصور :

يا بدوراً تغيب تحت التراب	وجبالاً تمر مرّ السحاب
إن في ذلك اعتباراً وذكرى	يتوَعَّى بها ذوو الألباب
قل لصادي الآمال لا تَرِدِ العيش	فإن الحياة لمع سراب
أين ربّ السرير والجيزة البـ	ضاء ذاتِ النخيل والأغـ
عرصاتٍ كأنهنّ سماء	قد توارت شمسها في الحجاب
أين ربّ الآراء والرتبة العلياء	والماجد الرفيع الجناب
والذي لقّبوه بالأبلج الوها	ب طورا والعبس النهاب
ليث أبناء أُرْتُقَ الملك المنـ	صور ربّ الاحسان والأنساب
صاحب الرتبة التي نكص العا	لم من دونها على الأعقاب
ومثجتي لبس الأمور اذا بر	قع قبح الخطا وجوه الصواب
حاز حلم الكهول طفلا وأعطي	ورع الشيب في أوان الشباب
جل عن أن تقبّل الناس كفيه	فكان التقيل للأعتاب
لم ترنّح أعطافه نشوة الملك	ك ولا يزدهيه فرط اعتجاب
رافع النار بالبقاع اذا أخم	د برد الشتاء صوت الكلاب
ومثحيل العام المّحيل اذا عتا	د لسان الفصيح نطق الذباب
عرفوا ربّه وقد أنكر الجو	د برفع اللوا ونصب القباب
وقدور بما حوت راسيات	وجفان ملوّة كالجنّوابي
ملك أصبح الخلائق والأيا	م والأرض بعده في اضطراب
فاعتبر خضرة الرياض تجدّها	أثر اللطم في خدود الروابي
حملوه على الرقاب وقد كا	ن نداه أطواق تلك الرقاب
ما أظن المنون تعلم ماذا	قصفت بعده من الأصـ

يا رجيم الخطوب فاسترق السمع فأفق العثلا بغير شهاب
 فليطلل بعده على الدهر عتبي أيها الزاهب الذي عرض الأموال
 رُبّ ذمّ ملقّب بعِتَاب والناس بعده للذهاب
 وشئت مرائر الآداب ونحيب اليّسّاع والقِرْضاب
 ولوقيناك في الأمور الصعاب بع شمْ الأنوف غلب الرقاب
 عمرهم في كتائب أو كتاب تركوا اللهو للغشاة وأفنّوا
 وحياد مثل العقارب نحو السروع تسعى شوائل الأذنباب
 كل طرف مطهّم سائل الغيرة جعد الرّسغين سبط الالهاب
 كنت ذخراً لنا لو أن المنايا جُنّبت عن رفيع ذاك الجناب
 لم أكن جازعاً وأنت قريب لبعاد الأهلين والأنساب
 كان لي جودك العميم أنيساً في انفرادي وموطناً في اغترابي
 ما بقائي من بعد فقدك إلا كبقاء الرياض بعد السحاب

« الديوان ، قسم المراثي »

يرثي صفي الدين هنا الملك المنصور بن أرتق ولي نعمته الذي مدحه في حياته
 بالارتقيات التسع والعشرين على احرف الهجاء ، وهذه القصيدة ليست منها •
 وهو يستهل المراثية بتشبيه المراثي بالبدور والجبال ، واستغراب ان تدفن هذه
 البدور والجبال تحت الارض ويشير الى ان فترة حياته كانت قصيرة تمر مر السحاب
 ويدعو الناس الى الاعتبار فالحياة سراب وماذا يأمل الانسان من الحياة بعد موت
 هذا الملك العظيم •

ثم يتساءل الحلّي عنه أين هو الآن وماذا جرى بسريره وقصوره ودياره ويصفه
 بأصالة لرأي وعلو الرتبة وبالمجد والكرم والشجاعة والتفوق على الاقران وحل
 المضلات والحلم والورع والهيبة والاحترام والتواضع وعدم العجب والكرم في

أيام الشدة والبرد والمجاعة ونصب اللواء عاليا ليفد اليه طالبو المعروف وزلزلة الامور بعده وحزن الدنيا عليه فما خضرة الرياض الا من اثر لطم الروابي خدودها لفقده •
ان المنايا لم تعلم ماذا فعلت باخترامه والعدو سيطمع في بلده • لقد ضاع بعده الناس والاموال وجن الكرم وحزنت عليه الآداب والرماح والسيوف • ولو كان يمكن فداؤه لفدته انفسنا واسود شجعان كرام النفوس أعزة أقوياء أهل جد قضوا عمرهم بين العلم والقتال والخيول الكريمة التي تشيل بأذنانها عتقا كأنها العقارب وهي مضرة حسنة الخلقة • ولا عجب فقد كنت لنا ذخرا لا نبالي في قربك يبعدنا عن اقاربنا وكان جودك مؤنسا لنا في غربتنا • فيما بقائي بعدك وانما أنا كالارض الطيبة فقدت المطر فأصبحت جدباء •

في هذه القصيدة لوعة صادقة ومدح تقليدي بصفات معروفة منذ الجاهلية الا ان الشاعر اضاف اليها العلم ومعاشرة الكتب • وفيها سهولة في التعبير وصناعة بدعية كثيرة تظهر في كثير من الطباق والجناس والاقتباس مما يستطيع القارئ ان يتبينه بنفسه مثل : وجبالا تمر من السحاب (اقتباس) الوهاب النهاب (طباق وجناس ناقص في الوقت نفسه) كئائب وكتاب (جناس غير تام) •

وفيها بالاضافة الى ذلك جمال في الموسيقى بحيث نحس فيها نعمة ببحرية لعلها جاءت من استخدامه البحر الخفيف مع حسن اختياره للكلمات مفردة ومجتمعة • وقد اكثر الشعراء في هذه العهود من رثاء العلماء الذين نالوا فيها مكانة سامية بسبب تشجيع العلم وتقدير اهله من الحاكمين فاطميين وأيوبيين ومماليك ، ومن الشعب ايضا •

ويظهر في بعض المراثي التي قيلت في العظماء استعمال اصطلاحات العلوم التي يمتازون بها من ذلك ما جاء في قصيدة شرف الدين الحصني الدمشقي التي يرثي بها محمد بن مالك النحوي صاحب الالفية المتوفى سنة ٦٧٢ هـ •

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالك المفضل
وانحرافَ الحروف من بعد ضبط منه في الاتصال والاتصال

مَصْدَرًا كَانَ لِلْعُلُومِ بِإِذْنِ اللّٰهِ مِنْ غَيْرِ شَبْهَةٍ وَمَحَالٍ
أَدْغَمُوهُ فِي التَّرْبِ مِنْ غَيْرِ مِثْلِ سَالِمًا مِنْ تَغْيِيرِ الْإِتْقَالِ
يَا لِسَانِ الْأَعْرَابِ يَا جَامِعَ الْإِعْرَابِ يَا مُتَفَهِّمًا لِكُلِّ مَقَالٍ
كَمْ عُلُومٍ بَشَّتْهَا فِي أَنْفَاسٍ عُلِمُوا مَا بَشَّتْ عَنْدَ الزَّوَالِ

« بَغْيَةُ الْوَعَاةِ ٥٥ »

لا شك في ان هذا الرائي جاد في رثائه بالاضافة الى ذوقه وذوق غُضْرِهِ ، ولكننا
بحسب عصرنا وذوقنا الآن نقرأ هذا الشعر فلا يثير فينا الحسرة بل الابتسامة وتتخيل
ان الشاعر يهزل وأنه اميل الى الدعاية في رثائه منه الى الجد .

ومن رثاء العلماء قول صفي الدين الحلبي يرثي شهاب الدين محمودا كاتب
السر في دمشق (المتوفى سنة ٧٢٥ هـ) :

حَبْلُ الْمُنَى بِحِبَالِ الْيَأْسِ مَعْقُودٌ
وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَ أَشْرَاكِ الرَّدَى غَرَضٌ
لَا تَعْجِبُنَّ فَمَا فِي الْمَوْتِ مِنْ عَجَبٍ
فَالْمُسْتَفَادُ مِنَ الْأَيَّامِ مَرْتَجَعٌ
وَالْمُنِيَّةُ أَظْفَارُ إِذَا ظَفِيرَتْ
لَمْ يَنْجُ بِالْبَأْسِ مِنْهَا مَعَ شِرَاسْتِهِ
قَدْ ضَلَّ مَنْ ظَنَّ بَعْضَ الْكَائِنَاتِ لَهَا
أَلَمْ يَقُولُوا بِأَنَّ الشَّهْبَ خَالِدٌ
مَنْ كَانَ فِي عِلْمِهِ بَيْنَ الْوَرَى عِلْمًا
وَمَنْ رَوَى فَضْلَهُ حُسَادَ رَتْبَتِهِ
فَضْلٌ بِهِ أَوْجَهُ الْأَيَّامِ مَشْرِقَةٌ
مَهْذَبُ اللَّفْظِ لَا فِي الْقَوْلِ لَجَلَجَةٌ
لَا يَهْدِمُ الْمَنْ مِنْهُ عَمْرٌ مَكْرُمَةٌ
إِنْ كَانَ يُقْصَدُ مَقْصُودٌ لِبَذْلِ نَدَى

وَالْأَمْنُ مِنْ حَادِثِ الْأَيَّامِ مَفْقُودٌ
صَمِيئُهُ بِسِهَامِ الْحَتَفِ مَقْصُودٌ
إِذَا زَالَ حَدٌّ بِهِ الْإِنْسَانُ مَحْدُودٌ
وَالْمُسْتَعَارُ مِنَ الْأَعْمَارِ مَرْدُودٌ
رَأَيْتُ كُلَّ عَمِيدٍ وَهُوَ مَعْمُودٌ
لَيْثُ الْعَرِينِ وَلَا بِالْحِيلَةِ السَّيِّدُ
مَكْتُوٌّ وَلِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ تَخْلِيدٌ
طَبْعًا ، فَأَيْنَ شَهَابُ الدِّينِ مَحْمُودٌ
يُتَّهَدَى بِهِ إِنْ زَوَتْ أَعْلَامُهَا الْبَرِيدُ
وَعَنَعْتَ عَنْ أَيْيَادِهِ الْأَسَانِيدُ
كَأَنَّهُ لَخُدُودِ الدَّهْرِ تَوْرِيدُ
مِنْهُ وَلَا عِنْدَهُ فِي الرَّأْيِ تَرْدِيدُ
وَلَا يُعْمَدُ بِالْمَطْلِ الْمَوَاعِيدُ
فَإِنَّهُ لِلْنَدَى وَالْفَضْلِ مَقْصُودُ

له اليراع الذي راع الخطوب به
أصم أخرس مشقوق اللسان اذا
إن شاء تسويد مبيض الطروس فمن
لو خط سطر ترى عكس القياس به
والسائر التي راق لسامعها
رشيقة السبك لا المعنى بمبتذل
يا صاحب الرتبة المعذور حاسد لها
ما شام بعدك أهل الشام بارقة
إليك كان يعزى العلم منتسبا
كم خطبة لك راع الخطب موقعها
ولفظة لا يسد الغير موضعها
وجحفل لجبدال البحث مجتمع
قد جرّد الشوس فيه قضب السنة
عقرت كل كمي في عقيرته
بصارم لا يرد الدرع ضربته
حتى اذا نكص القوم الكمي به
ألقوا مقاليدهم فيه الى بطل
يامفقدي، مع وجودي فيض أنعمه،
وجاعل الفضل فيما بيننا نسبا
قد كان يجدي التأسي عك دفع أسى
قد أخلقت ثوب صبري فيك حادثة
برغم أنفي أن يدعوك ذو أمل
وان يرى ربك العافي وليس به
أبكي اذا ما خلا، أو صاف مجدك لي،
والتجني بالتسلي ان ستخلتقنا

في حلية الطرس تصويب وتصعيد
طارحته شمت منه الأغاريد
إنشائه لبياض الناس تسويد
الشمس طالعة والليل موجود
ألفاظها وحلت منها الأناشيد
منها ولا تنظفها بالعرف مكدود
إن السعيد على النعماء محسود
للفضل حين ذوى من ربه العود
واليوم فيك يعزى العلم والجود
وكم ثقلد منه الدهر تقليد
غراء تحب ماء وهي جلمود
كأنه لجلاء الحرب محدود
في معرك يومه المشهور مشهود
به وأزرّك بالتحقيق مشدود
ولو ثنى نسجه المردود داود
وأعوزت عند دعواه الأسانيد
شهم الى مثله تلقى المقاليد
همسي، وموجد وجدي وهو مفقود
إذ كان في نسب الآباء تبعد
لو أن مثلك في المصيرين موجود
أضحى بها لثياب الحزن تجديد
فلا يسح عهد منك معهود
مرعى خصيب وظل منك ممدود
فكري فأطلب صبري، وهو مطرود
أبناؤها النسر أو أبناؤك الصيد

فسوف ترثيك مني كل قافية
وأسمعُ الناس أوصافا عرفت بها
فلا عدا الغيثُ ترباً أنت ساكنه
ودام ، والظلُّ ممدود بساحته
بها لذكرك بين الناس تخليد
حتى كأنك في الأحياء معدود
مع علمنا أن فيه الغيثُ ملحود
والسدرُ والطلحُ محضور ومنضود

« ديوان صفي الدين — قسم الرثاء »

يرثي صفي الدين في هذه القصيدة صديقه كاتب السر في دمشق الشاعر شهاب الدين محموداً الذي رأينا له عدة قصائد في تخليد انتصارات المماليك على الصليبيين والمغول .

والشاعر هنا صادق العاطفة اذ لا يتغني مكافأة من ورثته او مكانة عندهم وانما هو يعبر عن اسفه لفقده .

وهو يستهل القصيدة بالحديث عن حتمية الموت وان كل شيء هالك ويكرر هذا المعنى في عدة أبيات على عدة أوجه لينتهي بأن الفلاسفة الذين يقولون بخلود العالم العلوي المادي مخطئون فاذا كانت الشهب في فلسفتهم لا تفنى فكيف هلك شهاب الدين محمود ، وهكذا يخلص الشاعر الى الحديث عن صفاته .

وهو هنا يرثي عالما كاتباً شاعراً خطيباً رئيساً عظيماً كريماً قوي الحجّة حاضر البديهة متين المناظرة ويذكر هذه الصفات في المرثي مبيناً انه انفرد فيها وبلغ في كل منها اعلى الدرجات . ويوائم بين معاني مدحه وبين : شمس المدوح وصفاته الحقيقية ولذلك لم يتحدث عن الشجاعة والفروسية وانما : عن القلم والمناظرة والحجة والأسانيد وقوة الرأي والتغلب على الاقران به . وهو يستعمل المصطلحات العلمية المناسبة لمعاني مدحه ولكن برفق وتأن وبعد عن الغلظة مثل عنعنات والأسانيد ولجلجة وقد استطاع ان يجعل من مرثيته المثل الاعلى للانسان المثقف . وقد كان شهاب الدين محمود كذلك حقاً ، وقد صدق الشاعر في كل ما قاله فيه . وهو يذكر صداقته له ويعتز بهذه الصداقة ويعترف بفضلها عليه ويصف كرمه وصعوبة التأسي عنه فليس مثله في المصرين موجودا فما اصعب الصبر عليه ويرجو ان يخلفه ابناؤه في كمال

صفاته ويعاهده على تكرار المراثي فيه وهي ستخلد بالمرثي لشهرته وكماله ، ثم يدعو لقبره بالسقيا على عادة العرب مع علمه بأن الغيث مقيم في هذا القبر .

وعلى ان نسج القصيدة فخم واسلوبها في معظمها محكم فان بيتين منها جاء فيهما بعض المعازلة التي أضفت عليهما الغموض وهما البيتان اللذان يبدآن بيا مفقدي ، وأبكي اذا ما خلا .

والمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المراثية كلها تقليدية وكذلك الصور فانها ليس فيها جديد ولكن الشاعر هنا ابن عصره في استعمال الالفاظ المألوفة ثم في الاكثار من الصناعة البديعية من طباق وجناس وتورية واقتباس . وهي لا تخفى على القارئ ، ولكنها على كثرتها لم تسيء الى القصيدة بقدر ما أساءت اليها المعازلة التي تحدثنا عنها .

وقد كثر في هذا العصر الرثاء الساخر الذي يرثي الشاعر فيه متهمًا حمارة ، أو ثوبه المهمل ، أو بغلته ، أو خروفا هزيلًا أهدي إليه . وهذا الرثاء يدخل في باب الدعابة وانما ذكرناه هنا لان مظهره الرثاء وان كان يقصد به هجاء إنسان أو شكوى الدهر بعامة .

قال أبو الحسين الجزار وقد مات حمارة :

مات حمار الأديب قلت لهم مضي وقد فات منه ما فاتا
من مات في عزّه استراح ومن خالف مثل الأديب ما ماتا
ورآه بعض أصحابه ماشيا بعد موت الحمار فداعبه فأجابه :

كم من جهول رأني أمشي لأطلب رزقا
وقال لي صرت تمشي وكال ماش مائسا
فقلت مات حماري تعيش أنت وتبقى

« مطالع البدور ٢ : ١٩١ - ١٩٢ »

ويلحق بباب الرثاء قصائد التعزية وتتبع فيها القصيدة الى أهل الميت تحثهم على الصبر وتشيد بهم بأنهم خير خلف لذلك السلف العظيم وقد يصرف الشاعر جهده الى مدح الحي .

ومن التعازي الموجزة قول صفي الدين الحلّي في مطلع رسالة الى ابناء الملك المنصور يعزيهم فيها بوالدهم :

ما مات من أتمّ أغصان دوحته فالذكر منه مقيم بين أحياء
لما اقتضى الدهر منه وتره وقضى عفاً الأزار حميد الفعل والراء
كنتم له خلفاً يهدي الثناء له كالماء يورّد أو كالورّد للماء

ومنها قول الحلّي يعزي أحد الامراء بمصاب له :

لا أرى الله مجدّ مولاي سوءاً لا ، ولا ريع بعدها بمصاب
فكفاه الإله حادث دهر وتوالى له جزيل الثواب
ومنها ما كتب الى أحد الاعيان :

لا شغل الله لكم خاطراً ولا عرتكم بعدها شائبة
ولا أرتكم لصروف الردى حادثة تصمي ولا نائبة

ومن التعازي المتوسطة الطول قول الحلّي :

لبدوا للموت وابنوا للخراب فما فوق التراب الى التراب
كذلك قال خير الخلق طراً رسول الله ذو الأمر المثجاب
فمرجع كل حي للمنايا وغاية كل ملك للذهاب
بنو الدنيا فرائس للمنايا وناب الموت عنها غير ناب
ومن يفتّر في الدنيا يعيش فق « لب الشراب من السراب »
دع ابنك للردى من ليس يعضى وداعى الموت ممنوع الجواب
أرانا فقدّه الأيام سوداً ونادي الأوس مغبر الجناب
وما طيب الحياة بغير بشرم وما حسن السماء بلا شهاب
فلنذ بالصبر في اللائي وأحسن عزاءك واغثم حسن الثواب
فإنك من أناس ليس يخفى على آرائهم وجه الصواب

« ديوان الحلّي - قسم التعازي »

ويلاحظ ان الخطاب في التعازي يتوجه به الى الحي قريب الميت ولا يتوجه الى

الميت وانما يكتفي بالحديث عنه ، كما يلاحظ في آخر الأبيات تهوين الخطب في موت البنات والنساء وهو من أثر الروح الجاهلية والنزعة البدويّة •

ومن مراثي هذا العصر ما جدد فيها أصحابها في قالب الشعر على خلاف شعراء العصور السابقة الذين كانوا لا يخرجون في المراثي عن الأوزان التقليدية في اشكالها المعروفة المبسطة •

من ذلك هذه المراثية التي رثى بها صفي الدين الحلّي السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماء سنة ٧٣٢ هـ وقد حضر موته مسمطاً لقصيدة الوزير ابي الوليد احمد بن زيدون الاندلسي المشهورة : أضحى التناهي • وسنكتفي بذكر مقطعين منها مثالا عليها كلها وهي طويلة :

كان الزمان بليّاكم يميننا وحادث الدهر بالتفريق يثينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التناهي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

خلنا الزمان بليّاكم يسامحنا لكي تزان بذكراكم مدائحنا
فعندما سمحت فيكم قرائحنا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ولا جفّت مآقينا

« ديوان الحلّي - قسم الرثاء »

ولعل هذا النمط من التسميط في الرثاء يأتي علينا غريبا ولا سيما انه يوحى لنا بالموسيقا والغناء والطرب ، وتتساءل : أألف هذا النمط من الشعر عمداً لكي يرثي به الميت على ألحان حزينة ؟ نقول هذا اجتهدا الآن وليس لدينا نصوص تثبت ما قلناه ، ونرجّح ثفيه •

د - العهد المملوكي الجركسي :

من رثاء الأقارب في هذا العهد قول الامام المتوكل على الله يحيى شرف الدين يرثي زوجه الشريفة فاطمة بنت عبد الله المتوفاة حوالي سنة ٩١٠ هـ ، وكانت عالمة فاضلة في غاية الجمال والكمال :

هي النفس حنت من شجاها وأنت
مراجل حزن في فؤادي أوقدت
وهل ينبغي لي أن أرى اليوم ساليا
عقيلة آل المصطفى الطهر والتي
فليذة قلبي بل سويداء مهجتي
وما فاطم إلا من الحور أخرجت
فقيم تلوم العين إن هي شنت
فمن فيضها تلك الدموع استهلت
وفاطمة في باطن اللحد سللت
بكل الامور الصالحات تحللت
ومطّلبي من كل شيء ومنيتي
لنعرف قدر الحور ثمت ردت
(ملحق البدر الطالع ، ص ١٨٦)

هذه الايات زاخرة بالعاطفة تأتي في مستوى المراثي الشخصية الجيدة لا
الرائعة الفريدة عبر فيها الزوج عن لوعته الصادقة ببساطة ولغة سهلة ووصف واقعي
وقوة تحسّس للمصيبة .

وقد وجدنا شاعرا (*) يرثي نفسه قبل موته بمدة وهو في القاهرة وكان

(*) قائل هذه الايات هو ابراهيم بن عمر بن حسن الرباط (٨٠٩ - ٨٨٥هـ) ،
وقد كنى نفسه ابا الحسن ، الخرباوي البقاعي . ولد في خربة روجا من
البقاع ونشأ بها ثم تحول الى دمشق ثم الى بيت المقدس ثم القاهرة ثم
عاد الى دمشق ، ولقب ابن عويجان (تصغير أعوج) . درس العلوم الدينية
على أشهر علماء عصره في المدن التي عاش فيها وعرف بتيهه وعجبه
بنفسه ورميه الناس بالقلذف والفسق والكذب والجهل . اتهمه السخاوي
وغيره بأنه يضمّر خلاف ما يبطن من الدين . وعرف بحب الخلاف في الرأي
ووصف بأنه كان يقابل المعروف بالاساءة وانه كان يتناقض رأيه في الرجل
بحسب سخطه ورضاه عنه وبحسب ما ينتظره منه من منفعة . وقد قال
بعضهم :

ان البقاعي البذيء لفحشه
لو قال ان الشمس تظهر في السما
وقال فيه الصلاء بن اقبس :

لك الحمد الجزيل بلا امتنان
فطهر قلبنا من كل غيل
وكتبنا الخبيث من البقاع (ع)

وكان الناس يكرهونه في البلاد التي يحلها لتهجمه على الائمة المشهورين
كالغزالي وابن تيمية وحين مات لم يصل عليه التقى بن قاضي عجلون وغيره .
« عن الضوء اللامع للسخاوي ج ١ : ١٠٠ - ١١١ »

القاضي عز الدين الحنبلي يستكثر أبياته عليه ويقول لعلّه ظفر بها لغيره • وقال
السخاوي إنّ سجّيته انبعثت لها لمزيد حبه في مدح نفسه وهاهي الأبيات :

نعمّ انني عما قريب لميتّ	ومن ذا الذي يبقى على الحدّنان
كأنّي بي أنعى اليكّ وعندها	ترى خيرا صمّتّ له الأذنان
فلا حسد يبقى لديك ولا قلىّ	فتنطق من مدحي بأي معان
وتنظر أوصافي فتعلم أنّها	علت عن مشدان في أعزّ مكان
ويسى رجال قد تهدم ركنهم	فمدّمعهم لي دائم الهملان
فكم من عزيز بي يذلّ جماحه	ويطمع فيه ذو شقا وهوان
فياربّ من يثجّجا بهول بوّده	ولو كنت موجودا اليه دعاني
وياربّ شخص قد دهنه مصيبة	لها القلب أمسى دائم الخفقان
فيطلب من يجلو صداها فلا يرى	ولو كنت جلّتها يدي ولساني
وكم ظالم نالته مني غضاضة	لنصرة مظلوم ضعيف جنان
وكم خطة سامت ذويها معرّة	أعيذت بضرب من يدي وطعان
فان يرثني من كنت أجمع شمله	بتشتيت شلمي فالوفاء رثائي
وإلا نعاني كلّ خلق ترفّعت	به هممي عن شائن وبكاني

« الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي ج ١ ، ١٠٠ - ١١١ »

وأبياته سيئة المستوى معاني وصورا واسلوبا والفاظا واين هذه الايات من
قصيدة مالك بن الرب المتوفى زمن الخليفة عثمان بن عفان في العهد الراشدي ،
يرثي نفسه فيها ومنها :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد	سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوكا يجرع عناه	الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

« عدّة الأديب : للأستاذ المرحوم سليم الجندي ورفيقه »

وقد وجدنا معنى جميلا لابن مليك الحموي في موت الرجال على ظهور الخيل ، وهو :

وفوق ظهور الخيل ماتوا فأصبحوا وفي كل سرج فوقها لهم قبر
وقد ذكر الخفاجي بعد هذا البيت انه توارد فيه مع ابن حجة ومع ابن نباتة في مرثية له وانه كان يظن هذا المعنى للمحدثين ثم رآه في أشعار المتقدمين كأبي نواس في قصيدته التي مطلعها :

أجارة بيتينا ابوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير
حيث يقول :

إليك أت بالقوم هوج" كأنما جماجمها تحت الرجال قبور
« الريحانة ج ١ ، ص ١٩٢ »

ويظهر من هذه الامثلة ان الرثاء في العهد المملوكي الجركسي ليس فقيرا كما فقط بل هو سيء نوعا ، ولعل ذلك راجع الى أمرين الاول ان هذا العهد لم يكن فيه كفاح ضد المحتلين من صليبيين أو تتار بالمعنى الصحيح ، لأن الحروب الصليبية كانت قد انتهت في العهد المملوكي الاول على يد الملك الاشرف خليل ، ولأن التتار كانوا قد دخلوا في الاسلام خلال هذا العهد ولم تكن البلاد تتوقع هجومهم حين هاجمها تيمور وكان الناس فيها قد استلموا الى الدعة والخمول ولم يبق لديهم حافز للكفاح او لنظم الشعر . والثاني ان ما كتب في تراجم الرجال خلال هذا العهد كان خاضعا لأذواق المؤلفين ولعلمهم لم يكونوا في مستوى ذوقي أدبي رفيع فلم يأتوا في كتبهم بنماذج جيدة للأدباء ولم يكثروا منها كما فعل العباد الاصفهاني في الخريدة خلال العهد الزنكي والأيوبي وكما فعل الخفاجي في العهد العثماني حين ألف كتابه الريحانة .



الغزل في عهد الدول المتتابعة

١ - العهد الفاطمي - الزنكي :

اهتم الشعراء بالغزل وجعلوه لهم غاية فنظموا فيه القصائد المفردة ووضعوه في أول قصائد المديح بل جعله بعضهم في افتتاح إحدى مرثياته • وظهرت قصائد رائعة فيه عبرت عن عاطفة الحب تعبيراً جميلاً •

وتنوعت عاطفته بين الرضى والسخط والعتب والشكوى والاعجاب والنقمة • ولم ينحدر في جملة حالاته عما قيل في العصور الماضية • فأبيات أسامة بن منقذ أحد شعراء العهد الفاطمي - الزنكي « ٤٨٨ - ٥٨٤ هـ » التالية من الغزل الجيد الذي يوازن بالغزل العذري الأموي :

ولثوا فلما رجونا عدلهم° ظلموا	فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوماً بفكري ما يريبهم°	ولا سعت بي الى ما ساءهم قدّم
ولا أضعت° لهم عهداً ولا اطلّعت°	على ودائعهم° في صدري التهم
حفظت° ما صنعوا، أغضيت حين جنّوا°	وفيت اذا غدروا، واصلت اذا صرّموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم	ما الرزق الا الذي تجري به القسم
محاسني منذ ملّوني ، بأعينهم°	قذى° ، وذكرى° في آذانهم صمّ
وبعد° ، لو قيل لي : ماذا تحب° ، وما	مّنك من زينة الدنيا ، لقلت : هم°
هم مّجال الكرى من مقلتي° ، ومن	قلبي محلّ المنى ، جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي ، ولا أبغي بهم بدلاً	حسبي هم° ، أنصفوا في الحكم أو ظلموا

« الروضتين ١ : ٢٣٧ » و « الديوان ص ٤٤ ، ٣٢١ »

فهو في هذه الايات مثال المحب المولع الثابت على العهد مهما أساء اليه°

الحبيب • وهي تعبر عن احواله النفسية وحال حبيبه ولا يهتم فيها بالاوصاف الجسدية (١) •

وقد تغزل الشاعر في هذه الحقبة ليعبر عن شعوره ، فهو يقلد من سبقه ومن حوله حيناً ويجدد حيناً آخر بزيادة أو تغيير أو تجديد كلي • ومن التجديد الكلي الغزل بالصليبيات وبالعنصر التركي • وستحدث عنهما قريباً •

وبقي الشاعر ، يستهل به قصائد المديح ، ولكنه قصر قسماً من شعره عليه فنظم فيه قصائد مستقلة وحده ، وحاول ان يجدد في المعاني •

وكان يتم معنى النسيب والغزل احياناً بوصف الخمر والحديث عنها سواء أشربها أو لا فقد كان ذكرها يستدعي الحديث عن الساقى والساقية ، وقد يجعل الشاعر الخمر والساقى والساقية طريقه إلى الغزل والنسيب •

ومن أهم ما يلاحظ في هذا العهد تغزل بعض شعرائه بالصليبيات مع ما بين المسلمين والصليبيين من حرب ، ثم شيوع الغزل بالغللمان ، ثم الغزل بالجنس التركي •

١ - الغزل بالصليبيات :

يذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » في حوادث سنة ٥٨٦ هـ ان « السنة » استهلت والسلطان محاضر لحصن عكا وأمداد الفرنج فقد اليهم من البحر في كل وقت ، حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ، ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء لينكحوها في الغربة • فيجدوا راحة وخدمة وقضاء وطر • قدم اليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن بهذه النية ، فاذا وجدوا ذلك ثبتوا على

(١) مما يلاحظ على هذه الأبيات ان قائلها أسامة جعلها ملائمة لموضوع القصيدة الاماسي وهو عتاب عمه على سوء معاملته بعد حسن العلاقة بينهما • وهو في هذا يجري على عمود الشعر الجاهلي الذي يجعل المقدمة الغزلية اطاراً متلائماً مع موضوعها الرئيسي بحيث يرتبطان بسلك نفسي يوحدهما •

الحرب والغربة ، حتى إن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا لهم من اجل هذه النسوة واشتهر الخبر بذلك .

لا غرابة إذا في أن نرى بعض الشعراء يتغزلون بنساء الفرنجة وغلماهم . فمن قول ابن القيسراني :

لقد فتتني فرنجية	نسيم العبير بها يعبق
فقي ثوبها غصن ناعم	وفي تاجها قمر مشرق
فإن تك في عينها زرقعة	فإن سنان القنا أزرق

« ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٣ — ٦٤ »

والخريدة ، شام ، ١ : ٩٩ »

يقول ابن القيسراني هذا على الرغم من انه كان قد أجلى عن وطنه قيسارية في فلسطين ثم عن عكا وبرغم انه كان قد نيف على الستين حين زار ثغور الساحل وهي بيد الفرنجة ولكن الجمال قد فتنه .

فلا عجب اذا رأينا القاضي الفاضل بعد في العهد الأيوبي يكتب الى صلاح الدين ناصحا وشاكيا من ظهور المنكرات في اتباع السلطان في رسالة : « المملوك ينهي ان الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته ولا تفرج الشدائد الا بالرجوع اليه والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية . وقد طلع الى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه . . . بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد وتتصدع بذكرها الاكباد ، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في أتباعه (١) وشيوع المظالم في ضياعه ، وخراب البلد . . . » .

وكان بعض الشعراء يذهبون أثناء الهدنة الى كنائس الافرنج ويشاهدون الصليبيات السافرات ويتغزلون بهن ، في الثغور التي بأيدي الفرنجة . منهم ابن القيسراني الذي زار كنيسة بربارة في أنطاكية فقال :

(١) اي اتباع السلطان .

بدينك يا قيس بربارة
أجرني من الصور الناطقات
إذا هن أقبلن وقت الصلا
وجالت مناطق أوساطها
فلولا التخرج في ملتي
وقمت الحزن قدامهن
ولم تك فرسائها في الطعان
ألا حبذا ما استثار الهوى
تري كل فاتنة وجهها
فرنجية ساكن عقدها
إذا قبلت صورة أقبلت
فياليتني عندها دمية
فأقسم لو أنني أستطيع

وما بت تتلوه في الحندس
وقد قمن حولك في مدرّس
ة في كل لون من الأطلس
وضاقت بها حلل السندس
طلعت عليهن في برئس
غير يلند ولا أخرس
بأشجع مني ولا أفرس
بتلك الكنائس من كنّس
معري بشمس الضحى مكّس
وزنارها قليق المجلس
عليها بناظرها الأشوس
تراني ولا ريب في ملمس
تحولت صورة مرجس
« الديوان (خ) ق ٧٠ - ٧١ »

وقال وقد حضر الصلاة في كنيسة السيدة :

أصاح متى عجت بالسيدة
وقلبك حذرّه من أن يصاد
وجوه تباهي قناديلها
تري كل مستضعف خصره
وذا تر روادف عند القيا
وبدر من الشعر في غاسق
فيالي من ذلك الزربرقان
وطيف خيال إذا ما رأي
وسرح عيون كحيل الأطباء

فسل عن فؤادي في الأفتده
فإن بها للهوى مصيده
ببهجة نيرانها الموقده
إذا مادعا طرفه أنجده
م تحسبها أنها مقعده
يضاحك أبيضه أسوده
إذا زرقن الليل أو جعده
ت أمرده قلت ما أمرده
تغانيج غادته أغيده

« الديوان : خ : و ٦٩ » و « الخريدة ، شام ، ١ : ص ٨ »

وقال :

أمعظمة الصليب وددت أني
إذا أقبلت قبّلتني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق
هيني صورة نحيّا عليها
ودين الله عندكم صليب
أسرّ به وعانقتني حبيب
يرى إلا التفجع والنحيب
أجيب إذا دعيت ولا تجيب
« الديوان (خ) و ٦٤ »

وقال :

كم في الكنائس من مبتلة
من كلّ ساجدة لصورتها
قديسة في جبل عاتقها
غرس الحياء بصحن وجنتها
وتكلمت عنها الجفون فلو
وجلت مدارعها غدائرها
مثل المهابة يزيناها الخفر
لو ألصقت سجدت لها الصور
طول وفي زئارها قصر
ورداً سقى أغصانه النظر
حاورتها لأجابه الحور
فأراك ضعفي ليلة قمر
« العماد الكاتب ، الخريدة ق الشام ١ : ١٢٠ »

وقال في فرنجيات يظهرن في نوافذ البيوت :

ترى قصورا ، كأنها بيع
هالات طاقاتهم أهلة
سوافر ، كلما شعرن بنا
من كل وجه كأن صورته
فهو إذا ما السيلو حاربه
فيا عذولي فيهن دع كلفني
وكن متعيني على ذوي خدع
سرت وخلقفت في ديارهم
ولم أزل أغبط المقيم بها
ناطقة في خلالها الصور
يسم في كل هالة قمر
برقعهن الحياء والخفر
بدر ، ولكن ليله شعر
كان لتلك الضفائر الظفر
وانظر الى الشمس هل لها طرر
إن سالم القلب حارب النظر
قلبا تمنيت أنسه بصر
للقرب حتى غبطت من أسروا

« الديوان (خ) و ٦٣ - ٦٤ »

لقد تمنى ابن القيسراني ان يكون بين الاسرى ليرى هؤلاء الفرنجيات وهو شيخ قد نيف على الستين . ولاحظ باختصار ان التغزل بالفرنجيات شعرا قد حمل لواءه ابن القيسراني وبعض معاصريه ويظهر أنه قد دفن معهم فلم نعد نرى بعده شاعرا يتغزل بهن ، اللهم الا ما كان من غزل بالروميات ، وهو معروف قبله بزمان طويل .

الغزل بالغلماں :

انتشر الغزل بالغلماں على ألسن أكثر الشعراء في ذلك العهد ، من أولع منهم بالغلماں حقيقة ومن قلّد ، وحازب هذا الشذوذ بعض الكتاب والشعراء . وكان لا تشاره أسباب :

منها التصوّف الكاذب ، فقد كان البعد عن مسؤوليات الحياة واللجوء إلى التكايا سبباً إلى انتشار اللواط بين بعض اللاجئين إليها باسم التصوّف ، غير الصادقين فيه .

ومنها إقلاع رجال الحرب عن الزواج لاشتغالهم بها عن تكوين أسرة وتحمل أعبائها .

ومنها كثرة وجود غلمان من العناصر الأجنبية كالإفرنج والترك والتمر امتازوا بالجمال وكانوا ينتقون دائماً جميلين أقوياء ويشترون صفاراً .

ومنها أن بعض الأجناس كالنتار كانت تعرف هذا الشذوذ في بلادها .

وكان الشعراء الذين يتغزّلون بالذكر في صدر الدولة العباسية زمن أبي نواس من الشعراء الذين عرفوا بالخلاعة والمجون وكانوا قلّة بين الناس . أما في هذا العصر فقد نظم فيه أو قال به رجال عرفوا بمكانة علمية أو سياسية أو قيادية مرموقة وكثر انتشاره بين الناس .

على أن كلّ غزل استعمل فيه ضمير مذكر ليس غزلاً في الغلمان فقد تحدّث ابن رشيق بأنّ بعض الشعراء يستعملون التعبير بالذكر عن المؤنث على عادة

المحدثين وسلوكا لطريقتهم لئلا يخرجوا على نظام عصرهم ، أو ليكنّوا بذلك عن الرقة والرشاقة (العمدة : ج ١ ، ص ١٩٨) •

وقد عرفنا من شعراء الغزل بالملّك الحقيقين ابن دفتر خّوان الذي تغزّل بألف غلام في ديوانٍ شعري خصّصه لذلك •

وعرف عن ابن منير أنّه كان مولعاً بالغلّمان :

أولّع بابن العفريت ، وتتر • وقد أرسل تتر إلى الشريف الموسوي ببغداد مع هديّة فاخّاره الشريف ضمنها فغضب وقظّم قصيدة منها هذه الأبيات :

عذّبت قلبي يا تتر
هذا الشريف أضلّني
وأطرتْ نومي بالفكر
بعد الهداية والنظر
فاخش الإله بسوء فعلك واحتذر كلّ الحذر
ردّ الغلام وما استمرّ على الجحود ولا أصرّ

« ابن حجة ، الخزّانة : ١٤٦ »

وقد كثر الشعراء الذين أولعوا هذا الولع المريض ومنهم من زاد مرضه مرضاً بالتعلّق بمن لم يكن عليه مَسّحة من جمال ، بل فيه سمات قبح فقد عرف عن ابن قسيم مثلاً أنّه تغزّل بغلام مجدور •

ونجد كثيرين لم يولعوا هذا الولع الشاذّ المحرّم ولكنّهم قالوا الشعر فيه تقليداً • وذلك يدلّنا على مدى تأثير المجتمع أو الروح العامة في الفرد حتّى يفعل ما يخالف رأيه •

وقد حاول الشعراء التجديد في مطلع القصائد فنرى ابن القيسراني يستبدل بسعدى وريّاً ماريّاً :

إذا ما زرتْ ماريّاً
لها وجهه مسيحيّ
فما سّعدى وما ريّاً
تري الميت به حيّاً

« ديوان ابن القيسراني (خ) و : ٧٦ »

وقد اقتدى هؤلاء الشعراء بأبي نواس في ثورته على الأطلال :

صفة الطلول بلاغة القدم	فاجعل صفاتك لابنة الكرم
تصف الطلول على السماع بها	أفدو العيان كأنك في الحكم
واذا وصفت الشيء متبعا	لم تخل من غلط ومن وهم

وليس البدء بذكر المدن ومواطن الحضارة مكان الأطلال البدوية بالتجديد الأصيل الذي هو البدء بالموضوع المقصود مباشرة . وقد فعل بعضهم ذلك ، ولا سيما في قصائد النضال ، ولكن أبا تمام والمتنبّي قد سبقاهم إليه .

ب - العهد الأيوبي :

من الغزل الجميل في هذه الحقبة الأبيات التي غنتها أمّ كلثوم ولا تزال تطرب لها غناءً ومعنى : وهي أبيات ابن النيه ، الشاعر الأيوبي : « الديوان : ص ٦ » :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا	ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه	عذبا فقد جهل المحبة وادّعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الص	بر الجميل فقد عفا وتضععا
هل في فؤادك رحمة لمتيّم	ضمت جوانحه فؤادا مّوجعا
هل من سبيل أن أث صابتي	أو أشتكى بلواي أو أن أتوجعا
إنّي لأستحيي كما عودتني	بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

الأبيات حلوة الرجاء ، جميلة التودّد تنمّ عن رقة الشاعر وصدق حبّه وأنه يقول الشعر عن تجربة .

ولم يتغزل شعراء هذا العهد بالصليبيات ولكنهم تغزّوا بالجمال التركي . وكان ابن عنين ^(١) مفتونا بضيق العيون التركية وصغرها .

يقول :

لا تعرضنّ لضيق المقلّ فتيت من أمن على وجل

(١) شاعر دمشقي هجا صلاح الدين والقاضي الفاضل فنفي من دمشق وبقي شريدا مدة ثم عاد وأصبح وزيرا فيها غير محمود السيرة (٥٤٩ - ٦٣٠هـ) .

واترك ظباء الترك سانحة لا تعترض لجبال الأجل
من كل مائسة منعمة غرّنى الأياطل فعمة الكفل
« الديوان ، ص ١٠ ، ٤١ »

ولم يقتصروا في ولعهم بالجمال التركي على النساء بل ولعوا كذلك بالغلّمان الأتراك .

قال الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن أبي الوفا الربعي الموصلّي المعروف بابن الحلاوي (ت ٦٥٦ هـ) في غلام من الترك من أبيات :

من الترك لا يصبّيه شوق إلى الحمى ولا ذكر بانّات العوّير يروقه
على خدّه جمر من الحسن مضرّم يشبّ ولكن في فؤادي حريقه
إذا خفق البرق اليمانيّ موهّنا تذكّرت فاعتاد قلبي خفوقه
حكى وجهه بدرّ السماء فلو بدا مع البدر قال الناس هذا شقيقه
على مثله يستحسن الصبّ هتكه وفي مثله يجفّو الصديق صديقه
« النجوم الزاهرة ٧ : ٦٠ »

ويقول فتّيان الشاغوري (٥٣٣ - ٦١٥ هـ) في اللواظ التركية :
أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي لكنّ متى ما طلبت العطف منه أبى
ظبي من الترك أصمتني لواظطه وأسهمّ الترك إن أصمت فلا عجباً
« الخريدة للعماد الكاتب ١ : ٢٥٤ »

وهذا المعنى ينظر إلى قول نور الدين زنكي :
إنّ قنطاريّات الفرنج ليس لها إلّا سهام الأتراك غير أنّ نور الدين قاله في
الحرب ونقله فتّيان الشاغوري إلى الغزل .
وقد أرّخ بعضهم لمن أحبّ الغلمان كأحمد بن يوسف التيفاشي (ت ٦٥١ هـ)
الذي ألف في ذلك :

« نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب » • ذكر فيه أوصاف الغلمان المرد
وأحوال من شغف بهم وما قيل فيهم •

ولم يتورّع ابن الساعاتي عن التغزّل بـغلام صغير متعبّد كان يجلس في جامع
دمشق مرتدياً ثوباً ملوّناً :

وغزالٍ لاح في حلّة جمعت من كل لونٍ مقترح
أشرقت ألوانها من وجهه فهو مثل الشمس في قبوس قزح

« ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٩٠ »

تطور النسيب :

واقتنى بعض الشعراء بأبي نواس في الخروج على وصف الاطلال ساخراً
(عاج الشقي ... وغيرها) • فسخروا مثله بكل ما يتعلق بالاطلال وملاعب الأحبة
في الجزيرة العربية واسماء الحبيبات العربيات المألوفة كهند ودعد والرباب والعريب
وزينب ...

واستعاضوا عن ذلك بما حولهم من طبيعة جميلة او طلبوا الوقوف على مرابع
مدنية •

فهذا عرقله الدمشقي من شعراء العهدين الزنكي والأيوبي^(١) يطلب الوقوف
بباب جيرون وباب البريد ويطلب الشرب والغناء والنزول بالاماكن الطبيعية
الجميلة :

قف بجيرون أو بساب البريد وتأمل أعطاف بان القدود
يا نديمي غنياني بشعري واسقياني نيسة العنقود
عرجا بي ما بين سطرى ومقرى لا بأكناف عالج وزرود

« الديوان ٣٢ - ٣٣ »

(١) ترجمته في الزركلي « الأعلام ج ٢ : ١٩١ وغيره » (٨٦ - ٥٦٧ هـ) •

وابن عَنَيْنَ بعد غيابه عن وطنه ورجوعه لا تعجبه مراع الحجاز بل مراع
الشام :

تلك المنازل ، لا أعقّة عالِج ورمال كاظمة ولا وادي القري
« الديوان ص ٤٠ »

ولا يريد فتان الشاغوري ان يذكر اسماء الامكنة والحبيبات في البادية بل يريد
ان يعرّج على البلدة التي يحبها :

دع العريّب والنقا وزينبا تجذب للبين بئري أعناقها
وعجّ على دمشق ثلث بلدة كأنما الجنات من رُستاقها
« العماد ، الخريدة ، الشام ، ج ١ : ٢٤٨ »

ج - المهسد الملوكي التركي :

قصر بعض شعراء هذه الحقبة شعرهم على الغزل ، أو كان الغزل أكثر شعرهم ،
كشمس الدين محمد بن سليمان التلمساني المشهور بالشابّ الظريف (ت ٦٨٢ هـ)
فقد كان أكثر شعره غزلاً ومنه :

لا أسهر الله طرفاً نام عن سهري	وعذّب القلب بالأشجان والفكر
ولا متى داره يوما ، إذا سقيت	دار " بدمعي ، إلا وابل المطر
يا قوم قد شفتني وجدي ببدر دجى	على قضيب أراك ناعم نضير
ظبي من الإنس لولا سحر مقلته	ما بت فيه بيل غير ذي سحر
في حاجبيه وعينيه ومنطقه	شبه من القوس والأسهم والوتر
روض الجمال وأفق الحسن فهو لذا	قد راح يجمع بين العنص والقمر

« الديوان ص ٤١ »

والأبيات جميلة جمع فيها الشاعر بين وصف المحاسن الجسدية وصفاً عاماً

وبين وصف حالته النفسية من السهد والبكاء وحال حبيبه من النوم والهناء • وهو فيها صادق الصبابة شديد اللوعة يدعو بأن يبعد الله عن حبيبه كل شر من دموع أو سهر •

وهو يستمد أوصافه الجسدية من عصره وما قبل عصره ، ويضم الى ذلك ما يعرف في علم البديع بالجمع والتفريق وفي علم البيان بالتشبيه المتعدد ، وذلك في قوله : « في حاجبيه وعينه ••• » •

ومن الذين جعلوا ديوان شعرهم كله غزلا التلعفري (ت ٦٧٥ هـ) وسرى نماذج من غزله •

وقد استعمل شعراء هذا العهد ألفاظ الحرب ومعانيها في الغزل كما رأينا قبل لدى فتیان الشاغوري أحد الشعراء المخضرمين بين العهدين الفاطمي - الزنكي والأيوبي (وأسهم الترك إن أصمت فلا عجباً) ، كقول الشرف الأنصاري :

مَلَامُكَ فِي الْهَوَى يَغْرِي وَيُشْجِي فَهَلْ مِنْ عَازِرٍ لِي مِنْكَ يَشْجِي
أَمَّا مَنْ مَسَلَمَ يَنْهَكَ عَنِّي فَإِنِّي مِنْكَ فِي أَسْرِ الْفَرَنْجِ

« الديوان ص ١١٤ »

ومنه قول التلعفري : (٥٩٣ - ٦٧٥)

حَمِيتْ شَقِيقَ الْخَدِّ بِالْمَقْلَةِ الْكَحْلَا وَثَقَّيْتُ بِمِخِ الْقَدِّ بِالطَّعْنَةِ النَّجْلَا
وَأَوْتَرْتُ قَوْسِي حَاجِبِيكَ ففَوَّتْ مِنْ النَّازِلِ السَّامِي إِلَى مَقْلَتِي نَبْلَا
وَأَطْلَعْتُ مِنْ حَبْسِ الْجَمَالِ طَلَائِعاً فَمَا أَرْخَصَ الْأَسْرَى وَمَا أَكْثَرَ الْقَتْلَى

« الديوان ص ٥٠ »

وأولع هذا العهد بالغلما ن أيضا • وقد تغزل الشاب الظريف بعلام بدوي على عادته في حب الجمال العربي والعرب :

بدوي كم جدّلت مقلّته عاشقاً في مقاتل الفرسان

ذو محيّا يصيح يا لهلالٍ ولِحاظٍ تقبول يا لسان

« الديوان : ٢١ »

وقد تغزل بالغلّمان حتى شرف الدين الأنصاري العالم الوقور العظيم المكانة
فقال في مثنًى رومي اسمه موزون :

روحي فداؤك يا موزون من قمرٍ تهتكى فيه معدود من الفُرَصِ

« الديوان : ٢٧٨ »

ويظهر أنّ الشعر كان لا يروج ويقبل عليه الناس إلاّ إذا جرى العصر في هذا
النوع من الغزل • يقول ابن الوردي : (الديوان طبعة حجرية سنة ١٣٣٠ هـ ص ٤٤) •

أستغفر الله من شعر تقدّم لي في المرد قصدي به ترويج أشعاري
ولا نكاد نفتح ديواناً من الشعر إلاّ وجدنا فيه هذا النوع من الغزل مهما كانت
أخلاق صاحبه •

وقد تصدى كثير من المصلحين لمحاربة هذا الشذوذ ومن هؤلاء ابن قيم
الجوزية في كتابه : « إغاثة اللهفان في مصاديد الشيطان » • وانضم اليهم في محاربتهم
بعض الشعراء كابن الوردي الذي يقول :

من قال بالمرد فاحذر أن تصاحبه بضاعة ما اشتراها غير بائعها يا قوم صار اللواط اليوم مشتهراً ذنب به هلك من قبلنا أمم جنات عدن عن اللوطي قد حرمت أستغفر الله من ذنب تقدّم لي لكن ذلك قول ليس يتبعه قوم اذا حاربوا شدوا ما زرعهم	فإن فعلت فشق بالعار والنار بئس البضاعة والمشتري والشاري وشائعا ذائعا من غير إنكار والعرش يهتز منه هز أنكار الله أكبر ما أعصاه للباري في المثرّد قصدي به ترويج أشعاري خنا وحاشاي من أفعال أشرار دون النساء ولو باتت باطهار
--	--

« الديوان (ط حجرية) سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ »

ويقول ابن الوردي :

ما المرد أكبرُ همّني
ولست من قوم لوط
وإنما خرّجُ دهرني
ولا نهاية علمي
حاشا تقاي وحلمي
كذا فنفت شعري

« سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ص ٢٥٥ والمرجع السابق نفسه »
وقد بلغ من استساغة الناس حينئذ لهذا الغزل انهم كانوا يبدؤون به قصائدهم
في مدح الملوك والأمراء ، بل أخذ بعضهم يبدأ به قصائد المديح النبوي *

ومن الغزل المذكور في هذه الحقبة قول التلمساني :

أيها المودعُ قلبي
كيف تستأهل نارا
نجم حسن لؤادي
نوؤه بالطرف والنار
نارَ وجدٍ توقد
مهجة تهوى محمد
فيه وجدي يتجدد
رُ بقلبي ليس تخمد

« ديوان الشاب الظريف ص ٣٣ »

وبلغ بهم الأمر أن شَبَّهوا بالملك العادل سلامش الذي ولي العرش بعد أبيه
الملك الظاهر بيبرس ، لجماله ، فقل ثغر سلامشي *

وقد ظهر في أواخر العهد الأيوبي وفي العهد المملوكي التركي نوع من الغزل
غريب هو التغزل بحور الجنة ونسائها ومشردها ، وقد شارك فيه الخليعون
والصالحون * وأكثر من ذلك غرابة أن نرى رجلا عالما عاقلا مثل ابن قيم الجوزية
الذي حصل لواء الإصلاح مع أستاذه ابن تيمية ، يعانيه ولعل ذلك كان منه من قبل
التعويض عن الغزل العادي *

وقد ثار شعراء هذا العهد على المطالع البدوية كسابقهم فيأبى التلعفري
ذكر ربوع لا يعرفها ويصرّح بأنه لا يعنيه إلاّ الجمال الذي يُثيره :

يا صاح دعني من ذكر العقيق ومن
ما لي وما لربوعٍ لست أعرفها
منازلٍ ليس لي في نعتها شانُ
ما الحب نعمٌ ولا الأوطان نَعمانُ

لولا الروادف تهتزّ القمدود بها ما شاقني الرمل من يرينَ والبانُ
أجلّ ولولا الظباء النافرات لسا سألتُ هل سنحت بالجِزْع غزّ لان

« الديوان ص ٤٥ »

ومن استبدال الشعراء الطبيعة الجميلة بالأطلال قول الشرف الأنصاري في قصيدة يمدح فيها الأمجد :

لم يَنسِه البعد روح الأُنس عندكم فلم يجدد لعهد القرب تذكارا
سنا هواكم الى لبنان أرشده فلم يقل يا لبني أوقدي النارا

« الديوان ص ٢٠٤ »

والجميل في ذلك انهم أحبوا أن يعبروا بصدق عن اللذات الفعلية التي كانوا يتذوقونها • فمن قول الشرف الأنصاري •

سَقياً لأوطار وأوطان بين سَنِيرٍ لي ولبنان
أركض أفراس التصابي من اللذات في أرحب ميدان

« الديوان ص ٤٩٢ »

وقد فضلوا الحديث عن اسم حبيبة حقيقية لا خيالية :

شامية شامت يمانى لحظها عليّ وأنضاني بمراى ومسمع
يذكّرني لمع البروق ابتسامها فترعد أحشائي وتنهل أدمعي

« الديوان ص ٣٠٥ »

الغزل بالأتراك :

وقد آثر أكثر الشعراء أن يشبّبوا بالأتراك وغيرهم من العناصر الأعجمية ومنهم قلة ، كالشباب الظريف ، آثرت في معظم غزلها العنصر العربي مخالفة ذوق عصرها واتجاهه العام ، قال الشاب الظريف :

قف بالركائب أو سقها بترتيب عسى تسير الى الحي الأعارب

واسأل نسيماً ثَفَّتْ أعطافنا أوصلاً
يا ربة الهودج المحميّ جانبّه
من أين جاءت ففيها نفحة الطيب
إلام حبشك يغريني ويثغري بي
« الديوان : ١٤ »

قال الصفدي (في شرح اللامية ، ١ ، ١١) : « وأما المتأخرون فانهم تغزّوا
بالعيون الضيقة ، وهي عيون الأتراك » ، وما ألفت قول القائل :

أبادية الأعراب عني فإنتي
وأهلك يا نجلا العيون فإنتي
بحاضرة الأتراك نيطت علائقي
فتنت بهذا المنظر المتضايق
« شرح اللامية ١ : ١١ »

أقول نعم ، فإن في الخمر معنى ليس في العنب ، وما أحق المتأخرين بقول القائل :
« كم ترك الأول للآخر » . ومنه قول ابن نباتة :

وخاطر عنت الأشواق تعجبه
من كل أغيد ضاقت عينه فمتى
جآذر الترك لا زيّ الأعارب
يجود لي من تلاقيه بمطلوبي
« الصفدي ، الغيث المنسجم ٢ : ١٦ » و « مملوكي ٢ ، سلام : ١١٥ »

ويلمح الشاعر هنا الى قول المتنبي :

مَن الجآذرُ في زِيّ الأعاربِ
حمرُ الحلى والمطايا والجلالِبِ
وبسبب هذا التغير في مقاييس الجمال كان الشعراء يرددون معاني الغزل
التقليدية في معارض جديدة أو مجددة كقول الشاعر (شرح اللامية ج ١ ص ١٨٢) :
أصغي الى قول العذول بجملتي
لتلقطني زهرات ورد حديثكم
مستفهماً منه بغير ملال
من بين شوك ملامة العذال
« شرح اللامية ١ : ١٨٢ »

وهو ينظر الى قول بشار :

وكان وقع حديثها
قِطْعُ الرياض كسين زهرا

ولكنه أضاف اليه احتمال الأذى من العذال في سبيلها كما يحتمل وخز الشوك في سبيل الحصول على الورد .

د - العهد الجركسي :

كان بعض شعراء العهد المملوكي الجركسي يستهترون مدائحهم بالغزل التقليدي وقد لا يققون فيه على الاطلاع بل يتحدثون عن حالاتهم النفسية مع الحبيب وعن محاسنه الجسدية ومن ذلك ما قاله أمين الدين أبو عبد الله بن محمد الأنصاري الحمصي الحنفي كاتب سرّ دمشق (ت سنة ٨٠٠ هـ) :

جفونٌ من تأرقها دَوامٍ	مدامعها تفيض على الدوامِ
فديتُ عيونَ من حرّمتُ عيوني	مناها من لقا طيب المنامِ
وراشت من لواظها نبالا	مراسفها شفين من السقامِ
إذا لاحظني فيصيب قلبي	على اللحظات موفور السهامِ
لها شفتان قد شفتا فؤادي	ولا شفّته إلا للغرامِ
أدامت لي مدامته ارتشافا	يموت من الصباية وهو ظامِ
وثغر من يعيش به ارتواءٌ	فواسكراه من ذاك المدامِ
ولما رام بدر الافق فخرا	وتشبهها بما تحت اللثامِ
بدت تختال عجباً عن عقود	وتبسم عن جمان بانتظامِ
فأزرى ثغرها بالدر نقصا	وأخجل وجهها بدر التمامِ
بعيشك يا كريم الخيم كن لي	معينا ان مررت على الخيامِ
وقل صبّ توصّل في أوان	له قلب تقطّع بالأوامِ
ولبّ همام بالذكرى ودمع	كوبل عطاء فخر الدين هامِ

« النجوم الزاهرة ج ١٢ : ١٦٤ »

ويلاحظ أن الشاعر قد أحسن التخلص في البيت الأخير الى المدح ، وان المتغزل به أنثى ، وقد تبين ذلك أكثر من مرة في القصيدة ، وأنّ الشاعر على كثرة تكلفه الصناعة البديعية ولا سيما الجناس قد أحسن التغزل فجاء بمعاني لطيفة وصور جميلة وعبر عن عواطف أصيلة في النفس الانسانية ، وانه قد غلب على معانيه وصوره

وتعايره الطابع التقليدي ، وان نفسه غزلة فاستجاب له الشعر بسهولة وأجاد الأداء .
وقد ابتدؤوا بعض المدائح النبوية بالغزل أيضاً كقول أحمد بن عبيدة
(٨٣١ - ٩٠٥ هـ) :

بأبي أزجٌ حوَّاجبٌ وعيون	سلبت بصادٍ للقلوب ونون
ففؤاديّ المعتلُّ منه ناقص	بمثالِ ذاك الأَجوفِ المقرون
يا نظرةً قد أورثت قلبي الردى	بأبي جفون معذّبي وجفوني
نظرتُ غزالاً ناعساً يرعى الكرى	فهى التي جلبت اليّ مَنوني
قال العذول وقعت في شرك الهوى	فأجبت هذا من فعال عيوني
يا قاتل الله العيونَ فانها	حكمت علينا بالهوى والهشون

• • • • •

خدعوا فؤادي بالوصالِ وعندما	ثبت الهوى في أضلعي هجروني
هجروا ولو ذاقوا الذي قد ذقته	تركوا الصدودَ وربما وصلوني
لم يرحموني حين حان فراقهم	ما ضرَّهم لو أنهم رَحَموني
ومن العجائب ان نسوا ودي ومن	وُدِّي لهم كلُّ الورى عرفوني

• • • • •

ما مَخَلَصِي في الحب من شرك الهوى	إلاّ بمدح المصطفى المأمون
زين الأعراب في القراع وفي القرى	ليث الكتاب لم يخف لمنون
بدرٌ تبدّى في حنينٍ للوغى	فسبى عياده بصارم وحنين
في البأس ما في الناس مثل محمد	كلا ولا في الحسن والتمكين
هو فاتح كالحمد ، أوّل سورة ،	وجميع أهل القرب كالتأمين

« الكواكب السائرة ج ١ ، ص ١٢٥ »

وقد جاء ابن عبيدة في المقدمة الغزلية ببعض مصطلحات نحوية أساءت في نظرنا
الى سائر غزله المعنوي والمادي . وليس المديح النبوي نفسه إلا لوناً من الغزل
المتسامي الذي عبر عنه فيه صاحبه عن حبه وتقديره للنبي . ويغلب على الغزل الذي
تستهلّ به المدائح النبوية أن يكون رصيناً مناسباً لموضوع مدح النبي خالياً من

التبذل وقد رأينا في هذا العهد شاعرا أدبيا هو النواجي (ت ٨٥٩ هـ) يجعل ألفاظ غزله في مطلع نبوية له مستمدة من مصطلحات الحديث النبوي وأسماء رجاله وذلك لأن نفسه كانت منغمرة في هذا الجو القدسي فهو يقول :

يا مَنْ حديثٌ غرامي في محبتهم مسلسل وفؤادي فيه معلول
روت جفونكم أني قتلت بها فياله خبرا يرويه مكحول

ومن ألوان الغزل في هذا العهد ما هو شبيه بالعذري ويعنى الشاعر فيه بالأحوال النفسية أكثر من الجسدية ومثاله قول ابن مليك الحموي :

ذكر الغضا فحنت عليه أضلعي وبكى العقيق فساقتته أدمغي
لله درم دموع عيني إتهما وقعت من الأجفان أحسن موقع
من لي بقلبي يوم كاظمة وقد ودعتهم لو خلّفوا قلبي معي
رجلوا فكان القلب أول راحل والصبر آخر ظاعن ومثودّع

« الريحانة ج ١ ص ١٨٩ »

ومن أنواع الغزل في هذا العهد الغزل الصوفي وهو في عشق ذات الإله ومثاله الأبيات التالية لعائشة الباعونية :

حبيبي أنت من قلبي قريب وعن سرّي جمالك لا يغيب
خلعت الحسن في خلع التجلي فشاهدت الجمال ولا رقيب
وأبدت الوصال فلا صدود ولا وهم ولا شيء يريب
وطفت عليّ في حان التصابي بكأس عيش شاربه يطيب
براح نلت أقصى الرّي منه وفي زي تراءت لي الغيوب
وزالت باستبوا شمسي ظلالني تجلّ ليس يعقبه غروب
وصرت إلى مقام ليس فيه سواك حبيب (قلبي له) نصيب
تنادمني وتسقيني مدامي وتحضرنني لديك فلا أغيب
وتذكرني وتشهدني جمالا تقدّس أن يكون له ضرب
فلا خوف وأنت أمان قلبي ولا سقم وأنت لي الطيب
ولا حزن وأنت سرور سري

« الكواكب السائرة، ج ١، ٢٩١ »

يلاحظ انها تستعمل معاني الغزل الانساني ومعاني الخمر وألفاظهما في حديثها عن الحب الإلهي وانها تصور بواسطتهما مختلف انفعالاتها الروحية وهي في ذلك استمرار للشعراء الصوفيين قبلها ومستوى التعبير الفني في هذه الايات ليس جيدا وقد أساء اليه اضطرار القارئ في الشطر (سواك حبيب قلبي له نصيب) الى لفظ الياء كالبكرة في قلبي ليستقيم له الوزن وذلك لا يجوز في العروض • وقد يكون ذلك وقع من تحريف النسخ •

ومن أنواع الغزل في هذا العهد الغزل بالمدكر الذي استمر فيه لاستمرار الانحراف الخلقي في المجتمع ومثاله هذه الأيات لابن مَلَيْك الحموي (١) التي يتغزل فيها بالعدار والخال :

طرازُ ذاك العِذار مَن رَقَمَـه	ودرّ دمعِي بفيه من نَظَمَـه°
وخاله فوق كنز مَبْسِـمِـه	بالمسك قفلا عليه من خَتَمَـه
من° لي به ظالم الجفون سَطَا	ظلماً على صبّه وما رحِمَـه ؟ !

« الريحانة ، ج ١ ص ١٨٩ »

فالكلام عن العذار في الأيات يدل دلالة قاطعة على أن المتغزل به غلام •

(١) هو علاء الدين بن مَلَيْك الحموي (٨٤٠ - ٩١٧ هـ) ترجم له في خبايا الزوايا لوحة ٥٣ ب باسم « علاء يدين » وفي ديوان الاسلام لوحة ١٨١ . وفي الكواكب السائرة ٢٦١/١ .

الشعر الخمرى والحشيشي

١ - الخمرى :

تمهيد يشمل العهود الأربعة :

كان شرب الخمر منتشرا في هذه الحقبة ، حمل عليه سوء الحالة الاجتماعية حينئذ وضعف الأخلاق وكان الناس يشربون الخمر جهرة ، بل ان الحكومة أحيانا كانت تأخذ ضريبة من دور اللهو والخمر والفاحشة وقد رأينا ان يبرس يغلق هذه الدور ويحطم آنية الخمر ويحرق الحشيشة ويعاقب على شرب الخمر وتناول الحشيشة بالقتل والصلب فيبالغ في العقوبة ومع ذلك فلم يكن الناس يؤخذون بالشدة دائما كما كان حالهم مع يبرس ، فأكثر المماليك كانوا ينغمسون في اللهو وكان الناس غالبا بل دائما على دين ملوكهم • ولطبيعة الشام ومصر ووفرة ما فيهما من حانات ومنتزهات وعنب وتمر أثر كبير في الشرب واللهو لتوافر الخلوات للشاربين واللاهين بمنجى عن عيون المراقبين ، بل ان انتشار الأديرة فيهما قد ساعد على ذلك بما كان يتوافر حول الأديرة وفيها من كروم وخمر وتساهل واستثمار •

لذلك كثر تغني الشعراء بالخمر وعثوا بوصفها ولعا بها أو تقليدا للمولعين حتى لا يُعده الشاعر مقصرا عن غيره في هذا الميدان •

وشاركت الحروب الصليبية ثم التترية في انتشار فلسفة الاستمتاع بالحياة قبل زوالها ، فان تعرض الناس للقتل والأسر والنهب والافتراق عن الاهل والبعد عن الوطن والتعرض لزوال النعمة وللظلم وسائر اصناف الشر دفع كثيرا من الناس الى انتهاز فرصة العيش للعب من لذاتها قبل الموت والفناء أو قبل الذل والقهر أو لسيان حالة الشقاء والاضطهاد والالام والحزن ، ولذلك نرى الشعراء يدعون كثيرا الى طرد

الهموم بالخمير او الحشيشة ، ونحب ان نقول هنا ان هذا هو رد فعل الضعيف فهو شبه اتحار للمجتمع ، وكان الأفضل الكفاح في سبيل الأفضل .

كان لهذه الفلسفة المستمتعة المتشائمة أصولها الاولى لدى أبي نواس وأصحابه وانتشرت اثناء هذه الحقبة في بلاد فارس على يد عمر الخيام ثم امتدت الى الشام وكان من فرسانها عرقلة الكلبي وابن الساعاتي والتلعفري وغيرهم .

وكانت الخمر في هذه الحقبة و في غيرها مطية الى المجون والعبث والإباحية ففي مجالسها كان يخلع العذار ويستمتع بالغناء والرقص ويتمادي في ذلك الى الاستمتاع بالجواني والغواني والعلمان وبالأحاديث المستهترّة العابثة وتبادل النكات والنوادر المضحكة أو الساخرة أو الماجنة .

وكانت مجالس الخمر تقام غالبا في رحاب الطبيعة تحت ظلال الأشجار ، وعلى حوافّ البرك والأنهار أو في الأديرة والدور على منظر المطر الهائل والرعد الهادر والبرق اللامع كما كان الأمر في العهود السابقة منذ الجاهلية .

١ - العهد الفاطمي - الزنكي :

قد يصف الشاعر الخمر بعد أن يدعو إلى مباركتها والاستمتاع برغبة العيش على رغم الزمان . ثم يذكر تمرّده على الدين وعصيانه أوامره في شربها ، ويزيد فيجعلها قبلة يسجد لها على تسبيح الأوتار وقد غفل الدهر عنه . وذلك ما نراه عند ابن قسيم الحموي في المقطوعة التالية :

تدركا كلّ الأمانى	باكرا شمس القناني
عيش على رغم الزمان	وخذا في لذّة الـ
سجدة في قلب الجبان	من عتقار تبعث النـ
ج قميصا من جثمان	قهوة ألبسها المزـ
لاح في أحمرّ قانـ	فهي من أبيض صافـ
ت تغور الأقحوان	كخدود الورد من تحـ
سق عن الغيّ نهاني	عاصيا الخلق إذا الخلـ

وإذا الله إلى الرشيد دعاني فدعاني
إنما البغية أن أصح ساجداً في قبلة الكأ
سبح مخلوع العنان
س لتسبيح المثاني
أبدأ أين مكاني
حيث لا يعلم دهري

« الخريدة ١ : ٤٤٩ - ٤٥٠ »

ونراه هنا يشبّهها بالشمس ويصف بعثها الشجاعة في قلب الجبان ويشبّه
حبابها باللؤلؤ ، ولونها بجمرة الورد ثم يعود فيشبّه حبابها بالأقحوان .

ومن معانيهم أحيانا أنهم يدمنون شربها وأنهم يواصلونه من مغيب الشمس
حتى شروقها قال أبو الحسن علي بن أبي البشر الكاتب :

شربنا مع غروب الشمس شمساً مشعشة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمس فوق النيل بادئ كأطراف الأسنة في الدروع

ويسكرون أحيانا بجمال الطبيعة فتطلب نفوسهم الخسر ولا يرضون أن
يشربوا إلا بالكؤوس الكبيرة و يستثقلون من لا يستجيب لداعي الهوى والمتعة .

قال أبو الصلت أمية ^(١) (٤٦٠ - ٥٢٩ هـ) يستقي الخمر في بركة الحبش
في القاهرة يوم سحاب :

لله يوم بي ببركة الحبش والنيل تحت الرياح مضطرب
والأفق بين الضياء والغيش ونحن في روضة مفوفة
كصارم في يمين مرتعش قد نسجتها يد الغمام لنا
دبج بالنشور عطفتها ووئشي فاعطني الراح إن تاركها
فنحن من نسجها على قرش وأسقني بالكبار مترعة
من سورة الهم غير منتعش فهي أروى لشدة العطش

(١) هو أبو الصلت الداني أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني ، حكيم أديب
سجنه الأفضل شاهنشاه ونفاه فرحل إلى الإسكندرية ، ثم انتقل إلى
المهدية واتصل بأميرها يحيى بن تميم الصنهاجي وابنيه ومات فيها .

فأثقل الناس كلهم رجل دعاه داعي الهوى فلم يطش

« خطط المقريري ٣ : ٢٥٠ »

فأثقل الناس عند الشاربين أن يجالسهم على الشراب من لا يشرب ومن لا
تستثيره دواعي السرور •

وقد يغلب وصف الطبيعة على وصف الخمر • مثال ذلك قول أبي الصلت بن
أمية نفسه في هذه البركة مرة أخرى :

علل ° فؤادك بالذات والطرب
أما ترى البركة الغناء لابة
وأصبحت من جديد النبت في حلل
من سوسن مشرق بالطل محجره
وانظر إلى الورد يحكي خد محتشم
والياسمين وقد أربى على دثر
كم مرة قد شفيانا فيه غللتنا
شمس من الراح حيانا بها قمر
أرخص ذوائبه وانهز منعطفاً
فأطرب ودونكها فاشرب فقد بعث

وباكر الراح بالنايات والشخب
وشيا من النور حاكته يدا السحب
قد أبرز القطر منها كل محتجب
وأقحوان شهبي الظلم والشنب
من فرجس ظل يدي لحظ مرقب
والراح من دثر تطفو على ذهب
بجاحم من فم الإبريق ملتهب
مؤف على غصن يهتز في كئيب
كصعدة الرمح في مسودة العذب
على التصابي دواعي اللهو والطرب

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٨٦ »

فهذه الأبيات فصلت في وصف الطبيعة بالنسبة إلى سابقها ووصفت الساقى
فاستمدت أوصافه من الطبيعة بتأثير التداعي والتقليد ، ولكن الأبيات السابقة أكثر
حرارة وعاطفة •

وقد يبلغ الولع بالخمرة واللذة حد المجون على أسلوب أبي نواس في
الحياة • ومن ذلك قول يحيى بن علي الكتبي : « الخريدة ج ١ ورقه ١٠ » وعنه
« الحياة الأدبية ، بدوي : ١٠٢ » .

أنا نائب الشرع النواسي دعني وباطيتي وكاسي
أهوى الغزالة كاعبا وأهيم بالطبي الخماسي
من كل معتدل ، رشيق القصد مشقوق خلاسي
لكن لإفلاسي حبت السامري بلا مساس
لي منزل لا شيء فيه كآته كيسي وراسي

ب - العهد الأيوبي :

شاع الحديث عن الخمرة بين الشعراء في هذا العهد فأوحى ذلك إلى الشعراء
المتصوفة أن يتخذوا من الخمر وسيلة للحديث عن نشوتهم بالاتصال بالآفاق
السمائية كما فعل ابن الفارض وابن عربي وغيرهما .

قال ابن الفارض : (وينسبها زعلول سلام في الأدب المملوكي ج ١ ص ٢٣٧
لتلميذه ابن الخيمي) :

وقم بنا نحو ابنة الكرم أم الزهر	وزوج الماء أخت النهار
ثم اجلثها عذراء من ذاتها	صيغت حلاها والحباب النثار
صهباء ، خمر ، قرقف ، سلسل ،	مدامة ، راح ، سلاف ، عثفار
كوجنة الساقى فلا غرو أن	يخلع أن تجلى عليها العذار
صفراء لا أملك في حبها	ملا ، ولا أملك عنها اصطبار
ولا أخاف النار في شربها	لأنني أشربها وهي نار
ما أذهبت عقلي ولكن أطا	رته إلى أفق المعالي فطار
فعاطني يا صاح كاساتها	وأسقني واشرب نهارة جهار
وهات يثمناي من صرفها	كأساً وأخرى هاتها باليسار

ويلاحظ على ابن الفارض هنا أنه يلمح بعض التلميح إلى أن خمرته ليست
الخمرة المعروفة ، فهي خمر لا يملك ثمنها وهي خمر أطارته إلى أفق المعالي ولا يخاف
النار في شربها . وكل ذلك قرائن على أنها الخمر الروحية لا المحسوسة . ولا يوجد
هذا التلميح في كل خمرة صوفيّة .

و نرى أن "خمرة" هنا هي الخمرة الإلهية ، فهو يسكر بالاتصال بالأجواء العليا السماوية عن طريق قلبه ويتشبي بالمعاني الروحية التي تخطر في باله ، ويستعير ألفاظ الخمر المادية ، ومعانيها للخمرة الروحية لتقريبها إلى الأذهان إذ ليس في معاجم البَر ما يدل عليها إلا بطريق هذه الاستعارة الرمزية •

فهو يشبه مواجده الروحية بالشوق إلى الشرب ، وسكره بثمرات خلواته الصوفية بسكر الشاربين ، ونشوته بنشوتهم •

ولقد زاد الاهتمام بالخمير في هذه الحقبة حتى أصبح لها في دواوين الشعراء أبواب خاصة بها وبالمجون حتى إن نور الدين الإسعدي أبا بكر محمد (٦١٦ - ٦٥٦ هـ) نديم الملك الناصر صاحب حلب ، وكان شاباً خليعاً مستهترا ، أفرد ديواناً خاصاً للخمریات والهزليات سمّاه « سلافة الزرجون في الخلاعة و المجون » • وقد تابع في ذلك كثيرون •

ولا يكتفي الشعراء الخمريون غالباً بوصف الخمر بل يصفون أنفسهم يشربونها عامين من عهد الغواني الحسان وعلى أنغام الموسيقى • قال عرقلة الكلبي يستسقي الخمر ببيت اسحابة وأمامهم غانية جميلة :

أدر يا طلعة البدر	علينا أنجم الخمير
وقطّع لنا بالكأ	س حتى مطلع الفجر
على فتانة العينين	من ولى "يسن" والشعر
لنا في وجهها قمر	ومن نعماتنا قمر
كذا فليشرب الصهباء	مثلني يا ذوي الشعر
كذا في ليلة الجمعة	بل في ليلة القدر
مع الفتيان في الحاننا	ت بين الطبل والزمر

« خريدة ، شام ج ١ ، ٢٧٠ »

وهم يرددون كثيراً أنهم يريدون أن ينتهبوا اللذات قبل أن يصيح بهم سائح الموت • يقول عرقلة في مطلع خمريه له :

نديمي قم فقد صفت العقار
إلى كم ذا التواني في الأمانى
وقد غنى على الأيك الهزار
أفق ما العمر إلا مستعار
« الخريدة : شام ١ : ٢٧٠ » و « الديوان : ٣٩ »

وقد لا يذكر الشاعر الهموم ولكنه يدعو إلى اغتنام بهجة الأيام والأعمار قبل
أن تولي • قال عرقله :

خرف الخريف وأنت في شغل
أوراقه صفر وقهوتنا
عن بهجة الأيام والحب
صفراء مثل الشمس في لهب
وقد يجمع الشاعر بين دعوته إلى انتهاب اللذات ورغبته في صرف الهموم ، وبين
لذاته بالخمر واستمتاعه بوجه الساقى ، قال ابن الساعاتى :

قم تنهب اللذات قبل فواتها
فإنك غمر لم تذق لذّة النّهب
فيانعمة الحسنى بوجه مديرها
وإن كان صرف الدهر بالغ في الذنب
« الديوان ج ١ : ١٤٧ »

ويؤثر الشاعر غالبا أن يصوّر مجلس شربه وأن يكون هذا المجلس في محراب
الطبيعة الجميلة •

قال ابن الساعاتى يصف مجلس خمر بأرض النيرب من دمشق في هيكल الطبيعة
البديع وعلى منظر المطر والبرق ومسمع الرعد : « الديوان ٢ : ١٦٨ » :

لله يسوم النيربين ووجهه
وكأنما فنّ الأراكمة منبر
والرعد يشدو والحيا يسقي وغصن
وكأنما الساقى يطوف بكأسه
بكر بها تقّع الغليل ومعجب
يفتضها ماء الغمام ويأله
حمراء حاربنا الصروف بصرفها
والقطر نبّل ، والغدير سوابغ
طلّق وثغر اللهو ثغر أشنب
وهزارها فوق الذؤابة يخطب
بدر الدجى في الكفّ منه كوكب
نقع الغليل بثجذوة تتلهب
عجبا غداة الدجّن وهو لها أب
فزجاجها بدم الهموم مخضب
موضونة والبرق سيف مذهب

نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات قد شبه الطبيعة أو لا بأشياء دينية : المنبر والخطيب ، ثم شبهها بأمور فنية : يشدو ، يسقي ، يرقص ، يشرب ، ثم بأشياء حربية : نبل ، سوابغ ، سيف ، ثم نراه يشبه الخمر بالبنت والماء بالأب الذي يتزوجها فيكون ذلك من قبيل الإلغاز والإغراب ، ويستعين بها في حرب الهموم ، ثم هو يأتي في ثلاثة أبيات من أبياته بما يسمى مراعاة النظر وهي الثاني و الثالث والأخير •

ج - العهد المملوكي التركي :

كان من أثر الأديرة في وصف الخمر أن اقتبس بعض الشعراء كثيرا من معانيهم والفاظهم فيها من النصرانية • من ذلك قول التلعفري (٥٩٣ - ٦٧٥ هـ) :

<p>من جانب الدير تحت الليل بالعيس يوشع وتوما وكركر ثم كركيس تجل في الوصف عن عيب وتدنيس قد عتقتها أناس في النواويس ما كان من آدم قدما وابليس إذا بدت بين شمّاس وقسيس لها بأشرف تسييح وتقديس في كأسها عن سليمان وبلقيس لخاف من سطاها ضيغم الخيس يميس في رية مثل الطواويس ما دامت الشمس مع تلك الشماميس كأس المدامة إلا فارغ الكيس</p>	<p>عج حين تسمع أصوات النواويس وانزل بحانة يوحنا وصاحبه صفت فرقت وراقت وهي ذات سنى مستخبرا عن كميّ اللون صافية مر الزمان عليها فهي تخبر عن ترى الرهايين صرعى من مهابتها تتلى الانجيل تعظيما إذا حضرت لها أحاديث ترويه إذا مزلجت لو ذاق منها غزال السرب مضمضة يسعى بها من نصارى الدير بدر دجى فاصرف بها صرّف خطب الدهر مغتتما واحذر ملال قلال الدير مجتليا</p>
---	--

« الديوان التلعفري ص ٢٠ - ٢١ »

فقد تأثر الشاعر في أخيلته ومعانيه وهو يشرب الخمر في الدير بما يتصل بالدير من شعائر ومشاعر وأشياء فهو يذكر النواويس وأسماء مسيحية ويصف الخمر

بالظهر متأثرا بنعت السيدة العذراء وينعتها بالقدم فيتداعى الى خياله عصيان آدم وكبرياء ابليس مارا بذكر مقابر المسيحيين التي تعتق قربها او فيها ويصفها وصف اجلال لانه في مكان عبادة ويذكر بمزاجها سليمان وبلقيس لما تنضح به شاربها من شعور بالقوة والرفعة فلو كان غزالا في سرب لهاجم اسدا في عرينه وأرهبه ثم يشبه ساقها النصراني بالبدر وبالطاووس ويعلمنا انه يشربها لينسى همومه ويشبهها بالشمس فيجائس بين هذه وبين الشمامسة وينصح الشارب ألا يملّ شربها من قلال الدير ما دام في كيسه شيء من المال وهو يصور في البيت الاخير حقيقة حاله •

وقد عرف بعض الشعراء بالاستهتار في وصف مجالس الخمر • ومنهم الشاب الظريف الذي يقول في خمرة له :

ناوليني الكأس في الصبح	ثم غني لي على قدحي
وأديري شمس وجهك لي	فضياء الشمس لم يثح
واشغلي كفتيك في وتر	لا تهدريها الى الشبح
واذا أطربتني وبدا	باتشائي حال مفتضح
عائقني باليدين كما	يفعل الأجاب من فرح
وإذا عاتقت من طرب	غصن بان منك متشح
فدعي أزرار طوقك عن	صدرك الفتان بالثح
ثم روعي بالأمان فمش	لي بسر قط لم يثح

« الديوان : ٢٤ »

فالشاب الظريف هنا يستسقي غادته الجميلة الخمر ويتملى جمال وجهها ويرغب أن يستزيد فيسمع جمال موسيقاها وغنائها ويطمع في أن تعانقه بعد ذلك ويعانقها وأن تدع أزرار طوقها تنفتح عن صدرها المليح وأن تمتعه بقوامها الذي يشابه غصن البان ويعدها بعد ذلك كله بصون سرها !! •

فالشاعر هنا لم تعد تكفيه لذة الشرب والسماع ، بل يصمّم أن يستبيح جميع فنون اللذات الجسدية •

وقد يذكر الشاعر دواعيه إلى الخمر وغيرها من أسباب المتعة • يقول
التلعفري :

تلك الجنان التي حيث التفتّ ترى
تدعوك فيه إلى اللذات أربعة
ظلّ ظليل وماء بارد غدق
قصراً مثيراً به حُورٌ وولدان
بيع الحياة بها ما فيه خُسران
وجوسق مشرف عالٍ وبستان

« الديوان ص ٤٥ »

فدواعيه إلى الشرب هنا مرأى الحور والولدان في قصور بديعة مثيرة تحفّ
بها البساتين والظلال والمياه ..

وقد يصف الشاعر الخمرة وصفا يشعرنا بكثرة تجاربه فيها • يقول شرف
الدين الانصاري يتحدث عن الخمر ويتغزل :

قم فاصطحبها وأرحّ سرّكا
وعاطني منها المدام التي
يا يوسف الحسن الذي وصفه
إن دمعت عيني فمن أجلها
أوقعني إنسانها في الهوى
صبّحك الله بما سرّكا
أشرب منها دائماً سرّكا
ان يملك الناس ولا يملكها
بكى على حالي من لا بكى
« يا أيها الانسان ما غرّكا »

« الديوان ص ٣٨١ »

يشكو الشاعر سيطرة الخمر على نفسه ويطلب من الساقى ان ييادله الكؤوس
ويجعل من عادة هذا الساقى ان يملك الناس ولا يملك ويصف نفسه بانه لا يبكي
الا لحرمانه حتى يبكي الناس من اجله ويقتبس شطره الاخير من الآية الكريمة « يا
أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » •

ويردّد التلعفري في أبياته التالية ما قاله عرقلة الكلبي قبله في ضرورة انتهاب
اللذات قبل مداومة الموت :

يا نديمي كم ذا التواني عن اللهو ، وهذي المدام والأوتار
فاصرف الهمّ إن ألمّ بصرف ذات معنى فيها العقول تحار

واغتتمها من كفّ ظبية خدرٍ في يديها من صبغها آثار
« ديوان التلعفري ص ١٥ »

ولكنه يزيد على صاحبه أنّه إنما يشربها ليعبد عنه طيف همومه المؤرّقة وأنّه يشربها من كفّ حسناء كالظبية قد اصطبغت يداها بها .

ح - العهد المملوكي الجركسي :

لم نستكمل دراستنا عن هذا العهد ومطالعة مراجعه . ولم نجد فيه حتى الآن إلا ثلاث مقطوعات قصار في الخمر ، ونرجو أن نستدرك هذا النقص .

أولاهما - لابن مكّاس (ولم يذكر الابشيبي في المستطرف ، ج ٢ ، ص ٢٥٥) حيث وجدناها أهو الأب أم الابن . ونلاحظ أن الشاعر اتخذ لها قالب المقطوعة لا قالب القصيدة لفقر الفكرة عنده أو لأنّ خاطرة عنّت له عنها فنظمها في بيتين، وهما :

نزل الطلّ باكراً وسروري تجسّدا
والندامى تجسّعوا فاجل كاسي على الندى

وواضح أنّه من حيث المضمون يتحدث عن رغبته في شرب الخمر صباحاً وليس بشيء . وهو من حيث الشكل يجانس جناساً غير تام بين الندامى ويورّي بالندى في آخر البيت الثاني مريداً الندى بمعنى الكرم الذي يدفعه الى سقي نداماه المجتمعين الخمر . وكأن الغرض من هذين البيتين هو ايراد الجناس والتورية المذكورين .

وثانية هذه المقطوعات - لشهاب الدين الحجازي (ت ٨٧٤ هـ) :

كأسنا يا صاح صرفاً جليت بين الندامى
لم نجد ماء لمزج فقنعنا بالندى ما

« المستطرف في كل فن مستظرف ص ٢٥٥ »

ويبدو لي أنّ غرض الشاعر هنا ليس وصف الخمر والتحدث عنها وإنما هو ايراد الجناس الملفّق بين قافيتي البيتين (الندامى الندى ما) وقد حذف الهمزة

بعد ما ، وأصلها ماء ، ثم التورية بالندی مريداً أنه أحل الندى محل الماء بينما يتوهم السامع أنه قنع بأصدقائه الندامى عن الماء .

والثالثة - لتقي الدين بن حجة (٨٣٧ هـ) وهي هذان البيتان :

حيّا بها عاصرها في كأسها مشرقة باسمه كالثغر
وقال هذي تحفة في عصرنا قلت اسقينا يا إمام العصر

وأتصور أن غرض الشاعر منهما ليس وصف الخمر وإنما هو التورية بكلمة العصر في آخر البيت الثاني موهماً أنها بمعنى القرن من الزمان وهو يريد عصر الخمر مصدر عصر وهي المناسبة لموضوع البيتين ويصح أن تكون التورية في عصر الأولى بحيث يريد أنه لم يعصر مثلها لأنها تحفة هذا الزمان وأنه أحسن من يعصر الخمر فهو إمام في ذلك .

ب - الشعر الحشيشي :

١ - العهد الفاطمي - الزنكي :

لم يعرف تناول الحشيشة في هذا العهد وبديهي ألا يوجد شعر فيها خلاله .

ب - العهد الأيوبي :

عرفت الحشيشة في النصف الأخير من العهد الأيوبي وأوّل من استعملها المتصوّفة الحيدريون ، ونظم الشعراء فيها وظهرت المفاضلة بينها وبين الخمر ، وقد تكون هذه المفاضلة للإدلال على القدرة الفنيّة كما نرى ذلك عند نور الدين الإسردي^(١) (ت ٦٥٦ هـ) الذي نراه يفضّلها تارة على الخمر وتارة نراه يذمّها ويفضّل الخمر عليها .

لك الخير لا تسمع كلام المنفد ودونك في فتياك غير مقلّد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع مقالة ذي رأي مصيب مسدّد

(١) ترجم له في (فوات الوفيات ج ٢ ، ص ٣٣٣) والقصيدتان في مدحها وذمها في المرجع نفسه .

وَحَقَّقْ مَا بِالْخَمْرِ بَعْضَ صِفَاتِهَا
عَلَيْكَ بِهَا خُضْرَاءُ غَيْرِ مَبَالِغٍ
وَلَكِنْ عَلَى رَغَمِ الْمُدَامِ هَدِيَّةٍ
رِيَا حَيْثُ يَحْكِي الْجِنَانُ اخْضَارُهَا
مُدَامَتُهُمْ تَنْسِي الْمَعَانِي وَهَذِهِ
هِيَ السِّرُّ تَرْقَى الرُّوحُ فِيهَا إِلَى ذُرَا
بَلِ الرُّوحُ حَقًّا ، لَا تَحُلُّ بِرَبْعِهَا

أَتَشْرَبُ جَهْرًا فِي رِبَاطٍ وَمَسْجِدٍ
بِأَبْيَضٍ وَرَقٍّ أَوْ بِأَحْمَرٍ عَسْجِدٍ
تَنْزَهُ عَنْ يَبِيعِ لَغِيرِ التَّزْهُّدِ
وَحَمْرِهِمْ كَالْمَسَارِجِ الْمُتَوَقِّدِ
تُذَكِّرُ أَسْرَارَ الْجَمَالِ الْمَوْحَدِ
مَعَالِمٍ فِي مِعْرَاجِ فَهْمٍ مَجْرَدِ
هَمُومٍ وَلَا يَحْظَى بِهَا غَيْرُ مَهْتَدِ

وتبدل هذه الأبيات على أن الحشيشة لم تكن محرمة في زمن الشاعر ، وأنها كانت تتناول في المساجد والخانات . وقد تبين لنا أن الملك الصالح أيوب قد حرّمها على الناس في آخر العهد الأيوبي ، ثم حرّمها بعده بيبرس في العهد المملوكي التركي .

وقال الأسعدي في ذمّها وتفضيل الخمر :

أَتَرْضَى بِأَنْ تَمْشِيَ شَبِيهَ بَهِيمَةٍ
فَدَعُ رَأْيَ قَوْمٍ كَالدَّوَابِّ وَلَا تُدْرِكُ
مُدَامٌ إِذَا مَا لَاحَ لِلرَّكْبِ نَوْرُهَا
حَشِيشَتُهُمْ تَكْسُو الْمَهْيَبَ مَهَانَةً
وَتَبْدِي عَلَى خَدَّيْهِ مِثْلَ اخْضَارِهَا
وَتَفْسِدُ مِنْ ذَهْنِ النَّدِيمِ خِيَالَهُ
وَحَمْرَتُنَا تَكْسُو الذَّلِيلَ مَهَابَةً

بَأَكْلِ حَشِيشٍ يَابِسٍ غَيْرِ أَرْغَدِ
سَوَى دُرَّةٍ كَالْكُوكَبِ الْمُتَوَقِّدِ
وَقَدْ حَلَّ لَيْلًا عَادَ بِالنُّورِ يَهْتَدِي
فَتَلْقَاهُ مِثْلَ الْقَاتِلِ الْمُتَعَمِّدِ
فَيُضْحِي بِوَجْهِ مَظْلَمِ اللَّوْنِ أَرْبَدِ
فَيَنْظُرُ مَبِیْضَ الصَّبَاحِ كَأَسْوَدِ
وَعِزًّا وَيَلْقَى دُونَهُ كُلَّ سَيِّدِ

ج - العهد المملوكي التركي :

تغنى بعض الشعراء بالحشيشة في هذا العهد كما تغنّوا بالخمر ، وقد أعجب بعضهم ببستان في مصر تزرع فيه سمّي البستان الكافوري . ومن شعرهم فيها قول ابن الصائغ جلال الدين أحمد بن المعز ذاكراً أنّه لا حدّ على الحشيشة ، على الضدّ من الخمر :

عَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى وَقَدْ زَارَنِي
وَالْبَحْرُ قَدْ مَدَّ عَلَى مَتْنِهِ

كَالْبَدْرِ وَافِي لَيْلَةِ الْبَدْرِ
شَعَاعُهُ جَرّاً مِنَ التَّبَرِّ

خضراء كافورية رتحت
 يفعل منها درهم فوق ما
 فراح نشواناً بها غافلاً
 قال ، وقد نال بها أمره
 قتلتني قلت نعم سيدي
 أعطافه من شدة السكر
 تفعل أرطال من الخمر
 لا يعرف الحلو من المر
 فبات مردوداً إلى أمري
 قتلين بالسكر وبالبحر
 « الخطط : ٣ و ٢ : ٢٦ »

وهذه الايات تصور الغيبوبة بالحشيشة وتجعلها كالغيبوبة بالخمير ، كما
 تصوّر استغلال السكر بها لارتكاب الفاحشة في الحبّ الشاذ .

وقد يقول الشاعر إنّه يفضل الخمر فإذا لم يجدها قنع بالحشيشة . قال ابن
 الصاحب أحمد بن يوسف في نشدان السكر :

يا نفس ميلي إلى التصابي
 ولا تملي من سكر يوم
 فالهوى منه الفتى يعيش
 إن أعوز الخمر فالحشيش

« النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ - ٣٨٠ »

فهو لا يتناول الحشيش إلا اذا فقد الخمر . ولكننا نرى هذا الشاعر نفسه
 يقول بأنّ الحشيشة نهاية مرامه :

في خمار الحشيش معنى مرامي
 حرّموها من غير عقل وتقل
 يا أهيل العقول والأفهام
 وحرام تحريم غير الحرام
 « المرجع نفسه ، والشذرات ٥ : ٤٠٣ »

ونراه في هذين البيتين يستعمل الجدل الفقهي فيقول : لقد حرّموا الحشيشة
 بقياسها على الخمر ، غير مستنديّن إلى عقل ولا نقل ولا يجوز تحريم ما ليس حراماً .
 ويصوّر لنا البيتان المعركة بين فريقين من الفقهاء والشعراء في تحليلها وتحريمها .

د - العهد المملوكي الجركسي :

لم نستكمل دراستنا عن هذا العهد ومطالعة مراجعه ، ولم نجد فيه حتى الآن
 أيّ نصّ عن الحشيشة ونرجو أن نستدرك هذا النقص لأننا نتوقع وجود مثل هذه
 النصوص فيه .

الفنون المستجدة

تمهيد :

اقتصرت التجديد في أوائل العصر العباسي على استعمال المزدوج والمخمس ، ولم يتناول البحور فقد كان ينظم منهما على بحور الشعر المعروفة وبخاصة الرجز ، فكان الشاعر ينظم الشطور ويربط بين كل اثنين منها بقافية ويجدد القافية في كل بيت من القصيدة فيكون من ذلك المزدوج ، أو يجمع بين أربعة شطور في قافية واحدة يجدها في كل دور ويلحق بالشطور الأربعة شطراً خامساً يجعل القافية فيه لازمة في كل القصيدة فيكون من ذلك المخمس .

واستمر التيار التقليدي المعروف في الشعر منذ الجاهلية أثناء هذه الحقبة ولكن تطور الحياة في المشرق والمغرب قد أدى الى وجود تيار جديد في الشعر من حيث الفنون ومن حيث الأوزان وقد جاء بعض هذا التطور من المشرق ، ومما جاءنا منه الدوبيت والموالينا ، وجاء بعضه الآخر من المغرب ، ومما جاءنا منه الموشح والزجل .

الموشح :

لن نتحدث عن نشأة الموشح وأطواره في الأندلس والمغرب ، وسنكتفي بالتحدث عن أحواله حين انتقل الى الشرق العربي في بداية العهد الأيوبي . وعلى ذلك فانشأ لا نجد خلال العهد الفاطمي - الزنكي أي موشح . وقد انتقل هذا الفن الى

(١) ارشاد الأريب ٥ : ٣٠ .

المشرق بعد أن اشتد عوده : حمله اليه الوافدون من الأندلس من الأدباء والمتصوفة والفقهاء وسائر العلماء ممن حفظوا الموشحات أو حملوا معهم دواوينها •

الموشح في العهد الأيوبي :

أول من درس هذا الفن في المشرق العربي وألّف فيه ووضح طرقه لسالكه والمعجبين به القاضي ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » وقد شفع تأليفه بنماذج جيدة من الموشحات الأندلسية المشهورة وبموشحات أخرى نظمها • ومن تجديده فيها انه زاد عدد الفقرات والأجزاء التي تتألف منها الاقوال ولم يكتف بخمسة أو ستة أقوال كما هو تقليد الموشح التام بل أوصلها الى أحد عشر قفلاً في بعض الموشحات • ومن تجديده فيها انه أخضعها لما كانت تخضع له القصائد التقليدية من المعاني والصناعة البيانية والبديعية • وقد رأينا من موشحاته رثاءه في أمته وذلك في فن الرثاء خلال العهد الأيوبي فراجع في مكانه •

وكان للشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي الذي استقر في الشام خلال العهد الأيوبي أثر كبير في انتشار الموشحات • وقد كان لانتشار التصوف الواسع في العالم الاسلامي مشاركة في شيوع هذا الفن لأن المتصوفة كانوا يحملون موشحات ابن عربي الى كل مكان وساعدهم على نشرها سهولتها وبعدها عن التكلف وسماحة طبع ناظمها وصدق اتصالاته الروحية • وقد كان فيها أكثر توفيقاً وأسلس فناً من معاصره في مصر القاضي ابن سناء الملك فاقتدى بها الوشاحون الذين نظموا بعده موشحات غزلية أو موشحات مدحية ولكنهم لم يحافظوا على سهولة لفظه وطبيعة فنه • ويبلغ مجموع موشحاته في ديوانه الأكبر سبعا وعشرين موشحة وله فيه زجل واحد وقد ألّف هذا الديوان في دمشق بعد أن استقر فيها وهو ثاني دواوينه ، أما ديوانه الاول « ترجمان الأشواق » فقد ألّفه في مكة بعد أن عشق « نظام » بنت ابي خاشة إمام مقام ابراهيم •

يمكن أن نقسم موشحات ابن عربي قسمين : قسماً مغرقاً في معاني الصوفية ومصطلحاتها وفكرة وحدة الوجود بحيث لا يفهمها أو ينتبه اليها إلا من عرفها

ودرسها ، وقسماً ترقّ ألفاظه وتخفّ معانيه ويكثر فيه الغزل الذي يحتمل المجال
الانساني والمجال الصوفي الإلهي فتألفه وتحبه كل الأنفس •

وترجع رقة ابن عربي في غزله الى أنه كان صادق التجربة فيه فقد كان بلا الحب
الانساني في مكة قبل أن يأتي الى الشام ليستقر فيها وعشق ابنة إمام مقام ابراهيم
المسماة قطام وكانت حسناء ، فساعدته تجربته على الانتقال بالتداعي من أحوال
الحب الانساني الى أحوال الحب الإلهي ولا شك في أن الجمال الانساني عند
الصوفيين مجال لعبادة الله ودليل على حسن إبداعه ولطفه بخلقه •

وفي القسم الاول من الموشحات يظهر طابع ابن عربي المميز في الموشحات الذي
كان فيه إماماً لمن بعده من المشاركة والمغاربة فقد نقل الموشحات من عالم الغزل
الإنساني والغناء الفردي الى عالم النشوات العلوية ، والاتصال بالذات العلية ،
والانقطاع عن أدراان الحياة الدنيوية ، والاحساس الروحي بوحدة الوجود الإلهية
الكونية • وأصبح الصوفيون يتغنون بها في حلقات ذكرهم • ومن أمثله الموشح
التالي : « ديوان ابن عربي طبع مكتبة المثنى ببغداد ص ٢٠٠ »

اتني أنا النير الغاسق° مثل ماأنا الصامت الناطق° ، اذا كَتَب°

تِهت° بالذي في° من مجلى

وأنا به البصر الأجلى

مثل° ما أنا المورد° الأحلّى

لا أخاف من فجأة الطارق° إنه به الهائم° العاشق° ، لذا أرغب°

رُب° وارد جاء من عنده

يطلب الأمانة من عبده

والوفا بما كان من عهده

أمتطي الجياد° السنوابق° ألتقي بهي° الغرائق° ، من المطلب°

أشتهي يريني اجلالي

عندما يَفْصَلُ اجمالي

إتني لك النائب الوالي
أعرف الكذوب من الصادق والذي يجيء به الفاسق ، من المذهب
قلت للذي كان أوصى به
عندما نسكت بأثصابه
حسلاه مزجت بأوصابه
أنا والولي المتفارق بالذي أنا فيه من فارق ، عسى يغلب

أمري لقد حرت في أمري
ضاق من هواي منكم صدي
فعلى على سنّتي تجري

أرسل الخيول والسلايق ، هي تجيك برأس المنافق ، وبالأريب
هذا الموشح تام وهو ما يسميه بعضهم مراًساً أو ذا رأس وقد ذيل قفله بفقرة
بائية : « اذا كتب » وتآلف فيه كل قفل من ثلاث فقرات وكل بيت من ثلاثة أجزاء
كل جزء فقرة واحدة ، والبيت قد يسميه بعضهم الدور ، والقفل الاول قد يسميه
بعضهم ، ومنهم ابن عربي ، المطلع .

وفي هذا الموشح تظهر الفكرة الرئيسية الصوفية الفلسفية لدى ابن عربي وهي
فكرة وحدة الوجود فهو يستهل الموشح بأنه النير الغاسق والصامت الناطق ويريد
أن يدل بهذه المتناقضات التي يجمعها بأن النور والفسق والصمت والناطق مظاهر
للوجود الواحد ، وهو يعبر عن الفكرة نفسها في الدور الأول بأنه تائه بالمجلى الذي
في نفسه على انه بهذا المجلى الذي فيه ، من اتصال المخلوق بالخالق ومعرفة بموقع
ذاته من الوجود وخالقه ، صاحب البصر الأكثر جلاء وقدرة على معرفة الحقيقة ،
كما انه ، بهذا الضياع نفسه الذي يحسه في ذاته ، هو المورد لمعرفة الهداية
والحقيقة .

وهو لا يخاف مفاجأة الطارق ، لأن هذا الطارق مثله هائم عاشق للذات التي
انبثق عنها ، لذلك تستمر رغبته في الاتصال بهذه الذات ، فهذا الوارد انما جاء من

عندها ليطالبه بالأمانة التي أودعتها فيه وليكون وفياً لعهدا • وبأداء الأمانة يسرع حثيثاً كأنه على جياذ سوابق ليلتقي في وحدة الوجود بالذات الروحية المنشودة التي رمز لها بالغرائق ، ثم يكون أكثر تصريحاً بمعناه الصوفي حين يشتهي أن يريه مصدر الوجود مكانته الجليلة ويفصل إجماله فما هو الا العالم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر ، والصورة المحسوسة الصغرى لوحدة الوجود الكبرى • وقد عبّر عن ذلك بقوله : إني لك النائب الوالي • وهكذا بانبثاقه عن الذات واتحاده معها وهما في الأصل وحدة يستطيع أن يعرف ما تعرف وأن يبين الصدوق من الكاذب ، والفاسق من التقي ، وأن يذوق الحلو والمرّ في حال تعبده ووصله وهجره • وهكذا يأمل أخيراً أن يزول الفرق بينه وبين أمره ويرى أن أمره يجري على سنته لأن الأمر والمأمور واحد • ويختتم الموشحة أخيراً من حيث الفكر الصوفي بأن المظاهر البشرية قد تجمع في الذنب والعقوبة بين المنافق والصادق العارف بالحقيقة ، لأن السلطة الزمنية البشرية تطبق القانون البشري وتأخذ بالظاهر :

أرسل الخيول والسائق هي تجيك برأس المنافق وبالأديب • وهذا القفل من الوجهة الفنية تتمثل فيه الخرجة وقد جاءت عامة كما يتطلب فن الموشح :

هي تجيك ••

ومن موشحاته السهلة التي يأتي فيها بالمعاني الصوفية في غلالة من المعاني والألفاظ الغزلية الإنسانية ، ممزوجة بألفاظ المشاعر والشعائر الدينية ، الموشح الذي عارض فيه موشح ابن زهر المشهور :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وقد جعل الفقرة الأولى من مطلع هذا الموشح آخر قفل من موشحه وجعل فيه الخرجة فصحة لا عامة • وإليك : « ديوان ابن عربي ط مكتبة المثنى بغداد : ٣٩٢ » •

عندما لاح لعيني المتكأ ذبت شوقاً للذي كان ممي

أيها البيت العتيق المشرف

جاءك العبد الضعيف المسرف
 عينه بالدمع شوقاً تذرّف
 غربة منه ومكراً فالبكا ليس محموداً إذا لم ينفع
 كلما عدت فيه قبال لي
 ليس هذا فيّ بل في أيّلي
 سأرى حكم قليب قد بلي
 بهواها مستغيثاً قد شكا وأنا أعلم شكوى الجزع
 أشرقت شمس له ما أشرقت

عرفت الموشحات إذاً في الشام عن طريق الموشحات التي حملها الوافدون عليه من الأندلس والمغرب وموشحات ابن عربي . وكانت موشحاته تنشد في حلقات الذكر فأعجبت الناس لأنها تجمع بين الغزل القدسي (الرمزي) والموسيقا والغناء .
 ويعني ذلك أن شيوخ الموشحات في الشام كان في القرن السابع الهجري بعد أن استقرّ ابن عربي في دمشق .
 وصار الشعراء ينظمونها في موضوعات غير صوفية يأتي الغزل أولها لأنه أليق شيء بها وقد ظموها أيضاً في المدح وفي وصف الطبيعة والإخوانيات .
 ومن أشهرهم أبو محمد الواسطي (ت/ ٦٢٦ هـ) وعثمان البلطي والقاضي الفاضل ، وابن سناء الملك .

ج - العهد المملوكي التركي :

ازدهر فنّ الموشحات فيه ، ونظم فيه صوفيون وشعراء آخرون وعلماء مارسوا النظم . وكثر الوشّاحون في مصر والشام على السواء بل إن بعضهم لا يستطيع تمييزه أهو مصري أم شامي ، وذلك يدلّ على أن تلك العهود لم تكن تعرف العصبية الإقليمية وأن كلّ بلد عربي كان بلداً لأي عربيّ يحلّ فيه .
 وممّن نظم الموشحات في هذا العهد ابن دانيال وشمس الدين بن الدّهان وابن

الوكيل ، والتلعفري والنصير الحمّامي والواعظ الواسطي (ت ٧٣٣ هـ) والسراج
المختار (عمر بن مسعود الكنانى الحلبي) والسراج العزازي •

والموشّحات في هذا العهد أيضا قسّمان منها ما جاء على بحور الشعر المعروفة
وهو أكثرها •

وقد استخدمت في جميع موضوعات الشعر من غزل ومدح وثناء ومجون
وزهد وتضوف ومديح نبوي •

وقد يخرج الشاعر فيها من المدح الى الغزل وينهيها به على غير عادة العرب في
القصيدة وربما فعل ذلك حتى تكون الخرجة عامية او مجونية ، رغبة في ان ينزه
المديح عن ان تكون الخرجة فيه غير جدية أو فصيحة •

ومن امثلة هذا الانتقال دون المجيء بالخرجة المذكورة قول أيدمرّ المحيوي
(ت ٦٧٤ هـ) مادحا في موشح بدأه بالغزل :

كم موقف ليس للسلّاح	لاحي في في الأرووس
وكاتب الموت بالرمّاح	ماحي لالأفس
جبانته ظاهر افتضاح	ضاحي لم يرمّس
رزنت اذ خفت الحلوم شاهر	مجوهر ا يفعل ما تشتهي المنون

ثم انتقل الى غزل الختام فقال :

وشادن بات للتجافي	جافي وصده
عاهدنا أنه يوافي	وافي لعهده
فمسورد الأنس والتصافي	صافي بوعده
زارك من نحوه النسيم عاطر	مخبرا ان اللقاء في غد يكون

« الحياة الأدبية ، بدوي ، ص ١١٥ »

ويلاحظ على هذا الموشح غير الانتقال من المدح الى الغزل في آخره هذه
الصناعة البديعية الملتزمة في أبياته التي تأخذ الفقرات المفردة لحي ، ماحي ، ضاحي ،

جافي ، وافي ، صافي • من الكلمات التي تسبقها مباشرة وهي : السلاح ، الرماح ،
افتضاح ، التجافي ، يوافي ، التصافي •

وفي ذلك من التكلف المفرط ما فيه ، كما يلاحظ فيه اللحن في غير الخرجة •

ولم يلتزم المصريون بأصول الموشح كما جاءهم من الاندلس والمغرب وهذا
موشح لشهاب الدين العزازي تبين به بعض ما أدخلوه من تغيير :

كأس رويّة	جلا علينا النديم°	أم سنا مصباح°
أم شمس° حسن	قد توجتها النجوم	في سنا الافراح
هات الكؤوسا	ممزوجة بالرضاب	من ثناياكا
واخطب عروسا	تروق تحت الحباب	لسجاياكا
وادع الجليسا	لمجلس وشراب	مثل ريتاكا
واشرب سيّة°	بها النفوس تهيم°	ولها ترتاح
مين بنت دن°	أليس فحن الجسم°	وهي الارواح°
خذها مداً	وجر° ذيل المجون°	أيتما جر°
وانقضض فداً	لها من الزر° جون°	طيب° النشم
حيّا النّدامى	بها سقيم° الجفون°	ناحل° الخصر
مد° الربيع°	للورد أي° بساط	حف بالأس
قم° ياخليع°	الى الصّبوح بشاطي	نهر° ياناس
فما الهجوع°	وقد دعاك تعاوي	جذوة° الكاس
في سندسية°	أجرت عليها الغيوم°	مدمعاً سخّاح°
من ماء مژن	وصاب منها النسيم°	أرجا نقّاح°
لنا خليل°	نراه منذ ليالي	غائب° عنا
وما الشمول°	لذيذة° وهو سالي	أليس منا
قل يا رسول°	بأننا في ظلال°	روضة° غنا
زبرجدية°	وثم° شاد° وريم	وبقايا راح°
ويوم° دجن	وقد دعاك النديم	أجب يا صاح

سقىً للهر	قضى بعلى ونهل	وبغز لان
وطيب عمر	قضى بليلة وصل	مالها ثاني
خطمت عذاري	فيها وقلت لخلي	ولشد ماني
في البابلية	لا تسمع من يلوم	واهجر النصح
واشرب وغن	ياليلة لو تدوم	دامت الافراح

« فوات الوفيات ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ابن شاعر الكتيبي »

فقد تلاعب العزازي في اجزاء الاقوال والايات وفقراتها ولم يكتف باللحن في
الخرجة ولحن كثيرا في الايات . وهذا مقطع من موشح آخر لشهاب الدين العزازي
يبين لنا فيه تغييرا من نمط آخر ، ولنا فيه رأي سنينه :

أقسمت عليك بالأسيل القاني	ان تنظر في حال الكتيب القاني
او تقصير عن إطالة الهجران	يا من سلب المنام من اجفاني

ما أليق هذا الحسن بالاحسان

والله لقد ضاعفت عندي الكمد	مذ جرت من الهجر الطويل الأمد
أدرك رمقي أو هب فؤادي جلدا	يا من أخذ الروح وأبقى الجسد

ما أصنع بعد الروح بالجثمان

« فوات الوفيات لابن شاعر ١ : ١٦٦ »

ففي هذا الموشح يستعمل الدوييت وزنا لكل اقواله واياته ووزن الدوييت
هو :

فعلن فعلن مستفعلن مفعولن : مرتين ، فجمع بذلك بين الدوييت الذي
اخترعه اهل المشرق وبين الموشح الذي اخترعه اهل المغرب ولذلك سمي الموشح
الدوييتي .

وتم تغيير آخر فهو قد جعل القفل شطرا واحدا يأتي خماسيا بعد شطور

الدوييت الاربعة ، بالاضافة الى انه جعل موشحه أقرع ، وجعل شطور بيته الاول
الاربعة من قافية القفل •

وعندي ان هذا اللون من النظم اقرب الى الخمس الدوييتي منه الى الموشح
ولا أرى فيه تجديدا ، ولكن هكذا سماه بعضهم ، ولذلك عده آخرون خارجا على
نظام الموشح وهم محقون •

وقد اشترط في الخرجة ان تكون عامية وان يهد لها بكلمة قال او غنى او بما
في معناها وان تكون على السنة الناطق او الصامت وآثروا فيها ان تكون على السن
الصبيان والنسوان والسكرارى •

ومن امثلتها قول محمد بن فضل الله السيد يمدح كمال الدين ابا الفضل
في موشح خرج به من المدح الى الغزل ليجعل الخرجة خفيفة على النفوس :
« الأدفوي ، الطالع السعيد ٣٤٥ - ٣٤٧ » :

في مربع قد خلا	من أهله في السبت عمران
فإن يكن أمحلا	فمدمني كالسحب هتان

•• •• ••

وغداة تنجلي	فينجلي القلب الحزين
بها يخللي الحلي	ويسحر السحر المثين
قلت لها والخللي	لم يدر الداء الدفين
بالله مَن ينطلي	عليك من تألفين

•• •• ••

لولا علي انطلا	تركت أُمي وأبي من ثانو
كفاه الله البلا	بيت سواي ذا الصبي في أحضانو

فهذه الخرجة باللغة العامية على لسان فتاة فيها طيش وخفة ظاهران وحديثها
ترويهِ امرأة على لسانها •

وقد سلك فيها الشاعر مسلك القصة القصيرة وخرج على عمود الشعر العربي فجعل الفتاة تتغزل بالشاب وبشكل غير محتشم .

وربما كان من اقدم الموشحات التي ظمت في الشام في غير التصوف موشحة شهاب الدين التلعفري المخضرم بين العهدين الأيوبي والمملوكي الذي اجاب بها على موشحة اخوانية ارسلها اليه شهاب الدين العزازي الشاعر الذي كان يعمل بزازا في القاهرة . وهذه هي الموشحة الجوابية :

ليس يروي ما بقلبي من ظما غير برق لائح من اضم

ان تبدى لك بان الأجرع
وأثيلات النقا من لعن
يا خليلي قف على الدار معي
وتأمل كم بها من مصرع

واحترز واحذر فأحداق الدمى كم أراقت في رباها من دم

حظ قلبي في الغرام الولكه
وعذولي فيك مالي وله ؟
حسبي الليل فما أطوله
لم يزل آخره أوله

في هوى أهيف معسول اللئى ريقه كم قد شفى من ألم

سائلي عن أحمد مما حوى
من خلال هي للداء دوا
ما سواه وهو ، يا صاح ، سوا
ناشر من كل فن ما انطوى

بحر آداب وفضل قد طما فاخش من تياره الملتطم

العزازي الشهاب الثاقب

شكره فرض علينا واجب
فهو اذ تبلوه نِعَمِ الصاحب
سهمته في كل فن صائب

جائل" في حلبة الفضل كما جال في يوم الوغى شهم كمي

شاعر ابداع في اشعاره
ومتى انكرت قولي باره
لو جرى مِهار في مضماره
والخوارزمي في آثاره

قلت عودا وارجعا من أتما ذا امرؤ القيس اليه يتمي

« ديوان التلعفري ص ٤٠ و فوات الوفيات لابن شاکر ج ١ ص ٣٥١ »

بدأ الموشحة بالغزل متلطفا وانتقل منه الى مدح الشهاب العازي صاحبه
اعترافا بالفضل واعتزازا بالصدقة ، فهي تجمع بين الغزل والمدح .

ومن اشهر وشاحي الشام السراج المَحَار أبو الخطاب عمر بن مسعود الحلبي
الكناني الذي عاش في كَنَفِ بعض ملوك حَمَاة الأيوبيين في العهد المملوكي ،
ومدحهم .

وقد نقل الموشحة في الشام من موضوعها الصوفي الى موضوعي الغزل والمدح
وأضفى عليها ما كان يسود في الشام من الصناعة البديعية المتمثلة في التورية وفي
الجناس والطباق وسائر ألوان البديع . ومن موشحاته الغزلية هذه الموشحة :

تُرى دهرٌ مضى بكمْ يُؤوبُ ، شيبا ؟
ويضحى روضٌ آمالي الحبيبُ ، خصيبا ؟
عسى صَبَّ تملكه هواه
يعاود جفنٌ مقلته كراه
ويبلغ من وصالكمْ مثناه
ويرجعُ دهرنا عما جناه

ويجمع شملنا حسن" وطيب ، قريبا
ويصبح ، حيث ادعوه ، الحبيب ، مجيبا

أرى أمدّ الصدود بكم تمادي
وكم لمتّ الفؤاد فما أفادا
وتأبى عبرتي الا اطرادا
ونار صبايتي الا اتقادا

فخذني رده الدمع السكوب خضيبا
وقلبي كاد أشواقا يذوب لهيبا

وبي رشاً بناظره يصول
حسام في ضرائب العقول
على وجناته لدمي دليل
ولكن ما إلى قود سبيل

حبته من ضمائرها القلوب نصيبا
فكان لها وإن كره الرقيب حيبا

غزال وهو في المعنى هلال
قريب ، وصله مالا ينال
وغصن راح يعطفه الدلال
كذا الاغصان تشنها الشمال

إذا مالت بعطفه الجنوب هبوبا
تئنّي في غلائله القضيب رطيبا

كلفت بحبه حلوى المعاني
أعاني في هواه ما أعاني
أراه وإن تباعد عن عياني
كيدر التّم : قاص وهو دان

يثرينا حين تطلعه الجَنُوب عجيبا
جمالا لا يَكْلِفُه الغروب مغيبا^(١)

ونلاحظ ان رقة الشاعر وسلاسة طبعه في الغزل قد تغلبت على صناعته البديعية فأصبحت سهلة خفية ونلاحظ ان صناعته تكون اكثر ظهورا في موشحاته المدحية .
ونلاحظ انه وشح الجزء الاول والثاني من القفل بالباء فاصبح يتألف كل جزء من فقرتين وهذا التوشيح عادة جرى عليها الوشاحون في بعض موشحاتهم واستحسنوها بعد ان استعملها احد الاندلسيين فاكثروا منها وآثروا ان يستعملوا فيها الباء او الفاء او الراء لخفة هذه لحروف وموسيقيتها .

وكان بعض الوشاحين يجيدون فن الايقاع الموسيقي كشمس الدين بن الدهان الذي كان يحسن الضرب على القانون ويلحن موشحاته بحسب الايقاع مما ساعده على اعادة العنصر الغنائي فيها . ومن موشحاته الموشحة التي مطلعها :

يا أبي غصنُ بانه حَمَلا ، بدر دجى بالجمال قد كملا ، أهيفُ

فريدُ حسن ما ماس او سفرا

إلا أغار القضيبَ والقمر

يبدى لنا بابتسامه دُرَرا

في شهَد لذَّ طعمه وحلا ، كأن أنعامه نسيمُ طَلا ، قرقفُ^(٢)

وقد علَّل « يوهان فك » كون الموشح جاوز العراق ولم ينتشر فيه بان الموسيقى الفارسية قد سبقت الى التغلغل في العراق قبل الموسيقى العربية وبان الموشحة ترتبط بالموسيقى العربية كل الارتباط ولا تزال كذلك الى اليوم (دراسات في اللغة ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ص ١٩٠) .

(١) الفوات ، ابن شاعر : ١ : ١٣٩ وابن تغري بردي المنهل الصافي (خ) ٣ : ٤٨٧ .

(٢) الصفدي ، اعيان العصر (خ) ج ٦ ، ق ١ و ١١١ .

على اتنا نرى بعض الشعراء العراقيين ينظمون في الموشح حين يرحلون الى الشام ومصر ويتذوقونه ومنهم صفي الدين الحلّي الذي سندرس شعره •

العهد المملوكي الجركسي :

استعمل الموشح خلال هذا العهد في الهزل استمراراً للعهد المملوكي الاول ودخلت فيه روح الدعابة المصرية • ومن الامثلة الدالة على تمصير الموشح قول ابن سودون هازلاً يتشوق الى بعض الوان الطعام والحلوى اللذيذة : « ابن سودون ، قرّة الناظر ، ورقة ٤٢ - ٤٣ (خ) » :

لا زال قلبي بحبّ الحلو معمورا
والموز في أصحن القطرور معمورا
كيما أناديها في الناس مسرورا

يا موزّ يا قطر زورا منزلي زورا قلبي يجكما ما قلت ذا زورا

• • •

في الصحن ان جيت تراني لا جَلّها ولها
مالي تحارثني في صحنها ولّها
لا بدّ فضلّ أخ يُولي تناولّها

وان يكن من قِوام فالقوام لها اذ صار صائحها في الناس مشهورا

ان اللغة العامية وخفة الروح ظاهران في هذا الموشح •

واستمر الصوفيون يستخدمون الموشح في معانيهم وأذكارهم • قالت عائشة

الباعونية (ت ٩١٧ هـ) :

يامن أفتى في معناه بمن (مُعَنّي) في هواه
جُدّلي جدّلي ومتعني وجلّدي بالعيان في اتصالي

يا محبوبي يا مطلوببي يا مقصودي يا موجودي
كن لي كن لي واجبر كسري وَاغْنِ فقري بالتداني والوصال

حبثك تيمم° فيك المغرم° ولتى هيم° ، لا بل أعدم

عقلي عقلي واحيرني	واسهرني وأضناني بالدلال
مجلي المظهر فيما اظهر	أفنى مني لما نور
ظلي ظلي واجردنسي	وافردني وأفناني بالجلال
غبت° عني رحت° مني	زالت حجبني وافى قربي
وصلي وصلي قد أدهشني	وانعشني واحياني بالجمال
في مجلاه لما حيا	من° وافاه بالحميّا
خلي خلي قم وتردي	وتملني بالاحسان من نوالي
هذي الخمرة فيض المتان	عند العرفان لها ندمان
اهلي اهلي وسادتي	وأجابي واخواني في احوالي

« الكواكب السائرة ج ١ ، ٢٩٢ »

وهذا الموشح ضعيف الصياغة سطحي المعاني ليس فيه العمق الرمزي الذي رأيناه عند ابن عربي ويمثل الفارق الكبير في المستوى الفني بين العهد الأيوبي والبركسي وهو الفارق الذي نراه يطرّد في جميع الموضوعات والفنون تقريبا .

وكذلك استمرّ استعمال الموشح في الرثاء ومن ذلك هذا الموشح لآحمد بن عماد الضرير يرثي به قاضي حلب أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرّضى شهاب الدين أبا الحسين الحموي الشافعي الذي أعدم في الفتنة بين السلطان برقوق ويلبغا الناصري :

على ابن أبي الرّضى مرّ اصطباري	وسارا
وعيني قد جرت من عظم (١) ناري	بحارا
مدارس درسه اشتاقت اليه	وحنّ العلم والعلماء لديه

واشياخ الحديث بكت عليه

(١) في احدى النسخ : من فرط ناري .

فكم سألوه عن نص البخاري مرارا
فحيّر في الجواب بلا اعتذار كبارا
إمام^١ كان في كل العلوم يعثم على الخصائص والعُثُوم

ويكرم ضيفه عند القدوم

ويحسن للفقير بلا احتقار وقارا
ويكسو بالفضائل كل عار إزارا
لاهل الفضل كان يقوم يلقي ويعشق من يحب العلم عشقا

وان أفق تری فتواه حقا

فأصحاب الفتاوى في انحصار حيارى
وقد عدته أهل الاختيار بدارا
فريدا كان في نقل المذاهب^٢ فللطلاب كم أبدى غرائب^٣

وفي حلب لقد سعد المناصب

ولا يسمى لأبواب الكبار نهارا
ولم يقطع لأهل الافتقار مزارا
جوادا كان في ردّ الجواب وكم في العلم ألف من كتاب

وميّز^(١) للمشايخ والشباب

وكانت منه أهل الأشتهار فخارى
ولا يرعى الملوك ولا يُدارى أمارى
لقد بطّل الرشى لما تقضى وكم قد ردّ بعد الحِلّ أرضا

وكان الغيظ^٤ يكظمه ويرضى

(١) هل يقصد التمييز الذي كان يراد به في العهد التركي الامتحان وأقحم اللام
قبل المشايخ للوزن؟! ربما .

لمن أسمى لقد زاد افتكاري وحرارا
وعقلي طار من بعد اختياري ثقارا
مضى ابن أبي الرضى حمداً وولى وسافر سفرة ما عاد أصلاً
تري هل كان في الدنيا وولى

فمن اولاده وعن الذراري توارى
وأوحش حين سار الى القفار ديارا
مضى ابن أبي الرضى قاضي القضاة واصبحت المنازل خاليات
سيسكن في القصور العاليات

ويلبس من حرير الافتخار شعارا
ويلقى الجبر بعد الانكسار فخارا
عليه يا دموعي هيّا فقلبي قد كواه البين كيا
أقول وان قضى لو كان حيا

علي ابن أبي الرضى^(١) مرّ اصطباري وسارا
وعيني قد جرت من عظم ناري بحارا

« الدرر الكامنة لابن حجر ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣١ »

الصياغة هنا أقل سوءاً من موشح الباعونية ولكنها ليست جيّدة وال فقرات
بألفاظها وعاطفتها تصلح للندب ولكن المعاني والصور سقيمة .

(١) قال القاضي علاء الدين في تاريخ حلب : « كان ابن أبي الرضى من رجال
العلم نجدة وهمة ، وكان يقوم بامر الشرع ويشتهر في انكار المنكرات » .

الزجل

أصل الزجل في اللغة الجلبة والتطريب ورفع الصوت • يقال : سحاب زجل ، اذا كان فيه رعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد زجل ، ومنه قول الشاعر :

مررت على وادي ثيات فراغني به زجلّ الاحجار تحت المعاول

وسمي فنّ الزجل بهذا الاسم لانه لا يلتذ به وتفهم مقاطع اوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوّت فيزول اللبس بذلك « عن كتاب العاقل الحالي لصفي الدين الحلبي » •

كان ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) إمام هذا الفن في الاندلس ولكنه ليس اول من اخترعه لانه هو نفسه يتحدث عن زجال نظم فيه قبله وهو أخطل بن نمارة من اهل القرن الخامس الهجري كما يتحدث عن زجال آخر كان يتحدثاه وهو مخلف بن راشد ويقول في تحديده :

زجلك يا ابن راشد قوي متين وان كان هو للقوة فالحمالين

« الأدب العامي في مصر ، للجمال ، ص ١٣١ »

فهو ينقد زجله بأنه قوي من حيث السبك ولكنه ليس جيدا من حيث التأثير وحسن الأداء فشبهه بقدرة الحمالين على حمل الاوزان الثقيلة • وهذا التحدي يدل على ان ابن راشد كان يعاصره •

وقد عدّ صفي الدين الحلبي عدة اشخاص نسبت اليهم أولية قول الزجل منهم ابن غرلة الشاعر المغربي ومنهم مدغليس ولكنه ليس مخترعه لان له زجلا يذكر فيه انه يعارض ابن قزمان •

نشوؤه من الموشحات :

تبين لنا من قبل أن محموداً القبري كان يأخذ الجملة العامية أو النكتة أو الطرفة وينظم حولها موشحاً ويجعل الجملة العامية خرجة لموشحته كما رأينا ان الموشحات الأندلسية قد تأثرت بالموسيقا والغناء الشعبيين • ورأينا ان الشعراء التقليديين قد نظموا الموشحات أولاً باللغة الفصحى ما عدا الخرجة فلما أصبح الوشاحون يستعملون اللغة العامية في غير الخرجة من اجزاء الموشحات ثم تبادوا في ذلك مغلبين العامية على الفصحى في موشحاتهم تحول الموشح الى ما يسمى بالزجل •

فالزجل اذا هو الموشحات التي قيلت باللغة العامية او غلبت عليها العامية ونظمت في حوادث او اشياء تهم افراد الشعب • ومن اجل ذلك يقول الدكتور الأهواني في كتابه « الزجل في الأندلس » : « وكان الزجل ردّة ورجوعاً الى الاصل الاول العامي البسيط » • وقد بدأ الزجل في المشرق المتصوّفان ابن الفارض في مصر وابن عربي في الشام وقد عاشا في آخر العهد الأيوبي •

اعتمد الزجل منذ نشأته على الغناء والحركة والمعرفة بأهواء المستمعين ليؤثر فيهم وينال اعجابهم في حفلات الاعراس وغيرها من مجالس العامة والخاصة وافراحهم ولذلك استحسن ان يكون الزجال خفيف الروح يلوّن صوته فيه ويتحرك بما يتلاءم مع الكلام الذي يقوله في زجله ونلاحظ ان بعض الازجال تحافظ على الاوزان التقليدية كبعض الموشحات ولكنها كثيرا ما تخرج عن جميع الاوزان الشعرية ولا يقيدها وزن الا الوزن الغنائي الموسيقي • وقد نجد ازجالا تكثر فيها الاوزان وتتعدد او يعدّل فيها • هذا اذا استعملت اللهم اوزان عروضية لها •

ومن امثلة الزجل الذي يجري على نمط الموشح ولا يخالفه إلا في ان الخروج على النحو يعمّ جميع اجزائه ولا يقتصر على الخرجة هذا الزجل الذي قاله ابن المصلّي الأرمني^(١) في فتاة تدعى « بدوية » من قرية تسمى « بيّوية » ونلاحظ ان هذه الزجلية تتحدث عن قصة شعبية صغيرة ملخصها ان هذا الزجال أحبّ هذه

(١) هارون بن موسى الرشيد (ت ٧٣٠ هـ) .

الفتاة وتمنعت عليه في بادئ الامر ثم نصحتها رفيقاتها بالعطف عليه لانه يستحق ان يكون زوجا لها ، ولكن العذال ينقلون الخبر الى أهلها فتخاف على نفسها وعليه من بطشهم بهما : « الأدفوي ، الطالع السعيد : ٣٩٣ - ٣٩٥ » :

بدوية في بيتية ساكنه صيرت عندي المحبة كامنه
اسمها ست العرب هيجت عندي طرب

أنا قاعد بين جماعة نستريح
عبرت واحدة لها وجه مليح
بقوام أعدل من الفصن الرجيح
صرت نرعى النجم الى وجه الصباح
إذ بدا لي الكوكب الدري ولاح
واذا هي قد أتت ست الملاح

والعذارى في عقاب مع عريه في خراب ثم قالت ذا الكلاب
نبحوا تأتي الرجال الطاعنه بالسيف والرماح الطاعنه
يدركوني في الطلب يجعلوا رأسي ذئب

يلاحظ فضلا عما قلناه في هذا الزجل أن اللهجة العامية في اقليم أدفو من الصعيد المصري ظاهرة في كلماته كما يلاحظ أن الزجال يتكلم عما يتصل به من الحياة الشعبية . وقد ذكر الحلبي أن موالي الزجل قسموه الى أربعة أقسام بحسب المضمون لا القالب . فسمّوا ما تضمن الغزل والنسيب الخمري والزهرى والنسيب زجلا ، وما تضمن الهزل والخلاعة والاحماض بليقا ، ومفرده « بليقة » ويجمع على بلاليق . وما تضمن الهجاء والثلب سموه « قرقيا » من قرقت الدجاجة بمعنى صوتت . وسموا ما تضمن المواعظ والحكمة « مكفّرا » لأنه يكفّر الذنوب .

أما من حيث الشكل فسموا ما تختلط فيه العامية بالفصحى « مزّما » ، والزيم هو الذي ليس له أب معروف ، وذلك لأنه من حيث الاعراب يلحق بالموشع ومن حيث اللحن يلحق بالزجل .

وقد يختلف بعض المؤلفين في هذه التسمية مع صفي الدين الحلي فيسمي مثلاً ما أسماء مزناً « مزبلاً » • وتنبه هنا إلى أن هذه التسميات ليست دقيقة فقد يطلق اسم البليق على القرقي • والعكس واقع أيضاً •

ويلاحظ أن الحدود ليست فارقة تماماً بين الموشح والزجل حين يخلط كل منهما بين العامة والفصحى ويخرج على الأوزان التقليدية المعروفة • وقد استعمل الزجل في الموضوعات التقليدية كلها التي نعرفها من غزل ووصف ومدح وهجاء • ويضاف إلى ذلك التصوف •

وقد ازدهر فنّ الزجل خلال العهد المملوكي التركي واستمرّ بعده إلى اليوم • ومن أمثلة النقد الاجتماعي السياسي الذي استعمل في العهد المملوكي الأول قول إبراهيم المعمار ، وهو من شعراء القرن الثامن يجاري شاعراً سبقه هو ابن دانيال يأسى على أحد السلاطين قد منع الخمر :

منعونا ماء العنب ياسين°	ربّ سلّم لم يمنعونا التين°
هات قل لي اذا متّعنا الراح	وحرّمنا من الوجوه الصّبّاح°
بيش نبقى نستجلب الأفراح°	والخليع كيف نراه بيت ، مسكين

« بدائع الزهور ، ١ : ١٠٦ »

ومن مثال الغزل في الزجل قول الحسن بن هبة الله الأدفوي الملقب بالشمس :

إنّ المليحة والمليح ، كلاهما	حضر ، ومزمار° هناك وعود
والروض فتحت الصّبّا أكمامه	فكأنه مسك يفوح وعود
ومثدامة تجلو الهموم فبادروا	واستفتحوا فرص الزمان وعودوا

« الأدفوي ، الطالع السعيد : ٢١٤ »

كان من أشهر الزجالين في مصر خلال العهد المملوكي التركي إبراهيم المعمار ومن أشهرهم في الشام شهاب الدين أحمد بن عثمان الأقساطي وعلاء الدين بن مقاتل الحموي •

ومن أشهرهم في العهد المملوكي الجركسي ناصر الغيطي ، وله زجلية رثاء في الفيل مرزوق الذي مات في الخليج الناصري سنة ٨٠٤ هـ وكان تيمورلنك قد أهداه الى السلطان الناصر فرج بن برقوق ومطلعها :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللي جره الفيل وقع يوم الاثنين في القنطرة

« ابن إياس ، بدائع الزهور ١ : ٣٤٢ - ٣٤٣ »

الدوبيت - الرباعيات :

الدوبيت كلمة مكوّنة من « دو » الفارسية ومعناها اثنان ، وببيت العربية التي تستعمل في الفارسية بمعناها العربي نفسه فتدل على الدار وتدل على البيت من الشعر . ومعنى دوبيت إذا البيتان وقد يسميه بعضهم ذوبيت تحريفاً ويطلق عليه كثيراً اسم الرباعيات ومنها رباعيات الخيام . ويدل اللفظ على أن الفرس هم الذين اخترعوا الدوبيت وأن العرب أخذوه عنهم .

وقد نظم الدوبيت بالعربية في القرن الخامس الهجري . ويذكر الاستاذ محمد بهجة الاثري محقق قسم العراق من الخريدة للأصفهاني (العماد) ان أقدم من نظم في الدوبيت رودكي ، الشاعر الفارسي المتوفى سنة ٣٠٢ هـ ، (ذكر ذلك خلال تعليقه على شعر هبة الله بن الفضل الشاعر العراقي) . ونرى شيئاً من الدوبيت قد نظم أثناء الحروب الصليبية كالدوبيات التي نظمها العماد الأصفهاني على لسان نور الدين زنكي يدعو فيها الى الجهاد .

وللرباعيات وزن واحد : فعَلْنَ ° متفاعِلنْ ° فاعِلنْ ° ولكن تغيرات كثيرة تطرأ عليه تجعل من الصعب تقطيعه أحياناً على هذا الوزن ونرى أن يحاول المقطّع حين يجد شيئاً من الصعوبة أن يقطعه على الوزن التالي :

فعَلْنَ فعِلنْ ، متفاعِلنْ (أو مستفعِلنْ) ، مفعولنْ .

وللرباعيات بحسب القافية ثلاثة أشكال :

الشكل الاول - أن تكون الشطور الأول والثاني والرابع من قافية واحدة

ويكون الشطر الثالث حراً القافية . وهذا الشكل هو الأكثر تداولاً ، ويسمى الأعرج ، ومنه قول أحدهم :

بالبلبل والهزار والشحرور يسبى طرباً قلب الشجي المغرور
فانهض عجولاً واتهب لذة ما جادت كرمأ به يد المقدور

« الأدب المملوكي زغلول سلام ج ١ : ٣٢٨ »

الشكل الثاني — أن تكون الشطور الأربعة من قافية واحدة ولم يعطَ له اسم ونستطيع أن نسميه موحد القوافي . ومنه قول الوداعي أحد شعراء الشام في القرن الثامن الهجري :

لما حجب الكرى عن الآماق ما أحسنه وهو بقلب ساقى
ناديت وقد تزايدت أشواقى يا غصن رضى منك بالأوراق

« ابن حجة ، الخزانة : ٢٨٢ »

« وقلب ساقى هو قاسى » .

الشكل الثالث — يسمى المردوف ، لأن الحرف الأخير من قافيته مسبوق بحرف علة ساكن ، وهو ذو أربعة أقطار كالشكلين السابقين قافية الشطر الثالث منها مطلقة . ومنه قول محمد بن إسرائيل الصوفي :

قد بالغ في حديثه باليمن من قال رأيت مثله في العين
ما يبصر مثله سوى ذي نحول من حبه يرى الواحد كالاثنين

« شرح اللامية للصفي ص ٨٦ »

والمعنى في هذين البيتين صوفي وقد يفسر بالمعاني الغزلية الانسانية المألوفة . وغرضه ان هذا المحبوب لا يراه إلا عاشق أصابه النحول وفقد صوابه وغاب عن الوعي حتى يرى الواحد اثنين . أو أنه يرى الواحد يتعدد في موجوداته وهو أسب للفكر الصوفي .

وقد تأتي فيه القافية الثالثة مردوفة كالثلث الآخر .

وقد ذكر الحلي أن الدوبيت يشترط فيه الاعراب كالشعر التقليدي والموشح، ولكن الصحيح أن اللحن قد أصابه كما أصاب الموشح • ومن الدوبيت المختلط بين الفصيح والملحون قول أحدهم :

لو كان لي الصبر من الانصار^٥ ما كان عليك هتكت الأستار^٥
ما كان يا أسمر^٥ لويت لنا في دهرك ليلة من الشمار^٥

« فوات الوفيات ١ : ٦٤ »

ومن الملحون قول أحدهم :

يا عين^٥ بحق^٥ من تحبي نامي نامي ففؤادي في هواه نامي
والله ما قلت ارقدي عن ملالة^٥ إلا لعسى ترثيه في الأحلام

« الطالع السعيد للأدقوي ١ : ٦٤ »

وقد استخدم جماعة من شعراء الفرس الصوفيين نظام الدوبيت في شعرهم الصوفي خلال القرنين الهجريين السادس والسابع ، وانتقل من فارس غرباً الى العراق فالشام فمصر فالسودان • وهو لا يزال مستعملاً في النظم العامي السوداني الى اليوم • وخصّص بعض الشعراء في مصر والشام دواوين مستقلة لهذا الفن ، منهم الشهاب الشاغوري والعماد الكاتب المخضرمان بين العهدين الزنكي والأيوبي •

ومن نظموا فيه ابن عربي من العهد الأيوبي وابن دقيق العيد والشاب الظريف والشهاب التلعفري من العهد المملوكي التركي • وقد استعمل الدوبيت في الأغراض الشعرية التقليدية كلها • ومن استعماله في وصف الطبيعة قول أحدهم :

ما عذر^٥ فتى ما مد^٥ للهوى يدا والدوح^٥ قد اكتسى ثياباً جدد^٥
مالت طرباً أغصانه راقصة^٥ لما صدح الطير^٥ عليها وشدا

« فوات الوفيات ، ج ٢ : ٢٦٧ »

ومن استعماله في الغزل قول أحدهم :

قاسيت^٥ بك الغرام^٥ والهجر^٥ سنين ما بين بكاء وأنين وحنين^٥

أَرْضِيكَ وَلَا تَزِدَادُ إِلَّا غَضَبًا اللَّهُ كَمَا بَلَكَ الْقَلْبَ يَتَعَيْنُ

« ابن شاعر ، فوات الوفيات ٢ : ٢٦٧ »

فن المواليا :

اخترع هذا الفن في المشرق العربي كالدوييت والأرجح أنه اخترع في العراق .
ذكر الحلبي أن أهل واسط اخترعوه ليتغنى به في الحقول عبيدهم الذين كانوا
يرددون في آخر كل صوت قولهم يا مواليا (بفتح الميم) « تاريخ الموصل : ٨٢ »
ونسب بعضهم اختراعه إلى مولاة للبرامكة رثتهم به وكانت تصيح بعد كل صوت
وامواليا .

ومما روي للجارية البرمكية قولها :

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

« الرجوي ، بلوغ الأمل (خ) و ٢٠ »

وذكر أن أول ما نظمه الواسطيون في هذا الفن قولهم :

منازل كنت فيها من بعاذك دُرس خراب لا للعزا تصلح ولا للعرس
فأين عينيك تنظر كيف فيها الفرس تحكم وألسنة المداح فيها خرس

« الأدب العامي للجمال : ١٣٤ عن محمد بن إسماعيل بن عمر شهاب الدين ،

« سفينة البحار وتقيسة الفلك : ٣٨٠ »

ويتبين من هذا أن النزاع حول اختراع هذا الفن كان متأثرا بالصراع
بين القوميتين العربية والفارسية .

وقيل إنه سمي بذلك من الموالاة في قوافيه لأن القوافي الأربع تتوالى على
روي واحد والموالاة في هذا الرأي المتابعة ، على أن من معانيها المناصرة ومن ذلك
الحديث : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وبهذا يقرب اللفظ ، لضم

ميمه من اللفظ العامي « المُوَّال » وأصله « المُوَالِي » تحذف ياؤه حين التنوين لأنه منقوص وجاءته الشدّة من الاستعمال العامي .

وينظم المواليا على البحر البسيط . وكان يتألّف من أربعة شطور متحدة القافية ويسمّى هذا النوع الرباعي ومثاله قول ابن سودون من قوَالِي العهد المملوكي الجركسي :

لي حبّ من غيتو ضرب النفوس شامات لو قدّ مع خدّ في ذا لين وذا شامات
إن قلت صلني أعش لك عون على الشمّات يقول ماصيل ومن شا عاش ومن شامات

« ابن سودون ، قرّة الناظر ونزهة الخاطر ق ٣٥ (خ) »

وقد نشأ نوع ثان يدخل فيه شطر خامس بقافية مختلفة بين الشطرين الثالث والرابع ويسمّى هذا النوع الأعرج ومثاله قول أحدهم : سفينة الملك ، محمد بن إسماعيل : ٣٨٥ » .

خطرت يا غصن تتمايل ولا كلّمت مغرم بسيف اللواظ مهجته كلّمت
يا منيتي مقصدي لو بالعيون سلّمت ما تعلم أني أسير القلب مشغول بك

وللمقادير أميري يا قمر سلّمت

وقد تدخل ثلاثة شطور لها قافية واحدة مختلفة عن الأربعة الأخرى بين الثالث والرابع ويسمّى هذا النوع النعماني ومثاله قول أحدهم :

« سفينة الملك : ٣٩٠ »

الأهيف اللّي بسيف اللحظ جارحنه بيده سقانا الطلا ليلة وجارحنه
رمش رمى سهم قطع به جوارحنا آهين على لوعتي في الحبّ يا وعدي
هجره كواني وصيرني على وعدي يا خل واصل ووافي بالمنى وعدي

من حير هجره ومن نار الجوى رحنا

ونبه إلى أن للمواليا كتابة خاصة به تلائم العامية .

وقد ذكر ابن خلدون أن البغاددة لا يتقيّدون بالإعراب في المواليا . ولاحظنا

نحن ونحن نقرأ أمثله أنه يهتم كثيرا بالجناس وحلاوة التلاعب اللفظي وإيهام
الترادف . وذكر ابن خلدون أن أهل مصر « أتوا فيه بالغرائب وتبحروا فيها في
أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاءوا بالعجائب » ومن أمثلة موالياتهم
مواليا ابن سودون السابقة . وهو من العهد الجركسي واشتهر به قبله في العهد
الملوكي التركي إبراهيم المعمار ومن قوله :

هويت طبّاخ بالصبحة أخذ ميه حلو المزاج كأنه ابن تركيه
ولو أطارف نواعم بيض زُبدية لها معاني على الإخوان مخفيه

« مطالع البدور ، ٢ : ٢٤ »

وقد انتشر هذا الفن في الشام ومن ثم عرق به إبراهيم بن محمد بن طرخان
الحكيم الأنصاري المشهور بابن السويدي المولود في أول القرن السابع الهجري ،
فهو مخضرم بين العهدين الأيوبي والتركي . ومن قوله متغزلا :

البدر والسعد ، ذا شبيهك ، وذا نجمك والقدّ والحسن : ذا رمحك ، وذا سهمك
والبغض والحب ، ذا قسمي وذا قسمك والمسك والحسن : ذا خالك وذا عمك

« النجوم الزاهرة ٨ : ٢٨ »

ومن قوله يهزأ بتعاير النحاة ويتغزل على لسان امرأة مستهترّة تجددت أختها
لتسمع حديثها لحبيبها وتتعرض له على خلاف ما عرفنا من عمود الشعر وأخلاق
المرأة عندنا :

دي قايله لأختها ، والقصد تسمعنا ما النحو ؟ قالت لها نحننا بأجمعنا
لرفع والنصب : نا وانت ، ومن معنا للجبر ، والزوج حرف جرّ جاء للمعنى

« المنهل الصافي (ط) ج ١ : و ٣٢ - ٣٣ . والنجوم الزاهرة ٨ : ٢٨ »

وكان الغزل أكثر ما يتناوله هذا الفن ، على تناوله جميع الفنون ، وقد احترفه
بعض الموالين فكانوا يكتسبون به في حلقات يعقدونها للناس (السخاوي ، الضوء
اللامع ، ج ٨ ص : ٢١١) .

وقد نظم به بعضهم المعاني الصوفية ومن ذلك قول عبد العزيز بن أبي الأفرح
(ت ٧٠٣ هـ) وهو أحد مريدي ابن عربي :

لم تدعي الذوق والوجدان والأحوال وأنت خالي من الإخلاص في الأعمال
ارجع لجسمك فسمّ البين لك قتال ترمي حجر ما يشيله خمسمائة عتال

« ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢ : ٣٧٥ »

* * *

مذاهب الشعر في هذه العهود ومميزاته

ظهرت في هذه العهود ثلاثة مذاهب : المذهب التقليدي ، والمذهب البديعي ، ومذهب الفنون المستجدة .

المذهب التقليدي :

كان هذا المذهب استمراراً للعصر العباسي ومثاله قول الشاعر الأبيوردي وهو شاعر عربي كان يعيش في بلاد الفرس خلال القرن السادس الهجري :

نزلنا بنعمان الأراك وللسدي سقيط" به ابتلت" علينا المطارف
فبت" أعاني الوجد" والركب" ثو"م" وقد أخذت مني الشرى والتائف
وأذكر" خوداً إن دعاني الى الهوى نواها أجابته الدموع" الذوارف

« ديوان الأبيوردي المطبوع في بيروت ١٣٠٧ هـ »

ومثاله أيضاً الأبيات الغزلية التي مرت معنا لأسامة بن منقذ ومطلعها :

ولثوا فلما رجونا عدلهم" ظلموا فليتهم" حكموا فينا بما علموا

« الروضتين ١ : ٢٣٧ »

وهذا النمط من الشعر يشبه أسلوبه أسلوب البحري وأسلوب الشعراء الغزلين في العصر الأموي . فلترجع في مكانها من بحث الغزل .

والمذهب الثاني البديعي :

يكثر أصحابه فيه من فنون البديع وقد رأينا أمثلة كثيرة عليه ومن ذلك قول العماد الأصفهاني يرثي صلاح الدين وقد رأيناه قبل ومطلعه :

شمّل" الهدى والمثلث عم" شتاته والدهر" ساء وأقلعت" حسناته

ويلاحظ أن كل بيت من أبياته لا يخلو من طباق أو جناس أو منهما معاً .
وكان بعض الشعراء يبنون شعرهم أحياناً بناء الرسائل ومن ذلك قول صدر
الدين بن الوكيل أحد شعراء العهد المملوكي الأول :

الى بابك المأمول وجهت آمالي . وفي فضلك المعهود قصدي وإقبالي
« فوات الوفيات ١ : ٤٧ »

ويرى من مطلع القصيدة كيف وجهها الشاعر الكاتب توجيه الرسالة النثرية .
والمنهج الثالث :

رأينا عليه أمثلة كثيرة فيما أخذناه من موشحات وأزجال ورباعيات وهو سمة
هذه العهود المميزة ماعدا أولها وهو الزنكي الذي لم تستعمل فيه الموشحات
والأزجال أما الأسلوبان الأولان فقد عرفا في العهود السابقة . وقد شاع في هذه
الحقبة استعمال فن القصيدة القصيرة الاجتماعية أو الغزلية . ومثالها قول ابن مطروح
من شعراء العهد الأيوبي مصوراً حديث حبيته الى دأيتها تشكو هواها اليها على
مسمع منه :

شكوى تذيب القلوب والمهجا	سمعتها تشتكي لدأيتها
وما أرى من هواه لي فرجا	تقول يا دأيتي بليت به
هوى بقلبي وقلبه امتزجا	ومثل ما بي به ولا عجب
ولو ركب البهار والشججا	فهل سبيل الى زيارته
أراق يا دأيتي دمي حرّجا	وإن درى والدي بقصتنا
كشارب الراح راح مبتهجا	فرحت مما سمعت مبتهجا

« ديوان البهاء زهير ص ١٧٦ »

فهذا الأسلوب يذكرنا بأسلوب عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد في قصصهما
القصيرة الغزلية . وقد شاعت السخرية في أساليب الشعراء والكتاب ولا سيما
المصريين منهم ومثال ذلك قول الشيخ عبد العزيز الدّرّيني من شعراء العهد المملوكي
التركي يشكو من زواجه باثنتين :

عسى بزواجهنَّ تُسرَّ عيني
أنعم بين أكرم نعتين
عذاب مؤلم بين اثنتين
فلا أخلو من إحدى الساخطين
نقار دائم في الليتين
من الخيرات مملوء الدين
فواحدة تكفي عسكيتين

تزوجت اثنتين لفرط جهلي
فقلت أعيش بينهما خروفاً
فجاء الحال عكس الحال دوماً
رضي هذي يحرك سخط هذي
لهذي ليلة ولتلك أخرى
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا
فعش عزباً وإن لم تستطعه

« ابن خلكان ، الوفيات ، ١ : ٨٢ »

وتنوعت عواطف الشعراء بحسب الموضوعات ، ولكن العاطفة بصورة عامة
كانت تميل الى الرقة . وقد رأينا مثالا على هذه الرقة في الغزل قول سيف الدين
بن المشد (ت ٦٥٦ هـ) :

وإن يموتوا فهم من جملة الشهداء
أن الضلالة تيهأ في الغرام هدى
عبرى وأنفاسهم تحت الدجى صعدا
ظلموا سكارى فظنوا فيهم رشدا

بشرى لأهل الهوى عاشوا به سعدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم
عيونهم في ظلام الليل ساهرة
تجرعوا كأس خمر الحب مترعة

« ابن العماد ، الشذرات ٥ : ٣٤٩ »

أما المعاني فكان أكثرها تقليدياً ولكن الشعراء مزجوا أحياناً بين القديم والجديد
بأن جددوا في المعاني القديمة ببعض الإضافات ومثال ذلك قول أحدهم :

لهيب الخد حين بدا لعيني هوى قلبي عليه كالقراش
فأحرقه فصار عليه خالاً وما أثر الدخان على الحواشي

فالقديم فيه تشبيه الخد بالنار والجديد تشبيه القلب بالفراشة تحترق به
وتبقي أثراً أسود عليه .

ومن أمثلة المعاني الجديدة المستحدثة قول ظافر الحداد (ت ٥١٢ هـ) وقد
استدعاه والي الاسكندرية ليستخرج خاتماً ضاق خنصره عنه :

قَصْرٌ فِي أَوْصَافِكَ الْعَالَمِ فاعترف النائرُ والناظم
مَنْ يَكُنْ الْبَحْرُ لَهُ رَاحَةً يضيق عن خنصره الخاتمُ
« خريدة مصر ، ج ٢ : ١٥ »

ومما أكثر منه شعراء هذه العهود المبالغة في التعظيم والالجال كقول ظافر
الحداد نفسه يهنئ قاضي الاسكندرية برمضان :

شهر الصيَّام بك المهتَبَا إذ كان يشبه منك فتَبَا
ما سار حولا كامبلا إلا ليسرق منك معنى
« خريدة مصر ، ج ٢ : ١٥ »

وكذلك أكثروا من نقد المجتمع . من ذلك قول ابن المقدم المحلي من شعراء
آخر العهد الفاطمي في استئثار الجند بمال الدولة وفي سلبهم الناس وحرمانهم
الكتاب الذين لم يكونوا يحصلون من الغنيمة الا على القليل :

فاتركونا ، معاشرَ الجند ، واغثوا بدثور الأرزاق كلَّ أوانٍ
وارتعوا في جزور ذي الدولة الـ سهامى نداها في أطيب الشمعان
واشغلونا بما به يشغل الهينثر بنفع أو خيفة العُدَّوان
بالطَّحال المسدود أو طرف الرِّبَّة أو بالمِعْشَلِاق والمَصْران
« خريدة القصر ، ج ٢ : ٤٧ »

ومن الجديد في هذه العهود استعمال مصطلحات العلوم وألفاظها . قال أحدهم
يتغزل مستعملا لغة الهندسة ، ولعلَّه من شعراء العهد المملوكي التركي :

تقسَّم قلبي في محبَّةٍ معشر بكل فتى منهم هوايَ متَّوط
كَأَنَّ فُلَّوادي مركزَ وهمٍ له مُحيطٌ وأهوائي إليه خُطوط
« وفيات الأعيان ، ج ٥ : ١٢٢ »

ومن الجديد فيه أيضاً استعمال إحياءات الألفاظ . من ذلك قول ابن الدِّمَرْدَاش^(١)
في مسواك :

(١) لعله مخضرم بين المهديين الفاطمي الزنكي والأيوبي .

أقولُ لمسواكِ الحبيبِ لكِ الهنا
فقال وفي أحشائه حرقُ الجوى
تذكرتُ أوطاني فقلبي كما ترى
بلشمِ فسمِ ما ناله ثغرُ عاشقِ
مقالةٌ صبُّ للديار متفارقِ
أعلَّته بين العذَّيبِ وبارقِ^(١)

« شذرات الذهب ٦ : ٥٩ »

وقد مال شعراء هذه العهود الى السهولة في استعمال الصور البيانية . وقد عرف أحدهم ، وهو ابن حجة أحد أدباء العهد الجركسي ، حسن البيان بأنه عبارة عن الابانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس ، ولكن أدباءها أنزلوا فنون البيان عن مكائنها التي كانت لها في العصر العباسي لدى عبد القاهر الجرجاني وأدرجوها ضمن فنون البديع . وبقيت صور الشعر كما كانت عليه من قبل صوراً تتابع دون أي استقصاء للصورة كما كان يفعل ابن الرومي . ومن أمثلة هذه الصور المتتابعة قول ابن منير الطرابلسي من شعراء العهد الزنكي .

خلوتُ بمن أهواه بعد تفرقِ
فكان عويلي رعداً وابتسامه
بأرضٍ الى صوب الندى أن يصوبها
وميضاً وأهواءُ القلوب جنوبها
« أعلام النبلاء ، ج ٤ : ٢٤٦ »

فقد شبه عويله بالرعد وابتسامه الحبيب بلمعان البرق وأهواء القلوب بالرياح الجنوبية ، ولكنه لم يفصل أي صورة من هذه الصور .

وأكثر الصور التي جاء بها الشعراء تقليدي سبقوا اليه . ومثال ذلك قول عرقلة من العهد الأيوبي ، في المدح :

معشر كالغيوث في حلبة السِّلم وفي الحرب كالليوث الضواري

« الديوان : ٤٧ - ٤٨ »

ولكنهم جاؤوا الى جانبها بصور جديدة مبتكرة . مثال ذلك قول ابن الساعاتي

(١) العذَّيب : تصغير عذب ويريد به ريق الحبيبة ، وبارق : يريد به اسنان الحبيبة البيضاء البارقة .

من العهد الأيوبي أيضا يصف أصحابه المسافرين وقد انحنوا فوق رحالهم فيشبههم
بأنامل الحاسب حين يعد :

وصحبي نشاوى من ثعاس كأنهم ° على شعب الأكوار أنتمل حاسب

« الديوان ٢ : ٢٥٧ »

ومن صورهم المبتكرة قول مجير الدين بن تميم من العهد المملوكي التركي :

سبقت° اليك° من الحقائق وردة° وأتت° قبلى أوانها تظفلا
طمعت° بلثمت° إذ° رأيتك° فجمعت° فمها اليك كطالب تقيلا

« شرح اللامية ، ١ : ٧٢ » و « خزنة الأدب ، ابن حجة ، ١٧٦ »

ونلاحظ على بعض الصور أنها تأثرت بحياة الشعراء العامة الطبيعية والاجتماعية.
مثال ذلك قول ابن الساعاتي يصف روضة :

ولقد نزلت° بروضة حزينة° رتعت° نواظرنا بها والأنفس°
ما الجو إلا° عنبر° والدوح° إلا جوهـر والأرض إلا° سندس°
سـفـرت شقائقها فهم° الأقحـوان° بلثمتها فرنا اليه النرجس°
فكان° ذا ثغر° وذا خد° يحا° له وذا أبداً عيون° تحرس°

« الديوان ، ٢ : ١٦٤ »

فالشاعر في تشبيهاته هذه متأثر بميله الى المرأة وعلاقته بها ويستمد بعض
تشبيهاته مما يستمتع به في البيئة حوله كالعنبر والجوهر والسندس ، وهو التحرير
الأخضر . وأكثر ما استلقت النظر في هذه العهود من ناحية الفنون البديعية ظهور
ثلاثة مذاهب في التورية :

١ - الأول :

مذهب القاضي الفاضل وهو مخضرم بين العهدين الفاطمي والأيوبي الذي
امتاز بالاكثار من التورية على أساس أنه يخلق فيها نوعاً من الإيهام المحبب للقارئ
أو السامع بحيث يحتاج الى إعمال ذهنه ليحل عقدة الألفاظ ويختار المعنى المراد

البعيد من معنيين محتملين • ومن تورياته وقد وقف مع صلاح الدين على نهر الفرات
وتحرك به شوقه الى نيل مصر :

يا لله قل للنيل عني أتني لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسك الفؤاد فاته لي شاهد إن كان طرقي بالكاء نجلا
يا قلب كم خلقت ثم بثينة وأعيد صبرك أن يكون جميلا

«وفيات الأعيان ١ : ٢٨٥» و«خزانة الأدب للحموي، باب التورية ص ٣٠٠»

فالقاضي الفاضل يهد لتورياته بذكر بثينة ثم يورد بعدها «جميلا» ولا يريد
جميلا الشاعر المشهور بل يريد بها الصفة التي هي عكس القبح • أي انه يستقبح
الصبر على بُعد الأحباء •

٢ - المذهب الثاني :

مذهب الشرف الأنصاري صاحب الطريقة الشامية في التورية وهو يعتمد
فيها إحكام إيرادها دون تمهيد معتمدا على ذكاء القارئ وعلى سهولتها مستفيدا
في كثير من الأحيان من الاشارات التاريخية ومن أسماء الأماكن المشهورة ومثال
ذلك قوله :

قالوا أملا في جيلق نزهة تنسك من أنت به مغررى
يا عاذلي دونك من لحظه سهما ومن عارضيه سطر

«الديوان : ٢٤١ - ٢٤٢»

فالشرف الأنصاري هنا يذكر اسمي متنزّهين قرب دمشق أحدهما اسمه سهم
ولآخر اسمه سطرى ولكنه لا يريد هنا هذين المكانين وإنما يشبه لحظ حبيبه بالسهم
ويشبه عارضيه أي الشعر الذي ينبت في جانبي وجهه أول نباته بسطر من الكتابة
الدقيقة المنمنمة •

٣ - والمذهب الثالث :

هو مذهب ابن نباتة المصري ، وقد سمي مذهبه بالسحر الحلال وجمع فيه

بين التورية المصرية التي اقتبسها عن السراج الوراق الشاعر المصري على الطريقة
الفاضلية وبين التورية الشامية التي أخذها عن الشرف الأنصاري ووحّد بين المذهبين
واستفاد من الكنى والألقاب والأسماء والصناعات ومن الاعتماد على ذكاء القارئ
وثقافته التاريخية والعلمية والأدبية وأضاف الى ذلك صفة الإيحاء للقارئ بالمعنى
الذي يريد في أسلوب رقيق سهل .

ومن تورياته التي تمثل مذهبه قوله :

لقد كنتُ في لذاتِ نغركِ هائماً ليالي لم يُمْنَعْ على عاشقٍ نغراً
فأما وسِترٌ دونها من شواربٍ فلا خيرَ في اللذاتِ من دونها سِترُ

« الخزانة : ٣٥١ »

فالشاعر هنا يتغزل بالمدكر ويستفيد من تضمين شطري بيت لشاعر عباسي
فيستعمل التورية في كلمة ستر وهو لا يريد الستر من القماش أو نحوه وإنما يريد
الشاربين اللذين ظهرا في الذي يتغزل به .

وقد استعمل شعراء هذه العهود ما يسمى بحسن التعليل أحيانا ومثال ذلك
قول ابن القيسراني من العهد الزنكي متغزلا :

لو لم تكن مقلته في الحشا جارحةٌ ما سُمِّيتُ جارحةً

« الديوان (خ) و ٨٣ - ٨٤ »

فالشاعر يعلل سبب تسميته العين بالجارحة ، كبقية الأعضاء ، بأنها تجرح
بجمالها .

وأكثروا من مراعاة النظر ومثال ذلك البيتان المشهوران في البلاغة اللذان
يستشهد بهما على هذا الفن ، وهما لابن الساعاتي من العهد الأيوبي :

والطَّلُّ في سلكِ الغصون كلؤلؤٍ نَظْمٌ يضافحه النسيمُ فيسقطُ

والطيرُ تقرأ والغديرُ صحيفةً والريحُ تكتبُ والغمامُ يُنقِطُ

« الحياة الأدبية ، د . بدوي : ١٩٠ »

فقد شبه الشاعر عناصر الطبيعة وهي غناء الطير وصفحة الماء وهبوب الريح على صفحة الماء وسقوط المطر بأشياء متجانسة مستمدة من فن الكتابة ملائماً بينهما وهي القراءة والصحيفة والكتابة والتنقيط • ولذلك سمي هذا الفن بمراعاة النظير • وقد أكثروا أيضاً من الطباق ومثال ذلك قول ابن الساعاتي :
تبكي وتبسم منزله وبروقه والسحب تطوى تارة وتنشتر

وأكثروا في ناحية المحسنات اللفظية من الجناس ومثال ذلك قول ابن القيسراني :
عقائل تخشاها عقيل بن عامر كواعب لا تعطي الذمام على كعب
فهو يجانس في غزله بين عقائل وقبيلة عقيل وكواعب وقبيلة كعب •

ومن الجناس الذي أكثروا منه ، التجنيس ، وهو المجانسة بين القوافي ، ومثاله قول شميم الحلبي (إرشاد الأريب ، ياقوت الحموي : ٥ : ١٣٠)
ليته طول بالشا م ثواء وثوى به
جعل العود الى الزو راء من بعض ثوابه
فقد جانس بين القافيتين ثوى به في البيت الاول وثوابه في البيت الثاني •
ويسمى هنا الجناس على صورته هنا ، سواء أكان في الشعر أم في النثر الملفق •
لأن أحد عنصريه يتألف من كلمتين •

وقد أكثروا من الاقتباس من القرآن والحديث أو الحكمة ومثاله قول ابن القيسراني مادحاً عماد الدين زنكي :

كأنني بهذا العزم لا قتل حد • وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر

« الاقتباس من سورة مريم ١٩ : ٣٩ والشعر في الخريدة ١ : ١٥٨ »

وأكثروا من تضمين الشعر وفاخر أحدهم بأن نصف شعره من شعر غيره •
ومن أمثلة تضمينهم قول السراج الوراق من شعراء العهد المملوكي التركي الذي أكثر شعراؤه من التضمين والاقتباس •

وباخلة يشنأ الأضياف حل به ضيف من الصبغ نزال على القمم
سألته ما الذي يشكو فأشدني ضيف ألم برأسي غير محتشم

« فوات الوفيات ٢ : ٦٠٤ »

الفنون الطفيلية

هي فنون تحسب على الشعر في هذه العهود أو بعضها وليست من الشعر في شيء •
من هذه الفنون الشعر الهندسي والتشجير والتطريز والألغاز والمعميات ،
والتاريخ الشعري ، والقوافي المشتركة والملوثة ، وما يدخل تحت اسم الطرد والعكس
(من مخلّعات وما لا يستحيل بالانعكاس وما ينعكس موضوعه باختلاف اتجاه
قراءته وأشعار التبادل والمتواليات) ، ومحبوك الطرفين ، وجعل قوافي الأبيات
محتملة للحركات الثلاث •

ويضاف الى هذه الفنون فنون أخرى شكلية في الشعر والنثر اهتمّ بها بعض
الشعراء في هذه العهود كجعل الحروف كلها منقوطة أو دون نقط أو غير ذلك ممّا
ليس له قيمة في المعنى أو العاطفة أو الخيال أو جمال التعبير وقد يسيء الى هذه
النواحي والى النص الأدبي بمجموعه سواء أكان شعراً أم نثراً •

وهذه الفنون وإن اهتمّ بها بعض الشعراء أو الكتاب إلاّ أنها لم تكن من
الفنون الأصيلة وإنّما كان يتسلّى بها كما يتسلّى بلعبة الحروف المتقاطعة وغيرها
ولا يجوز أن تؤخذ دليلاً على رفعة عهد أو انحطاطه في النواحي الأدبية والعلمية
إلاّ إذا كانت هي الفنون الوحيدة فيه أو السمة الغالبة عليه ، غير أن وجودها أو
كثرة انتشارها فيه أمر يدلّ على أن عدداً من شعرائه وأدبائه كانوا يضيعون أوقاتهم
في أمور ليست جوهرية •

وبديهي أنّ قيم الأشياء ، ولا سيما الجمالية منها ، نسبيّة تختلف باختلاف
العصور والبيئات ، ومن ذلك مقوّمات الجمال في الأدب شعره ونثره ، فقد يستحسن
عصر ما لا يستحسنه آخر ، وقد تثير الإعجاب ناحية صناعية لفظية أو زخرفية ،
في بيئة ، على حين أنها تثير النفور في بيئة أخرى •

وهذه الفنون التي أسميناها طفيلية تنسب غالباً الى العهد المملوكي وبعضها لم يتدع فيه وكان موجوداً قبله ولكنها كثرت في هذا العهد ولا سيما الجركسي منه ثم زادت كثرة وزاد الاهتمام بها في العهد العثماني ، وبعضها وجد في هذا العهد الأخير دون غيره .

ومن الأفضل ألاّ نحكم على هذه الفنون حكماً واحداً وأن نسبغ على كل منها ما يخصه ولكن من الحق أن نقول إن وجودها قد استمر حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ثم أهملت حتى لتكاد لا يسمع بها ولا تعرف أسماؤها .

ونحن لا نتكلم عليها الآن اهتماماً بقيمتها الفنية ، بل لمعرفة حقيقتها ، والتأريخ لها ورصد أطوارها وتجنب أمثالها ومعرفة أنها من معوقات الابتكار ومضيعات الوقت .

١ - الشعر الهندسي :

أطلق الدكتور أسامة عانوتي في كتابه « الحركة الأدبية في القرن الثامن عشر على نوع من الشعر نظمته الشعراء على شكل مثلثات أو مربعات أو معينات أو مخمسات أو دوائر اسم الشعر الهندسي ووافقته على هذه التسمية الدكتور بكري شيخ أمين للملاءمة التسمية لواقع الأشكال (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ص ٢١٣) .

وقد نسب الأب لويس شيخو اختراع هذا النوع من الشعر الى ابن الفرنجية الحلبي في مقالة نشرها في مجلة المشرق عام ١٨٩٩ (في المجلدين الثاني والعاشر) ، وأرجع أصل هذا الفن الى الصليبيين دون بيئة وسمّاه « ديدكوز » .
وجاراه في ذلك الدكتور عانوتي في كتابه السالف الذكر نقلاً عنه .

ولم يشاطرهما الرأي الدكتور الشيخ أمين لأن أخباراً بلغته لم تبلغ مبلغ الصحة العلمية بأن هذا الفن أقدم مما ظنّ لويس شيخو .

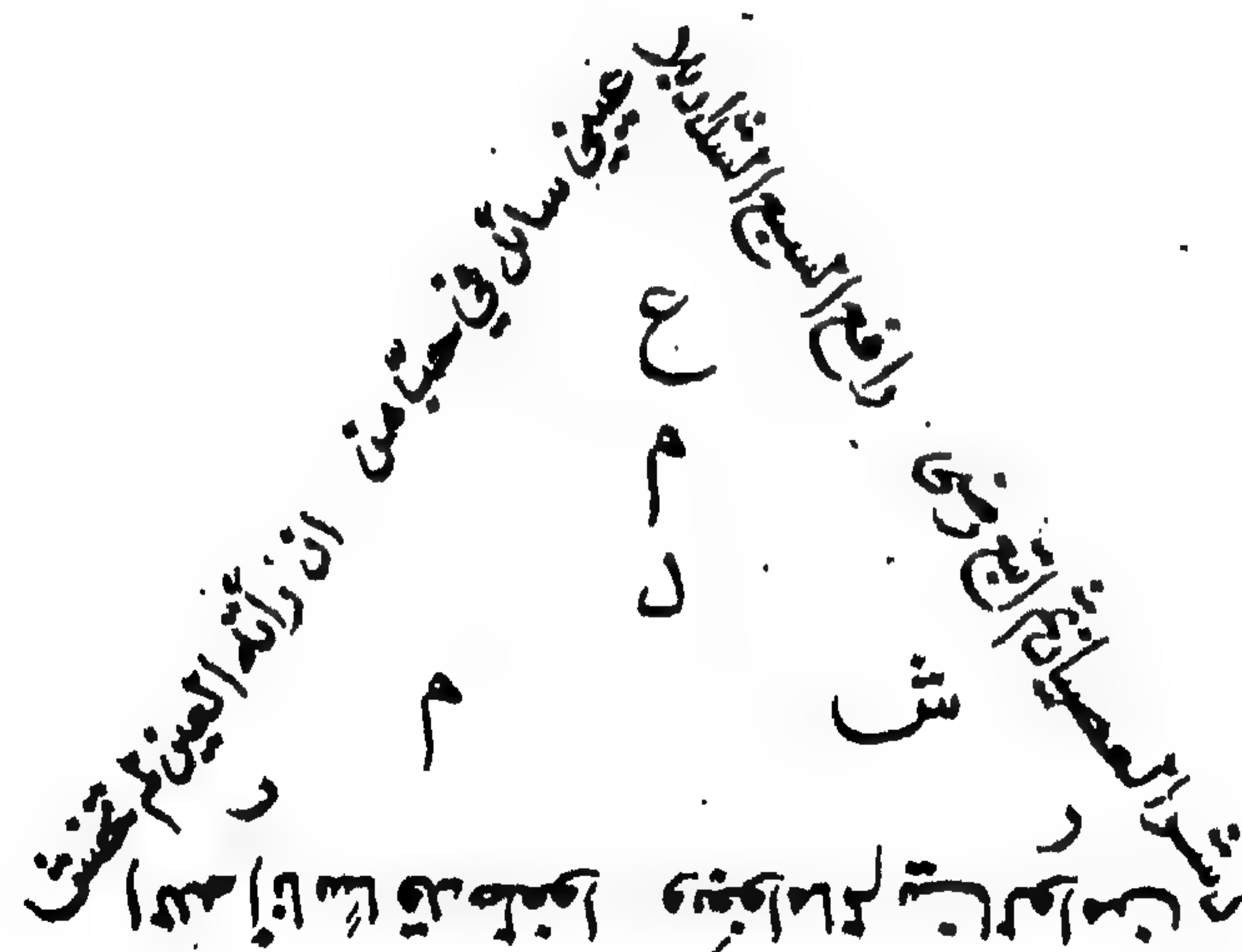
ونحن نرى أن هذا الفن وجد تلبية لصناعة النقش على النحاس أو الخشب

أو طلاء السقوف والجدران بالأصبغة الكثيرة الألوان أو تطريز أغطية الأضرحة وما شاكل ذلك .

فإن الناظر اليوم الى الأطباق النحاسية الكبيرة التي تعلّق على الجدران في المدن والقرى ليُتباهى بها ، يرى كثيراً من آيات الشعر منقوشة عليها بأشكال هندسية بديعة .

وفي تصوّرنا أن المؤرّخ لهذا اللون من الزخارف الشعرية الطفيلية يجب أن يرجع الى الفنون الأثرية وشبه الأثرية ويدرس ما نقش عليها من زخارف كتابية أخذت من الشعر أو من القرآن أو من الحديث ، وحينئذ يستطيع أن يحكم على بداية وجود هذا الفن في الوطن العربي وعلى سماته وأطواره المختلفة (١) .

ومهما كان الشكل الذي يكتب فيه الشعر فإن له مركزاً يشغله حرف يبدأ منه البيت وينتهي به فيكون من النوع المحبوك من طرفيه فمثال المثلث الشكل التالي :



(١) لخصنا الكلام على هذه الفنون من كتاب « مطالعات في الشعر الملوكي والعثماني للدكتور بكري الشيخ أمين » .

وأياته هي :

دسع عيني سائل في حبّ مَنْ إن رأتَه العين لم تخش رمد
دمّر الله أناساً قد طفّوا وبغّوا ما لم ينالوا من رشد
دشر العصيان ثم اتبع رضى رافع السبع الشداد بلا عمد

ونلاحظ أنّ هذا الشعر ركيك الأسلوب متصنّع المعاني ، قد تعمّد صاحبه أن يجعلها في النصح وما يشبه الحكمة ، وأن الشطر الأخير منه ليس صحيحاً من حيث العروض .

ب - التشجير :

التشجير هنا بمعنى جديد وهو كتابة الشعر على شكل شجرة كما يفعل العلماء حين يفرّعون مسائل الفقه أو النحو في بعض كتبهم منذ أواسط العصر العبّاسي . ولما كانت بداية هذا الفن الطفيلي على الشعر قد جعلها بعضهم في بداية القرن الحادي عشر الهجري لذلك نرجى الكلام عليه الى العهد العثماني .

ج - التاريخ الشعري :

اختلف في بدء التاريخ الشعري على حساب الجُمّل ، واتفق مصطفى صادق الرافعي مع اريس شيخو على أنّ أول شعر وصل إلينا فيه كان للحسين بن الشيبّ أحد شعراء العراق في القرن السادس الهجري الذين ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة ، فقد قال في المستنجد بالله أحد الخلفاء العبّاسيّين :

أصبحت « لب » بني العبّاس كلّهم إن عدّت بحروف الجُمّل الخلفا
وأراد أنه الخليفة العبّاسي الثاني والثلاثون . وذلك مضمّن في جُمّل « لب » .

ويعتمد حساب الجُمّل على ترتيب حروف الأبجدية الموافق لترتيب حروف اللغات السامية القديمة كالفينيقية والسريانية . وبديهيّ أن ترتيب الأبجدية هو غير الترتيب الهجائي (الألفبائي) المتبع اليوم في ترتيب المعاجم .

فحروف الأبجدية لا تستعمل في هذه اللغات في تركيب الكلمات فقط ، وإنّما تستعمل كذلك للدلالة على الأرقام الحساوية ويسمّى الحساب بها حساب الجُمّل ، أي الحساب بالحروف الهجائية .

فالحروف العشرة الأولى التي تتكوّن منها ألفاظ « أبجد » « هـ و ز »
« حطّي » تدل على أعداد الآحاد ومعها العشرة كما يلي :

أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ،
ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠

والحروف التي تتكوّن منها الكلمتان : كلمن ، سعنص ، تدل على العقود وفق
ترتيب هذه الحروف كما يلي :

ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ،
ف = ٨٠ ، ص = ٩٠

والحروف الباقية في الكلمات الثلاث : قرشت ، ثخذ ، ضظغ ، تدل على المئات
وفق ترتيب هذه الحروف كما يلي :

ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ،
ذ = ٧٠٠ ، ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠

ويشترط على الناظم في تاريخ الجمّل أن يقدم لألفاظه بكلمة أرّخ أو أرّخوا
أو نحو ذلك ممّا يدل على التاريخ وأن يشير إشارة بيّنة إلى ما لا يدخل في حساب
التاريخ من الكلام بعد كلمة أرّخ أو ما شاكلها حتى لا يلتبس الأمر على القارئ
كقول أحدهم في تاريخ بستان :

يهنيك تاريخ أتى ضبطه « بستان بسط باهر زاخر »
وواضح من كلام الناظم أن جملة « أتى ضبطه » ليست داخلة في حساب
التاريخ .

ويشترط عليه ألا يأتي بالتاريخ في بيتين بل في بيت واحد .

ومن المقرر أن الحروف تحسب بحسب هجاءها لا بحسب لفظها
فالآلف المقصورة في مصطفى تحسب ياء ، والتاء المنقطة تحسب تاء ، والتاء غير

المنقطة تحسب هاء ، والهمزة التي لا كرسى لها لا تحسب ، وألف الإِطلاق تحسب لأنها تكتب .

ويستقبح التاريخ الشعري إذا كان حشواً مصطنع المعنى أو كان ضعيف الصلة بما قبله أو كان معقداً ويزيد حسنه إذا كان فيه فائدة تاريخية أو نكتة أدبية أو حكمة أو فكاهة ملائمة لما قبله وكان إلى ذلك متناسق اللفظ مبرّءاً من الاستهجان .

وهذه الصفات المطلوبة فيه هي التي حملت على عدّه من أنواع البديع . وأوّل من عدّه منها فيما نعلم الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ . ومثاله قول أحدهم يؤرّخ لجلوس السلطان سليم بن سليمان على العرش سنة ٩٧٥ هـ :

يولّى ملك العصر وابن مليكه بعزّ وتأييد ونصر وسلطان
ودولة ملك قلت فيها مؤرّخا « سليم تولّى الملك بعد سليمان »

د - القوافي المشتركة :

أغرم بعض الشعراء بنظم قصائد تبني قوافيها كلّها على كلمة واحدة متعدّدة المعاني في اللغة . وهناك كلمات اشتهرت بصلاحها لذلك مثل : الخال ، العين ، الغروب ، الهلال ، العجوز .

وسرى أن صفيّ الدين الحلبي قد نظم في هذا الضرب من القصائد المتكلّفة التي تخرج عن روح الشعر الى سمة النظم المتكلّف وتوضع فيها القافية مقدماً ، ثم يقتسر لها المعنى .

وقد اتفق في الشعر القديم وقوع ذلك دون تكلّف أو بتكلّف بسيط ، كقول الخليل بن أحمد :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى إن رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرقي وقد أزمعوا ودمع عينيّ كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرّة تقترّ عن مثل أقاحي الغروب

فالغروب الأولى غروب الشمس ، والثانية : الدلاء العظيمة ، وهي جمع غَرْب ، والثالثة المنخفضات ، وهي أيضا جمع غرب .

وقد عني الحريري (ت ٥١٦ هـ) بهذا النوع من النظم ومما قاله فيه :
لا تخطوَنَ إلى خطٍ ولا خطاً من بعد ما الشيب في خدّيك قد وخطا
وأبي عذر لمن شابت ذوائبه إذا سعى في ميادين الصبا وخطا
فخطط الأولى بمعنى خالط والثانية واو العطف جاء بعدها خطا من الخطو .

ويلاحظ أنّ هذه القوافي المشتركة تكون إمّا جناساً تامّاً أو جناساً ملفّحاً ، ولا تتعدّى فيها القصيدة غالباً بضعة أبيات .

وقد أصبح النظم في هذا اللون ، ولا سيّما بعد أن شاع ، ضرباً من اللغو ، وجاءت منه قصيدة في أربعة وثلاثين بيتاً قافيتها العين ، ونكتفي منها بهذين البيتين :

هنيئاً قد أقرّ الله عيني فلا رمت العدا أهلي بعين
وقد وافى المبشر لي فأكرم بخير ريئة وافى بعين

فالعين الأولى الإصابة بالعين ، والعين الثانية النضة والعملة المستعملة .

هـ - الطرد والعكس :

نظم بعض الشعراء في هذه الحقبة قصائد كثيرة أو مقطّعات تقرأ على عدّة وجوه مع المحافظة على معناها . وهذا لون لم يتكلّفه القدماء . وقد ورد منه في القرآن الآية : (وربّك فكبر) . فإذا قلبنا ترتيب الحروف دون الواو الأولى حصلنا على الكلمتين نفسيهما .

وهذا الفن من التكلّف الشديد أولع به الحريري ومنه قوله :

أسى أرملا إذ عرا وارّع إذا المرء أسا
أسند أخا نباهة أبين إخفاء دثّسا

ومثله في النثر ما جاء في مقامته « المغربية » ومنه :

ساكب كاس ، ثمّ أخا ملّ ، كبرّ رجاء أجر ربّك .

وقد اقتدى بعض شعراء هذه العهود بالحريري في ذلك • والحريري هو الذي سمّاه بهذا الاسم • وجاراه في التسمية ابن حجة الحموي • وسمّاه بعضهم « بالملقوب » • وسمّاه السكّاكي « مقلوب الكل » (خزنة الأدب ، ٢٣٧) •
ومن أحسنه قول الأَرَجاني أحد شعراء العهد الفاطمي العباسي الزنكي (الخزنة ، ٢٣٨) •

مودته تدوم لكلّ هول وهل كلّ مودته تدوم

وهناك نوع منه دعاه ابن حجة بالعكس وهو لا يقوم على عكس الحروف ، بل على عكس ترتيب الكلمات • ومثاله الآية (تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحيّ من الميت ، وتخرج الميت من الحي) • ومثاله أيضا قول أبي تمام حين سئل : « لم لا تقول ما يفهم » فأجاب على الفور : « لم لا تفهم ما يقال » • ومنه قول أحد الحكماء وقد قيل له : لم تمنع من يسألك ، فأجاب : لئلا أسأل من يمنعني • ويلاحظ أنّ عكس ترتيب الكلمات في هذه الأمثلة قد حقق معنى مقصودا ضروريا ولم يكن لغوا ، ولذا استحسنته السامعون •

وقد نظم صفيّ الدين الحلّي في لون منه بسيط يقوم على تبديل مواقع بعض الفقرات المتكرّرة في عدّة أبيات ومثاله الأبيات الأربعة التالية :

ليست شعري ، لك علم	من سقامي	يا شقائي
لك علم ، من زفيري	ونحولي	وضنائي
من سقامي ، ونحولي	داورني إذّ	أنت دائي
يا شقائي ، وضنائي	أنت دائي	ودوائي

وقد عرف في النثر بعض الجمل التي إذا قلب ترتيب حروفها تكونت هي من جديد • عرف ذلك في بعض مقامات الحريري ، كما ذكرنا ، واشتهر منه ما روي من العبارتين المتبادلتين بين العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ، وهما : « دام على العماد » و « سر فلا كبا بك الفرس » •

على أنّ ما جاء به الحلّي كان بسيطاً سهلاً ، ولكن المحاولة تعقّدت على يد غيره وظهرت منها ألوان عدّة : كالمخلّعات ، وما لا يستحيل بالانعكاس ، وما إذا قرأته طرداً كان مدحاً ، فإذا قرأته عكساً صار هجاء ، وما إذا قرأته شاقولياً كان هجاء ، وإذا قرأته أفقياً كان مدحاً ، وأشعار التبادل والمتواليات •

فالمخلّعات : سميت بذلك لأنّها تقرأ على وجوه كثيرة طرداً وعكساً ولا تبقى على حال •

قيل إنّ أوّل من نظم المخلّعات هو لسان الدين محمد بن عبد الله السليمانيّ الأندلسيّ (٦٧٢ - ٧٤١ هـ) وهو معاصر لصفي الدين الحلّي • وفنه في مخلّعته معقّد ، إذا قسناه بما رأيناه عند الحلّي • وذلك يجعلنا نشكّ في أوليّته أو أوّلية الحلّي ونرجّح أنّ الأندلسيّين قد سبقوا إلى هذا الفنّ حتى اكتمل عندهم وتعقّد في عصر الحلّي نفسه •

وتألّف مخلّعته من اثني عشر بيتاً وذكر أنّها تقرأ على ٤٦٠ وجه طرداً وعكساً • وإليك أبياتها :

داء ثوى	بفؤادي شفّته السقم	ببهجتني	من دواعي الهم والكمد
بأضلعي	لهب تذكو شرارته	من الضنى	في محلّ الروح من جسدي
يوم النوى	حلّ في قلبي له ألم	وحرقتني	وبلائني فيه بالرصد
توجّعني	من جوى شبّت حرارته	مع العنا	قد رثى لي فيه ذو الحسد
جلّ الهوى	ملبسي وجداً به عدم	لمحتني	من رشا بالحسن منفرد
تبثّعني	وجه من تزهو نضارته	إذا اتّنى	قاتلي عمداً بلا قوّد
مصلي الجوى	مولع بالهجر منتقم	ما حيلتي	قد كوى قلبي مع الكبد
بمصرعي	معتد تحلو مرارته	يا قومنا	آخذاً نحو الردى بيدي
هدّ القوى	حسنه كالبدن مبتسم	لِفَتْنِي	موهن عند النوى جلدي
مروّعني	قمر تسبي إشارته	إذارنا	ساطع الأنوار في البلد
قلبي كوى	ملك في الحسن محتكم	لقصّتي	وهو سؤلي وهو معتمدي
مودّعني	سار لاشطّت زيارته	لما جنّني	مورثي وجداً مع الأبد

« الصفدي ، أعيان العصر (خ) ج ٣ ق ١ و ٨٨ »

ومما يساعد على قراءتها بوجوهها المختلفة كتابتها بشكل هندسي على النمط التالي :

داه نوى	نفواري شفه سقمه	من روعي الهم والكمه
يا ضلعي	لهب تذكو حرارته	في نحل الروح من جسدي
يوم النوى	حل في قلبي له الم	و يلدني فيه بالبرص
توجعني	من الجوى شت حرارته	قد ريتني فيه ذوالحسد
جل الكوى	ملبي وجلبه علم	من رشا بالكسن منفره
نتجعي	وجه من ترفو بضارته	فتايتي عمداً بروتود
مصائب الجوى	موقع بالحجب فتقهم	قد كوى قلبي مع الككب
بجدي عجب	معدتقلو مرارته	أخذ النوى الردي بيدي
هنا القوى	حسنه كاللبه ملتئم	موهن عند النوى جلتني
مروعي	عترتسبي استارته	ساطع الانوار في الكبد
فتبي كوى	ملك في الحسن تحتكم	وهو شوي وهو مقتلني
مورتي	سار لاسقة زيارته	مورتي وجدل مع اليد

ويلاحظ أنها يمكن أن تقرأ في هذه الكتابة من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل ومن الأخير إلى الأول وبصور مائلة كثيرة وطرذاً وعكساً .. الخ .

و - اشعار التبادل والمتواليات :

هي أشعار على البحر المتقارب يستعمل فيها أصحابها كلمات مستقلة ليس بينها

أدوات رابطة وكل كلمة على وزن تفعيلة وتدلّ معانيها على المدح أو الهجاء بحسب
 رغبة الشاعر • ومثالها قول أحدهم :

لقلبي حبيب مليح ظريف بديع جميل رشيق لطيف
 وقول الآخر :

محبّ ، صبور ، غريب فقير وحيد ضعيف كتوم حمول
 ويلاحظ إمكان تقديم الكلمات أو تأخيرها بوجوه عديدة دون إخلال بالوزن
 أو المعنى وقد حسب بعضهم احتمالات ذلك على طريقة المتواليات فوجدها (٤٠٣٢٠)
 احتمالا •

ز - محبوبك الطرفين :

يراد به الشعر الذي تبدأ أبيات قصائده بحرف وتنتهي به • وقد ذكر الرافعي
 أن ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) هو أوّل من جاء به ثم تلاه عليّ بن محمد الأندلسي
 البرزي (تاريخ آداب العرب ، ٣ ، ٣٨٥) ومن قول ابن دريد :

أبقيت لي سقما يمازج عبرتي من ذا يلذّ مع السقام بقاء
 أشمتّ بي الأعداء حين هجرتني حاشاك ممّا يشمت الأعداء
 أبكيّني لمّا ظننت بأنّني سيصير عمري ما حيت بكاء

وقد نظم ابن دريد مقطعات على الحروف مستقلة في أوزانها ومعانيها ، وأوصل
 البرزي عدد أبياتها إلى العشرة ، ولذلك يعرف ما نظم في ذلك بالقصائد المعشّرة •

وجاء صفي الدين الحلّي في العهد المملوكي الأوّل فنظم ارتقيّاته في مدح
 الملك المنصور صاحب مارددين ، وجعلها تسعا وعشرين على عدد حروف الهجاء •
 وكل قصيدة منها تبدأ أبياتها بحرف وتنتهي به • وقد أوردنا مثالا عليها في دراستنا
 لصفي الدين الحلّي ضمن هذا الموجز •

ومطلع الهزمية وهي أوّل قصيدة منها :

أبت الوصالَ مخافةَ الرقباءِ وأتتك تحت مدارع الظلماءِ

وقد عارض الحلّي بعض معاصريه من الشعراء ومن بعدهم • ويلاحظ أن أمثلة الأنواع الأخيرة جاء أكثرها من العهد المملوكي التركي •

ح - الشعر المتقلب بين المديح والهجاء :

منه نوع يكون بعكس الحروف كقول أحدهم :

بأهبي المراحيم لأبس	كرما قدير مسند
باب لكل مؤمل	غنم لعمرك مرفد

فهذا مديح • وإذا عكست حروف بيته من آخرها صار هجاء على الشكل التالي :

دنس ، مريد ، قامر	كسب المصارم لا يهاب
دفير ، مكر ، معلّم	نفل ، مؤمل كل باب

ومنه نوع يكون بعكس الكلمات كقول أحدهم في المديح :

حلموا فما ساءت لهم شيم	سمحوا ، فما شحّت لهم منن
سلموا فما زلت لهم قدم	رشدوا فما ضلّت لهم سنن

فإذا عكست ترتيب الكلمات من آخر كل بيت إلى أوّله انقلب المدح هجاء على الشكل التالي :

منن لهم شحّت ، فما سمحوا	شيم لهم ساءت فما حلموا
سنن لهم ضلّت فما رشدوا	قدم لهم زلت فما سلموا

ومنه ما يكون في قراءته الأفقية مدحاً ، وفي قراءته الشاقولية هجاء • ومثاله قول أحد الشعراء :

إذا أتيت نوفل بن دارم	أميز مخزوم وسيف هاشم
وجدته أظلم كل ظالم	على الدنانير أو الدراهم
وأبخل الأعراب والأعاجم	بمرضه وسرّه المكاتم
لا يستحي من لوم كل لائم	إذا قضى بالحق في الجرائم
ولا يراعي جانب المكارم	في جانب الحق وعدل الحاكم
يقرع من يأتيه سنّ نادم	إن لم يكن من قدم بقادم

فإذا قرئت الشطور الأولى بشكل شاقولي وحذفت الشطور الثانية تحولت إلى هجاء كما هو واضح .

ط - القصائد التي تقبل قوافيها الحركات الثلاث :

أغرم بعض الشعراء كذلك بنظم القصائد التي يجوز في قوافيها الرفع والنصب والجر . والكلفة فيها ظاهرة ، والبعد عن روح الشعر واضح ، وقد نظم صفي الدين الحلبي بعض أبيات منها مجازاةً لغيره .

ومن قول عثمان البلطي (ت ٥٩٩ هـ) من قصيدة على هذه الصفة تسمى « الحرباوية » تزيد على ثلاثين بيتاً ، هذان البيتان على سبيل المثال :

١ - إني امرؤ لا يطيب نبي الشادن الحسن القوارم

بالرفع على الفاعلية والنصب على شبه المفعولية والجر على الإضافة .

٢ - فارقت شريرة عيشتي إذ فارقتني والغرام

بالرفع على العطف على فاعل فارقتني المستتر ، وبالنصب على السطف على شريرة ، وبالجر على العطف على عيشتي .

« إرشاد الأريب ج ٥ : ٥٢ »

ونكتفي في هذا الموجز بهذا القدر من الفنون الطفيلية على الشعر وأمثلتها .

زخارف تافهة في هذه العهود

من البديهي أن الشاعر والمعاني هي روح الأدب الحيّ وجسمه ، وأن الألفاظ والتراكيب ليست إلاّ ظواهره وألبسته وقوالبه الدالة عليه ، وأنها إذا صارت تطلب لذاتها أصبحت جسماً لا روح فيه أو ثياباً تغطّي شبحاً أو تمثالاً خالياً من كلّ حياة ومن كلّ جمال حقيقي .

هذا ما حدث للأدب شعره وثره حينما جاء الحريري المتوقّي في مطلع القرن السادس (٥١٦ هـ) فأورد في إحدى مقاماته ، وهي المقامة الحليّة ، وفي غيرها بعض فنون زخرفية شكلية ليشغل بها فراغه وليطرف بها الناس على أنّها شيء غريب يدلّ على سعة علمه في اللغة والأدب وسعة صبره على جمع قطع من فسيفساء اللفظ بعضها إلى بعض .

وقد قلّد بعض الأدباء في عهود الدول المتتابعة هذه الزخارف ليدلّوا على قدرتهم اللغوية والأدبية وليتسلّوا فيملؤوا أوقات فراغهم ، ولكنّها لم تكن كلّ أدبهم كما لم تكن كلّ أدب هذه العهود وإنما كانت ألواناً من تسليّاتها كألوان التسليّات التي تتسلّى نحن بها اليوم .

وليس صواباً أن نأخذ هذه التسليّات فنجعلها عنواناً لأدب هذه العهود ولكنّ من الصواب أن ندرجها على أنّها من بعض تسليّاتها بل من بعض تفاهاتها إلاّ إذا ثبت بالبراهين القاطعة أنّها كلّ ما فيها ، أو ما في أحدها ، وحينئذ تنسب الصفة إلى موصوفها ، وحده .

ولسنا نقول هذا الكلام اتصّاراً لهذه العهود أو دفاعاً عنها ، بل تouxياً للحقيقة . على أنّنا في مقابل ذلك لا نسبغ عليها صفة الابتداع أو الازدهار أو المحافظة على المستوى الذي كان قبلها إلاّ إذا ثبت لنا ذلك بالبراهين القاطعة أيضاً .

وقد رأينا قبلُ أشياء في هذه العهود أو في أحدها حسنة فذكرناها . ورأينا
أشياء سيئة فذكرناها ، وتوقفنا في الحكم أحيانا لعجزنا عن الوصول الى الحقيقة
الناصعة لعدم استيفائنا المطالعة والدراسة .

فمن الزخارف التي أوردناها الحريري وقد لا يكون هو الذي سنّها وإنّا
جاري بها من قبله التجنيس بين القافية والكلمة التي قبلها في البيت ، كقوله من
قصيدة مدح بها سعد الملك ، وزير السلطان محمد بن ملكشاه :

طيف أَلَمٌ به وهنأ فأحياء لَمّا جباه برؤياه ورِيَّاه
سرى إليه ، يسرّي الهمّ عنه ، فما أسرّه عند مسراه وأسرّاه

ولكنّ هذا التجنيس المتكلف جار على المعاني والمشاعر دون أن يخرجها الى
التفاهة وفقدان الروح فقداً تاماً .

وممّا هو أكثر إغراقاً في تكلف الجناس وإزهاق روح الشعر قوله من أبيات :
رئِمَ برامة قد أقام قيامتي بقوامه واقتادني بزمامه
ومنه هذان البيتان من مقصورة مجنسة يلتزم بها ما لا يلزم في القافية وما قبلها
نظمها على أنّها نصائح لولده :

بنيّ استقمّ فالعود تنمو عروقه قويماً ، ويغشاه إذا ما التوى توى
ولا تطع النذل الخسيس ، وكن فتى إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى

وأغرق منهما في تكلف الجناس قوله :

لم يبق صافٍ ولا مصافٍ ولا مَعينٌ ولا مُعين
وفي المساوي بدأ التساوي فلا أمين ولا ثمين

ومثله تكلفاً وضياعاً للوقت نظم أبيات في المقامة الحلبية عاطلة من النقط
وهذا بيت منها :

أعدِدْ لحُسّادك حَدَّ السلاحِ وأوردِ الآمِلَ ورْدَ السِّلّاحِ

ومثله نظم أبيات في المقامة الحلبية كل حروفها منقوطة منها هذا البيت :

فتنتني فجنّنتني (تجنّي) بتجنّ يفتنّ غبّ تجنّ

ومثله في المقامة الحلبية كذلك أبيات أخفاف (أي تأتي كلمة منها مهملة وكلمة معجمة) منها هذا البيت :

اسمح فبث السباح زينٌ ولا تخب أملاً تضيّف

ومثلها في هذه المقامة أبيات متائيم أي متماثلة خطأً مختلفة نقطاً ، ومنها هذا البيت :

زُيِّنَتْ زَيْنَبٌ بِقَدٍّ يَقْدُ وتلاه - ويلاه - نهدٌ يهد

ومثلها هذان البيتان المطرّان (يراد بذلك أنهما متجانسا الطرفين) :

سَمٌ سِمةٌ يَحْمَدُ آثَارُها فاشكر لمن أعطى ولو سسمه
والمكر مهما اسطعت لا تأتِه لتقتني السؤدد والمكرمه

« ياقوت ، الإرشاد ج ٦ : ١٧٥ - ١٧٦ »

ومثلها ما جاء في رسالته السينية التي تجمع بين الشعر والنثر ، من أن كلماتها كلها لا تخلو من حرف السين ومثالها هذا البيت :

وأسكرني حيرة ، واستعاض لقسوته سكرة الخفسريس

وما جاء في رسالته الشينية التي تجمع بين الشعر والنثر أيضا من أن كل كلمة منها فيها شين ومثالها هذا البيت :

فأشعاره مشهورة ومشاعره وعشرته مشكورة وعشائره

ونفختم هذه الأمثلة ببيت من قصيدة غزل جاءت في إحدى مقاماته ويتكلف فيها التجنيس :

وأحوى حوى رقي برقة لفظه وغادرني إلف الشهاد بغدره

يتبين لنا جلياً من هذه الأمثلة أن الحريري لم يكتبها ليعبر عن عاطفة أو ليؤدي معنى وإنما ألف بينها ليدل على قدرته اللغوية .

لقد توفي الحريري في مطلع القرن السادس (سنة ٥١٦ هـ) ومعنى ذلك أنه

عاش في العهد العباسي الرابع عهد بني سلجوق الذي جاء في نهايته العهد الزنكي .
وهذا العهد يتقدم ما سمّي بعصور الانحطاط نحواً من خمسين ومئة سنة . وأنتهي
من هذه الملاحظة الى أن هذه العصور لم تخرج هذه الزخارف التافهة ولكنها
استمرت على استعمالها ، وأذكر مرة أخرى بأن العهدين الزنكي والأيوبي ليسا
من هذه العصور باتفاق جميع المؤلفين عرباً ومستشرقين .

وقد جرى الحريري من جاؤوا بعده في هذه الزخارف فنظموا الشعر المهمل
الحروف كلّها كقول أحدهم من قصيدة :

الحمد لله الصمد حال السرور والكمد

ونظم الشعر المعجم الحروف كلّها كقول أحدهم من قصيدة :

بين جنبي شقة خشت في قضيب تيتني خشن

وجاؤوا أحياناً بكلمة مهمل وكلمة معجمة كقول أحدهم :

تقتضي أحكام بني طالما تفدت أحكامها بين الملا

وجاؤوا في كل كلمة بحرف مهمل يتلوه حرف معجم كقول أحدهم :

ونديم بات عندي ليلة منه غليل

وجانسوا بين الكلمات في رسم الحروف وسمّي بعضهم ذلك « الجناس
التصحيفي » كقول أحدهم :

لآلي ثور أم بدور تشف عن لآلي بحور أم بروق نحور
سما لثما عني فيالتهفي على فوات نحور من فوات حور

والتزموا في بعض القصائد حرفاً معيناً في كل كلمة ومنه قول ابن عنيّ
أحد شعراء العهد الأيوبي وقد اشترط عليه نظم قصيدة في كل كلمة منها سين :

وسقيتها سلسال سحر مسكر للسامعين وسقتها كعروس

ومنه هذا البيت من جملة أبيات التزم فيها صاحبها الظاء :

ظنت عزيمة ظلمنا من حظها فظلت أوقظها لتكظم غيظها

وجاءوا بأبيات كل كلمة منها منفصلة الحروف كهذا البيت :
 إذا زار داري زور وكودود أود وأورده ورد وددي
 وجاءوا بأبيات كل كلمة منها متصلة الحروف كهذا البيت :
 سل متلفي عطف عسى يتعطف فلقد قسى قلباً فلا يتلطف
 واهتموا بذكر أسماء كتب شائعة في عصرهم وسمّوا ذلك التوجيه كقول أحدهم:
 ولده مفتاح العلوم فمن يرد إتقانه يقصده بين الناس
 يورني بمفتاح العلوم للسكاكي والإتقان للسيوطي *
 واستعملوا الألفاظ العامية منظر فين كقول أحدهم :

٩٧ تلومي في ولوعي بالحبش إن عقلي حار فيهم واندesh
 ملكوا رقي سلكي رقتهم فأنا الموقع نفسي في البكش
 نمت منسا في خفاء قبله عندما زاد هيامي وطفش

ومن الزخارف التافهة الشكلية في العهد المملوكي الجركي ما جاء على لسان
 الشاعر الباعوني الحلبي (ت ٩٢٤ هـ) في البيتين التاليين من حيث بدء كل شطر منهما
 بوزن وانتهاؤه بها والتزام واوين معاً في كل من العروض والضرب :

رواد به الغيد الحسان قد استنوا وورد ظباء الحي في ظله ثووا
 واقفوا به من مهجتي في الهوى حووا وواثو به عهد المحبين ما لكووا

ومن المؤسف أنه في سبيل هذا الأمر التافه قد جار على قواعد النحو فاستعمل
 ضمير جمع المذكر السالم للمؤنث ولم يبال بركاكة الأسلوب *

ومن استخدم الزخارف الشكلية ابن عرّ بشاه (٧٩١ - ٨٥٤ هـ) ومن ذلك
 جمعه أحرف الهجاء كلها في البيت التالي :

خض بحر حديثه تغش العشا واجزم بصدقك ناطقاً إذ تسند

وله هذا البيت العامل من النقط :

العالم المعلم الإمام لدى العلا العامل الحكم الهمام الأوحـد
وله هذا البيت الذي لا يستحيل بالانعكاس في شطريه وشره الثاني عاقل
من النقط :
فم آمننا ، نم ، إنما آمن° دُم حامدا ما أم آدمَ أحمد
وظاهر سخر هذه الأبيات وركاكتها وتفاهتها •

صفي الدين الحلي

١ - حياته :

ولد صفي الدين الحلي في ربيع الأول من عام ٦٧٧هـ أو في سنة ٦٧٨هـ في الحلة القريبة من الموصل وتسمى الحلة الفيحاء * وقد ذكرها في شعره فقال :

ألا أبلغ هديت سماء قومي بحلة بابل عند الورود
ورأى أن من لم يرها فانه قد غيب في عمره :

من لم تر الحلة الفيحاء مقلته فانه في انقضاء العمر مغبون*
وهو عبد العزيز بن سرايا السنسبي الطائي نسبة الى قبيلة سنس من طيء وإليها تنسب أمه أيضا ولذلك نراه يقول :

فكيف ولم ينسب زعيم سنسب الى المجد إلا كان خالي أو عمي
وكانت أسرة أمه في زمنه واسعة الجاه قوية السطوة وفيها كانت رئاسة القبيلة
لأننا نراه عدة مرات في شعره ينعت خاله جلال الدين بن محاسن بالرئاسة *
وظاهر من شعره أنه كان لقبيلته منافسون علم الزعامة^(١) وان بين الفريقين ثارات لم يكن يخمد أوارها :

يا يوم وقعت زوراء العراق وقد
أخلتوا المساجد من أشياخنا وبغوا
دنا الأعادي كما كانوا يدينونا
حتى حملنا فأخليتنا الدواوين

(١) ذكر ابن خلدون التنازع على الرئاسة بينهم وبين آل الفضل في البصرة
(المعبر ٦ : ص ٦) *

وقد شارك صفي الدين في معارك قومه وكان من شجعانهم المعدودين كما
يُصور نفسه في شعره إلا إذا كان يتزَيّد ويبالغ . ولما فاز أعداؤهم نزع عن بلده
وعمل بالتجارة بين الجزيرة الفراتية ومصر والشام وبغداد واتصل بملوك هذه البلاد
في حماة وبغداد ودمشق والقاهرة والحجاز وكان أكثر اقامته لدى ملوك ماردین
وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠هـ أو ٧٥٢هـ أو ٧٥٤هـ أو ٧٥٥هـ .

يذكر في مقدمة ديوانه أنه أولع قبل أن يشبّ عن الطوق بحفظ الشعر وقلمه
وانه كان يكره التكسب به ويعده من أدب الفضائل فيترفع بنفسه وبه عن الابتذال ،
وانه لم يشأ أن يجمع منه ديوانا فأغار عليه كثيرون من المدعين ، وانه بناء على ما أخذ
به نفسه لم يكن يمدح كريما مهما عظم ولم يكن يهجو لثيما مهما حقر وانه لم يكن
ينظم إلا فيما يجلب له الشكر وطيب الذكر كوصف الحروب والخمر والعتاب
والغزل والشكر على المعروف والوصف المبكر والحضّ على المعالي :

كوصفِ حربٍ ووصفِ شربٍ ولطفِ عتبٍ لقلبٍ قلبِ
وذكرِ ألفٍ وشكرِ عَشْرِفٍ وبِكرِ وصفٍ وتَدَبُّبٍ تَدَبُّبِ

وفي مدح النبي وآله :

ويذكر انه كان اذا عنّ له معنى لطيف في المدح نظم في أحد أنسابه واذا
عنّ له معنى في الهجاء نظم على انه استجابة لاقتراح بعض أصحابه الخلفاء غير
الرصينين وانه انما كان ينظم في هذين الموضوعين على هذه الصورة إِدْلالاً بقدرته
على النظم فيهما حتى لا يظن قوم بأنه تجنب النظم فيهما عجزاً :

وأعرضتُ عن مدح الأنام ترفُّعاً سوى معشري إذ كان مجديّ فيهم*
وقلتُ لقولِ ابنِ الحسينِ مورّياً^(١) اذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدّم*

ثم يذكر انه جرى في وطنه من الحروب والخطوب ما اضطرّه الى البعد عنه
وعن أهله وكان شعره قد سبقه الى الآفاق فنزل بآل أرتق ملوك ديار بكر فابتسمت

(١) يورّي هنا بكلمة النسيب فهي هنا القريب من الأهل ولا يسراد بها الغزل
والشعر الأخير للمتنبي .

له الايام وأبدلته بمحنته نعمة وجرت له الريح بخير وأحسن له الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي فاستدعى لذلك منه أن يشكر له المعروف المتصل فنظم فيه قصائد مجملة وموصلة ، فأما المجملة فهي التي جعلها كتاباً مفرداً كأنها ديوان مستقل وهي تسع وعشرون قصيدة جعل أبيات كل منها تسعة وعشرين بيتاً كل بيت من القصيدة الواحدة يبدأ بحرف من حروف المعجم وينتهي به وسمي هذا الديوان المستقل « درر النحور في مدائح الملك المنصور » . والفصلة هي قصائد نظمها في مدح الملك المنصور غير تلك اتخذها من أحسن ما نظم فيه وأودعها الديوان . وأحسن اليه بعد المنصور خلفه السلطان الملك الصالح شمس الدين أبو المكارم صالح فوالى فيه المدائح وآلى على نفسه ألا يمدح أحداً غيرهما . ولكنه حينما قضى الحج وزيارة قبر النبي اتجه الى مصر فرأى من أحداث بلاده ومثل بين يدي الملك الناصر محمد فشملة انعامه ورأى من الواجب عليه مدحه وان الكفارة عن يمينه السابق بالآ يمدح أحداً أسهل عليه من كفران النعمة للمنعم فنظم فيه قصائد يفخر بأنها طابت ألفاظاً ومعاني وحسنت سبكاً وقوافي .

وقد أشار عليه رئيس وزراء الملك الناصر بأن يجمع من شعره ديواناً يضم فيه جده وهزله ورقيق لفظه وجزله وأن يرتبه بحسب الموضوعات ويحسن ترتيبه لتسهيل مطالعته والمذاكرة فيه ، فاستجاب للطلب وقد جعل ديوانه اثني عشر باباً جعل كل باب فصلين أو أكثر فكان مجموع الفصول ثلاثين وهذه هي أبوابه كما رتبها :

الباب الاول	في الفخر والحماسة والتحريض على الرئاسة وهو فصلان
الباب الثاني	في المدح والثناء والشكر والثناء وهو فصلان
الباب الثالث	في الطرديات وأنواع الصفات وهو فصلان
الباب الرابع	في الاخوانيات وصدور المراسلات وهو فصلان
الباب الخامس	في مرثي الأعيان وتعازي الاخوان وهو فصلان
الباب السادس	في الغزل والنسيب وطرائف التشبيب وهو فصلان

الباب السابع	في الخمريات والنبذ والزهریات	وهو ثلاثة فصول
الباب الثامن	في الشكوى والعتاب وتقاضي الوعد والجواب	وهو ثلاثة فصول
الباب التاسع	في الهدايا والاعتذار والاستعطاف والاستغفار	وهو ثلاثة فصول
الباب العاشر	في الغويص والالغاز والتقييد للإيجاز	وهو ثلاثة فصول
الباب الحادي عشر	في الأدب والزهديات ونوادر مختلفات	وهو ثلاثة فصول
الباب الثاني عشر	في الملح والأحاجي والاحماض في التناجي	وهو ثلاثة فصول

ولم يورد في هذا الديوان كل ما خرج عن الاعراب من فنون الشعر المستحدثة الأربعة التي استحسن فيها منذ وضعت أن تكون ملحونة، وهي « التي لحنها إعرابها، وخطأ نحوها صوابها » وقد جعلها في ديوان مستقل يقول : « وجعلتها جزءاً بمفرده ، خارجاً عما نحن بصدده ، وهذه الفنون هي المواليا ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما وما جرى مجراها » .

اتصل صفي الدين بالمؤيد صاحب حماة قبل سنة ٧٣٣هـ التي توفي فيها المؤيد وفي ديوانه قصيدة على قافية النون وموشحتان وعدة مقطوعات في مدحه .

وحين عيّن ابنه الأفضل ملكاً في مكانه نائباً عن الملك الناصر محمد هنأه الشاعر بقصيدة على قافية النون مدحه فيها ورثى أباه ، ثم توالى فيه مدائحه قصائد وموشحات ومقطعات .

وكان ينافس صفي الدين على مدح المؤيد والأفضل في حماة جمال الدين بن نباته معاصره وصديقه وكان أجود منه مدحاً وقد استطاع حين ولي الأفضل أن يجمع بين التهنة والتعزية في قصيدة واحدة موفقة مطلعها :

هنا " محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

على حين عيب على صفي الدين مطلع الغزلي في قصيدته التي قالها في المناسبة نفسها واعتذر له بأن تعيين الأفضل لمنصب أييه لم يكن أكيدا من قبل ولذلك اعتبره

الشاعر فرحة تبرر وتستدعي الغزل في مطلع قصيدته وهو :

عائده في الحب أصوائه وخانه في الوُدِّ إخوائه

وقد كزر الخطة نفسها في موشحته التي يرثي بها الملك المؤيد نفسه وقد حضر موته وهو يسمط فيها قصيدة ابن زيدون المشهورة على قافية النون . يقول

كان الزمان بثلقيكم يُمْنينا وحادث الدهر بالتفريق يثينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التئائي بديلا من تدانينا

وناب عن طيب لثيانا تجافينا

وهكذا كان للشاعر فيهما أماديح ومراثٍ وتعازٍ . ولكن أثر اتصاله بهما لم يقتصر على ذلك بل كانا يطلبان منه أحيانا أن ينظم في موضوع معين أو يقترحان عليه معارضة شاعر في فن أجاده فيستجيب لهما . ومن ذلك أن الملك المؤيد اخترع وزنا شعريا جديدا واقترح على صفي الدين أن ينظم عليه موشعا اختباراً لكفايته وتلذذاً بأدبه فقال :

بي ظبي حمى ور دُخْدَه صارمُ اللَظْـ
قاس غرّني منه رقّة الخدِّ واللفظِ
ذوفر ع بمحض اعتناقِ أردافه مَحْظِي
مالي لم أئل حظّه كما قدحكي حظّي
بديع المعاني من الأقمار أحسن
الينا أسا لحظّه واللفظ أحسن

وهذا الوزن المخترع ملفق من تفاعيل تنتمي الى عدة أوزان :

ثقافته :

لم تتحدث كتب الأدب عن دراسته وشيوخه وذكر ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة وصلاح الدين الصفدي وكان معاصرا له أنه عانى صناعة الأدب ومهر في فنون الشعر كلها وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها . ويذكر هو في مقدمته انه حفظ الشعر وظمه قبل أن يشب عن الطوق وذكر الصفدي انه نظم الشعر ابن سبع ، وقد أجاد في الشعر واشتهر وسبقته شهرته الى الآفاق التي زارها .

ويبدو من شعره أنه كان ضليعا في اللغة قادراً على صوغ الشعر دون عناء فاهماً لأساليب الأقدمين والمحدثين يستطيع أن يعالج صعبها وسهلها في يسر ومطاوعة . وكذلك يبدو من شعره أنه كان ضليعا بفنون البديع والبيان والمعاني فقد نظم فيها بديعته نظم العالم الذي أراد أن يدوّن معلوماته في هذه الفنون وما اخترعه فيها ، وقد تجاوزت عنده مائة وخمسين لونا ثم شرحها شرح العالم وذكر أنه قرأ سبعين كتابا قبل نظم البديعية ومئة وأربعين قبل شرحها .

ويبدو أن علمه قد اقتصر على علم اللغة والشعر والبلاغة ، وأنه لم يدرس العلوم العقلية المعروفة في زمنه كما أنه لم يتبحر في العلوم الإسلامية وإنما اكتفى منها بما لا بد منه .

صداقاته :

يدل ديوان الحلي على كثرة أصدقائه فإن مكاتته الاجتماعية وشعره وحظوته عند الملوك هيأت له أسباب ذلك . ومن المؤسف أن كتب الأدب لم تفض كثيرا في شؤون حياته وتفصيلاتها .

وأثر صداقاته في حياته ظاهر في اخوانياته من شوق وعتاب واعتذار واستعطاف والغاز وشكر وتبادل مدح ودعوة الى اللهو وتبادل معجون .

ومن أصدقائه الشاعر ابن نباتة والمؤرخان الأديبان ابن سيد الناس وصلاح الدين الصفدي الكاتب الشاعر وشهاب الدين محمود كاتب السر وأبو حيّان الأندلسي النحوي .

وكانت الصلات الاخوانية بين الأدباء حافزا لنظم الشعر حينئذ بما كان ينشأ عنها من اقتراحات ومطارحات ومنافسات .

ومن أمثلة المطارحات الشعرية بين صفى الدين وأصدقائه ما جرى بينه وبين ابن نباتة ، فقد أرسل هذا مرة رسائلا الى أصدقائه دون صفى الدين فكتب اليه هذا يعاتبه فقال له :

مَنْ لَصِبٍ أَدْنَى الْبَعَادِ وَفَاتَهُ °
فَاتَهُ مِنْ لِقَا الْأُجْبَةِ عَيْش °
كَانَ ثَبَاتٌ قَبْلَ التَّفَرُّقِ لَكِنْ °
إِذْ عَدَاهُ وَصَلَ الْحَبِيبِ وَفَاتَهُ °
كَانَ يَخْشَى قَبْلَ الْوَفَاةِ فَوَاتَهُ °
زَعَزَعَتْ رَوْعَةً الْفِرَاقِ ثَبَاتَهُ °

ثم مدحه وقرظ شعره وانتقل بعد ذلك الى العتاب :

وَرَسُولٍ مِنْكُمْ تَعَجَّبْتُ مِنْهُ °
جَاءَ يَهْدِي إِلَى الصَّحَابِ طُرُوسًا °
فَتَأَمَّلْتُ فِي يَدَيْهِ خَطُوطًا °
لَوْ بَعَثْتُمْ لِلْعَبْدِ فِيهَا سَحَاةً °
فَتَفَضَّلَ بِالْأَنْسِ وَاهِدٍ إِلَى عِب °
لَكَ مِنْ وَافِرِ الْعُلُومِ نَصَاب °
حِينَ حَانَتْ مِنِّي إِلَيْهِ التَّفَاتُهُ °
لَيْسَ لِلْعَبْدِ بَيْنَهُنَّ حُتَاتُهُ °
أَذْكَرْتَنِي مِنْ رَبِّهَا أَوْقَاتُهُ °
لَأَعَادَتْ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَيَاتُهُ (١) °
سَدَّكَ مِنْ مَسْكِكَ الزَّكِيِّ فُتَاتُهُ °
فَاجْعَلِ الرَّدَّ لِلْجَوَابِ زَكَاتُهُ °

فأجابه ابن نباتة على البحر والروي نفسيهما بأبيات منها :

مَا لَطَبِي الْحِمَى إِلَيْهِ التَّفَاتُهُ °
لَهْجٌ بِالْهَوَى وَإِنْ تَقَرَّتْ أَيْ °
كَلَّمَا قِيلَ قَدْ سَلَ عَنْ فِتَاةٍ °
بَعْدَ مَا كَدَّرَ الْمَشِيبُ حَيَاتُهُ °
سَدَّى اللَّيَالِي غَزَالَهُ وَمَهَاتُهُ °
عَادَهُ الْحُبُّ فَاسْتَجَدَّ فِتَاتُهُ °

آثاره :

١ - له « العاقل الحالي والمرخص الغالي » في الزجل والموالي وكان وكان والقوما ، وفيه بعض رسائله وحديث عن الزجل ، منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية . طبع في ألمانيا سنة ١٩٥٥ من منشورات مجمع العلوم والآداب وعني بتصحيحه الأستاذ ولهم هونرباخ .

٢ - ديوان « صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء » ويظهر من اسمه أنه مختارات من الشعر والنثر .

٣ - « الخدمة الجليلة » وهو في وصف الصيد بالبندق .

٤ - « معجم الأغلاطي » وهو في الأخطاء اللغوية .

(١) السحاة : الناحية والجانب . وسحا الطين : فشره وجوفه : والقصد بالسحاة القليل من الأبيات .

٥ - « التتائج الإلهية » وهو مَشرح لبديعته في مدخ الرسول • ويتضمن الحديث عن نيف وخمسين ومئة لون من البديع بمعناه الشامل للبلاغة كلها ، وعن علماء هذا الفن وجهودهم في التأليف ولكنه دون « خزانة الأدب » لابن حجة الحموي من حيث السعة والاستيفاء • وأسبق منها زمناً بمئة سنة تقريباً • مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية •

٦ - « الدر النفيس في أجناس التجنيس » وهو يتحدث عن أنواع الجنس ويأتي بأمثلة عليها • وهو مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة •

٧ - وله في النشر ثلاث رسائل أوردت في آخر ديوانه المطبوع وهي بأسلوب عصره البديعي المتكلف : ٣

(١) - « الرسالة المهمة » ويفهم من مقدمتها انه أرسلها للملك الناصر محمد يشكو اليه فيها وزيره كريم الدين ادراري الذي قطع عنه مرتبه ويستأذنه في السفر وقد سميت المهمة لأنه يستعمل فيها حروفاً غير منقوطة ما عدا تاء التأنيث • وقد سار فيها على غرار المقامة السمرقندية للحريري وضمنها بعض شعره • ومن هذه الرسالة مثلاً عليها قوله : « أدام الله دولة الملك العادل العامل الأوحد الكامل مؤمل الآمل مآل الأرامل مالك ملوك الدول طامس أسماء الكرام الأول أسد الأساد » •

(٢) - الرسالة التوأمية وقد كتبها للمنصور الأرتقي ليبرهن على قدرته الكتابية آملاً أن يستخدمه المنصور في ديوانه وقد ضمنها شيئاً من الشعر من قلمه وراعى أن يجانس فيها بين كل لفظين متجاوزين جنساً تصحيفاً ، على مثال أبيات للحريري أولها :

« زينت زينب بقدر يقدر » ، وفيها طرافة ومهارة ولكن فيها جوراً على المعنى وتكلفاً شديداً للفظ ومثال ما جاء فيها مقدمتها :

« قبل قبل يراك ثراك ، عبد عند رَخاك رجاك ، أبي أبي سؤال سواك » •

(٣) - « رسالة الدار عن محاورات الفار » وهي شبه مقامة خفيفة الظل ليست كسابقتها من حيث الجفاف • وقد جعلها على لسان الدار التي يسكنها تشكو فيها

الى القلعة مقر السلطان الملك الصالح مما ألمّ بها من حيف ، نتيجة أن لصفي الدين ديناً على أحد نواب السلطان ضمه مع دين آخر لأحد أصدقائه وجعله على مصالح الدولة وتلكاً في الدفع وكان من نتيجة هذه الرسالة أن السلطان سندّد له الدين من خزائنه .

والرسالة طويلة تقع في ثماني صفحات وفيها دعاء وشكوى ومديح ووصف وحكمة واستعطاف .

وجاء بحوار تمثيلي فيها على لسان الفئران والجرذ يصور فيه ما أصاب الدار من بؤس وفاقة بحيث تشفق الفئران على صاحب الدار وفي هذا التخيل طرافة ولطف تأت* للموضوع . ومن هذه الرسالة قوله في المقدمة :

« المملوكة المحرومة المرحومة الموحشة بعد الايناس دار ابن الدكناس تقبل الأرض بين يدي القلعة الشريفة والذروة المنيفة العزيرة البناء ، الغزيرة الشاء .. » وجاء فيها على لسان فأرة :

« أرايت ما فعل الزمان الغدار بساكن هذه الدار كنا نؤمل أن نعيش في ذراه ونرتع في حماه ، ولم تزل خزائنه ملأى بالماكول والمشروب والمعاجين والربوب وكل ما يقضم ويخضم ويثقل ويهضم فاذا هي اليوم أقفر من القلاة ، وأصفر من الهبات » . فقالت لها الكبرى : وما سبب ذلك قالت : لأنه أحرق من الفَراش وأبلد من الخفّاش :

كان أينما عرجَ أرّج وحيثما تدرّجَ تهرّج

وجاء فيها على لسان الدار في الخاتمة :

« فلما سمعتُ أيتها القلعة المحروسة والذروة المأنوسة أن حاله استحال وعزم على الترحال ورد عليّ ما أزعجني وأجزعني وأقلقني وفلقني فاكثلت السهاد وهجرت المهاد وافترشت القتاد وأنشدت :

إن كان قد عزم الرحيل وملّني عبدُ العزيز
فالقلبُ بينَ رحالِهِ فكأنه صاعُ العزيز

فبالله عليك أيتها القلعة المشيدة والقلعة الشديدة إلا ما رثيت لواقعتي عند قراءة رقعتي وقبلت شفاعتي لاستحقاق شفعتي واعترفت لضارعتي في فحوى ضراعتي وأجزت رسالتي بإجابة مسألتي فاني لم أزل منقاداً بزمَام الطاعة متسربلة ثوب الاستكانة والضراعة وأنا مقيمة على ذلك الى يوم الساعة » .

وخلال هذه الرسالة يصف صفى الدين على لسان الجرذ الخطيب ، ثم الفأرتين المتحاورتين ، ما كانت عليه حال هذه الدار قبل أن يسكنها هو ، وحالها بعد أن سكنها وهو موسر ، ثم حالها وقد أعسر وضائق به سبل العيش لأن نائب السلطان المدين لم يسدد له دينه . وفي ذلك أكثر من التعريض بطلب المعونة وسداد الدين . ويصف خلالها أيضا نمط حياته من اللهو والبذخ والنعمة وحب الاستمتاع بجميع الملاذ .

سمات ثره :

لا نعلم اذا كان صفى الدين قد عمل في الديوان الأرتقي كما رغب أو أن السلطان قد اكتفى به شاعرا .

سار صفى الدين في ثره على منهج عصره فتكلف الصناعتين البيانية والبديعية . ويمتاز سجع بقر فقراته وخفتها وخلوه من الخشو والتقديم والتأخير والاعتراض . وتكون الفقرة فيه من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر أو صفة وموصوف ومثال ذلك ما أوردناه من أمثلة على رسائله الثلاث قبل .

ولم يتعمد اطالة الفقرات كما فعل غيره . ولم يهتم بالتورية والاستخدام اللذين تفوق فيهما معاصره ابن نباتة وكانا مطمح آمال الكتاب والشعراء حينئذ في مصر والشام . وربما كان ذلك لأن نشأته الاولى لم تكن في هذين القطرين .

وكان أكثر اهتماما بالجناس الذي كان يعده ابن نباتة شيئا لا قيمة له اذا لم يقترن بالتورية .

ومما عني به التلاعب بالألفاظ اما بالمجانسة بين كل لفظين متجاورين كما في

الرسالة التوأمية واما باستخدام الكلمات الخالية من النقط ما عدا تاء التأنيث كالرسالة المهملة وقد رأينا مثالا على كل منهما •

ومن سماته انه يأتي بالشعر خلال النثر ويؤثر أن يكون من شعره هو لا من شعر غيره • مثال ذلك ما جاء في « رسالة الدار عن محاورات الفأر » من الشعر •

٨ - مجموعات شعره :

ترك من الآثار الشعرية ما يلي :

١ - ديوانه :

وقد رتبه على اثني عشر بابا يحتوي كل باب على فصلين أو أكثر ومجموع الفصول ثلاثون وهي تضم ما يزيد على عشرة آلاف بيت من الشعر • وأبوابه هي في : الفخر والحماسة ، والمدح ، والطرديات وسائر الأوصاف ، والاخوانيات ، والمراثي ، والغزل ، والخمريات ، ووصف الأزهار ، والشكوى والعتاب ، والاستهداء والاعتذار ، والملح والأهاجي ، والأدب ، والزهد •

وقد ذكرنا أنه جمع ديوانه أول مرة زمن الناصر محمد سنة ٧٣٦هـ بطلب من وزيره علاء الدين بن الأثير وتدل مقدمته على انه جمع فيه مختارات من شعره لا كل شعره •

ويبدو أنه أعاد فيه النظر لأننا نرى فيه قصائد قيلت بعد هذا التاريخ كقصيدته في رثاء المؤيد سنة ٧٣٣هـ وقصيدته في رثاء الناصر محمد وقد توفي سنة ٧٤٩هـ ، وإذا لم يكن هو قد أعاد النظر فيه فتكون هذه القصائد من اضافة ناسخي ديوانه بعد عام ٧٣٦هـ •

ويرجح الرأي الأول ابن شاكر الكتبي يقول في فوات الوفيات ، وكان صديقا للشاعر : « ديوانه الذي دوّنه بنفسه ثلاثة مجلدات ، وكله جيد » •

ويضم ديوانه مجموعات من الشعر قالها في مدوحيه هي المنصريات

والصالحيات والناصريات ، وقصائده في مدح المؤيد والأفضل ملكي حماة • وقد طبع في النجف الأشرف ١٩٥٦ وفي بيروت ودمشق قبل •

والمنصريات هي القصائد التي قالها في المنصور الأرتقي عدا الأرتقيات التي سنتحدث عنها بعد : ومنها كافية نظمها بعد سنة ٧٠١هـ وبعد انتهائه من نظم الأرتقيات لأنه يفخر في آخرها بهذه القصائد • ومنها موشحة على بحر الرجز يصف فيها الصيد والطبيعة في ديار بكر ويمدح المنصور وهي دون قصيدة ابن نباتة المسماة بـ « قصائد الشوارد » التي وصف فيها أودية حماة والصيد فيها ومدح ملكها الأفضل •

والصالحيات هي القصائد التي قالها في الملك الصالح بن المنصور وهي نحو من خمس عشرة قصيدة طويلة يبذل فيها النصيح والرأي الى جانب المدح • ومن أشهرها الرائية التي تبلغ خمسة وثمانين بيتا وفيها يصف الطبيعة والغناء والرقص والخمر والساقى وينتقل بعد ذلك الى مدح الصالح مسبغاً عليه الفضائل ثم يفخر بشعره زاعماً انه سبق المتنبي ولكن الزمان قد تأخر به •

والناصريات هي القصائد التي مدح بها الملك الناصر محمد بن قلاوون ومنها القصيدة البائية التي عارض بها بائية المتنبي التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلايبا

وفيهما يتغزل ثم يمدح ثم يتحدث عن نفسه واکرام الناصر له ، وهي من أجود قصائده • ومنها قصيدة مشهورة على قافية النون يصف فيها الربيع في مصر بمناسبة كسر الخليج وهي جيدة ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حلا فواضلها على الكبان

وتبلغ القصائد التي مدح بها الملكين المؤيد والأفضل ثماني قصائد وقد سماها الدكتور محمد رزق سليم بالمؤيدات والأفضليات على غرار مدائحه في الملوك الآخرين •

٢ — وقد ألحق الناشر بالديوان المطبوع قصائده الأرتقيات التي جعل هو عنوانها « درر النحور في امتداح الملك المنصور » وقد جعلها تسعا وعشرين قصيدة

على عدد حروف الهجاء تبني كل قصيدة منها على حرف منها ، وكل بيت من هذه القصيدة يبدأ بذلك الحرف وينتهي به . وقد ظمها كلها بمناسبة مجيئه الى ماردین ليدل ملكها المنصور على فضله وليس لها مناسبة غير ذلك وقد عبر عن هذه الرغبة بأحد الأبيات في القصيدة الهزلية منها وهي أولى القصائد :

أرجو بقطع اليد قطع مطامي وأروم بالمنصور نصر لوائي
والتزم الى جانب ما لا يلزم من جعل حرف القافية في أول كل بيت أن يكون
عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين .

وتتضمن الأرتقيات عدا المدح وصف حاله قبل اتصاله بالمنصور وآماله فيه ،
والغزل أو وصف الخمر أو الطبيعة ، مقدمة للمدح .

وعلى الرغم من انها ذات موضوع واحد يتكرر ، ومن التزامه فيها بقيود
لفظية فانه لم يشف فيها ويضعف وحافظ على مستواه ، ولكنه لم يخلق .

٣ - وألحق الناشر بالديوان الكافية البديعية وهي قصيدة في مدح النبي
تتضمن فنون البديع حمله على نظمها ولح الشعراء في عصره بالبديع وبالمديح النبوي
وبردة البوصيري .

ولكن البوصيري ترك نفسه على سجيته في عاطفته الدينية ولم يلتزم خطة
علمية لعرض ألوان البديع واحدا واحدا والاثان بشواهد عليها .

فالبديعيات هي القصائد التي تعتمد ايراد هذه الفنون مع شواهدا وهي لذلك
أدخل في باب المنظومات العلمية منها في فن الشعر .

ويختلف في أول من نظم البديعيات وينسب ذلك بعضهم الى صفي الدين وهو
نفسه يشعرنا بذلك في مقدمته لبديعيته .

على أن شاعراً آخر اسمه أمين الدين السليمانی الأربلي (ت سنة ٦٧٠ هـ) قد
سبق الى نظم بديعية غزلية من ستة وثلاثين بيتا ، وكذلك نجد ابن جابر الأندلسي

معاصر صفي الدين (ت ٧٨٠ هـ) قد ظم بديعية عرفت ببديعية العميان ، غير أن صفي الدين أسبق منه الى ظم بديعيته •

وقد توالى بعد صفي الدين وابن جابر نطّام البديعيات ومنهم عز الدين الموصلي وتقي الدين بن حجة •

وقد شرح صفي الدين بديعيته التي تبلغ خمسة وأربعين ومئة بيت ، يتضمن كل بيت منها لوناً بديعياً على الأقل ، وسار على غرار أصحاب البديعيات في شرح بديعياتهم • وبقيت بديعيته أسهل البديعيات وأقلها تكلفاً وأقربها فهماً ونسباً الى الشعر • وقد اعترّف هو بها ولفت النظر الى غزارة مضمونها ومميزاتها •

شعره يصور حياته :

اشتهر صفي الدين بشعره اكثر منه بشعره الذي لم نعرف عنه الا النزر القليل • وقد آلى على نفسه الا يهجو لثيماً وألا يمدح كريماً ترفعا بنفسه عن الابتذال والسباب • وقد صان نفسه عن الهجاء الا ما يقترح عليه من مقطعات يسيرة كان يقولها ليبرهن على انه لم يتجنب هذا الباب لشعور منه بالتقصير عنه ، والا ما كان يأتي خلال فخره بنفسه وقومه من التعريض باعدائهم ولكنه لم ينحدر فيه على كل حال الى مرتبة السب والقذع وبقي فيه رصين المعاني واللفظ •

وحاول ان يصون نفسه عن المدح ولكن صروف الدهر اضطرتته الى ان يمدح اولاً آل أرتق والمنصور والصالح منهم بخاصة ، ثم الى مدح ملكي حماة المؤيد والافضل وكان يعلل ذلك لنفسه وللناس بأنه لم يكن يمدح مستجدياً العطاء ، وانما كان يشكر على المعروف بعد ان يسدى اليه والشكر على المعروف واجب وبأنه كان ينزل عندهم نزول الصديق والنسيب • ولا تنكر عليه انه سعى الى ان يصون ماء وجهه ما استطاع وانه لم يكن ملحاحاً في الطلب حين اضطرتته الظروف اليه • وهاهو ينزه نفسه وشعره عن الابتذال :

ولم أبتذلْ عرشَ المديحِ لخطبٍ ولو أرغبوني بالجزيل من المهنرِ

وكان شعر صفي الدين يصور مراحل حياته • فحين كان بين قومه يحارب اعداءهم ويدعو الى الثأر صورّ شعره هذه المرحلة من فروسيته :

فعلّمتُ شَمَّ الأرضِ شَمَّ أنوفهمْ وعودتُ ثغرَ التّربِ لشمّ التّرائبِ
 وحينَ كانَ يدعوهُ قومهُ إلى النّزالِ كانَ يسرّعُ إلى خوضِ الحربِ بل يتقدمهمُ :
 لما دعّيتُني للنّزالِ أقاربسي لبّاهمُ عني لسانُ المتّصلِ
 ثارَ العجّاجُ فكنتُ أولَ صائلِ وعلا الضّرّامُ فكنتُ أوّلَ مصطلِ
 وحينَ اتّصر على أعدائه تغنى بذلك في شعره :
 سلي الرماحِ العوالي عن معالينا واستشهدى البيضُ هلّ خاب الرجا فينا
 وكانَ في هذه الفترة يمزجُ بين فخره بنفسه وفخره بقومه :
 إنّما مفخري بنفسي وقومي وقنّاتي وصارمي وجوادي
 وحينَ تغلبَ الأعداءُ على قومهِ كانَ صادقاً في التعبيرِ عن حالته النفسية داعياً
 إلى الصبرِ :
 صبراً على وعد الزمانِ وإنّ وني فعساه يصبحُ تائباً ممّا جنّني
 لا يثجزعنّك أنّه رفّع العِدا فلَسوف يهدمُ عن قليلٍ ما بنى
 وحينَ كانت الحربُ سجالاً واتّصر قومهُ اعترفَ بعد النصرِ أنّهم كانوا من
 قبل قد هزموا :
 يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ لقدّ دنّا الأعادي كما كانوا يدينونا
 وحينَ فرّ أمامَ أعدائه وخافَ على نفسه القتلَ اعترفَ بذلك ولم يكنِ يائساً
 وأرضى عِزة نفسه بأن كانَ قد أثبتَ شجاعته في العِرة :
 ليس الفِرارُ عليّ عاراً بعدما شهدت بيّاسي يومَ مُشتبكِ القنّا
 أن كنتُ أوّلَ من نأى من أرضهمْ قد كنتُ يومَ الحربِ أوّلَ من دنا
 وحينَ رحلَ إلى بني أرتقِ ونالَ عطاياهمُ فمدحهمُ وأجزلَ لهمُ النصيحةَ كانَ
 صادقاً في شعره :
 وأشكركمْ ما دمتُ حيّاً وإنّ أمتْ ولم أوفِه أوصيتُ بالشكرِ آلياً
 وحينَ انصرفَ إلى متع الحياةِ بجميعِ وجوهها ومباذلها في عصره من خمرٍ ولهوٍ

ونساء وغللمان ودعوة الى المجنون وتعرض لكثير من مشاعر المحبين وذوي التجارب في هذه الميادين من حب وبغض وشوق ولقاء وقرب وبعد سجل شعره ذلك كله تصويرا صادقا ليس فيه تفاق أو تكلف . وهذا مثال من رائية له يصف فيه المعني ومدير الكؤوس والخمر المدارة :

وقد ترتّم شاد صوته غرد
شاد ، أنامله ترضي الأنام له
وحامل الكأس ساجي الطرف ذوهيف
كأنما صاغه الرحمن تذكرة
يدي راحا يشب المزج جذوتها
نار بدت لكليم الوجد آنسها
كأنه ناطق من خلق شعور
إذا شدا وأجاب الهم بالزير
صاحي اللواظ يثني عطف مخمور
لمن يشكك في الوركدان والخور
فلا يزيد لظاها غير تسعير
من جانب الكأس لا من جانب الطور

ومن قوله متغزلا بسلام ساق :

يطوف على الرفاق من المحيّا
إذا يجلو الحميّا والمحيّا
ومن خمر الرضاب بمشكرين
شهدنا الجمع بين النيرين

ويؤخذ عليه ان تمثيل شعره لعصره كان تمثيل المستسلم الراضي بأن يلهو مع اللاهين ويعبث ولم يكن تمثيل الناقد السياسي الاجتماعي الذي لا يرضيه بعض أشياء فيقبحها فليس له شعر يقرّع فيه ملوك المسلمين على اختلافهم على حين كانت الأعداء تحيط بهم ، أو يدعو به الى وحدتهم . كما انه ليس له شعر في نقد حال الموظفين وحال المجتمع وحال من يحملون معاول تهديمه ونحن نحمد له أنه حرض الملوك أحيانا على القتال والدفاع ضد التتار ولكن ذلك ليس كافيا وقد قام بجانب من هذه المهمة التي قصر هو فيها البوصيري فنقد طوائف المستخدمين وعمال المكوس وآخرين اعتقد أنهم يسيئون الى الأمة .

وكان الحلي في هذه الناحية ، مثل ابن نباتة وأكثر الشعراء الفحول في تلك البرهة ، ميالا الى مسامرة الملوك منسجما معهم في مسالك حياتهم .

على أننا يجب أن نعترف بأن انصرافه الى اللهو كان فيه نصيب كبير من الشعور بالخيبة لما أصابه وأصاب قومه .

وكان شعره تقليديا وقد اجتمع له من الاستعداد النفسي وقوة الشخصية واستقلالها وجلال المنبت وقوة اللغة ومطاوعة النظم وسهولة التعبير ما كان يستطيع به أن يكون مبتكراً ولكنه أثر السهولة والراحة .

وكان إما مقلدا للأقدمين في معانيه الحماسية وفخره ومديحه الملوك وإما مقلدا لمعاصريه ومن سبقهم من المولدين في موضوعات الغزل والخمر وما شابههما وفي الأسلوب البديعي المصنوع . وتظهر عنده لمحات من الذاتية حين يتحدث عن معاصره وحماسياته بصورة عامة أو حين يمدح ممدوحيه ويدعوهم الى قتال أعدائهم والذود عن حياضهم لتلاؤم الموضوع مع نفسه وأمانيه . قال عن نفسه :

لقد هذبتني يقظة الرأي والنهي اذا هذبت غيري ضروب التجارب
وأكسبني قومي وأعيان معشري حفاظ المعالي وابتدال الرغائب

فخر الحلي :

يكاد يكون الفخر غريزة طبيعية لدى الانسان الذي يجب أن يكون خيرا من غيره ، ويجب أن يمتاز بأصله وولده وما يتعلق به وكل ما يرفع من شأنه في أعين الناس ، فتكبر اذا كان الانسان مثل الحلي الذي تربى في بيئة قبلية نصف بدوية وفي أعلى مراتبها يحكمها أو يتولى شؤونها ، والذي خاض مع قبيلته معاركها وشاركها في انتصاراتها وانهماماتها وعد زعيماً فيها وأوتي من الموهبة الأدبية الى جانب المكانة القبلية ما يشار اليه معه بالبنان . بديهي اذاً أن يفخر الحلي وخير فخرياته ثلاث ، بالبيئة ومطلعها :

أئن ثلثت حدّي صروف النوائب فقد أخلصت سبكي بنار التجارب
ولابسة ، ومطلعها :

لِمن الشواذب كالشعام الجفّل كُست جلالاً من غبار القسطل
ورائعه المشهورة على روي النون التي سندرسها بالتفصيل مكتفين بها ومطلعها :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدني البيض هل خاب الرجا فينا

وقد قالها حين اتصر قومه على أعدائهم (سنة ٧٠١ هـ) وأخذوا بثأر خاله
صفي الدين بن محاسن من آل أبي الفضل وكانوا قد قتلوه بمسجده غدرا وكاد
يطير فرحا ، وفيها يتمدح بأفعال قومه في المعركة :

وسائلي العُربَ والأتراكُ ما فعلت في أرض قبرِ عبيد الله أيدينا
ويذكر عزم قومه وإصرارهم على النصر والأخذ بالثأر :

لما سعيئنا فما رقت عزائمنا عمّا نروم ولا خابت مَساعينا
ولكنه يعترف ببطولة أعدائه وانهم كانوا قد اتصروا قبل :

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ وقد دنا الأعداي كما كانوا يَدِينونا
بضمير ما ربطناها مسوومة إلا لنغزو بها من كان يغزونا

ثم يفخر بالطاعة عشيرته للقواد من أسرته وبعقلهم في السلم وعدلهم في الحكم
وشجاعتهم في الحرب ومسايرة الأيام لعزائمهم :

وفتية إن نقتل اصغوا مسامعهم لقولنا أودعونا هم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراغة يوما وإن حكمتوا كانوا موازينا
تدرعوا العقلَ جلباباً فإن حميت نار الوغى خلتهم فيها مجائينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة وإن دعوا قالت الأيام آمينا

ولكن حلاوة الظفر تطغى عليه فيستخف بأعدائه المنكسرين ويقتل من شأنهم
ويجعلهم كالطيور الضعيفة التي ساعدتها الظروف مرة على أن تصير شواهين فطفت
وبغت فردتها سيوف قومه الى صوابها وحقيقتها :

إن الزراير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهينا
ظننت أني البزاة الشهب عن جزع وما درت أنه قد كان تهوينا
بيادق ظفرت أيدي الرخاخ بها ولو تركناهم صاروا فزازينا
ذلتوا بأسياقنا طول الزمان فمذ تحكمتوا أظهروا أحقادهم فينا

ونلاحظ هنا أنه يستعمل أسلوب الموازنة بين حال قومه من القوة وحال
أعدائهم من الضعف وذلك ما سمي عند الأقدمين بهجاء المقارنة ، وهو في الوقت

نفسه يستمدّ خياله من لعبة الشطرنج ومن واقع الحياة في عالم الطير ، فالجوارح القوية تبطش بالطيور الصغيرة • ثم يبيّن مظالم القوم السابقة في قومه وان ما نزل بهم كان عدلا فقد اغتالوا وقتلوا ونهبوا المال :

لم يُغْنِهِمْ مَالُنَا عَنْ نَهْبِ أَنْفُسِنَا كأنهم في أمان من تقاضينا
أخْلَوْا الْمَسَاجِدَ مِنْ أَشْيَاخِنَا وَبَغَوْا حتى حملنا فأخلىنا الدواوينَا

فلا عجب أن يفرح الشاعر بانكسارهم ويطرب لما نزل بهم ويلجأ الى التصوير المرعب لما نزل فيهم بالسيوف والرماح ولما جفّ من دمائهم على ثياب قومه ومن طربه هو وقومه لهذه الدماء حتى لكأنها طيب قد تضحخوا به وشفى غيظ نفوسهم :

وللدماء على أثوابنا علقٌ بنشره عن عبير المسك يُغْنِينَا
فيالها دعوة في الأرض سائرةٌ قد أصبحت في فم الأيام تلقينا

ولكن نشوة الظفر هذه لا تلبث أن يمازجها روح من العقل والعدل فييدي الشاعر أن عمل قومه لم يكن عن ميل الى الأذى فانهم قوم تأبى أخلاقهم ، سمواً منها وترفعاً ، أن تبدأ بأذى الآخرين ولكنها اذا مست كرامتها أخذت بحقها :

إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ أَخْلَاقُنَا شَرْفًا أنْ نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

ثم يفخر بأن قومه قد خلقوا للمعروف كما خلقوا للحرب وان بلادهم كثيرة الخير كريمة مضيافة ولكنها منيعة من أعدائها بسيوفها تصبغها بدمائهم :

بيضٌ صَنَائِعُنَا سَوْدٌ وَقَائِعُنَا خضِرَ مَرَابِعُنَا حَمَرٌ مَوَاهِينَا

ونراه في هذا البيت يستعمل التدييج فيذكر عدة ألوان وينسب كل لون الى ما يلائمه من الموصفات والمكارم : فالصنائع بيض للأصدقاء والوقائع سود على الأعداء ، والمرايع خضر للأهل والعشيرة ، والسيوف حمر من دماء المعتدين •

ثم يصف عزائم قومه القوية فهم لا يعجزون عن تحقيق أهدافهم ومخططاتهم بالقوة والسعي والمتابعة ومصاولة الدهر والأحداث ومقارعة الخطوب والخصوم وهم في جميع مبارياتهم مع غيرهم من القبائل متقدمون اذا لم يجيئوا المجتئين فهم المصلّون :

لا يظهر العجز منا دون نيل مثنى^١ ولو رأينا المنايا في أمانينا
ما أعوزتنا فرامين^٢ نصول بها إلا جعلنا مواضينا فرامينا

ونلاحظ أن الحلي في هذا البيت يسخر بأعدائه بأنهم كانوا ينتصرون على قومه
بفرامين (أي مراسيم) ملكية أو سلطانية ولكن قومه ليسوا بحاجة الى هذه الفرامين
لأن سيوفهم هي فرامينهم :

إذا جرينا الى سبق العُلا طلقا إن لم تكن سبّقا كنا مصلينا
تُدافعُ القدرُ المحتوم همتنا عَنّا ونخصمُ صرْفَ الدهر لو شينا
نغشى الخطوب بأيدينا فندفعها وان دهتنا دفعاها بأيدينا

ثم يأخذ صفي الدين بمدح الملك الذي أخذ يناصر قومه دون أن يذكر اسمه
لأنه مشهور معروف فيصفه بقوة العزيمة وعلو الهمة والجود والسطوة ونصرة قوم
صفي الدين حتى أصبح أعداؤهم يظهرون لهم الخضوع متخاتلة^٣ فيكون لهم ملمس
الأفعى وختلها وترقبها اللحظة المناسبة للنهش وثقت السم :

ملكك^٤ إذا فتوّقت^٥ نبل العدو لنا رمت عزائم^٦ه من بات يزينا
عزائم^٧ كالنجوم الشهب ثاقبة ما زال يحرق منهمن الشياطينا
أعطى فلا جوده قد كان عن غلط منه ولا أجبره قد كان ممنونا
كم من عدو لنا أمسى بسطوته يثدي الخضوع لنا اختلا وتسكينا
كالصلل^٨ يظهر ليناً عند ملمسه حتى يصادف في الأعضاء تمكينا
يطوي لنا الغدر في نصح يشير به ويمزج السم في شهّد ويسقينا

ثم يذكر أن قومه عقلاء فهم يتغاضون عن عدوهم حين يبدي الخضوع ولا
يثيرون مكان من حقه ولكنهم ييقنون منه على حذر لا عجزا عنه بل لأنهم على ثقة
بأن الأمير سيعاقبه على غدره اذا غدر ويكفيهم شره :

وقد نغض^٩ ونغضي عن قبائحه ولم يكن عجزاً عنه تغاضينا
لكن تركناه إذ بتنا على ثقة أن الأمير يكفيه فيكفينا

بدأت القصيدة بمخاطبة امرأة تخيلها الشاعر أو يراها أمامه متخذاً من المخاطبة
وسيلة للحديث عن المعركة والنصر والحرب وسائر ما جاء في القصيدة وليس خطاب

المرأة من قبيل الغزل ولكن من قبيل النشوة بالظفر والأخذ بالثأر واشعار الناس جميعا متمثلين في هذه المرأة بأن العار قد محي وكأن هذه المرأة كانت تواصل تعييرها له ولقومه بعدم أخذهم بثأرهم والآن جاء وقت جوابها • معنى هذا أن الشاعر دخل في موضوعه رأساً دون مقدمة واستخدم الحوار مع المرأة تجميلاً للكلام وبعثاً للحياة وفتحاً لمناقشة القول • ونراه يعطينا صورة مجملّة عن النصر والاستعداد للمعركة وقوة العزيمة وصفات القوم مفتخراً بها ثم يعرض لنا الماضي وكيف استنسر به الأعداء على ضعفهم ثم يصف انتقام قومه وأن ذلك كان عدلاً ويلجأ الى التصوير الموجز أحيانا فيبدع ويعود الى الفخر بالقوة وحسن الاستعداد وعلو الهمم ومقارعة الخطوب • وتذوب شخصية الشاعر الفردية في هذه القصيدة لتحل محلها شخصية القبيلة الجماعية ، ويجد الشاعر واجبا عليه أن يمدح الملك الذي نصرهم وساعدهم على أخذ حقهم وينهي الأبيات بوصف تعقل قومه وموقفهم من أعدائهم وحقيقة هؤلاء الأعداء منهم •

ونرى من ذلك أن خطة القصيدة جيدة محكمة وأنه استعمل فيها الاجمال ثم التفصيل • ونلاحظ أن نسجها فخيم وألفاظها ووزنها ومعانيها وصورها وعواطفها كلها قوية تلائم الفخر •

ونرجح أن الملك الذي يمدحه صفي الدين في هذه القصيدة هو الملك المنصور أوّل ملك مدحه الشاعر من غير قومه وتعرف اليه ، وواضح أن الشاعر يعترف بمساعدته لقومه على النصر • •

يتبين لنا من هذا العرض الموجز لفخرية الحلبي أن فخره يمكن أن يقسم الى قسمين رئيسيين : فخره بنفسه ، وفخره بقومه ، وأنه ليس من فاصل قاطع بين الاثنين ، بل هما وثيقا الصلة فالشاعر نفسه يذكر بأن مفاخره الشخصية مستمدة من مفاخر قومه •

وقد رأينا أنه يفخر بمكانته في أسرته ومكانة أسرته في القبيلة بين سائر القبائل وقوتها ومنعتها وتفوقها وانتصاراتها ومكارمها من شجاعة ونجدة وكرم وكل ما كان يفخر به البدوي منذ خلق الى اليوم •

والشاعر يعترف بما على قبيلته الى جانب فخره بما لها فقد ذكر أن أعداءها قد انتصروا عليها مرات وظفرت هي بهم مرات وان الحرب كانت بين الفريقين سجالا .
ونراه يفخر بشجاعته ورمحه وقوسه وأسهمة ودرعه وسائر عدة سلاحه ،
وفخر بقدرته على النجاة من الأعداء ويعتذر لفراره أمامهم ويبين أنه لن يستسلم لهم إلا مقتولا بعد أن يجالّد سيفه ويرد على من اتهمه بأنه رب شعر وقلم وليس رب سيف بأنه انما قتل رئيسه سيفه لا بقلبه وبه علا رأسه يوم المعركة لا بشعره . ثم يصرح بأنه يفخر بشجاعته وقاتله أكثر من فخره بأدبه ولكنه مع ذلك لا يقصّر في الفخر بقصائده التي لها على الأعداء مثل وقع سيفه وسيوف قومه وتمتاز ببلاغتها وترفعه فيها عن التكسب .

ومن الطبيعي أن يفخر الحلي بما فخر به فقد عاش في بيئة بدوية نصف متحضرة ورثت عادات وتقاليد كانت منساقة الى الحفاظ عليها وتقوم كلها على المكارم العربية التي افتخر بها العرب وشعراؤهم منذ أقدم العهود الجاهلية إلى اليوم ، وكانت في حياة القبيلة زمن الشاعر حوافز من الدفاع عن النفس وحفظ البقاء تدعوها الى قتال أعدائها والفخر بمكارمها .

وكذلك كان طبيعيا أن يفخر الشاعر بنفسه وبقومه وقد وضع لبان تلك البيئة وكان له من شرف مولده ومن مناقبه الخاصة ما يحق له أن يفخر به كالفصاحة والشاعرية والشجاعة وقوة الشخصية والترفع عن الطلب ورفع المكانة الاجتماعية بعد هجرته من بلده وقبلها وشعوره بأنه ندى للعظماء وشعورهم باحترامه .

ومن أبياته الجميلة في الفخر التي تصور الرجولة والتجلد قوله :

صبرا على وعد الزمان وإن ونى	ففساه يصبح تأباً مما جنى
لا يَجْزِعَنَّكَ أَنَّهُ رَفَعَ الْعَدَا	فلسوف يهدم عن قليل ما بنى
حَكَمُوا فَجَارُوا فِي الْقَضَاءِ وَمَا دَرَوُا	ان المراتب تستحيل الى فنا
ظَنُوا الْوَلَايَةَ أَنْ تَدُومَ عَلَيْهِمْ	هيهات لو دامت لهم دامت لنا
قَتَلُوا رَجَالِي بَعْدَ أَنْ فَتَكُوا بِهِمْ	في وقعة الزوراء فتكاً يئنا
كُلُّ الَّذِينَ غَشَوْا الْوَقِيعَةَ قَتَلُوا	ما فاز منهم سالماً إلا أنا

ليس الفرار عليّ عاراً بعدما شهدوا ببأسي يوم مشتبك القنا
 فنحن نرى أن الشاعر بعد مصيبتة الكبيرة هذه بقي متجلداً رابط الجأش
 متفائلاً بالنصر يعتذر عن فراره ، فرحاً بنجاته •
 ومنها قوله في فخريته التي مطلعها :

شفها السير واقتحام البوادي ونزولي في كل يوم بوادي
 ومقيلي ظل المطيئة والتبر بـ فراشي وساعداها وسادي
 وضجيجي ماضي المضارب عضب أصلحته القيون من عهد عاد

.....

ما بنيت العلياء إلا بجدي وركوبي أخطارها واجتهادي
 وبلغني اذا نطقت وفضلتي وجدالي عن منصبي وجلادي
 غير أني وإن اتيت من النظم بلفظ يذيب قلب الجماد
 لست كالبحتري أفخر بالشعر وأثني عطفي في الأبراد
 واذا ما بنيت بيتاً تبختر تـ كأنني بنيت ذات العمداد
 إنما مفخري بنفسي وقومي وقناتي وصارمي وجوادي
 معشر أصبحت فضائلهم في الأرض تتلنى بالسُن الحساد

ونراه يفخر بأنه يفتك في أعدائه بسيفه ولسانه معاً وبأن أعداءه يذكرون أفعاله :

جعلتهم نهبا لسيفي ومقولي فهم في وبال من كلامي ومن كلمي
 تود العدا لو يحدق اسم أبي بها وألا تفتاجا في مجال الوغى باسمي
 تعدد أفعالي وتلك مناقب فتذكرني بالمدح في معرض الذم
 ولو جحدوا فضلي مخافة شامت لنم عليهم في جباههم وسمي

ونراه يفخر بأنسابه عمومة وخوولة :

فكيف ولم ينسب زعيم لسنس إلى المجد إلا كان خالي أو عمي
 وإن أشبهتهم في الفخار خلأقي وفعلي فهذا الراح من ذلك الكرم

ويلحق بالفخر التحريض على حرب الأعداء وهو من الحماسة • قال من

قصيدة يحرض الملك الصالح بن المنصور على الاحتراز من المغول ومنازلتهم أثناء
اختلافهم ويهنتيه بعيد النحر :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العلا من قدّم الحذرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب	مضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بدّ للشهد من نجل يمتّعه	لا يجتني النفع من لم يحمل الضرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ	لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا
فقد يقال عثار الرجل ان عثرت	ولا يقال عثار الرأي إن عثرا
من دبّر العيش بالآراء دام له	صفوا وجاء إليه الخطب معتذرا
لا يحسن الحلم إلا في مواطنه	ولا يليق الوفا إلا لمن شكرا
ولا ينال العلا إلا قتي شرفت	خلاله فأطاع الدهر ما أمرا
كالصالح الملك المرهوب سطوته	فلو توعد قلب الدهر لا نطرا
كالبحر والدهر في يومي ندى وردى	والليث والغيث في يومي وغى وقرى
من آل أرتق المشهور ذكرهم	إذ كان كالمسك إن أخفيت ظهرا
كانت عداك لهم دست فقد صدعت	حصة جدك ذاك الدست فأنكسرا
أحسنتم فبغوا جهلا وما اعترفوا	لكم ومن كفر النعمى فقد كفر
وانحر عداك فبالإنعام ما انصلحوا	إن كان غيرك للإنعام قد نحرا

هذه القصيدة قومية دينية من حيث انها تحرض على دفع الأعداء المغيرين الذين
يهاجمون هذه المنطقة كلها فيقتلون ويدمرون ويسبون وينهبون ويزكبون من
الفظائع والأحوال ما يشيب له الولدان •

والشاعر يحرض فيها ملكه الصالح على حرب قوم قد بعثوا الرعب في قلوب
الناس ولكنه يشجعه ويحث فيه الحمية والأتفة ويقوم بدور الموجه الشجاع البعيد
النظر العظيم الهدف •

وهو ينطلق من أن القوة لا تدفعها الا القوة وان النار خير من العار والمواجهة
خير من الحذر وان نيل العلا لا يكون بالتمني •

وقال يحرض الامير نور الدين بن ركن الدين اسحاق على لقاء المغول وحربهم
عند غارتهم على مارددين وخروجه إليهم :

أَمِنْ حَجَرِ فؤادك أم حديدٌ	ففيه على الوغى بأسٌ شديدٌ
وأطوادٌ حُبومٌ أم جبال	تميد الراسياتٌ ولا تميد
لأنك كلما حاولتَ أمراً	بصوب فعلك الرأي السديد
طلعتَ على العُدَّة وأنت شمس	فذاب بحرٌ موقعها الجليل
أغرَّت على حِمَاهم غيرَ عياد	ولا قوا منك ما لا قت ثمود
بجيشٍ ترجف الرايات فيه	وتخفق دون مقدمه البنود
وتهتز الذوابل فيه عجباً	كما اهتزت من المرح القدود
عجلتَ الى قراءهم بعزم	به يدنوك الأمل البعيد
وكم وإن يعد العجز حلماً	فيندم والندامة لا تفيد
ومن ير ما يريد وكف جناً	رأى من بعده ما لا يريد

هذه الأبيات المعروضة رائعة قوية لا تقل في بعثها الحماسة والإعجاب عن
قصائد المتنبي وغيره من شعراء الحماسة والحرب المشهورين . ويقال في هذه القصيدة
ما قيل في سابقتها وتشارك القصيدتان في تضمنهما حكماً قوية كحكم المتنبي قيلت
في أسلوب فخم كأسلوبه :

وكم وإن يعد العجز حلماً	فيندم والندامة لا تفيد
ومن ير ما يريد وكف جناً	رأى من بعده ما لا يريد

• • • • •

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدّم الحذرا
ويلاحظ أن هذه الحكم بمثابة القانون العام للحالة التي ينظم فيها الشاعر ،
وأنها تمتّ بنسب الى بعض حكم المتنبي كقوله :

يرى الجبناء ان العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم

والقصيدتان يشارك الشاعر بهما في شعر النضال الذي كان يقال في تلك العهود .

ج - مدح الحلبي :

تنوعت مدائح صفي الدين الحلبي بحسب الممدوحين الذين قالها فيهم • فقد وضع في طليعة مدائحه في الديوان مدائحه في النبي صلى الله عليه وسلم • ثم أورد بعدها مدائحه في السلطان الناصر محمد صاحب مصر والشام • ثم مدائحه في الملك المنصور صاحب ماردین • ثم في ابنه الملك الصالح • ثم أورد التهاني وقصائد الشكر التي قالها في هذين الملكين ، ثم مدائحه في الملك المؤيد صاحب حماة • فمدائحه في ابنه الملك الأفضل ، وأنهى باب المديح بمدائحه في بعض الملوك والأعيان الذين شكرهم على بعض انعاماتهم •

١ - المدح النبوي :

فأما مدحه في الرسول الذي استهل به باب المدح فقد ضم ثلاث قصائد مطولة الأولى رائية هائية ومطلعها :

كفى البدرَ حسناً أن يقال نظيرُها فيزهي ولكننا بذاك نُضيرُها

وقد أطل فيها الغزل والحديث عن أحواله وتحمله مشاق الأسفار على ظهر ناقة قوية سريعة ، بحيث يساوي هذا القسم في الطول قسم المديح حتى تخلص الى المدح بقوله :

غدت تتقاضاها المسيرَ لأنها الى نحو خير المرسلين مسيرها

والثانية على روي النون قالها ليلة مولد النبي يذكر فيها مناقبه ويدخل في الموضوع رأساً ومطلعها :

خدمتُ لفضل ولادك النيرانُ واشقُ من فرح بك الإيوانُ

والثالثة قافية يبدؤها بوصف الطبيعة ومطلعها :

فيروزجُ الصبحِ أم ياقوتةُ الشفقِ بدت فهِيجتِ الورقاءُ في الورقِ

ويحسن التخلص فيها الى المدح بقوله :

وفاح من أرج الأزهار منتشرا ثرٌ تعطر منه كل منتشق
كأن ذكر رسول الله مر بها فأكسبت أرجا من ثره العبق

القافية في مدح النبي :

يبدأ هذه القافية بوصف الطبيعة فيتساءل في مطلعها عما هيج الحمامة الورقاء حتى رددت أغاريدها بين الورق أهو نور الصبح الأزرق الذي يشبح الفيروز أم نور الشفق الأحمر الذي يشبه الياقوت أم هو نور الشمس يلوح من الشرق يحف به الشفق الأحمر ، كأنه السيف الأبيض وقد اختضب بالدمع الأحمر :

فيرزوج الصبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيجت الورقاء في البورق
أم صارم الشرق لما لاح مختضبا كما بدا السيف محمرا من العلق

ونحن أن الشاعر نشوان بالطبيعة كلها وبغناء الأطيوار كما انتشت الأطيوار بجمال الطبيعة وطلوع الشمس . وهو يحس الطبيعة بجميع جوارحه حتى لكأنه شربها فالأغصان قد هب عليها النسيم العليل فتمايلت سكري بمداعبته تتحرك كما يتحرك النائم اذا أرق والسحاب قد نشر ثوبه على الطبيعة ومدته حتى شملت حواشيه الأفق فعم به السماء ويتبين من ذلك أن الشاعر لا يصف الطبيعة ثابتة على حال واحدة بل يصفها وهي تتحرك في الزمان وتتغير فيها المشاهد بين شمس مشرقة ثم سحاب شامل :

ومالت القضب اذ مرّ النسيم بها سكري كما ثبته الوسنان من أرق
والغيم قد نشرت في الجو بردته سيرا تمد حواشيه على الأفق

ولا تلبث السحب أن تهطل كأنها تبكي والأرض تستقبل أمطارها فرحة كأنها تضحك والطير يفرح لهذا العرس بين السماء والأرض فيغرّد تياها بحسنه ومرحه مندفعاً بحبه للحياة وغريزته لحفظ البقاء بالنسل لتتقلب مظاهر الطبيعة في ذلك كله بين طرب الطير وأسى السحب وهرب الماء الهائل واهتزاز الغصن القلق :

والسحب تبكي وتغر البر مبتسم والطير تسجع من تيه ومن شبق
فالطير في طرب والسحب في حرب والماء في هرب والغصن في قلق

ولقد ظهرت في الأبيات الأربعة السابقة عناية الشاعر بالصورة البيانية وفي هذين البيتين تظهر عنايته بالزخارف البديعية فهو يطابق في أولهما بين البكاء والابتسام

وفي ثانيهما بين الطرب والحرب ويزاوج في المعنى بين التيه والشبق والهرب والقلق
ثم هو يحسن تقسيم البيتين الى جمل موسيقية ويحسن الترصيع وتوازن الجمل في
ثلاثة أرباع البيت الثاني فالطير في طرب والسحب في حرب والماء في هرب •

ثم هو من الوجهة البيانية يخلع العواطف الانسانية على عناصر الطبيعة فهي
عنده بين طرب وحرب وهرب وقلق فيشخصها باستعاراته المكنية التي ليست من
مبتكراته ولكنه أحسن جمعها وتأليفها •

وهو في البيت الاول منهما يلجأ الى الجمع بين عناصر الطبيعة في مظاهرها
المختلفة المتكاملة ثم يعود فيفرق بين أحوالها •

وينتقل بعد ذلك بخياله الى ما ينتج عن المطر من نبات العشب والزهر واكتمال
تزئين الارض كأنها تلبس أحسن ما عندها لتشكر السحاب المنعم والى الشعور
بجمال الندى وهو يزين أوراق الفصون في الضحى كما يتجل خد الحسناء الناعمة
بالعرق ، وهذا الانتقال سريع في الخيال ولكنه واسع الخطوة في الحقيقة لأن بين
هطول المطر وظهور أثره على الارض أياماً بل أسابيع ولكن الشاعر وصل بينهما
بعضاً سحرية هيأها له خياله الإبداعي الذي يشرب به حسن الطبيعة ويتهيج ،
فيشخص الارض المعترفة بالجميل ، والفصون التي تكلمت بالطل فأقامت أعراس
السرور والمرح في الكون :

وعارضُ الأرض بالأنوار مكتمل قد ظلَّ يشكر صَوْبَ العارضِ الغدِرقِ
وكَلَّلَ الطلَّ أوراقَ الفصون ضُحى كما تكَلَّلَ خَدَّ الخَوْدِ بالعَرَقِ

ويشعر الطير فنطق بألحانه مسجوعة واتفقت بعض ألحانه واختلف بعضها
باختلاف أنواعه وأخذت الشمس تتحرك في كبد السماء فتنتقل ظلال الأشياء تنقلا
بطيئاً لا يحس بتفاصيله فكان الظلال تسترق خطواتها حتى لا يشعر بها وأخذ الماء
يدب في مجاريه بين الأشجار ظاهراً غير مستتر ومستعلن غير مسترق ، وعبر الورد عن
فرحه فتفتحت شفائفه وبهت النرجس الريان مما يراه من حسن فشخصت أحداقه
وتدبجت الطبيعة بالألوان التي دبج الشاعر بها شعره بين أحمر زاه وأخضر مفعم

بالحياة وأصفر جميل الصفرة رأبيض ناصع وأهدت الأزهار المختلفة الأنواع والألوان عبيزها الذي انتشى به كل من انتشقه كما ينتشي المؤمن بذكر رسول الله ذي السيرة العبة بمكارم الأخلاق والأفعال وهكذا يحسن الشاعر الانتقال من وصف الطبيعة الى المديح النبوي بعد أن يشخص الطبيعة ويخلع عليها عواطفه ويهيئ بها جو السرور الذي يريد أن يتحدث فيه عن مناقب النبي الكريم :

وأطلق الطيرُ فيها سجعَ منطقة ما بين مختلف منه ومتفق
والظل يسرق بين الدوح خطوته وللمياه ديب غير مسترق

ونحب أن نذكر بمناسبة ايرادنا هذا البيت أن الشاعر كان مفتوناً بهذا المعنى الذي ابتكره وهو سرقة الظلال خطواتها فنراه يكرره في أبياته الربعية التي جعلها مطلعاً لمدحته في الملك الناصر محمد :

خلع الربيع على غصون البان حلاً فواضلها على الكثبان
فيقول فيها :

(والظل يسرق في الخمائل خطوه والنصن يخطر خطره النشوان)
وقد بدا الورد مفتراً مباسمه والرجس الغض فيها شاخص الحلق
من أحمر ساطع أو أخضر نضر أو أصفر فاقع أو أبيض يقق
وفاح من أريج الأزهار منتشراً نشر تعطر منه كل منتشيق
كأن ذكر رسول الله مر بها فأكسبت أرجاً من شره العبيق

وبعد أن يحسن التخلص الى مدح النبي يبدأ بذكر مكاتته لدى الخلق فهو الذي هداهم الى أحسن السبل وثنى بذكر مكاتته لدى الله فقد فضله الله على النبيين وعرج به الى عليين وقربه منه كقاب قوسين أو أدنى ، وقد سمت فضائله حتى قصر عنه مدح المادحين ووصف المفكرين وفضل الشاعر مرآه على عينيه وشهد الرحمن بسمو خلقه في قرآنه وجعل مكاتته الأولى بين الرسل مع أنه خاتمها وجمع فيه فضائل النبيين جميعاً وذكره في التوراة والانجيل وخصه بالفضل في القرآن وأقسم باسمه لأكرم خلقه :

محمد المصطفى الهادي الذي اعتصمت به للورى فهداهم أوضح الطرق

ومن له أخذ الله اليهود على
ومن رقى في الطَّباق السبع منزلة
ومن دنا فتدلى نحو خالقه
ومن يقتص مدح المادحين له
ويعوز الفكر فيه إن أريد له
علا مدح الله العلي بها
يا خاتم الرسل بعثا وهو أولها
جمعت كل قيس من فضائلهم
وجاء في محكم التوراة ذكره وال
وخصك الله بالفضل الذي شهدت
فالخلق تقسم باسم الله مخلصه

كل النبيين من بادٍ وملتحق
ما كان قط إليها قبل ذلك رقي
كقاب قوسين أو أدنى الى العنق
عجزاً ويخرس رب المنطق الذليق
وصف ويفضل مرآه عن الحدق
فقال انك في كل على يخلتق
فضلا وفائزها بالسبق والسبق
من كل مجتبع منها ومفترق
إنجيل والصحف الاولى على نسق
به لعمرك في القرآن من طرُق
وباسمه أقسم الرحمن للشدق

ويتضح أن الشاعر في هذا القسم لم يأت بصورة بيانية واكتفى بإيراد المعاني
التي يريدتها مجردة من الخيال ثم أنه لم يتكلف الصناعة البديعية الا ما تطلبه المعنى
من طباق وانطلق الشاعر وراء عاطفته الدينية ومعلوماته الثقافية النقلية يستمد منها
معانيه وقد فاتته جزالة التركيب في بعض الأبيات (وخصك ... من طرق) . وينتقل
من الوصف العام الى التخصيص فيتحدث عن وجود النبي مبالغاً في الصور الخيالية
لا في المعاني :

عمت أياديك كل الكائنات وقد
لو أن جودك للطوفان حين طمت
خص الأنام بجشود منك مندفيق
أمواجه ما نجا نوح من الفرق

ويلجأ الى الأسلوب نفسه من المبالغة الخيالية التي يعدلها بعض التعديل بلو
الشرطية فيقول : لو أن آدم كان في عرين خاص بالنبي حين جاءه ابليس لكان وقي
من شره ولو أن النار التي ألقى فيها الخليل كان لها عزم النبي لما نجا منها ابراهيم ولو
كان لموسى بأس النبي لما خر صمعا يوم تجلى له ربه في الطور ، ونعتقد أن هذه
المبالغات قد تعدت الحدود المقبولة فيما يتعلق بالأنبياء ، بل فيما يتعلق بالله تعالى
نفسه الذي أجرى كل شيء وفق ارادته وقدره ، وانما كانت هذه المبالغة عنده
لانسياقه وراء حبه للنبي وغلبة عاطفته عليه :

لو أنَّ آدمَ في خَدْرٍ خُصِّصَتْ به
لو أنَّ عزمَكَ في نارِ الخليلِ وقد
لو أنَّ بأسَكَ في موسى الكليمِ وقد
لكان من شرِّ إبليسَ اللعينِ وَّقِي
مُسْتَه لم ينج منها غيرَ محترق
نوجي لما خرَّ يومَ الطور من صَعَق

ويسترسل في هذا النوع من تصوير فضل النبي فيقول بأن تَبَّعَ لو استسقى
المطر حين انجاسه باسم النبي لاستجاب له الله ، ولو أن الناس آمنوا كلهم بالنبي
إيماناً صادقاً لما لحق بهم أذى يوم الحساب ، ولو أن عبداً أطاع الله في كل أعماله ثم
أبغض النبي لما كان عند الله تقياً ولو أن الجن قد عصت النبي لزلزلت بهم الأرض ولو
كان للسيوف عزم النبي لما وقت منها الدروع المتينة والخوذ الصلاب ولو أن النبي
وصل غبار الحرب الكثيف بظلام الليل لم يستطع الصبح أن يبدد الظلمات ، وهذا
القسم استمرار للآيات الثلاثة قبله من حيث استعمال المبالغة والافاضة في الخيال :

لو أنَّ تبَّع في محل البلاد دعا
لو آمنت بك كل الناس مخلصه
لو أنَّ عبداً أطاع الله ثم أتى
لو خالفك كماة الجن عاصية
لو تودَّع البيض عزمًا تستضيء به
لو تجعل انقاع يوم الحرب متصلا
لله بأسمك واستسقى الحيا لسقي
لم تخش في البعث من بخس ولا رهق
يبغضكم كان عند الله غير تقي
أركبتهم طبقا في الأرض عن طبق
لم يخن منها صلاب البيض والد برق
بالليل ما كشفت غيرة الفلق
بالبيض سمر منها كل منقلب
والدين في تشنر والكفر في تفق

وينتقل من هذه المعاني الى الحديث عن فتوح النبي واعزاز الدين واذلال
الشرك :

مهدت أقطار أرض الله مفتحة
فالحرب في نزار والشرك في عيوز
وفي هذا البيت نراه يستعمل الترحيع والتقسيم الموسيقي ثم يلخص فضله
على الدنيا :

فضل به زينة الدنيا فكان لها
كالتاج للرأس أو كالطوق للعنق
ثم يصلي على النبي وآله وصحبه ناعياً على من يبغضهم ناعياً بذلك عن نفسه
أن يكون من الشيعة الغالية :

صلى عليك إله العرش ما طلعت
وآلك الغرر اللائي بها عرفت
وصحبك الشجيب الصييد الذين جرّوا
قوم متى أضمرت نفس امرئ طرّفا
شمس النهار ولاحت أنجم العسق
سبيل الرشاد فكانت مهتدي الغرق
الى المناقب من تال ومن سبّح
من بغضهم كان من بعد النعيم شقي
ثم يبين أن مديحه يشرف بالنبي ويقعد عن الاحاطة بفضلته ويذكر أن النبي
شرف الشعر بالمدح :

ماذا نقول اذا رمنا المديح وقد
إذ قلت: «في الشعر حكم» و«البيان به
شرفتنا بمديح منك متفق
سحر» فرغبت فيه كل ذي فرق
وأنه كان البادى بمدح الشعراء والإيناعام عليهم وأنهم عاجزون عن أداء بعض
حقه من الشكر :

فكنت بالمدح والانعاعام مبتدئا
فلو أردنا جزاء البعض لم نطق
ثم يعاهد نفسه على ألا ينقطع عن مدح النبي مادام فكره قادرا على النظم وعلى
أن يصفي النبي مديحه جاهدا فان الخلق كلهم يفنون وهو يفنى مثلهم ولكن مديحه
يبقى له ذخرا :

فلا أخيل بعذر عن مديحك
ما دام فكري لم يثر تج ولم يثعق
فسوف أصفيك محض المدح مجتهدا
فالخلق تفنى وهذا إن فنيت بقي

وهذا القسم الأخير أجود مما تقدمه في المدح وأقرب الى النفس والعاطفة
والفكر ولكنه ليس من الشعر الممتاز ، وليس في مستوى وصف الطبيعة في أول
القصيدة . واذا أردنا أن نوازن موازنة عامة بين قسم المدح من قصيدته هذه وبين
مدحة البوصيري الميمية أو الهمزية وجدنا البوصيري محلقا ووجدناه مقصرا عنه
كثيرا فليس عنده تفحته الشعرية ولا تساوق معانيه وجمال تعبيره ولطف خياله
وحلاوة لفظه وحرارة عاطفته وروعة موسيقاه ومتانة قوافيه وتغلغل كلامه الى القلب .
على أن البوصيري في غير شعره النبوي دون الحلي قوة وأصالة فنية .

٢ - المدح التقليدي :

مدح صفي الدين الحلي في السلطان الناصر محمد حين الاحتفال بكسر
الخلايخ في مصر :

يبدأ هذه القصيدة بوصف الطبيعة وصفاً حياً وهي في أبهى حللها زمن الربيع
فيتخيل الربيع ملكاً كريماً كسى غصون البان وسائر الشجر حللاً زاهية سحبت ذيولها
على الكثبان ودفع بماء الحياة في شرايين الأشجار الضخمة فنمت أغصانها وتدلّت
حتى لامست الكثبان تحتها ولكن الشاعر المستوفز الاحساس الذي يرى الطبيعة
حوله خية تمور بالنشاط يتخيل أن تلامسها مصافحة بين حبيبين كفل حسناء وذوائب
غائية وهكذا ينطلق الحلي في تشخيص الطبيعة فالزهر فوق رؤوس الغصون تيجان
على هام ملوك والرياح حسناء اصطبع خدها بشقائق النعمان وقد مدت بسطها من
الزهر المتنوع الألوان والأشكال بين ابيض ناصع وأصفر فاقع وأزرق نقى وأحمر
قان والشاعر في هذا البيت يستعمل فن التدييج • ويعود بعد هذا الوصف البصري
الى تشخيص الطبيعة ووصف احساسه العميق الدقيق بها فظل الأشجار والأشياء
يتنقل بحركة الشمس تنقلا تدريجيا غير ملحوظ كأنه سارق يسترى خطاه حتى
لا يحس به ، والغصون تيمس وتتمايل كأنها سكرى بالجنس حولها وبحسنها هي
نفسها والشاعر معجب بهذا المعنى نراه يكرره في قصائد أخرى وكأنما سكر هو نفسه
بهذا التشخيص فيشبه الأغصان المهتزة بزوها بسيئاته اقصات جميلات قد طوقت
أرجلهن بسلاسل بديعة من الرياح وهو يفيدنا بذلك أن الراقصات كن يرقصن
أحيانا وفي أرجلهن ما يشبه القيود من الخلاخل ولا نحب أن نسترسل في الخيال
لنتصور أن النساء كنّ يرقصن حينئذ رقصا تمثيلا يصورن فيه العبودية ويرمزن لها
بقيود الرياح ، فذلك مجرد ظن لم يقم عليه دليل ، على أننا يجب أن نتذكر أن
الراقصات كنّ غالبا من الجواري اللاتي كن يشعرن برقة العبودية والأسر • وقد
رقق الشاعر قيودهن فجعلها سلاسل من الرياح ليحاري الطبيعة في الافتتان •

وقد نظرت الشمس غيرى الى حسن الحدائق واختلست النظر اليها من خلال
فروعها وكان جمال الأفوثة قد سيطر على خيال الحلي كما سيطر من قبله على
خيال ابن الرومي في قوله :

تبرجت بعد حياءٍ وخفّر
تبرّج الأثى تصدّت للذكر

فهو لذلك يرى سمات الأثى ومفاتها ويشم عطرها في كل شيء فيصبح الزهر
الذي يتفتح من أكمامه فيبدو طلعه كأنه غوان قد فتحت جيوبها لتبدي نحورها .

ويعود بعد هذه النشوة الفنية الى صناعته البديعية فيحاول أن يجمع بين
الصور المتناقضة فيما سمي بتنافر الأضداد فالسحاب يبكي بدمع مستمر الانسكاب
والأرض تضحك وهو سبب ظهورها بهذا الثوب الضاحك وأنت أيها المشاهد تعجب
من هذا التناقض بينهما كما عجب الشاعر الذي طابق في البيت وراعى النظر
فاذا استمر السحاب الجون (الأسود) في بكائه وأخذت الحدائق تعاتبه على هذا
البكاء الذي لا مبرر له لأنه يقابل فرحتها وضحكتها بحزن وانقباض طمع السرور
في قلب الشاعر حتى بكى من الفرح وتحدث الى نفسه والى جميع الناس ناصحاً
بهذه الحكمة الخالدة : اذا جاء الربيع فامرح وبدد همومك بحسنه فالربيع هو
الشباب الثاني لك كما هو الشباب المتجدد للطبيعة . وفي البيت حشو لفظي في
« وفصله » ولكن الشاعر استطاع به أن يصلنا بجذور الحياة وأن يعبر عن حاله
النفسية من المرح والسرور وتدفق الحياة في هذا الفصل الجميل .

وينتقل بعد ذلك من هذا الوصف العام للطبيعة الذي ينطبق على كل زمان
ومكان الى الوصف الخاص لربيع مصر حين يفيض نيلها ويحتفل بفيضانه ويشير
بالخير والبركة فيقول :

إني في هذا الوقت الذي اكتست فيه مصر أجمل حلة فصفا الماء وزخرفت
الحدائق التي هي جنات وسطع الهرمان كأنهما شمسان واخضر الوادي وتفتح
عيون الزهر وجري النيل فيه كأنه نهر الكوثر في الجنة وجرت فيه السفن العظيمة
كأنها جبال فوق الصحراء أو قمم جبال متصلة تحركها قلوبها مسرعة كأنها طيور

تهمّ بالتحليق من فوق سطح الأرض وجرى النسيم رخاءً فوق الماء فأسرع هذا في تدفقه فمرة تراه كبير الموجات كأنها مناسم الإبل الضخمة ومرة تراه صغيرها ناعمها كأنها أظلاف الغزلان . فاذا ما كسر سد الخليج وتقسمت المياه على فروع النيل وخلصانه المتعددة ساوى بين هذه الفروع وعدل بين البلدان التي تجري فيها كما يساوي السلطان بين رعيته في الإنعام فيعمّهم به . ونلاحظ أن الشاعر قد حذف الفعل : بعد أننى الاستفهامية التي تدل على الحال وهو يفهم من اتساق الكلام ، وتقديره كيف يقع ذلك أي كيف تأتيك الهموم والطبيعة على ما ترى :

خلع الريح على غصون البان	حُلاّ فواضلها على الكبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت	كفل الكيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضربت	خده الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها	متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع	أو أزرق صاف وأحمر قان
والظل يسرق في الخمائل خطوه	والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان شوق رواقص	قد قيّدت بسلاسل الرّيحان
والشمس تنظر من خلال فروعها	نحو الحدائق نظرة الغيران
والطلع في خلل الكمام كأنه	حلل تفتّق عن نحور غواني
والأرض تعجب كيف تضحك والحيّا	يسكي بدمع دائم الهمّلان
حتى اذا افترّت مباسم زهرها	وبكى السحاب بدمع هتّان
ظلت حدائقه تعاتب جوده	فأجاب معتذرا بغير لسان
طفح السرور عليّ حتى إنّه	من عظم ما قد سرّني أبكاني
فاصرف همومك بالريبع وفصله	ان الريع هو الشباب الثاني
أننى وقد صفت المياه وزخرفت	جنان مصر وأشرق الهرمان
واخضر واديهّا وحدّق زهره	والنيل فيه ككوثر بجنان

وبه الجواري المنشآت كأنها
والماء يسرع في التدفق كلما
طوراً كأنسمة القلاص وتارة
حتى اذا كسر الخليج وقسمت
ساوى البلاد كما تساوي في الندى
عند المسير تهم بالطيران
عجلت عليه يد النسيم الواني
متقل كأكارع الغزلان
أمواه لجتة على الخلجان
بين الأنام مواهب السلطان

ينتقل بعد أن يحسن التخلص الى مدح الملك الناصر فيصفه بأنه قد وطّد
الأمن حتى ساد بين الذئاب والظباء وشكرت هذه تلك على رعايتها :

الناصر الملك الذي في عصره شكر الظباء صنيعة الشرحان

وان الملوك تهابه فتسجد لهيبته :

ملك اذا اكتحل الملوك بثوره خروا لهيبته على الأذقان

وبأن اسمه بين الناس يغنيهم عن أن يعرفوه بنسبه الى أبيه :

ولم يوفق الشاعر في هذا المعنى لأنه يقال في عامة الناس لا في السلطان الذي
له أكبر سلطة في البلاد :

واذا جرى بين الوري ذكر اسمه تغنيه شهرته عن ابن فلان

ثم يمدحه ويمدح أسرته بالكرم والشجاعة وما هو متداول معروف إلا انه
يورد معنى جديدا في وصف الكرم وهو أن الممدوح وقومه يشعلون تحت القدر
عصي رماح أعدائهم التي كسروها في المعركة :

من معشر خزنوا الثناء وقطعوا
قوم يرون المن عند عطائهم
الموقدو تحت المراجل للقري
ان أخرست فلند العقيير كلابهم
أسد روت يوم الهياج أكفهم
قصفوا القنا في صدر كل مدرع
بننا النصار جوائز الخزان
شركا بوصف الواحد المنان
فضلات ما حطموا من المثران
دعوا الضيوف بالسن النيران
بدم الأسود ثعالب الخرّصان
والبيض في الأبدان في الأبدان

ويلاحظ من حيث الصياغة أنه فصل بين المضاف والمضاف اليه بفواصل طويلة في قوله (الموقدو تحت المراحل للقرى فضلات ...) أو أنه أخطأ في النحو فاستعمل الموقدو مكان الموقدون . وفي البيت الأخير جناس بين الأبدان والأبدان .

ثم يمدحه بأنه أعز الدين وبأنه سمّي النبي وإن الملوك عبيد أوامره لأنه يعمل بأحكام القرآن ثم يعود الى مدحه بالكرم فقد أحياء بعد أن بليت عظامه ويتخيّل مبالغاً أن الطير قد خشيت من طوفان انعامه فلجأت الى القلاع ثم يمدحه بما يشبه الذم حين يقول بأنه لا عيب في انعامه إلا انه ينسي المنعم عليه أهله ووطنه ويرى أنه كلقمان في العقل والحكمة وككسرى في العدل وانه أعداه في السماحة والفصاحة وانه شغل الزمان بأعماله الباهرة وأغنت هيئته عن القتال بالسيوف والرماح وهذه المعاني كلها مطروقة من قبل الا ما يتعلق بهرب الطير من طوفان كرمه الى بروج القلاع :

قد عز دين محمد بسميه	وسما بنصرته على الأديان
ملك تعبدت الملوك لأمره	وكذاك دولة كل "بب" قران
واقى وقد عاد السماح وأهله	رَمَما فكان له المسيح الثاني
فالطير تلجأ بالحصون لأنها	بنداه لم تأمن من الطوفان
لا عيب في ثعماء إلا أنها	يسلو الخريب بها عن الأوطان
شاهدته فشهدت لقمان الحجي	وقطرت كسرى العدل في الايوان
ورأيت منه سلطة وفصاحة	أعدى بفيضها يدي ولساني
ياذا الذي شغل الزمان بنفسه	قاصم سمع طوارق الحدّثان
لو يكتب اسمك بالصوارم والقنا	أغنى عن الضراب والتطمان

وفي هذا القسم يشبه المدوح بالمسيح في إحياء الموتى لأنه أحيى الكرم ويكني عن كرمه بلجوء الطير الى أبراج القلاع وفي ذلك أيضاً ما يسمى بحسن التعليل . ثم يصفه في المعركة دون أن يعبّن هذه المعركة فالوصف عام يريد أن يجعل منه به مثال البطل الشجاع . فعين يشور غبار المعركة كأنه خيمة نصبت فوق أعمدة الرماح

ويجلل الخيول منه بقمصان تتصل بقمصان الفرسان الحديدية وتمتزج أذيال الدروع بالدم كما تصبغ شقائق النعمان جوانب الغدران باللون الأحمر ويشتد لهيب المعركة حتى تتبع السيوف القلوب التي هي مكامن العداوات والأحقاد ، تخيب سيوف الأعداء حين تصطدم بصلابة دروع الممدوح كما يثغيب السراب أمل الظمآن ، ويرز الممدوح من بين الصفوف كما يقذف الزناد بلهب النيران ، وهو على ظهر فرس ضامر يتأبى الانقياد لوفرة قوته ونشاطه ثم يطيع ويسرع ثم يبطئ ، قد دربه سؤاسه على شؤون الحرب فهو في السرعة كالصقر الطائر وفي التبخر والجمال كالطاووس وفي الكر والفر مراوغاً كالخطاف وينظر نحو السماء كأنه يتوهم أن ميدان المعركة في نهر المجرة ولو حمله راكبه على الصعود إليها لوطىء بسنابكه نجم « الدبران » ولو طلب منه أن يجوز الصراط لجاز عليه كأنه السرطان . لقد فرقت جموع الأعداء بسيوف تنهر من أغمادها كما ينهر النوم من عيونك الساهرة على بلادك ولقد أخطأت هذه السيوف فظنت أن أغمادها هي رؤوس الملوك حيث تعقد التيجان . لقد فضدت رؤوس الأعداء تلولا (صوامع) وزهدت الطيور الجوارح (العقبان) باللحم من كثرة ما أكلت من الأعداء فكأنها رهبان .

ويلاحظ أنه يجيد الوصف التصويري في هذا القسم لأنه يتلاءم مع نفسه ونشأته فيحسن وصف غبار المعركة واحتدامها وقاتل بطله فيها وفرس البطل الذي يصوره وصف فارس معجب بالخيال ويلجأ الى المبالغة ليصف وفرة جودة الفرس وحسن تدريبه وشوقه الى القتال وليصف فتك الممدوح وجنده في الأعداء ، ونراه يحسن التخيل البياني فيأتي بتشبيهات جيدة مناسبة كتشبيه العقبان بالرهبان وتوهم السيوف أن أغمادها هي رؤوس الملوك وتخيل الفرس أن ميدان المعركة هو نهر المجرة في السماء والكناية عن القلوب بمكامن الأضغان وتشبيه انبثاق الممدوح من بين الصفوف بانبثاق النيران من الزناد وهو تشبيه مركب بمركب ... :

وكتيبة ضرب العجاج رواقها	من فوق أعمدة القنا المران
نسج الغبار على الجياد مدارعا	موصولة بمدارع الفرسان
ودم بأذيال الدروع كأنه	حول الغدير شقائق النعمان

حتى اذا استعر الوغى وتتبعته
 فعلت دروعك عندها بسيوفهم
 وبرزت تلفظك الصفوف اليهم
 بأقب يعصي الكف ثم يطيعه
 قد أكسبته رياضة سواسه
 كالصقر في الطيران والطاووس في ال
 يرنو الى حبك السماء توهشما
 لو قيل عثج نحو السماء مبادرا
 أو قيل جز فوق الصراط مسارعا
 وفلت حد جموعهم بصوارم
 ضلت فظنت في مقارعة العدا
 صيرت هامات الكماة صوامعا
 بيض الصفاح مكامن الأضغان
 فعل السراب بمهجة الظمان
 لفظ الزناد سواطع النيران
 فتراه بين تسرع وتوان
 فتكاد تركضه بغير عنان
 خطران والخطاف في الروغان
 أن المجررة حلبة الميئدان
 وطئت يداه دوابر الدبران
 لمشى عليه مشية السرطان
 ككراك نافرة عن الأجفان
 ان الغمود معاهد التيجان
 وكواسر العقبان كالرهبان

وبعض المعاني التي يأتي بها قديم وبعضها جديد أو ألبسه الحلّي ثوب الجدة
 كخيمة الغبار فوق أعمدة الرماح وكخروج الممدوح كالنيران من الزناد وكالمبالغات
 التي أشرنا اليها في وصف الفرس والسيوف . ثم يصف الشاعر علاقته معه وكيف
 أدناه بالجود ووالى عطاياه عليه ويعلل الشاعر سفره عنه بأنه كاد يغرقه بطوفان هباته
 ويصف الشاعر نفسه بأنه قد تربى من حوادث الدهر فعرف بأن الزيادة تنتهي الى
 النقصان وشدة القرب تنتهي بالبعد ، ولكنه اذا رحل فقد ترك قصائد بديعة اغتصبت
 الحكمة الرائعة من لقمان وهي فريدة في جمالها غريبة لتفردا بالجودة وإن كانت
 في موطنها ، يفاخر بها من يحصل عليها كما يفخر الزوج على أقرانه بعروسه النادرة .
 وعيها أنها تسير على الألسن في كل مكان وهي على صنعة لفظها وسحر بيانها
 وروعتها قليلة بالنسبة الى فضل الممدوح الذي لا تقاس هي به فهو أدق معاني وأعظم
 صنعا في إسدائه المعروف والهبات :

ياذا السذي خطب المديحَ سماحه
أقصيتني بالجدود ثم دعوتني
ضاعفت برك لي ولو لم تولني
فنايت عنك ولست أول حال
علمي بصرف الدهر أخلى معهدي
ولربما طلب الحريص زيادة
فلئن رحلت فقد تركت بدائعا
وخريدة هي في الجمال فريدة
معتادة تهب الحليل صداقها
لا عيب فيها وهو شاهد حسنها
قلت وإن حلت صنائع لفظها
فجميل صنعكم أجل صنائعا

فنداه قبل ندائي قد لباني
فنداك أبعدني وإن أدناني
إلا القبول عطية لكفاني
خاف النزول بمهبط الطوفان
مني وصرّف في البلاد عياني
فعدت مؤدية الى النقصان
غصبت فصول الحكم من لثمان
فهى الغريبة وهى في الأوطان
فخرا على الأكفاء والأقران
إلا تبرجها بكل مكان
لكم وإن نطق بسحر بيان
وبديع فضلكم أدق معاني

نرى في هذه الأبيات الأخيرة من القصيدة أن الحلي يفخر بشعره وإن كان
يجامل المدوح بأنه أعظم من شعره الذي لا يستطيع أن يوفيه حقه كما نرى أنه
يريد أن يغادره فيزعم أنه خاف من طوفان هباته ويظهر لنا من خلالها عاقلا ينظر
في العواقب • ولعله خاف من بعض رجال الحاشية أو من انقلاب السلطان عليه لذلك
يخشى النقص بعد الزيادة والغضب بعد الرضى وهو يشبهه قصائده بالعروس
والمدوح بالخاطب وسيرورة شعره بتبرج الحسناء في كل مكان وعلى مرأى من
جميع الناس •

القصيدة في مجموعها موفقة والوصف فيها بجميع أنواعه خير من المدح ،
غير أننا لا نستحسن تشبيه كرم المدوح بالطوفان لأن الطوفان لا يأتي بخير •

وقد مدح صفي الدين الحلّي الملك المنصور بالموشحة التالية التي جرى في
نظامها بعض المغاربة من حيث الأسماط والأقوال والايات والاجزاء والفقرات •

وأول ما نلاحظه أنه نظم هذه الموشحة قبل أن يرحل الى مصر والشام . ويدل ذلك على أن فن الموشح قد استحسنه الملوك والناس في العراق وألصقه وأحبوه حتى صاروا يطلبون من شعرائهم أن يمدحوه به وأن يجاروا موشحات يعينونها لهم ، وأن رأي « يوهان فك » في أن انتشار الموسيقى الفارسية في العراق منع من تذوق الموشحات لأن موسيقاها تتباين معها ليس صحيحا .

وثاني ما نلاحظه أنه بدأ الموشحة بوصف ظهور الصباح فشبهه بنحر حسناء يظهر من طوق ثوبها الأسود وشبه قطرات الندى فوق زهر الأقحوان باللؤلؤ المكنون وشاقه طلوع الصباح وجماله الى الاصطباح بالخير ثم استرسل في وصفها ومعنى ذلك أنه قدم للموشحة المدح بالحديث عن الخير لا بالغزل وأنه استهل الخير بوصف الطبيعة في ايجاز ويدل ذلك على أن الموشحة استخدمت في المدح في هذا العهد :

شقى جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقون°
وبدا للطلل في جيد الأقاح لؤلؤ مكنون°
ودعانا للذيد الاصطباح طائر ميمون°

ونلاحظ أن البيت في هذه الموشحة يتكون من ثلاثة أجزاء وكل جزء يتكون من فقرتين ليستا متساويتين في الطول وأن فيه قافيتين ، كما نلاحظ أن القفل في هذه الموشحة يتكون من جزئين وكل جزء يتألف من فقرتين وفيه قافية واحدة هي النون غير أنها في الفقرة الاولى مسبوقة بالألف وفي الفقرة الثانية مسبوقة بالواو .

ونلاحظ أنه في غزل هذه الموشحة لا يستحيي من الممدوح فيتغزل بسلام : قال :
يا بشراكم هذا غلام ، وذلك لأن الممدوح مثله في الداء . ونراه ينتقل بعد الغزل الى مدح المنصور ونلاحظ أن قسم المدح قصير اذا قسناه بمقدمته ، ويصفه الحلبي بأنه قدوة أهل زمانه في كرم أخلاقه فهو عادل نشر الأمان بسيفه كريم لأعدائه رفيع النسب ينتمي الى قوم كرام ثم يكرر هذه المعاني في صور أخرى كقوله بأن عدله جمع بين الشاة والذئب في أمن مضمون وأنه يهب الولدان والحوار ولهذا الكلام دلالاته على نفس الشاعر الميالة الى اللهو والمتعة .

ثم يوازن بينه وبين الملوك الذين يسنعون الماعون لبعثهم ويتساءل أهو ملك
أو ملك ويعلم أن الفلك يجري وفق اختياره وبأن القدر الذي هو سلطان الأرق
كان محزوناً فلما رأى بأس المنصور استعان به كما استعان هارون بموسى وبهذه
المبالغة التي أشار بها إلى خبر ديني ختم الموشحة :

ملك هذب أخلاق الزمان	عدله المسنون
وأعاد الناس في ظل الأمان	عضبه المسنون
ملك أنجد مطلاب الندى	غاية الأنجاد
متلف إن جال آجال العدا	واللثمي إن جاد
من بني أرقق أعلام الهدى	سادة أنجاد
مهّد الأرضين بالعدل فكان	أمنها مضمون
ذريها والشاة ترعى في مكان	غدره مأمون
بازل الأموال من قبل السؤال	بأكف الجود
ما رجاه آميل إلا ونال	غاية المقصود
فاذا ما أمّ به راجي النوال	جاد بالموجود
يهب الولدان والصور الحسنان	بكرها والعثون
وسواه إن دعاه ذو لسان	يمنع الماعون
يا مليكا لبني الدهر ملك	فشرى الأحرار
ملك أنت عظيم أم ملك	ساطع الأنوار
بالذي تختاره دار الفلك	وجرى المقدار
مذ رأى بأسك سلطان الأوان	وهو كالمحزون
حاول النصر كموسى فاستعان	بك يا هارون

نلاحظ أن الشاعر يلجأ إلى الموازنة بين المنصور وسائر الملوك ليرز فضائله
وأنه يمدحه بصفات تقليدية لا تخلو من المبالغة . وفي مدحه سمات العصر ، فهيئة

الحدور والولدان للمتعة ، تغدو مكرمة في هذا العهد ، والشاعر من الناحية الفنية
يكثُر من الجناس ويأتي بالطباق والأمثلة على ذلك كثيرة واضحة •

وهذه إحدى قصائده الأرتقية التسع والعشرين وقد اخترناها رائية :

رنتُ لنا حين همّ الصبحُ بالسفرِ	وأقبلت في الدجى تسعى على حذرِ
راض الهوى قلبها القاسي فجاء لها	وكان أبخل من تمّوز بالمطرِ
رأت غداة النوى نار الكليم وقد	شبت ولم تثبق من قلبي ولم تذّرِ
رقت الى البصب طول الوصل راقية	فقلت قد جئت يا موسى على قدرِ
ربيّة لو تراها عندما سفت	والبدر ساه إليها سهو معتذرِ
رأيت بدرين من شمس ومن قمر	في ظلّ جنحين من ليل ومن شعرِ
رشفت برّدة الحميا من مرآشفها	فنبهتني إليها نسمة السحرِ
رنت نجوم الدجى نحوي فما نظرتُ	من يرشف الراح ليلاً من فم القمرِ
راق العتاب فأبدت لي سرائرها	في ليلة الوصل بل في غرّة القمرِ
رثت لما رأت رسل النوى فعدت	تطيل عتبي وعُمُرُ الليل في قصرِ
رحب مقامى بمغناها فمذ نظرت	زم المطيّ قضت للصفو بالكدرِ
ريعت لزم المطايا للسرى فعدت	وأحذرتني من الأهوال في سفري
رامت بذلك تخويني فقلت لها	عندي من الخبر ما يغني عن الخبرِ
ردي فما ضرّني هول أكابده	ونائل الملك المنصور في الأثرِ
ربّ النوال ومحمود الخصال ومقدام النزال وأمن الخائف الحذرِ	قد وكّلت في أمور الملك بالسهرِ
راعي الأنعام بعين غير راقدة	لأصبح الجود فجرا غير مئفجرِ
رحب الذراعين لولا صبح غرّته	للمذنبين ويعفو عفواً مقتدرِ
راض مع السخط يدي عزم منتقم	يوم الردي والندی بالنفع والضررِ
راحاته مذ نشأ في المثلّك قد عهّدت	

روى مناقبه الراوي فقلت له
 رح أيها الملك المنصور واغد على
 رسمت جوداً حكى الطوفان فاعتصمت
 رفقت بالناس في كل الأمور فقد
 ربثوا لديك فلولاً أن بعضهم
 رعت العدا بحسام لو عدلت به
 رفعت ذكرك في يوم الهياج به
 رمت إليك بنا هوج مضرة
 راحت الى جنة حل العفا بها
 رجعت أعتب نفسي في تأخرها
 جلوت سمعي فهل تجلو به بصري
 هام العلا آمنا من حادث الغير
 منه الخلائق بالألواح والدسر
 أضحي الزمان اليهم شاخص البصر
 تجل عنه لقلنا يا أبا البشر
 عنهم لأغناك عنه صارم القدر
 فأذكرتني بحد الصارم الذكر
 كأنها في الدجى قوس بلا وتر
 في الخلد واتكؤوا فيها على شر
 عنها وطوراً أهني النفس بالظفر

هذه الأبيات التسعة والعشرون تبدأ كلها بحرف الراء وتنتهي به في الروي
 وهذا هو القيد اللفظي الذي الزم به الحلي نفسه في هذه القصائد التي بنى كل
 واحدة منها على حرف من أحرف الهجاء التسعة والعشرين وكوّن بذلك ديوان
 الارتقيات في مدح الملك المنصور بن أرتق • ونذكر من تقيده اللفظي أنه يتكلف
 الصناعة تكلفاً على أسلوب عصره وإن هذا القيد سيجره الى تكلف ألفاظ يحاول
 بها أن يؤدي معناه وقد تربكه المحاولة فتجور على المعنى في سبيل اللفظ أو أنه
 يضطر الى أن يجعل المعنى تبعاً للفظ فيصعب أن يواتيه اللفظ ليوفّق بينهما توفيقاً
 جيداً • ولذلك تبدو الأبيات قليلة الترابط ضعيفة الحبك بعضها مع بعض كما يرى
 أنها جامدة لا تنطق بحياة وعواطف تضطرم بين جوانبها وقد قدم بهذه القصائد
 على الملك قبل أن يعرفه ، وعاطفته نحوه باهتة لا تتصف بالصدق والحرارة ، وإن
 كانت الحاجة تجعله بلهفة الى عطائه والى التعرف اليه • ومن الطبيعي أن تكون
 بعض الألفاظ المتكلفة قلقة في مواضعها وسنشير الى بعضها •

يبدأ القصيدة بالغزل ويحسن التخلص منه الى المدح ثم يتحدث عن نفسه
 ورغبته في الاتصال بالمدوح •

ويصف موقفه مع الحبيبة التي كانت تصد عنه ثم رآته عازماً على السفر
فرقت له وسمحت له بالوصول وخوفته من مشاق السفر وعواقبه ولكنه يرد عليها
بأنه لم يكن يخشى الأحوال مطلقاً ولا سيما أن كرم الملك المنصور سيمحو جميع
متاعبه وبهذا يتخلص الى المدح •

ويجمع في هذا الغزل بين وصف المحاسن الجسدية وبين وصف أحوال المحبين
النفسية من شوق وعتاب وحذر وأسف وأسى • وأغلب هذه المعاني تقليدي ولكنه
قد يجدد في عرضها كقوله بأن النجوم حاولت أن تراه يقبل الحبيبة فما قدرت أن
تري من يرشف الخمر من قم القمر وهو بذلك يحشر التشبيهات ويكفي عن أن شعر
بجيب عيون النجوم عن رؤية ما تحته من لقاء وقبل •

ويحاول أحياناً أن يجمع بين الأضداد المتنافرة كقوله بأنه رشف برد الحميا
من مرشف الحبيبة فنبه برد السحر الى هذه الحميا الباردة التي يرشفها •

ونراه في هذا الغزل يشير الى بعض القصص الدينية كنار الكليم وجئت
يا موسى على قدر أو يضمن بعض الأمثال كقوله : عندي من الخبر ما يعني عن
الخبر ونرى أنه يورثي بنار الكليم فهو يقصد بالكليم الجريح ويريد نفسه على
حين يوهم أنه يريد به موسى كليم الله ، وبالنار النار التي آتسها موسى من جانب
الطور الأيمن •

وفي المدح نراه يصف الملك بالمكارم التقليدية التي يمدح بها الشعراء عادة
ويحاول أن يجمع بين النقيضين كقوله بأن الممدوح راض مع السخط أي هو راض
عن الأصدقاء مفيد لهم شديد على الأعداء مبيد لهم وهذا ما يسمى بتنافر الأضداد
ونراه يأتي بضروب من البديع كما فعل في الغزل فيقسم البيت تقسيماً موسيقياً
مسجماً يسمى الترصيع (كقوله رب النوال ... البيت) ويطابق كقوله : (راض
مع السخط ، منتقم ويعفو عفو مقتدر) ويلاحظ أنه مغرم بتشبيه كرم الممدوح
بالطوفان وقد رأيناه يورد هذا المعنى في قصيدة سبق أن درسناها على أننا لا نراه
موسماً في هذا المعنى ففي الطوفان معنى الضرر والهول ، والذي حمله على إirاده

أنه رأهم يشبهون الكريم بالبحر أو بالسحاب أو بالغدير والبركة فظن أنه إذا قال هذا جاء بمعنى جديد وأحسن . وكذلك نراه يمدح المنصور بأنه أخاف المدح بسيفه ولو تركه جانباً لأغنى عنه سيف القدر وهو يريد أن القدر يساير الممدوح ويحقق له ما يريد ونرى نحن أنه لو مدحه بأن همه هي التي تحقق له آماله لكان أحسن .

ومما يظهر فيه ضيق الألفاظ وقلقها في استيعاب معانيه هذا البيت :

رفت ذكرك في يوم الهياج به فأذكرتني بحد الصارم الذكر

فأذكرتني فعل لحقته تاء التأنيث ولا نرى الفاعل المؤنث ونحن نقدره هنا إما على أنه فاعله همة الممدوح التي تشبه حد السيف أو أنه الحادثة التي ذكرته بنفسه في معاركه مع أعدائه بالسيف ولا سيما أنه انتقل إلى الحديث عن نفسه في البيت التالي . وقد يكون أصل ذكرك في الشطر الأول ذكراك وسقطت منها الالف سهواً والوزن بها يستقيم . ثم يصف مجيئه إلى الممدوح على خيل ضامرة ويتحدث بصيغة الجمع كأنه جاء هو وبعض قومه أو كأنه يعظم نفسه فيشبه خيله الضامرة بقوس ليس لها وتر وانهم يزورون على ظهورها جنة الممدوح التي يتكئ فيها طالبو المعروف على سرر كآهل الجنة ويظهر في هذا القول أثر الدين في نفسه ثم يذكر أن قصه تعاقبه على تأخره في دخول هذه الجنة ثم يعود فيهنئها على أنه ظفر بدخولها . ونلاحظ هنا كيف جعلته الأيام يغير تصميمه على ألا يمدح أحداً طالباً لنواله . . .

لم ترتفع هذه القصيدة إلى مستوى الإبداع ولا يمكن أن نعدّها جيدة .

نلاحظ مما سبق أن معانيه في المدح مطروقة تقليدية كأن ينسب إلى الممدوح الكرم والشجاعة والقوة وإرهاب الأعداء والسيادة والمضاء واستجابة الزمان له . وقد يخرج هذه المعاني أحياناً في قالب جديد أو يأتي ببعض الجديد . وتشبيهاته في المدح تقليدية كذلك مثل تشبيهه الحازم الماضي في الأمور بالسيف والثابت في الحركة أو الحليم بالجبل العظيم (الطود) والشجاع بالأسد والكريم بالبحر وقد يخلع بعض الجودة على هذه التشبيهات بإدخال إضافات عليها

وقد رأينا أمثلة من تجديده في المعاني والأخيلة كصورة الطوفان التي لم نستحسنها وكمعنى مسامرة القدر .

د الرثاء في شعر الحلّي :

كثر من رثاهم الحلّي واختلفت صفاتهم وكثرت مرثيه وتعددت أنواعها لكثرة صلاته ومعارفه وصدقاته التي كانت متفاوتة ولذلك تفاوتت عاطفته بين الرثاء الصادق الصادر من القلب وبين رثاء المجاملة الشكلية .

وقد كانت دوافعه الى الرثاء كثيرة متنوعة منها صلات القرابة الواشجة كرثائه بعض أهله ومنها صلات الارتباط الاجتماعي القوية كرثائه بعض أصدقائه أو من يمتنون بصلته أو بعض مماليكه وأتباعه ومنها صلاته بالملوك التي تبرز بها عاطفة الاعتراف بالجميل بالرغبة في المجاملة والنفعية ومنها صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء من أهل عصره الذين كانت تعطفه عليهم عواطف سامية من المشاركة الثقافية والنسب الأدبي كما يقول أبو تمام :

أو يختلف نسب يؤلف بيننا نسب أقمناء مكان الوالد

وقد رأينا أبياتاً من رثائه الصادق الحار العاطفة لخاله وقومه من القصيدة الفائية التي مطلعها :

جبال بأرياح المنيّة تنسّف غدت وهي قاع في الوقائع صقّصّف

وأبياتاً في رثاء ابن لصدیق له لا تخلو من عذبة أناب فيها نفسه مناب والد المتوفى ومطلعها :

يا قضيباً ثوى وكان نصيراً ما رأينا له الغداة ظييراً

وأبياتاً له في رثاء مملوك له ذكي مخلص يرثيه رثاء الابن ومطلعها :

هجرتْ بعدك القلوبُ الجسوماً حين أمست منك الربوع رسوماً

ورثاءه للملك المنصور أول الملوك الذين انعموا عليه في ماردین من بني أرتق ومطلعها :

يا بدورا تغيب تحت التراب وجبالا تمرّ مرّ السحاب
ثم رأينا نمطا من رثائه لأصدقائه العلماء في رثائه لشهاب الدين محمود كاتب
السر في الشام ومطلعه :

جلّ المنى بحبال اليأس معقود والأمن من حادث الأيام مفقود
رأينا ذلك كله حين درسنا الرثاء في حقبة الدول المتتابعة فليرجع الى هذه النماذج
هناك ليطلع على مميزاته الأدبية الرثائية فيها *

ويضاف الى تلك المميزات أن الحلبي قد استخدم أحيانا في رثائه المسمط كـرثائه
للملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة الذي سمط فيه قصيدة ابن زيدون المشهورة
على قافية النون ومطلع مسمطته :

كان الزمان بـلّقيّاكم يـمّـنّـينا وحادث الدهر بالتفريق يـشـنّـينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التناهي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لـتـقـيّاكم تجافينا

ونراه أحيانا متأثرا في رثائه بأبي تمام كمرثيته في السلطان محمد الناصر بن
قلاوون التي مطلعها :

وفى لي فيك الدمع اذ خاثنى الصبر
وأوجد فيك النظم اذ خذل النصر

فقد تأثر فيها من حيث المعاني والأسلوب والبحر والقافية بقصيدة أبي تمام
المشهورة :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفيض مأوها عذر

ويقول الحلبي في مرثيته مما ينهض دليلا على هذا التأثير :

فتى كان مثل الدهر بطشا وبسطة يرجى ويخشى عنده النفع والضرر
وما كان يدري من تيمّم جوده ونكّب لـجّ البحر أنهما البحر

وهو ينظر الى قول أبي تمام :

وما كان يدري مجتدي جود كفه اذا ما استهلّتْ أُنْثَى خُلُق العسر

وفراه في قصيدته التي رثى بها الملك الأفضل بن أبي الفداء ومطلعها :

ما للجبال الرايات تسير ؟ أفذاك بحث للورى وتشور

متأثرا بمرثية المتنبي الرائية التي يقول فيها :

ما كنت أحسب قبل نشتك أن يثرى رضوى على أيدي الرجال يسير

إن العلي لم يخلق في أي من مرثيته الى مستوى المراثي العربية الخالدة كمرثية أبي ذؤيب الهذلي في أولاده ومالك ابن الريب في نفسه ودعبل في آل البيت وأبي تمام في الطوسي وأبي الملاء في صديقه الفقيه وأبي البقاء الرندي في الأندلس ، ولكنه لم ينحدر بها الى حيث أن القارىء لا يشاركه في انفعالاته أمام المآسي التي هزت نفسه كمأساته في قومه الذين قضى عليهم أعداؤهم .

ووصف المتنبي :

تطبع أن نقسم الوصف في شعره الى قسمين : مباشر وغير مباشر . فمن غير المباشر ما جاء من الوصف في أبواب شعره الأخرى كوصف المماراة خلال الفخر أو التبع ووصف الخيل وأنواع السلاح فيها ووصف الطبيعة في مطالع مدائحه كالقافية في مدح النبي وأمدوحته في الناصر محمد على قافية النون .

هذا بالإضافة الى أن الغزل لا يخرج عن وصف حاسن الجسدية للحبيب أو وصف الحالات النفسية للحبيب والمحبوب وإلى أن الفخر نفسه نوع من وصف الذات أو وصف القوم . وإلى أن بعض القدماء عد جميع فنون الشعر ألواناً من الرصف . وقد رأينا من قبل أنماطاً من الأوصاف غير المباشرة نكتفي بها .

ومن وصفه المباشر قصائده في العبد المسماة « الطرديات » وقد جعلها غالباً أراجيز على طريقة أبي نواس وأمثاله في طردياتهم ومنها هذه الأبيات في وصف الصقر المدرّب على الصيد .

يا طيبٌ يوم بالمروج الخضِر
والظل قد كلل هام الزهر
باكرتها بعد انبلاج الفجر
والطير في لثج المياه تسري
حتى اذا لاذت بشاطي النهر
من الغطاريف الثقال الحمر
معتدل الشَّلْو شديد الأزر
فظل يتلوها عظيم المكر
كأنه يطلبها بوتر
سرقته مختلساً من عمري
فعطّر الأرجاء طيب النثر
عند انبساط الشفق المحمر
كأنها سفائن في بحر
دعوت عهدي فأتى بصقري
مستبعد الوحشة جسم الصبر
منسح الزور رحيب الصدر
يغري بها همتّه ونصري
فجاءنا منها بكل عقر

يدلنا الحلي في هذه الأبيات على أن الصيد كان ألهية ورياضة للملوك والسادة ويربط بين جمال الطبيعة والذهاب الى الصيد ويوجز في وصف الطبيعة ويطيل في وصف الصقر وفي وصف الصيد . وهو دقيق يعيّن وقت الذهاب ونوع الطير المصيد ومميزته ومكانه ، ويدلنا على معرفته بالصيد وعلى أرسنوقراطيته فله عبد مخصص لحمل صقره ، ويصف الصقر وصف عارف بصفاته المستحسنة ويصف حركاته خلال الصيد وجدّه في طلب الطير ووفرة صيده .

ومن وصفه المباشر مقطعات له في وصف الخيل منها الوصف التالي لحجرة دهاء وهو من وصف الطبيعة الحية كسابقه :

وعادية الى الغارات ضَبَّحاً (١)
كان الصبح ألبسها حُجولاً
تريك لقدح حافرها التهاباً
وجنح الليل قمصها إهاباً
وفي الفلوات تحسبها عثاباً
وأبقت في يد الريح التراباً
اذا ما سابقتها الريح فرّت

فتراه في هذه الأبيات يحسن الوصف لتلاؤم الموضوع مع ميوله الزعامية التي

(١) الضبح : الركض السريع تعرق منه الخيل .

تعتمد الخيل في الحرب والصيد فيصف الحجرة وصف المعجب بالخيال العارف بها
المقدر لقيمتها بالحياة ، فيعين نوع ركضها وينتبه الى قدحها الشرر بحوافرها ، ويصف
لونها وسرعتها ، مشبهاً ذلك بالليل والنهار والوعل والعقاب ، ويقارن سرعتها بالريح .
وهي عنده متعة العين والمثنجي من الخطر .

ومن أوصافه مقطوعات من بيتين أو أكثر في موضوعات كان يهتم بها عصره
وبيئته كأداة مستعملة أو طرفة متداولة أو مكان جميل أو حمام أو نهر أو ساعة متعة
فتراه يصف مغنية بالعود ومجلس أنس للمنصور وشفق الصبح والشمع المشتعل
وابريق الخمر ورواقص في مجلس شراب وحماماً وجسراً قطعته الريح ووادي الغرس
وهو متنزه جميل ، والحلقة بلده . وتكتفي من هذا كله بوصف المغنية على العود :

خَوْدٌ شَدَّتْ بِلِسَانِهَا وَبَنَانِهَا حَتَّى تَشَابَهَ ضَرْبُهَا وَنَشِيدُهَا
فَكَأَنَّ نَعْمَةَ غُودِهَا فِي صَوْتِهَا وَكَأَنَّ رَقَّةَ صَوْتِهَا فِي عُودِهَا

وقد أظهر الحلي اعجابه بصوت المغنية وعزفها معاً وحيرته في أيهما هو أحسن
ويرتبط هذا الوصف بحياته واهتمامه بالغناء والموسيقا وسائر المتع في الحياة .

وصف الخمر والزهر :

وأكثر ما تجلست به عنايته بالوصف واجادته فيه كان وصف الخمر وما تستتبعه
من وصف الزهر ، فتراه يقول لشدة غرامه بالخمر بأن الحواس الخمس تشترك فيها
لا حاسة واحدة ، وبأنها ربيبة الدير لعتقها . ويصف أثرها في شاربها وقتلها بالماء ،
وتصاوير كؤوسها ، وذهابها بعقل شاربها ، اقتصاصاً منه ، وشربها في جنان الحقائق ،
واحياءها جوهر نفسه . ويعلل سبب تسميتها بالبكر ، وينصح بالاعتدال في الشرب
ويشترط في نديمه أن يكون من الأماجد ، ويشبها تارة بالشهب ، وتارة بالشمس ،
ويستحتمق من لا يشربها لأنها مذهبة للهم ، ويستثقل النديم الذي لا يشارك في
الشرب ، ويتغزل بالساقى والساقية ، ويشف في حرصه على اللذة عن خوفه من
المصائب ، ورغبته في نسيانها ، ويؤثر أن يشرب بين الغناء والزمر وخفق المثاني والمثالث
في رحاب الطبيعة ويشربها حتى في رمضان ويفرح بذهابه لينعم بها ، ويذكر آدابها

في المجالسة ويزداد ولعاً بها حين تمنع ويحللها لنفسه بكل وسيلة ويؤثر أن يشربها بعد الطعام ولكنه يبادرها صباحاً ويسجد لها ويحللها على طريقة أبي نواس في الاستهتار ويكثر أحياناً من اقتباس آيات القرآن غير متخرج من إرادها في مناسبة معصية ويحث على الشراب ويستزيد الشاربين ، ويضيف الى شرب الخمر تناول الحشيشة، على أنه قد يمزج بين لذة الشراب ولذة الكتاب ، ويطارح الشعر مع الخمر ويعتذر عن هفواته خلال الشرب لأنها تباين رغبته في الرصانة وييدي رغبته في تجنب السكر .

ونلاحظ أن الزهر عنده يستدعي الخمر ، ولذلك غني بوصف الزهر فعقد منافسة بين الورد والزنبق ووصف ورود الربيع وظهور الورد فيه ووصف متنزه عين برود لما فيه من متعة للعين والروح .

ونكتفي من التمثيل على هذا كاه بخميرية له يمجّد فيها شرب الخمر في فصل الخريف حيث يعمّ السحاب ويهطل المطر ويلمع البرق ويهدر الرعد ، ويتغنى بأنه شربها حينئذ في دير سهلان حيث نادمه عليها وشاركه في شربها رهبان من مختلف الرتب الكنسية ، تسابقوا الى سقيه طربين بشعره ، ونراه فيها يستمد معانيه من هذا الجو المسيحي الذي لا ترى فيه الراح موحدة بل يشرك فيها الماء ، ويتوهمها الناظرون في الزجاج نورا ويشككون في ماديتها على رغم شربهم لها ، وقد فتكوا فيها بسيف الماء ففتكت فيهم بسيف السكر ، ثم يصف العازف الذي يرتل شعره ويفخر بهذا الشعر ويذكر كيف سقى الساقى ويدعو الى ابتدار اللذات معتمدا على غفران الله ورحمته :

فياحبّذا فصلُ الخريف ومزّنه	وسُتّر السحاب الطلق بالبرق تحبّك
وليلٌ في الغدران رقص منمنم	كأن أديم الماء صرح مشبك
ولم أنس لي في دير سهلان ليلة	بها السحب تبكي والبوارق تضحك
وأقبل شماس وقسّ وأسقف	ومطراتهم مع مقربان وبطرك
يحفّون بي حتى كأني لديهم	حبيب مفدى أو ملك يملك
وطافوا بكأس لا يوحد راحها	ولكن لها في الكأس ماء يشرك

مشعشةٍ يُخفي الزجاجُ شعاعها
توهّمها الساقون نورا مجسما
فتكنا بسيف الماء فيها فحاولت°
وهبّ لنا شادٍ كريمٌ نِجاده
يُحرّك أوتارا تناسبُ حِسّها
ورتل من شعري نسيبا منقّحا
إذا ما تأملت البيوت رأيتها
وناولته كأسا إذا ما تمسّكت°
فظل الى اللذات يهدي نفوسنا
فلا تنسَ في الدنيا نصيبك وابتدر°
وثق أن رب العرش جلّ جلاله
وما كان من ذنب لديه فانه

فمن نورها ستر الدجّة يهتك
فظلت بها بعد اليقين تشكّك
قصاصا فباتت وهي في العقل تفكّك
خوّلته في الفخر قيس° وبرّ مك
بها تسكن الأرواح حين تحرّك
يكاد يُعير الراح سكرًا ويوشك
تضارا بنار الألمعية يُسبك
ينداه بها فظلت بها تتمسّك
على أنه لا يهدي أين يسلك
الى الراح ان الراح للروح تمسك
غفور رحيم للسرائر مدرك
سيغفره إلا به حين يُشرك

غزل الحلّي :

كان للحلّي طبيعة مستمعة غزلة تنسى في سبيل متعتها أوامر الدين ونواهي
الخلق وقد ساعدت فكّته على ان يحاول نسيان الألم بنشدان اللذة . وساعده روح
العصر المنغمس في الملاهي على مجاراة معاصريه ، كما ساعده جاهه ومكاته على ان
ينال ما يريد بماله او بشعره . وقد جمع في شخصه بين القوة والميل الى الغزل كأبي
فراس ، ولكن أبا فراس أمعن في الفروسية وأميل الى السمو وكان هو أمعن في
اللذة وأميل الى التقّحّم .

وقد تغزل في مطلع قصائده ، او خلال خمرياته ، غزلا تقليديا ، ولكن له غزلا
مستقلا بنفسه في مقطوعات او قصائد .

ومن غزله في المطالع ما هو نسيب يصف فيه محاسن الحبيب الجسدية ، ومنه

ما هو غزل يصف فيه احواله واحوال الحبيب النفسية ، ونراه في نسيبه يصف
الجمالين التركي والعربي • وغزله ليس عذريا ولا عفيفا ، على انه لا يصل الى درجة
أبي نواس وبشار في التعهر والتصريح • وكثيرا ما يتغزل بالغلان غارقا في ذوق
عصره •

ولا نراه يتغزل غزلا عذريا او كالعذري الا في القليل النادر ومن أمثلة هذا
القليل المقطوعة التالية التي نرجح انه قالها في مطلع شبابه :

ظنّ قومي أنّ الأُساءة ستبْري .	داء وجدي وأنّ علاجي يفيد
فأتَوّأ بالطيب وهو لعمري	في ذوي فتنه مُجيد مُجيد
مذ رأى علّتي وقد لاح للمو	ت عليها أدلّة وشهود
جسّ نبضي وقال ما أنت شاكِر ؟	قلت نارا لم يطفئها التبريد
فعدا يخلط الدواء فألفى	نار وجدي مع الدواء تزيد
قال ما كان أصلُ دائك هذا ؟	قلت طرّفي ، وذاك حالٌ شديد
قال : إن الهواء احدث بلوا	كُ ، فقلتُ : المقصور لا الممدود
فأثنى حائرا وقال لأهلي :	ما شفاء العشاق الا بعيد

فان لم يكن الحلّي قد قال هذه الايات وهو يافع قبل ان يتمرس باللذات فلا
يعيبه الحصول عليها بماله وحيلته ولا يمرضه غرامه وشوقه وحرمانه ، فربما يكون
قد قالها تفنّنا في التعبير ومجازاة لبعض الشعراء العذريين الذين اضعفهم
الشوق •

ومن أمثلة غزله بالمرأة الذي يجمع فيه بين النسيب والتشبيب ولا يكون فيه
عذريا ولا اباحيا متناھيا في التعهر قوله في مطلع قصيدة فخر :

ألست ترى ما في العيون من السقم	لقد نحّل المعنى المدقّق من جسمي
واضعف بي ما بالخصور من الضنى	على أنها من ظلمها غصبت قِسمي
وما ذاك الا انّ يوم وداعنا	وقد غفلت عين الرقيب على رغم

ضممتُ ضننى جسمي الى ضعف خصرها
ريبةٌ خِدْرٌ يجرح اللّحظُ خدّها
تغزّلتُ فيها بالغزال فأعرضتُ
وصدّعتُ وقد شبّهتُ بالبدر وجهها
وكم قد بذلتُ النفس أخطب وصلّها
فلم تلِدِ الدنيا لنا غير ليلة
لجنسية كانت لها علّة المضمّ
فوجنتها تدمى وألحاظها تدمي
وقالت لعمري هذي غاية الدّم
نِفاراً وقالت صرتَ تطمع في شتمي
وخاطرتُ فيها بالنفيس على علم
نعمتُ بها ثم استمرّت على العُقْم

فظاهر ان هذا الغزل تقليدي ، وانه رصين رصانة اهل الحرب والسياسة ، وان الشاعر فيه اذا كان لا يتغزل بامرأة معينة فهو يتغزل بجنس المرأة ، وفيه ابيات جيدة معجبة كالبيتين السادس والسابع بما فيهما من حوار وحياة وتصوير للجمال المدلّ بنفسه .

ومن أمثلة غزله الشاذ بالغلّمان ما جاء في مطلع قصيدة يمدح بها الملك المنصور بعد رفع الكلفة بينهما ، ويمدح فيها الغلمان الاتراك بالقوة والجمال ، ولا يتورع عن اعلان اباحيته دون حياء :

إنّ نوزلوا كانوا أسود عريكة
قوم إذا ركبوا الجياد ظننتهم
جذبوا القسي الى قسي حواجب
لي منهم رشاً اذا غازلته
ان شاء يلقاني بخلق واسع
لم أنس ليلة زارني ورقبيه
وافى وقد أبدى الحياء بوجهه
أمسى يعطيني المدام وبيننا
حتى اذا عبث الكرى بجفونه
عانقته وضمته فكأنته
أو غوزلوا كانوا بدورا تشرق
أسداً بالحاظ الجاذر ترمق
من تحتها نبل اللواظ ترشق
كادت لواظته بسحر تنطق
عند السلام نهاء طرف ضيق
يبدى الرضى وهو المغيظ المحنق
ماء له في القلب نار تحرق
عتب الذ من المدام وأروق
كان الوسادة ساعدي والمرفق
من ساعدي مطوّق ومثنطق

تلقاه وهو مزرود ومدرع وتراه وهو مقرط ومقرطق
لم تترك الاتراك بعد جمالها حسنا لمخلوق سواها يخلق

لم يبق بعد هذا الغزل شبهة في ميل الشاعر المنحرف الذي يجاري عصره ، بل يكاد يسبقه ، ويرضي به ذوق سلطانه المدوح . ونراه يجمع فيه بين وصف المحاسن الجسدية والاحوال النفسية ، ويتمادى فيه فيصور الغلام عاشقا او كالعاشق حين يجعله يقبل أنامله صباحا وهو يودعه . ونراه يختار الغلام تركيا ، ويجعل له حسن الغزال وفتكات الاسود في القتال ، ويجري على طريقة أبي نواس في ترك الاحتشام . وقد يلتبس بعض غزله علينا فلا ندري أهو في المذكر أم في المؤنث لاستعماله ضمير المذكر الذي قد يطلق على المؤنث على أنه حبيب ، كقوله :

حوشيت من زفرات قلبي الواله وكفيت ما يلقاه من بلبله

وقد يجري في بعض غزله على غرار المتنبى في قصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموس الطالعات غواربا اللابسات من الحرير جلايا

وذلك في قصيدته التي مطلعها :

بيض "دعاهن" الغبي كواعبا ولو استبان الرشدا قال كواكبا

ونراه احيانا مولعا بالجمال كابن أبي ربيعة في قوله :

اني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لاحظ لي فيه الا لذة النظر

فيقول :

قالوا تعشق كل رب ملاحه فأجبتهم إن المحرك واحد

فالحسن حيث وجدته في حيز هو لي بأرسان الصباة قائد

وقد يتحدث عن طيف الخيال على طريقة البحتري فيقول وقد زاره خيال

الحبيب اول مرة :

ما بين طيفك والجفون تواعد فيقي اذا خبرت أني راقد

انني لأطمع في الرقاد لأنه شرك يصاد به الغزال الشارد

فأظلم أقنع بالخيال وإثمه طمع يولّده الخيال الفاسد
 هيهات لا يشفي المحب من الأسى قرّب الخيال وربّه متباعداً
 ففي هذه الايات يبدى حرصه على رؤية طيف الحبيب وقد فاته ان يلقي
 الحبيب نفسه ، لكنه يصرح بان رؤية الطيف لا تشفي المحب من أساه .
 ويظهر أن الحلّي قد انتهج سبيل اللذة والمتعة مبكراً منذ غادر العراق ، بل قبل
 مغادرته لها ، لانا نراه يطلب من غلام يحبه ان يسافر معه حين نزوحه من الحلة ويعده
 الغلام بذلك ولكنه يخلفه فيرسل اليه قصيدة مطلعها :
 أذاب التبرّ في كأس اللجين رشا بالراح مخضوب اليدين
 وفيها يقول :
 فلم دلتني بحبال زور ولم أطمعني بسراب مين
 وهلا قلت لي قولا صريحا فكان المنع احدى راحتين

 وكم قد شاهدتك الناس قبلي فما ظنروك كلهم بعيني

 تنغص فيك بالزوراء عيشي وبدرّ زين لذاتي بشين
 وما عيشي بها جهماً ولكن رأيت الزين بعدك غير زين

 وانه ليعطينا بانصرافه الى اللذة وتهتكه صورة مظلمة مؤلمة عن نفسه وعصره
 غير الشعارين بالمسؤولية امام إحاقة الاعداء بالوطن وتهديدهم حياة الأمة كلّها
 بالإبادة والفناء .



سماته الفنية :

قال الحلبي مبينا رأيه في البلاغة :

ليس البلاغة معنى	فيه الكلام يطول
بل صوغ معنى كثير	يحويه لفظ قليل
يظنه الناس سهلا	وما اليه سبيل
والعيّ معنى قصير	يحويه لفظ طويل

ونحن نقول ، تعليقا على هذا التعريف المطول للبلاغة :

أراد ايجاز قول فشأنه التطويل •

ونضيف الى ذلك انه لم يلتزم الاسلوب الموجز في شعره وكان أميل الى الاسلوب المطول او اسلوب المساواة • وكان متفاوت الاسلوب واسع المدى وجد نفسه قادرا على نظم الشعر الجزل ، بحيث يلحق فيه بالأولين ، ووجد عصره يسيل الى المبالغة في الصنعة وهو لا يريد ان يهمله عصره ، لذلك حاول ، وهو القوي في اللغة الموهوب في نظم الشعر الذي تستجيب له الصياغة والمعاني والالفاظ بسهولة ، ان يثبت لمعاصريه انه يجاريهم فيبزههم في الصناعة فكان يجزل أحيانا في الموضوعات المناسبة للجزالة كالفخر ووصف الحرب ويرق أحيانا ويعذب ويسهل في الموضوعات المناسبة لهذه الصفات كالغزل والخمر ، ويتقيد أحيانا بالبديع ويتحرر منه ، الا ما يأتيه عفواً خاطر وهو في كل ذلك مالك لزمام النظم يتصرف عن تصميم ومقدرة ، وهو في كلا حاله مقلد كما ذكرنا قبل ولم يختط لنفسه أسلوبا خاصا به كأبي تمام •

ومن أمثلة شعره الجزل مع رقة ألفاظه وحسن معانيه ولطف تأتیه وغضارة
مشاعره وقرب خياله ، قوله متغزلا :

ولا ح كالضارم المصقولِ أخلصه	تتبشع القيين من شينٍ ومن كلفٍ
وجال في وجهه ماءُ الحياة كما	يجول ماءُ الحيا في الروضة الأثف
وولد الحسن في احداقه ضورا	وضاعف الدلّ ما بالجسم من ترف
أضحت به حدق الحساد محدقة	ترنو إليه بطرفٍ غير منظرٍ
وظل كل صديق يرتضي سخطي	فيه وكل شفيق يرتجي تلقى
يالرجال أما للحب منتصر	لضعف كل محبٍ غير منتصف
ما أطيب العيش لولا أن سالكه	يمني لأسهم كيد الناس كالهدف

ومن أمثلة شعره الرقيق السهل قوله متغزلا :

أين الجمبي عرب ؟	لني بربعهم أرب
كلما ذكرتهم	هزني لهم طرب
جسيرة بحيهم	ليس يحفظ الحسب
في خيامهم قمر	بالصفاح محتجب

ونراه يستخدم الحوار احيانا ليعث الحياة في شعره :

وهذه بعض ايات من المنسرح يحاور فيها حبيته :

قلت : كحلت الجفون بالوسن	قلت : ارتقابا لطيفك الحسن
قلت : تسليت بعد فرقنا	قلت : عن مسكني وعن سكني
قلت : تشاغت عن محبتنا	قلت : بفرط البكاء والحزن
قلت : تناسيت ، قلت : عافيتي	قلت : تناءيت ، قلت : عن وطني

والحوار هنا حي جميل يجاري به بشارا وغيره ممن أولعوا بالحوار ، والغزل
فيه بامرأة وليس بغلام .

وقد يضعف نسجه كقوله :

بُعْدُ الوُفَى كقُربِهِ إِذْهُ وَدَّهُ بَاقٍ كَمَا قُربُ المَلُولِ كِبُعْدِهِ

والضعف في استعمال كاف التشبيه مرتين دون ان تتضح ناحية تساوي القرب والبعد بالنسبة الى الملول ولا ناحية تساوي حال الوفي مع حال الملول . وهو يريد ان يقول :

ان حال الوفي واحدة في القرب والبعد لان ودّه باق . وحال الملول واحدة في القرب والبعد لان ودّه زائل . فالحالان متشابهان في تساوي القرب والبعد ومختلفان في البقاء والزوال .

وقد اشرنا ونحن ندرس شعره اكثر من مرة الى بعض ما غمض من معانيه بسبب ضعف نسجه احيانا .

وقد استخدم فنون البيان كلها من استعارة وكناية ومجاز وعني بالتشبيه بصورة خاصة وجارى فيه عصره من حيث التفنن فيه .

ومن تشبيهاته هذا التشبيه لثمانية بثمانية :

سَوَابِقُنَا وَالنَّقْعُ وَالشَّمْرُ وَالظُّبَا وَأَحْسَابُنَا وَالْحِلْمُ وَالْبَاسُ وَالْبِرُّ
هَبُوبُ الصَّبَا وَاللَّيْلُ وَالْبَرْقُ وَالْقُضَا وَشَمْسُ الضُّحَى وَالطُّوْدُ وَالنَّارُ وَالْبَحْرُ

وهذا ما يسمى بالطّي والنشر في التشبيه .

ومن طيّه ونشره قوله في وصف الطبيعة وقد تضمّن ست تشبيهات :

زُبُقُ بَيْنِ قُضْبِ آسٍ وَبَانٍ وَأَقْحاحٍ وَنَرَجِسٍ وَوَرُودٍ
كَجَبَّيْنٍ وَعَارِضٍ وَقِوَامٍ وَثَعُورٍ وَأَعْيَشِنٍ وَخُدُودٍ

وهي تشبيهات من النوع المقلوب لان العادة ان تشبه اعضاء الانسان بعناصر الطبيعة لا العكس .

وكان العصر قبله قد عني بالتورية فقاد لواءها في مصر القاضي الفاضل وفي

الشام الشرف الانصاري ووحد ابن ثباتة معاصره مذهبيهما في مذهب واحد سمي
السحر الحلال ولكنه هو بقي بعيدا عن هذا المذهب وان جراه احيانا .

يقول ابن حجة الحموي وهو يتحدث عن التورية :

« ان الشيخ صفي الدين كان أجنبيا فيها ، ولهذا لم أظمه في سلك الجماعة
الذين مشوا في قظم التورية تحت العلم الثباتي . وغايته انه رضي بالشعر الساذج
المنسجم وتعرض الى التورية في بعض المواضع ، ولكن سبكها في غير مواضعها لانها
لم تكن في طباعه » .

ومن تورياته :

فأذابني الخدّ الكليم وطرفه ذو النون إذ ذهب الغداة مغاضبا
فهو يريد بالكليم وذو النون الخدّ والسالف في الصدغ لا النيئين ، وفي
الشر الثاني اقتباس من الآية : « وذو النون إذ ذهب مغاضبا .. »

ومن تورياته قوله في طبيب الاسنان الذي خلع ضرسا لفلان جميل مريدا
بالكلبتين آلة قلع الاسنان لا الحيوان :

أعاقَ الطَّبِيَّ عن كلتي يديهِ وسلطَ كلبتين على غزالٍ

ومن استخداماته قوله :

لئن لم أبرقع بالحيا وجه عفتي فلا أشبهته راحتي في التكريم
ولا كنت ممن يكسر الجفن في الوغى اذا أنا لم أغضضه عن رأي محرم
فقد استخدم الجفن بمعنى قراب السيف ثم اعاد الضمير بمعنى جفن العين ،
وهذا مثال آخر :

لا يسمع العود منا غير خاضبه من لبة الشوش يوم الروع بالعلق
ولا يزف كميثا غير مصدريه يوم الطراد بليلى الطف بالعرق

فقد استخدم العود بمعنى الآلة الموسيقية ثم اعاد عليه الضمير بمعنى الريح
واستخدم الكميث بمعنى الخمر ثم ارجع عليها الضمير بمعنى الحصان .

وكان اكثر ميلا الى استعمال الجناس والطباق والتضمين والاقتباس وهي فنون سهلة بالقياس الى التورية وكان اكثر ولعه بالجناس فكان يفتن في جميع أنواعه :

فمن امثلة جناسه الخطي وهو ما يتشابه فيه كل لفظين متجاورين في رسم حروفهما وقد يختلفان في الحركة والنقط قوله :

سَلْ سَلْسَلِ الرِّيقَ لِمَ لَمْ يَرَوْا حَرَّ ظَمَا
بَلْ بَلْبَلِ الْقَلْبَ لَمَّا زَادَهُ أَلَمَا

قَدْ قَدْ قَدْ حَبِيبِي حَبْلٌ مُصْطَبَّرِي
إِنْ أَنْ أَنْ أَنْ اجْتَنِي جُرْمًا فَلَا جُرْمًا

وقد تابع استعمال هذا اللون من الجناس في قصيدة تتألف من خمسة عشر بيتا ، وعد في هذه القصيدة من ابتكاراته هذا الجناس الذي يأتي في اوائل ابياتها بين الكلمة الاولى والكلمة الثانية التي تتألف من مضاعفة لفظها وقد جرى عليه في القصيدة جميعها . والتزم أحيانا الجناس في اللفظ لا في الكتابة بين العروض والضرب :

قال يفخر ويحبّذ الترحال ويشتاق الى اهله ويلتزم في العروض والضرب ان يكونا متجانسين . وقد اخترنا الأبيات الستة الآتية من واحد وعشرين :

لَسِيرِي فِي الْفَلَاحِ وَاللَّيْلِ دَاجٍ	وَكُرِّي فِي الْوَعْيِ وَالشَّقَقِ دَاجٍ
أَحِبُّ إِلَيَّ مَنْ تَفْرِيدُ شَادٍ	وَكَأْسِ مَدَامَةٍ مِنْ كَفِّ شَادِنٍ
وَلَيْسَ الْمَجْدُ إِلَّا فِي مَوَاطِنِ	عَلَى هَامِ السَّمَاءِ لَهَا مَوَاطِنُ
وَصَحْبَةُ مَاجِدٍ كَالنَّجْمِ هَادٍ	يُسِرُّ الْبَطْشَ حِلْمًا وَهُوَ هَادِنُ
وَأَنْتَ تَقْتَدُ نَفْسَكَ فِي مَعَادٍ	وَصَيَّرْتَ الْعَقَافَ بِهَا مَعَادِنُ
فَمَا لَكَ فِي السَّعَادَةِ مِنْ مَوَازٍ	وَلَا لَكَ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ مَوَازِنُ

وهذا اللون قد سبق اليه • ومما جاء عنده من تجنيس القلب على وزن
الدوييت :

الحب سَخَا وطَرَفٌ أعدائي خَسَا من حيث سرى والنجم في الغرب رسا
للموَصِّل سعى وطالما قلت عسى والريق سقى من بعد ما كان قسا

تلاحظ الجناس بين لفظتين في كل شطر ، واحداهما مقلوبة عن الاخرى •

ومما جاء لديه من الجناس التام ، وهو على وزن الدوييت :

ماملت عن العهد وحاشاي أمين° بل كنت على البعد قويا وأمين°
لا تحسبني اذا قسا الدهر ألين بل لو كشف الغطا لما ازددت يقين°

وجاء عنده من التجنيس المركب المسمى أيضا بالملفق :

العيد أتى ومن تعشقت بعيد° ما أصنع بعد ومنية القلب بعيد°
ما العيش كذا لكن من عاش رغيد° من غازل غزلا نأ او عاشر غيد°

ومما جاء عنده من الجناس الملفق ايضا :

ذا شعرك كالارقم إما لسبا والقد كغصن البان إن مال سبى
والرَدْف اذا ما عاتبته خاطبني بالآخر لاحفاف إما لسبا

ومن جناسه التصحيفي قوله :

حديث الناس أكثره محال° ولكر نة سدا فيه مجال°

فكلمتا محال ومجال لا تختلفان كتابة الا بزيادة سطة في الثانية •

ومن طباقه قوله :

الوجه منك عن الصواب يضلني واذا ضللت فانه يهديني
وتميتني الألاحظ منك بنظرة واذا أردت بنظرة تحييني

ومن تضميناته انه كتب الى صديق تأخر عن انجاده في واقعة له مع انه هو قد
انجده في عدة وقائع وقد ضمّن فيها قصيدتين إحداهما للمتنبى والاخرى للطغرائي
فيأتي بالشر الاول من هذه وبالشر الثاني من تلك وفي المعاني التي يريدونها دون

ان ينظم شيئاً من عنده ويذكر في الديوان ان هذا من اجود اختراعاته في التضمين ،
والأبيات عشرون اخترنا منها ما يلي :

<p>قل للخليّ الذي قد نام عن سهرى تنام عني وعين النجم ساهرة فالحب حيث العدا والأسد رابضة رضى الذليل بخفض العيش يخفضه أهبت بالحظ لو ناديت مستمعا فافطن لتضمين لفظ فيك أحسبه</p>	<p>ومن بجسمي وحالي عنده سقم واحر قلباه ممّن قلبه شيم فليت أنا بقدر الحب نقسم وقد نظرت اليه والسيوف دم وأسمعت كلماتي من به صمم قد ضمّن الدرّ إلا أنّه كليم</p>
---	---

ومنها قوله :

<p>زوّج الماء بآبنة العنقود قتلت بالمزاج ظلمنا فقالت</p>	<p>فانجلت في قلائد وعنقود « كم قتيل كما قتلت شهيد »</p>
--	---

ومن اقتباساته قوله :

<p>قلوبنا مودعة عندكم إذا لم تصونوها بإحسانكم</p>	<p>أمانة يعجز عن حملها ف (أدشوا الأمانات الى أهلها)</p>
---	---

أوزانه وقوافيه :

حافظ الحلّي على الاوزان والقوافي التقليدية وسمّط احيانا ووَشَّح قبل ان
يرحل الى الشام ومصر وبعد ان رحل ورأى ما فيهما من هذين الفنين وجرى
شعراءهما ، ولكنه لم يخرج على الاوزان التقليدية الا قليلا وقد سمّط قصيدة
السموأل وايات قَطْرِي ابن الفُجاءة العينية (اقول لها .. لن تراعي) •
وقصيدة ابن زيدون على قافية النون (أضحى التناي ..) •

ومنها قوله :

<p>كان الزمان بلثياكم يميننا فعندما صدقت فيكم أمانينا</p>	<p>وحادث الدهر بالتفريق يميننا أضحى التناي بديلا من تدائينا</p>
---	---

وناب عن طيب لثيانا تجافينا

وقال من قصيدة خمّس فيها فاتحة الحماسة ، يحرّض فيها قوما وعدوه
بالمساعدة في احدى الوقائع ثم نكصوا :

يا للحماسة ضاقت فيكم حيالي وضاع حقي بين العذر والعدل
فقلت مع قلّة الأنصار والخول لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

لو انني برعاة العرب مقترن لهم نزيل" ولي في حيتهم سكن
ومستني في حمى أبنائهم حزن إذن لقام بنصري معشر خشن
عند الحفيظة إن ذو ثوثة لانا

وهذا سيمط من القصيدة التي سمط بها ابياتا لمحيي الدين بن بلاق من البحر
الطويل :

فضحت بدور التّم اذ فقتها حسنا وأخجلتها اذ كنت من نورها أسنى
ولما رجونا من محاسنك الحسنى بعث لنا من سحر مقلتك الوسنى
سهادا يذود النوم ان يالف الجفنا

ومما خمّسه قصيدة للشيخ مدرك بن علي الشيباني قرأها في كتاب « مهتدى
الفرق » للامام فخر الدين الرازي ، وجرى في تخميسها على ان يأتي بأربعة شطور
من قافية ثم يأتي بالشرط الخامس من قافية يلتزمها في كل القصيدة ، ومن هذه
المخمسة قوله :

من عاشق ناء هواه وان ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان معذب بالصد والهجران
طليق دمع قلبه في أسر

من غير ذنب كسبت يده غير هوى نمت به عيناه
شوقا الى رؤية من أشقاه كأنما عافاه من أبلاه
إذ كان أصل نعه والضر

وهو يكمل فيها قصيدة هذا الشيخ الذي عشق غلاما من تلاميذه ومات عشقا به.، ويستحلفه بجميع المقدسات المسيحية ان يستجيب له .

وكذلك خمس قصيدة للمغاربة غني بها في مجلس الملك المؤيد واقترح عليه هذا الملك تخميسها فخمسها على البديهة في المجلس ومنها :

شكوتُ إليك الجوى فلم تسمحي بالدوا
فمئذ طال عمر النوى جعلت إليك الهوى

شفيعا فلم تشفعي

صرمت حبال الوفا وكدرتني بالجمفا
فحاولت منك الصفا وناديت مستعطفا

رضاك فلم تسهمي

ومن امثلة توشيحه هذا المقطع من موشحة له في مدح المنصور الأرتقي :

خذ من الدهر لي نصيب° واغتنم غلبة القدر°
ليس طول المدى نصيب° صفو عيش بلا كدر°

.. ..

فاجل لي كاعبا عروس° لم ترعها يد المزاج°
نثرها عطر الكؤوس° وكسا نورها الزجاج°

ومما نظمه من الموشحات الغزلية موشح مضمن لم يسبق الى مثله ضمنه ابياتا فحلت لأبي نواس وقيل انها لابن الحريري . ومنه :

وحق الهوى ما حلت يوما عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى
ومن كنت ارجو وصله قتلي نوى وأضنى قوادي بالقطية والنوى
ليس في الهوى عجب° إن اصابني النصيب°
حامل الهوى تعيب° يستفزّه الطرب°

ومن موشح نظمه وجعل اغصانه من وزن الدوييت وعده فيه مجددا :

البيت :

عينٌ حبي أعيدُها باللهِ ما أوقعني في عشقه إلا هسي
مذ قاطعني وصدّ عني لاهي أجرى عبرتي وأذكى زفرتي

القفل :

أمسيت وطيبُ النومِ عن أجفاني فاني
لما تجافاني أرعى النجوم

ومن امثلة تجديده في أوزان الموشحات التقليدية او خروجه عليها جملة
موشحته التي أولها :

لما شدت الورق على الاغصانِ بين الورق
ماست طرباً بها غصونُ البانِ كالمعتيقِ

ومن تجديده سيره في موشحة على وزن اخترعه السلطان المؤيد واقترحه عليه
ومنها :

بي ظبي حمي ورد خدّه صارمُ اللحظِ
قاس غرني منه رقّة الخدر واللفظِ
ذو فرعٍ بمحض اعتناقِ اردافه محظي
مالي لم أنل حظّه كما قد حكى حظي
بديع المعاني من الاقمار أحسن
إلينا أسا لحظه واللفظ أحسن

وقد ظلم في الدوبيت ومن ذلك قوله :

لا تحسب زورة الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السثلوانِ
ما أرسلت الرقاد الا شركا تصطاد به شوارد الغزلان

وقال على وزن أعجمي ولعله جراه في مجلس من مجالس الغناء ، وثرى انه
البحر الخفيف العربي جاء عروضه وضربه على فعلن مكان فاعلاتن :

زارني والصبحُ قد سَفَرَا وظَلِيمُ الظلامِ قد نَقَرَا
وجيوش النجوم حافلةٌ ولواءُ الشعاعِ قد نُشِرَا
جاء يَهْدِي وصالَه سَحَرَا شادنٌ للقلوبِ قد سَحَرَا
فتيقنتُ أَنه قَمَرٌ وكذا الليلُ يحملُ القمرَا
ونظم على وزن اعجمي آخر ابياتا منها :

بشرايَ قد تنبَّه لي الطالعُ السعيدُ قد زارني الحبيبُ فذا اليومُ يومُ عيدُ
قد تمَّ لي السرورُ وكملتُ مجلسي من خمرنا العتيقِ ومن زهرِنا الجديدِ
ناديتُ اذ رأيتُ حبيبي بمجلسي عن جانبي القريبِ وقد جاء من بعيدِ
الفاظه :

عاب عليه بعض معاصريه قلة استعماله للالفاظ الغريبة فأجابه ناقدًا :

إثما الحيزَبونُ والدرَدَيسُ والطَّخَا والنشَقاخُ والعَلَطَيسُ
والحراجيخُ والشَقَحَطَبُ والصَّقَّةُ عَبُّ والعنققيزُ والعَنَتَرِيسُ
والعَطَاريسُ والعَقَنَقَسُ والعَقَّةُ قُ والجَرُّ بَضِيضُ والعَيْطَمُوسُ
والسَبَنَتِي والحِقَقَصُ والهَيْقُ والهَجَّةُ رِسُّ والطَرْفَسَانُ والعُسْطُوسُ
لغةٌ تنفرُ المسامعُ منها حينَ ثَرَوَى وتشمئزُّ النفوسُ
وقبيحٌ ان يذكُرَ النافرُ الوحشيُّ منها ويتركُ المسانوسُ
انما هذه القلوبُ حديدُ ولذيدُ الألفاظِ مغناطيسُ

« ديوان صفي الدين ط صادر في بيروت : ١٤٢٠ »

وقد اصبحت ابياته هذه تستخدم في السخرية بكل من يحاول ان يتقعر في اسلوبه بالغريب ، وهي تدل على انه يؤثر سهولة الالفاظ والفتها ووضوح التراكيب والمعاني .

وكانت سهولة الالفاظ نزعة عصره فلم يخرج هو عليها واستحسنها .

ولقد اراد صفي الدين ان يسبق منافسيه في استخدام التلاعب بالالفاظ حتى
ما كان منه لغويا لا صلة له بالفن كما رأينا في استخدامه الالفاظ المهملة او المنقطة او
الموصولة او المجنسة تجنيس تصحيف .

وقد استخدم عامدا احيانا الفاظا فارسية او تركية دون مرادفها العربي في
المعاني المألوفة ليعمي بها المقصود على من لا يعرف غير العربية .

ومن ذلك القصيدة الساسانية التي حشر فيها عشرات الكلمات الاعجمية
ليصور حيل هذه الطائفة من المحتالين الذين سمّوا « آل ساسان » ، ومنها :

بتبريخ أدصاي وتريخ مشتاني	غدّت سائر الاخشان والفرس تخشاني
خفّضت دوانيك العراكيس كلّها	فشحّمني من كان من قبل داصاني
	« الديوان ص ٤٤٥ ، ط بيروت »

ولسنا نعرف معاني هذه الالفاظ .

ان شعر صفي الدين الحلّي لا يجري على هذا النمط المجوج ولكنه لم يشأ
ان يرى شيئا في شعر عصره فلا يجاريه . ومما نظم من مهمل الحروف قوله :

كم ساهر حرّم لمسّ الوساد	وما أراه سؤلّه والمُراد
ما سهرّ الوالیه معطر له	وصلا ولو داوم طول السهاد

ومما نظم في الكلمات المتصلة الحروف :

سكّ متلفي عطفا عسى يتعطّف	فلقد قسا قلبا فما يتلفّف
ظبي تحكّم بي فسلط جفنه	سقمّا لجسمي بعضه لي متلفّف

وقد رأينا ان يستخدم اشكالا لفظية اخرى ورأينا امثلة عليها في الباب الذي
اسماه هو باب النوادر . ولا يسلم شعره من اخطاء لغوية ونحوية ، وقد ذكرنا شيئا
منها خلال دراسة شعره ومنها :

أومت السيّ مشيرة ان لا تخفّ	وابشر فإنتك في ذرا العلياء
فقد سهل همزة او مات ثم حذفها كأنها حرف علة كما سهل همزة أبشر .	

منزله :

صفي الدين الحلّي من أشهر شعراء العراق في العهد المملوكي بل يعد هو وجمال الدين ابن نباتة (ت ٧٦٨ هـ) أشهر شعراء هذا العهد .

وقد اشتهر ابن نباتة بالتورية والاستخدام وسمي مذهبه السحر الحلال كما يقول ابن حجة الحموي وكانت التورية هي المذهب الذي اختاره الذوق المصري والشامي حينئذ واشتهر به في الشام الشرف الانصاري ومدرسته وفي مصر القاضي الفاضل ومدرسته وجاء ابن نباتة فوحد بين المدرستين .

ولم ينشأ صفي الدين في هذين الاقليمين ولم يلتزم مناهجهما ، وان حاول مجاراتهما حيناً ، وكان يمثل الذوق الأدبي في العراق وما وراء مصر والشام الى الشرق لا في صناعته البديعية فقط ، بل بمجونيّاته التي جارى فيها ابن حجاج وابن سكرّة اللذين تقدماه زمناً .

وكان يتأرجح بين الصناعة والطبع ، يساير الطبع احياناً حتى يكاد يجاري الفحول في العصر العباسي ويلتزم الصناعة احياناً حتى يعد متكلفاً متعسفاً في نظر من يحبون الصناعة المعتدلة . وكان يستطيع ان يتصرف بأسلوبه وفق اللون الذي يريده تبعاً لمقدرته اللغوية وموهبته الشعرية وقوة طبعه وسهولة نظمه .

اجتمع به صاحب القاموس المحيط مجد الدين الفيروز آبادي في بغداد فشهد له بالقدرة على النظم والنثر والخبرة بعلوم العربية والشعر وشبهه شعره بالدر في الاصداف .

وقال فيه الصفيدي : « تقدم في علم الادب والشعر ، وله النظم الرائق الفائق في النهاية ... » وطارح اهل زمانه في الشعر وطارحوه وأثنوا على فضيلته في ذلك » . وقال أبو محمد الحسن بن حبيب . بأنه شاعر المشرق ، تقدم على كثير من الاول ، ويُنّ تقصير ارباب السبع الطوال ، وبرع في فنون الادب ، وجمع أشتات اقوال العرب » .

وقال فيه الدكتور محمود رزق سليم : « وبعد فصفي الدين احد الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الفروسية والشعر كعنترة وابي فراس ، وخاضوا غمار الحروب وغمار الادب » .

لقد رأينا كيف صورّ شعر صفى الدين حياته في جميع اشكالها ومراحلها وصورّ جوانب عصره المتصلة بحياته وكيف أجاد فن الفخر والحماسة ، والتحريض على القتال والأخذ بالثأر والدفاع عن الحمى امام الاعداء لان ذلك يتصل بنشأته ومكاته في قبيلته وصفات الزعامة ومؤهلات الحرب فيه وكانت له فيه قصائد رائعة يضارع بعضها قصائد المتنبي ، ثم رأينا كيف صمم في مطلع حياته انسجاما مع مكاته وشعوره بشخصه ألاّ يمدح متكسباً ثم اضطرته الظروف السيئة إلى المدح مع محافظته على ان يكون محترما محبوبا وكيف كانت مدائحه جيدة يقارب بعضها قصائد الفحول وانه وصف فيها المعارك وعدة الحرب والطبيعة وصفا جيدا وتنزل في مطالعها غزلا كان بعضه يجاري غزل عصره . .

ثم رأينا كيف تنوع وصفه وكيف أجاد في بعضه كوصف الطبيعة ووصف الخمر وملحقاتها ووصف الاشياء الصناعية المستعملة في عصره وكان في بعض وصفه على مستوى الفحول وكان له بعض الاختراعات في المعاني والصور ولكن التقليد كان يغلب عليه .

ثم رأينا رقة غزله بشكليه القديم التقليدي والحديث الذي جارى فيه ذوق عصره في حب الغلمان الشاذ ورأينا كيف يفتن في التغزل بعدة غلمان بحسب اسمائهم وصفاتهم واعمالهم وكيف أجاد في وصفه المحاسن الجسدية وفي وصف الاحوال العاطفية على السواء مع غلبة التقليد عليه .

ثم رأينا كيف كان في رثائه صادق العاطفة وكيف تعددت مرثيه وتنوعت مراتب مرثيه وتفاوتت قوة ضلتهم به ، ولم نر كيف يحسن العتاب والاعتذار غالبا وكيف يشتد بعتابه احيانا ولكنه لا يبلغ بهما منزلة البحتري في الرقة .

ولم نر كيف انه يجاري عصره في الملح والاحماض ويمتنع عن الهجاء الا ما كان من هجاء المقارنة الذي جاء ببعضه خلال فخرياته ومدائحه ليبرز تفوق قومه على

اعدائهم في المكارم ، وما كان من بعض مقطوعات قالها مستجيبا لاقتراحات بعض اصدقائه في بعض المغنين والثقلاء وغيرهم . ولم نر كيف يكتب الاخوانيات الشعرية الكثيرة الى اصدقائه وكيف كان يصدر بعض مراسلاته الثرية ببعض مقطوعات جيدة من الشعر تلخص موضوعات تلك الرسائل وتعبّر عن عاطفته .

ولم نر كيف كان ينظم في الحكم والآداب التي استمدّها من تجاربه الخاصة ، ويجاري بعض شعراء عصره في نظم الزهديات والصوفيّات وشؤون الحياة الأخرى . فلا يخلّق في هذه الموضوعات ولكنه يقارب المجيدين .

ولم نر نظمه في فني الغويص والالغاز مقطوعات او قصائد قصيرة رأينا ان أكثرها اقرب الى الالغاز اللفظية او العقلية التي يزجي بها اللاعبون اوقات فراغهم على سبيل التسلية ، منها الى البدائع الفنية الصادرة عن التجارب العاطفية النفسية والاحاسيس العارمة وحكمنا عليها على انها ليست من الشعر في شيء وأنها تمثل جانبا من شعر الحلبي الذي جارى به هذه الناحية من ميل عصره ولكنها لا تمثل الحلبي في أكثر شعره كما ان هذه الناحية من ميل العصر لا تمثل الا جانبا ضئيلا منه ولا تمثل جوانبه كلها وقلنا انه من الخطأ ان نحكم على هذا العصر بهذا الجانب الضئيل منه .

وكل ما لم نره حذفناه للاختصار والايجاز واكتفينا هنا بالاشارة اليه (١) .

وقد تبينا سماته الفنية وقلنا ان التقليد قد غلب عليه فإما ان نراه يقلد الفحول في العصور السابقة واما ان نراه يقلد أذواق عصره في المعاني والأخيلة والميول العاطفية والصناعية البديعية وقلنا إنه أثر الجناس والطباق والاقتباس والتضمين على التورية التي كانت سمة منافسه ابن نباتة والتي سميت في شعره وشعر أمثاله بالسحر الحلال وان كان قد حاول أحيانا مجازاة فحولها فكان فيها دونهم .

(١) وهو موجود في أصل بحثنا عن الحلبي الذي طبعناه املية لطلاب السنة الرابعة في قسم اللغة العربية من كلية آداب دمشق بين سنتي ١٩٧٢ و ١٩٧٥ م .

ونرى انه في مجموع شعره بالاضافة الى عصره شاعر مجيد في اكثر
الموضوعات واننا اذا وازناه بمعاصره ومنافسه وصديقه ابن نباتة وجدنا هذا يرجع
عليه في مجموع شعره وان كان الحلبي اكثر اجادة منه في موضوع الفخر والحماسة •
على ان الفارق بينهما ليس كبيرا •

وعلى كل حال فإن الحلبي اكثر تمثيلا لشعراء المشرق في العراق وغيره من
البلاد التي تقع شرقه وجنوبه •

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٢٢	وضح	أوضح
٢٩	٢٣	ف استطاع	فاستطاع
٦٤	٤	وإنعماها	وإنعماها
٦٥	١٠	العماد	العماد
٧٣	٣٥	حماء	حماة
٩٩	٦	الحشيشة	الحشيشة
١٠٠	٩	الخائقات	الخائقات
١١٠	١٤	يعجبه	ويعجبه
١٣٨	٢١	دمقي	دمشقي
١٦٠	٨	حضارة	حضارة
١٦٣	١١	تأثير	وتأثير
١٦٧	٢٢	برري	بردي
١٦٨	١٦	الفاطمين	الفاطمين
١٦٨	١٩	القدس	القوس
١٨٠	١٨	ببعض	بعض
١٨٣	١٤	الأيوري	الأيوردي
١٩٠	٢٣	العثانيون	العثانيون
٢٢٩	٤	قنية	غنية
٢٣٣	١٣	التحريف	لتحريف

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٢٣٥	١١	إلى قوله إلى قوله	إلى قوله
٢٣٥	١٦	فاستغفلتهم	فاستعقلتهم
٢٤١	١٩	فقد	قد
٢٤٣	١	البديعة	البديعية
٢٥٠	٢٥	ص ٨٦	ص ٢٢ و ٢٠٦
٢٥٣	١٦	العباسيين أبناء علي	العباسيين وأبناء علي
٢٦٤	٤ و ٣	ترتيب البيتين كما وردا خطا صوابه :	كان الملوك الفر حول سريره نجوم على شمس الظهيرة غكف فإن تلقه تلق ابن هيجاء دهره يريك عنان الدهر كيف تصرف
٢٦٧	٩	شهاب	الشهاب
٢٧٢	١٧	وللقاء	ولالقا
٢٧٣	٢١	صور	شبه
٢٧٧	٢٤	جاء بالندب اصوات	جاء بالندب فيك صوت
٢٧٩	١٣	البيت : ونأى يوسفى صحته هكذا :	ونأى يوسفى فقد ذهبته نأى من حزنه وكننت كظيما
٢٨٥	٩	إليك كان يعزى	إليك قد كان يعزى .
٢٨٦	٢١	وقلد	ولقد
٣٠٠	٧	ولكن	ولكن
٣٠٦	٢٤	نعم	نعم
٣٣٥	١	وبغزلان	وبغزلان
٣٣٥	١٤	وابقى	وابقى
٣٣٥	٢٠	احترعه	اخترعه
٣٤٠	١٢	يا ابي	يا بابي
٣٤٤	١٣	علي	على
٣٤٥	٤	زجل	زجل

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٨	١١	على أحد	على أن أحد
٣٦٢	٣	اتني	إتني
٣٦٢	١٩	ولآخر	والآخر
٤٠٣	٩	يناصر	بناصر
٤١٠	١٠	يشربها	يشربها
٤١١	٥	ياستعاراته	باستعاراته
٤١٢	١٣	خِطره	خِطرة

* * *

محتويات الجزء الاول :

٣	تمهيد
٥	المقدمة
١٩	الحياة السياسية
١٩	اجتال لحالة البلاد الاسلامية في بدء الحروب الصليبية
٢٢	حال الصليبيين في الحرب وردّ الفعل العربي
٣٢	لمحات هامة من تاريخ العهود الاربعة الاولى مشفوعة بالشعر وبعض النثر
٣٢	العهد الفاطمي الزنكي
٥٣	العهد الايوبي
٧١	العهد المملوكي الاول
٨٨	العهد المملوكي الجركسي
٩٢	لمحات من الحياة الاجتماعية في العهود الاربعة
١٢١	الحياة العلمية فيها
١٤٧	نماذج من المؤلفين والكتب والعلماء
١٧١	الادب في هذه العهود : تمهيد في الاهتمام به
١٩٣	الشعر : مذاهب الشعر وموضوعاته وفنونه
٢٠٢	شعر النضال : تمهيد
٢٠٦	نصّ مدروس لشاعر مجهول في العهد الفاطمي الزنكي
٢١٢	كلمة عامة في شعر النضال
٢٦٦	مدح الابطال والإشادة بالانتصارات

الرقم	الصفحة
٢٢٦	رثاء الأبطال
٢٣٠	رثاء المدن
٢٣٣	وصف المعارك
٢٣٦	عناصر الشعر الأساسية في شعر النضال : التفكير ، التصوير ، التأثير ، التعبير
٢٤٦	شعراء النضال في هذه العهود
٢٤٩	المديح ، المدح النبوي
٢٥٩	المدح التقليدي
٢٧١	الرثاء
٢٩٣	الفضل
٣١٣	الشعر الخمري
٣٢٤	الشعر الحشيشي
٣٢٧	الفنون المستجدة : تمهيد
٣٢٧	الموشح
٣٤٥	الزجل
٣٤٩	الدوبيت
٣٥٢	فن المواليا
٣٥٦	مذاهب الشعر في هذه العهود ومميزاته
٣٦٥	الفنون الطفيلية
٣٦٦	الشعر الهندسي
٣٦٨	التشجير
٣٦٨	التاريخ الشعري
٣٧٠	القوافي المشتركة

الرقم	الصفحة
٣٧١	الطرد والعكس
٣٧٤	أشعار التبادل والمتواليات
٣٧٥	محبوك الطرفين
٣٧٦	الشعر المتقلب بين المديح والهجاء
٣٧٧	القصائد التي تقبل قوافيها الحركات الثلاث
٣٧٨	زخارف تافهة في هذه العهود
٣٨٤	صفي الدين الحلبي ، حياته وآثاره
٣٩١	نثره وسماته
٣٩٧	شعره يصوّر حياته
٤٠٠	فخره
٤٠٦	مدحه - المدح النبوي
٤١٠	القافية في مدح النبي
٤١٦	المدح التقليدي
٤٣٠	رثاؤه
٤٣٢	وصفه
٤٣٤	وصف الخمر والزهر
٤٣٦	غزله
٤٤١	سماته الفنية
٤٥٣	منزلته
٤٥٤	إلمامة سريعة إجمالية
٤٥٧	الخطأ والصواب

قصدت محوك الأعداء فرد الله ما أملوه عنك وعنا
وتولت تلك الخيول ولم يثـ من عليها بأنها ليس تشنى
لا تخص الشأم منك التهانى كل صقع وكل قطر يهنا

« ابن سناء الملك في صلاح الدين
حين حرد القدس »